اللمع

لأبى نصر السراج الطوسى



لجنة نشر التراث الصوفى

باسمك اللهم وبحمدك، ولا إله إلا أنت، ولا إله غيرك، لا نستطيع أن نحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

إليك سبحانك يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح ترفعه وتباركه، وليس أطيب من كلم يشرق بحبك، ويتعطر بذكرك، ويدور حولَ رضاك وهداك.

وليس أزكى من عمل يقصد به وجهك، ويستهدف به عزة هذه الأمة التى ارتضيتها لدينك، واخترتها لقرآنك، وباركتها بنبيك، ولا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

ولهذا وضعنا المنهج العلمى، لنشر الأصول الصوفية القديمة، تلك الأصول التى أضاءت أفق الحياة الإسلامية فى أزهى عصورها، وصنعت الأخلاق الإسلامية فى أنبل عهودها، وصاغت لأمتنا فى وثبتها الأولى، فلسفتها الروحية، وآفاقها المثالية، وخطوطها العريضة، فى المعرفة والتربية، ومناهجها فى السلوك والمجاهدة، ومعارجها فى الحب والمناجاة، وما إلى الحب والمناجاة، من قربى إلى الله، ووسيلة إلى هداه ورضاه.

وإننا لنستهدف من نشر هذه الأصول الصوفية، أن تكون زادًا طيبًا صالحًا مباركًا، يتمثل فى نهضتنا عزمًا أبيًا، وإيمانًا قويًا، وخلقًا مثاليًا، وتوحيدًا نقيا.

فإذا عاد إلى القلب الإسلامى نوره القرآنى، وخلقه المحمدى، وعزمه الإلهى، عاد من جديد إلى الحياة، ليقودها سعيدة مطمئنة إلى الله.

* * *

ولقد قدمنا من قبل لقرائنا، كتاب «الرعاية لحقوق الله» للإمام الحارث المحاسبى، وكتاب «التعرف لمذهب أهل التصوف» لتاج العلماء العارف الكلاباذى.

إننا ليسعدنا اليوم أن نقدم لقرائنا فى العالمين العربى والإسلامى أكبر موسوعة صوفية عرفها التاريخ.

نقدم كتاب «**اللمع**» لأبى نصر السرَّاج الطوسى، أعظم مؤرخ صوفى فى تاريخنا قديمه وحديثه.

نقدمه محرراً محققًا، بعد أن استكملنا النقص الكبير الذى كان فى طبعته الأوربية التى قام بها المستشرق «نيكلسون»(١).

كما قمنا بضبط أعلامه، وتخريج أحاديثه، والتقديم له والتعقيب عليه.

* * *

وبعد فإننا نوجه الشكر خالصًا موفوراً للأساتذة الأصدقاء الذين أسهموا بعلمهم فى إخراج هذا الكتاب.

نشكر فضيلة الأستاذ العالم المحدِّث السيد محمد الحافظ التيجانى، فقد تولى فضيلته تخريج أحاديث «كتاب اللمع» بما عُرِف عنه من علم وأمانة، فأضاف عملا صالحًا نافعًا مباركًا بإذن الله.

ونشكر الأستاذ السيد محمد عيد الشافعى الذى بذل جهداً مشكوراً فى جمع المصادر الخاصة بتاريخ السراج الطوسى مؤلف «كتاب اللمع».

ونشكر الصفوة المختارة من العلماء والأدباء ورجال الفكر، الذين انهالت علينا كتبهم مشجعة ومقدرة لعملنا.

(١) كان فى طبعة نيكلسون قسم مفقود، ابتداء من (باب فى ذكر أبى الحسن النورى رحمة الله، ثم أبواب: ذكر أبى حمزة الصوفى، ذكر جماعات المشايخ الذين رموهم بالكفر، ذكر أبى بكر على بن الحسن، ذكر محمد بن موسى الفرغانى. بيان ما قال الواسطى) وقد أثبتنا هذا القسم المفقود.
وبهذا ينشر كتاب اللمع كاملا لأول مرة فى التاريخ.

وإننا لنضرع إلى الله الكبير المتعال أن يتقبل عملنا، وأن يباركه، ويمن عليه بالتوفيق والسداد، ويمدنا بعزم من لدنه لنواصل جهادنا فى نشر الأصول الصوفية الكبرى.

وما توفيقنا إلا بالله، عليه توكلنا، وإليه ما تخط أقلامنا، وصلوات الله على المصطفى، الذى أرسل هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

دكتور عبد الحليم محمود

كتاب اللمع
ومكانته من التصوف الإسلامى

مدرستان صوفيتان، اعتصمتا بالكتاب والسنة، واتخذتا من سيد المرسلين إمامًا وقدوة، وجعلتا من أشواق الحب الإلهى، ومن إلهامات الروح القرآنى، ومن مثاليات الخلق المحمدى، منهجًا فى المعرفة، وطريقًا فى السلوك، ومعراجًا للوصول، فقدمتا للعالمين أروع وأقوى روحانية إيمانية معتصمة مهتدية، قدمتا التصوف الإسلامى مشرقًا مبينًا، فيه هدى، وفيه نور، يرسم الطريق المستقيم المضىء، طريق المخبتين المتبتلين، الذين أحالوا الكون محاريب للمناجاة والطاعات، وجعلوا من مشاهده صفحات ناطقات ملهمات الطريق المضىء الصاعد إلى رضوان الله وقربه، وأنسه وحبه، وهداه وعلمه وفيضه.

مدرستان هما قلب التصوف ولسانه وبيانه، وإليهما الفتوى والفيصل فى مناهجه وقواعده، وسلوكه ومعارجه.

مدرستان تميزتا بالمعرفة الكاملة الصادقة، النابعة من الكتاب والسنة، لم تتفرق بهما السبل، ولم تجنح بهما الأذواق والأشواق، قلما يعترفا أبدًا، بالسبحات الفلسفية، والشطحات المترنحة، والكلمات الغامضة، التى تسربت إلى الأفق الصوفى، وحاولت أن تنتسب إليه، وأن تتستر بأشواقه وأذواقه.

أما المدرسة الأولى فهى مدرسة الإمام أبو القاسم الجنيد ببغداد، وهى مدرسة اتخذت من المساجد منابر لدعوتها، وجعلت من حلقاتها معاهد لتخريج الرجال... الرجال الذين تموج بهم كتب الأصول الصوفية، كأعلام تضىء كلماتهم الطريق وترسمه وتحدده.

والمدرسة الثانية، هى مدرسة الإمام أبو نصر السراج الطوسى بنيسابور، وهى مدرسة اتخذت من الكتب منابر لبيان دعوتها، وشرح رسالتها، ونشر علومها وأذواقها ومعارفها ومعارجها.

وجعلت من صفحات هذه الكتب معاهد لتخريج الفحول من الرجال، وخزائن خالدة، تحفظ للأجيال، هذه التراث المضىء العظيم.

وصاحب اللمع، أبو نصر السراج الطوسى، هو بحق، أكبر المؤلفين الصوفيين وأستاذهم جميعًا بلا استثناء.

اقتفى أثره الهجويرى فى كتابه «كشف المحجوب»[1]، وتتلمذ عليه أبو عبد الرحمن السلمى، صاحب الطبقات[2]، وعلى السلمى، تتلمذ عبد الكريم ابن هوازن أبو القاسم القشيرى، صاحب الرسالة القشيرية[3].

فمؤلف اللمع إذن، قد أنجبت مدرسته الأقلام الكبيرة التى حفظت لنا، ورسمت أمامنا مناهج الطريق وصانته وحمته من الدخيل والغريب.

كما احتضنت هذه المدرسة وحفظت لنا أيضًا، تراث الجنيد وتلاميذه ورجاله.

فأصبحت مدرسة السراج وحدها عبر التاريخ المحجة التى يلوذ بها، ويهتدى بنورها عباد الرحمن الذين استهدفوا وجهه سبحانه، وصعدوا بقلوبهم وبعزماتهم إلى الأفق الأعلى، مع الملأ الأعلى، لا يستنكفون عن عبادة ربهم، ولا يفترون عن ذكره وحمده.

قوتهم طاعة، وحياتهم عبادة، ومناجاتهم حب، ووجودهم قرب، وذوقهم علم، وبساطهم أنس، وخلقهم قرآن.

إنهم أمناء الله جل وعز فى أرضه، وخزنة أسراره وعلمه، وصفوته من خلقه، كما يقول السراج الطوسى فى اللمع.

(١) على بن عثمان الجلابى الهجويرى توفى عام ٤٦٥هـ.

(٢) توفى السلمى عام ٤١٢هـ.

(٣) توفى القشيرى عام ٤٦٥هـ.

إنها مدرسة المعرفة الصوفية النقية، حمل اللواء فيها السراج، والقشيرى، والهجويرى، والسلمى، والكلاباذى[١].

المدرسة التى حاربت فى عنف وفى قسوة، كل انحراف فلسفى، أو شطح ذوقى، تسرب إلى جوهر التصوف الإسلامى.

يقول المستشرق «نيكلسون»[٢]:

«. . . ولهذا نجد أوائل المؤلفين فى التصوف يرددون الإنذار والتحذير من الوقوع فى وحدة الوجود، ويكررون القول بأن الله تعالى مخالف للحوادث مخالفة تامة، وأن أى اتصال به يوصف بأنه اتحاد بذاته كفر وضلال».

ولا جدال فى أن التصوف الإسلامى، منذ فجره الأول، قد ابتلى كما ابتليت المعارف الإسلامية كافة، بالدخلاء الأدعياء سلوكا وقولا.

ولهذا نجد أئمة التصوف، منذ القرن الثالث الهجرى، وهم يحذرون وينذرون، وكان أكبر المنذرين وأسبقهم الإمام السراج الطوسى.

يقول السراج فى مقدمته لكتاب اللمع[٣].

«. . . واعلم أن فى زمننا هذا قد كثر الخائضون فى علوم هذه الطائفة، وقد كثر أيضًا المتشبهون بأهل التصوف والمشيرون إليها، والمجيبون عنها وعن مسائلها، وكل واحد منهم يضيف إلى نفسه كتابًا قد زخرفه، وكلامًا ألفه، وليس بمستحسن منهم ذلك؛ لأن الأوائل والمشايخ الذين تكلموا فى هذه المسائل وأشاروا إلى هذه الإشارات، ونطقوا بهذه الحكم، وإنما تكلموا بعد قطع العلائق، وإماتة النفوس بالمجاهدات والرياضات والمنازلات والوجد

(١) صاحب التعرف لمذهب أهل التصوف.

(٢) فى التصوف الإسلامى ص ١٠١

(٣) اللمع ص ١٩ طبع دار الكتب الحديثة

والاحتراق، والمبادرة والاشتياق إلى قطع كل علاقة قطعتهم عن الله عز وجل طرفة عين، وقاموا بشرط العلم، ثم عملوا به، ثم تحققوا فى العمل فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل».

وإذن فالخائضون فى علوم التصوف ومسائله، والمتشبهون الدخلاء المحجوبون، قد كثروا فى الأفق الصوفى، منذ القرون الأولى فى الإسلام.

والسراج يحذر منهم ويشير إليهم، ثم يضع قاعدة ذهبية للتصوف والصوفية.

إنهم علماء قاموا بشرط العلم، ثم عملوا به، ثم تحققوا فى العمل، فجمعوا بذلك بين العلم والحقيقة والعمل.

ولهذا كان الصوفية عبر التاريخ، نماذج للجلال الخلقى والروحى، ونماذج للكمال التعبدى والإيمانى، ونماذج عالية سامقة، فى أفق العلم والمعرفة.

وكما يقول «ماسنيون»:

«إن رجال المعرفة الصوفية فى الإسلام، كانوا دائمًا النماذج التى تقدم لنا الصورة الحية للمفكرين الكبار فى الإسلام».

ويقول شاعر الإسلام «محمد إقبال»:

«إن الإسلام عند الصوفية يأخذ طابعًا من الجمال والكمال، والإنسانية العالية والأخوة العالية، لا تجده فى إسلام الفقهاء أو المتكلمين».

* * *

وكتاب «اللمع» هو الكتاب الأم، فى تاريخ التصوف الإسلامى، وقد اجتمعت له خصائص ما نحسبها توافرت لغيره من كتب الحياة الروحية الإسلامية.

فهو أقدم مرجع صوفى إسلامى، وهو فوق هذا أكبر هذه المراجع وأوثقها وأغزرها مادة، وأنقاها جوهرًا ولفظًا.

ومن مادته الخصبة اقتبس كافة من أرخ للتصوف، وعلى ضوء مناهجه وأبوابه وقواعده، جرت الأقلام التى قدمت لنا عبر التاريخ علوم الطريق ورجاله.

وهو كتاب تاريخ ومدرسة علم، وطريق ذوق، وإشعاع يرشد السالكين، ويعلم العلماء، أو كما يقول «نيكلسون»: «هو مدرسة عليا لتخريج الفحول من المتصوفة الصادقين».

وكتاب «اللمع» قد استهدف فى كل حرف فيه غاية قصد إليها، وحرص عليها.

وهى رسم المبادئ الصوفية النقية، تلك المبادئ التى تعبر عن روح القرآن، وجوهر السنة.

المبادئ الخلقية والإيمانية التى تتلمذت لفعل الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهديه.

المبادئ التى تحيط بكل شىء فى الحياة، فتطلق فيه النور، وتطلق فيه الروح، وتطلق فيه الحب، وتعمق فيه الإحساس المقدس، الإحساس بالقرب من الله، قرب ذوق ووجدان، ومشاهدة ذوق ووجدان.. فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

المبادئ التى تتحقق فيها كلمات الله التى صورت الأمة الإسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس.

فإذًا صور السراج فى «اللمع» تلك المبادئ فأحسن تصويرها، وأبدع رسمها، وأشاع الروح والحياة فى أفقها، مدعمًا لها بالأدلة القرآنية والنبوية والعلمية والذوقية، عمد إلى أدق وأنبل ما فى كتابه.

عمد إلى بيان كامل، وحصر شامل، للأخطاء التى وقع فيها السالكون للطريق، إما عن سوء نية، أو عن حسن قصد.

وهنا يتفوق السراج على نفسه، فهو عالم نفسانى، وهو حكيم ربانى، وهو مبصر ببصيرة علوية يتسلل بها إلى خفايا الصدور، وخففات القلوب، كما يتسلل إلى دقائق المعرفة، ورقائق الذوق، فيكشف عن أخطاء العابدين، كما يكشف عن عقد الذاكرين، وتلبيسات المحبين، ووسوسة الزاهدين، وهى أخطر عقبات الطريق ومزالقه.

فيجلو لنا بذلك كله وجه التصوف الإسلامى، كما جاء به القرآن، وكما صوره الرسول وهديه، وكما عاشه رجاله وأعلامه، وهم الصفوة من خلق الله، والخيرة من عباده، وخزائن العلم والمعرفة، علم الشريعة، وذوق الحقيقة، وفيض العطاء الربانى، الذى تتلمذ عليه من اصطفى الله من عباده.

* * *

ذلك هو «كتاب اللمع» أو بمعنى أدق، ذلك بعض ما نومئ به ونشير، ليدل على «اللمع» فكل تقديم «للمع» لا ينهض بحقه، ولا يفى بقدره، ولا يصور علمه وذوقه.

إنه جامعة لتخريج الفحول والأئمة الكبار، جامعة لا يعرف قدرها إلا من تذوق منهجها وعاش فى صفحاتها... وتلك رسالتك أيها القارئ الكريم.

التعريف بصاحب اللمع

أبو نصر عبد الله بن على السرَّاج الطوسى، الملقب: بطاووس الفقراء، توفى سنة ٣٧٨هـ.

يقول عنه صاحب النفحات:

«... هو عبد الله بن على بن محمد بن يحيى الصوفى الزاهد، صاحب «كتاب اللمع» فى التصوف، وقد تكون له مؤلفات أخرى لم تصل إلينا.

سمع جعفر الخلدى، وأبا بكر محمد بن داود الدقى، وأحمد بن محمد السايح».

ويقول صاحب تذكرة الحفاظ:

« . . . أبو نصر السراج عبد الله بن على الطوسى الزاهد شيخ الصوفية، وصاحب « كتاب اللمع» فى التصوف، روى عنه جعفر الخلدى، وأبو بكر محمد بن داود الدقى. . . قال «الذهبى» كان المنظور إليه فى ناحيته فى الفتوة ولسان القوم، مع الاستظهار بعلوم الشريعة».

ويقول العلامة السخاوى:

« . . . كان على طريقة أهل السنة، قال: خرجت مع أبى عبد الله الروزبارى، لنلقى - انبليا - الراهب بصور، فنفذ بنا إلى ديره، وقلنا له: ما الذى حبسك هاهنا؟ قال: أسرتنى حلاوة قول الناس: يا راهب، وتوفى فى رجب عام ٣٧٨هـ[(١)]».

ويقول العلامة المستشرق «نيكلسون»:

« . . . ليس لدينا إلا القليل عن تاريخ حياة السراج، فإن مؤلفى التصوف القديم مروا عليه فى سكوت، وأول ما ورد ذكره حسب علمى، فى ملحق لتذكرة الأولياء، كما عرض لذكره عرضًا قصيرًا أبو المحاسن الذهبى فى تاريخ الإسلام، وأبو الفلاح فى شذرات الذهب، ولغيره من المؤلفين فى سفينة الأولياء».

ثم يقول: «ومن العجيب أن يغفل مؤلفو التصوف القديم شأنه، فلم يؤلفوا عنه أسفارًا تحوى لنا تاريخه وتراجمه وأحواله، مع أنه كان فريد عصره، راسخ القدم فى علوم القوم، وشيخا لمذهبهم فى الزهادة والتصوف.

وكم كنت أتمنى لو سبق وجودى إلى عصره الذهبى أو الذى يليه لأترسم خطاه، وأتتبع آثاره وأخباره وأحواله، فأميط اللثام عن مستور لو كشف لعبق عبيره، وطيب شذا عرفه الأنام.

(١) شذرات الذهب جـ ٣.

على أنى لو أتيح لى أن أكون أحد معاصريه المؤلفين ما أظننى واقفًا عند هذا الحد من النعت والتعريف، ولعمرى ما كنت إلا جاهدًا نفسى لكشف النقاب عن حياة وأعمال هذا الإمام الجليل، عسانى أكون قد افتتحت مدرسة عليا لتخريج الفحول من الزهاد المتصوفة من أهل الرقعة الفقراء المخلصين».

وتروى لنا كتب السير الفارسية، أن السرَّاج كان يلقب بطاووس الفقراء، كما تروى كما يقول الهجويرى فى «كشف المحجوب»: «أن أبا نصر السراج وفد فى رمضان إلى بغداد، فأفرد له غرفة خاصة فى جامع «الشونيزية» وأعطى رئاسة الدراويش، وأنه كان فى صلاة التراويح يختم القرآن خمس مرات، وكان الخادم يحضر له رغيفًا كل ليلة، فيضعه فى غرفته، وفى يوم العيد، وكان السراج قد رحل، وجد الخادم الثلاثين رغيفا دون أن تمس.

وتروى لنا قصة أخرى، أنه خلال محادثاته فى التصوف أخذه الحال فقذف بنفسه فى نار موقدة، وهو يدعو الله، فلم تلفح له وجهًا، ولم تحرق له ثوبًا.

وكتاب اللمع كما يقول «نيكلسون» يعطى صوره ناطقة عن السراج الرحالة، الذى تجول فى أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، وتنقل بين القاهرة وبغداد ودمشق والرملة ودمياط والبصرة وتبريز ونيسابور، سالكا طريق القوم، ناشرًا لعلومهم ومعارفهم، مجدًا فى الاجتماع بأعلام التصوف الإسلامى فى عصره الذهبى، ضاربًا المثل الأعلى لمنهجهم بنفسه سلوكا وذوقا وفتوة.

ويقول أبو عبد الرحمن السلمى فى طبقاته:

«. . . كان أبو نصر من الأولاد الزهاد، وكان المنظور إليه فى ناحية الفتوة ولسان القوم، مع الاستظهار بعلم الشريعة، وهو فقيه مشايخهم اليوم، ومات أبوه ساجدًا».

توفى رضوان الله عليه فى رجب سنة ثمانٍ وسبعين وثلاثمائة هجرية «أكتوبر سنة ٩٨٨م».

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــــة المؤلـــــف

كتب إلينا أبو القاسم عليٌّ، ابن الإمام أبى الفَرَج عبد الرحمن بن عليٍّ بن محمد بن الجوزى، وأبو . . . إسماعيل بن على بن باتكين الجَوْهَرى، وأبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد ابن المتوكل على الله، وأبو المنجى عبد الله بن عمر بن على بن زيد بن الليثى، وغيرهم من بغداد، وكتبت إلينا أُمّ الفضل كريمة ابنة عبد الوهاب بن على بن الخضر الْقُرَشِيَّة من دمشق، كلُّهم عن أبى الوَقْت عبد الأول بن عيسى بن شُعَيْب بن إسحاق السِّجزىِّ الصوفىِّ الهروىِّ المالينىِّ، قال: أنبأنا أبو نصر أحمد بن أبى نصر الكوفانى قراءةً عليه فى شهور سنة خمس وستِّين وأربعمائة، قال: أنبأنا أبو محمد الحسن بن محمد الحَنُبوشانى قراءة عليه، قال: أنبأنا أبو نصر عبد الله بن عليٍّ الطوسى السرَّاج، قال:

الحمد لله الذى خلق الخلق بقدرته، ودلَّهم على معرفته بآثار صنعته وشواهد ربوبيته، واختار منهم صفوةً من عباده وخِيرَةً من خلقه، خصَّ منهم من شاء بما شاء كيف شاء، وقسم لهم من العلم به والفهم عنه بما قسم، وحكم لهم فى ذلك بما حكم، وجعلهم فيما منح لهم من الهداية والتوفيق، متفاوتين كتفاوتهم فى الأخلاق والأرزاق والآجال والأعمال، فلا علمٌ معلوم ولا شيءٌ مفهوم إلا وذلك موجود فى كتاب الله عزَّ وجلَّ، أو مأثور عن رسول الله ﷺ، أو فيما فُتح على قلوب أولياء الله، ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيا من حيى عن بيِّنة، وإن الله لسميع عليم.

والصلاة على المقدَّم المعظَّم المكرَّم من أنبيائه شمس وقمر الأصفياء: محمد عبده ورسوله وعلى آله وسلم كثيراً.

أمَّا بعد: فإنى استخرتُ الله تعالى وجمعت أبوابًا فى معنى ما ذهب إليه أهل التصوُّف، وتكلَّم مشايخهم المتقدِّمون فى معانى علومهم وعُمْدة أصُولهم وأساس مذهبهم وأخبارهم وأشعارهم ومسائلهم وأجوبتهم ومقاماتهم وأحوالهم، وما انفردوا بها من الإشارات اللطيفة والعبارات الفصيحة، والألفاظ المشكلة الصحيحة على أصولهم، وحقائقهم ومواجيدهم وفصولهم.

وذكرتُ من كل فصل طَرَفًا، ومن كل أصل طُرَفًا ونُتَفًا، ومن كلِّ باب لُمَعًا، على حسب ما سنح به الحالُ، ومكَّن منه الوقْتُ، وجاد به الحقُّ جلَّ ذكره؛ مقتديًا بالأُسْوَة والقُدْوَة والبيان والحُجَّة.

فينظر الناظر فيه عند تيقظ وتنبّه وحضور قلب وفراغ نفس، بحسن التوقُّف والتفكُّر والتأمُّل والتدبُّر، بخلوص النيَّة وطهارة القلب وصحة القصد، متقرِّبًا إلى الله تعالى ذكره، وشاكرًا له على ما منحه من تسديده وتوفيقه وهدايته إلى موالاة هذه العصابة[1]، ومناوأة من بسط لسانه فيها بالوقيعة فيهم والإنكار عليهم وعلى سلفهم الماضين، رحمة الله ورضوانه عليهم أجمعين؛ لأنهم العصابة القليل عَدَدُها، العظيم عند الله قَدْرُها وخَطَرُها.

وينبغى للعاقل فى عصرنا هذا أن يعرف شيئًا من أصول هذه العصابة وقصودهم[2]، وطريقة أهل الصحة والفضل منهم، حتى يميِّز بينهم وبين المتشبِّهين بهم[3]، والمتلبسين بلبسهم، والمتسمِّين باسمهم، حتى لا يغلط ولا يأثم؛

(١) يقصد أهل التصوف.

(٢) جمع قصد بمعنى الاتجاهات والنوايا.

(٣) إن ادعاء التصوف قديم وها هو ذا المؤلف المتوفى فى القرن الرابع الهجرى يحذر من المهرجين باسم التصوف، أما فى عصرنا الحاضر فقد أصبح ادعاء التصوف أمرًا عاديًا ولعلنا بنشر هذا الكتاب نساهم فى إعطاء الفكرة الصحيحة عنه حتى لا يراه الناس طبلا وزمرًا وبيارق وأساطير وجزى الله المؤلف خير الجزاء.

لأن هذه العصابة أعنى الصوفية، هم أمناء الله، جل وعز، فى أرضه، وخَزَنَةُ أَسراره وعِلْمه، وصفوتُه من خَلقه، فهم عباده المُخلصون، وأولياؤه المتقون، وأحبَّاؤه الصادقون الصالحون، منهم الأخيار والسابقون، والأبرار والمقرَّبون، والبدلاء والصديقون، هم الذين أحيا الله بمعرفته قلوبهم، (وزين) بخدمته جوارحهم، وألهج بذكره ألسنتهم، وطهر بمراقبته أسرارهم، سبق لهم منه الحسنى بحسن الرعاية ودوام العناية، فتوجهم بتاج الولاية، وألبسهم حُلَلَ الهداية، وأَقبل بقلوبهم عليه تعطفًا، وجمعهم بين يديه تلطفًا، فاستغنوا به عما سواه، وآثروه على ما دونه، وانقطعوا إليه، وتوكَّلوا عليه، وعكفوا ببابه، ورضوا بقضائه، وصبروا على بلائه، وفارقوا فيه الأوطان، وهجروا له الإخوان، وتركوا من أَجْله الأنساب، وقطعوا فيه العلائق، وهربوا من الخلائق، مستأنسين به مستوحشين ممَّا سواه: ﴿ذلكَ فَضْلُ الله يؤْتيه مَنْ يَشَاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعظيم﴾[1] الآية ﴿فَمنْهُمْ ظَالمٌ لنَفْسه﴾[2] الآية: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لله وَسَلاَمٌ عَلَى عِباده الذينَ اصطَفَى﴾[3] الاية.

واعلم أنَّ فى زماننا هذا قد كثر الخائضون فى علوم هذه الطائفة، وقد كثر أيضًا المتشبهون بأهل التصوف والمشيرون إليها والمجيبون عنها وعن مسائلها، وكل واحد منهم يضيف إلى نفسه كتابًا قد زخرفه، وكلامًا ألفه، وليس بمستحسَن منهم ذلك، لأن الأوائل والمشايخ الذين تكلموا فى هذه المسائل وأشاروا إلى هذه الإشارات ونطقوا بهذه الحِكَم، إنما تكلموا بعد قطع العلائق، وإماتة النفوس بالمجاهدات والرياضات والمنازلات والوجد والاحتراف، والمبادرة والاشتياق إلى قطع كل علاقة قطعتهم عن الله

(١) الجمعة: ٤.

(٢) تكملة الآية: ﴿ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ (فاطر: ٣٢).

(٣) تكملة الآية: ﴿ءآلله خير أما يشركون﴾ (النمل: ٥٩).

عز وجل طرْفة عين، وقاموا بشرط العلم، ثم عملوا به، ثم تحققوا فى العمل فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل.

قال أبو نصر رحمه الله: وقد حذفتُ الأسانيد عن كثير مما ذكرت فى هذا الكتاب، واقتصرت على متون الأخبار والحكايات والآثار للاختصار، فما أَصَبْتُ من ذلك فبعناية الله عز وجل، والحمدُ لله على ذلك، وما أخطأتُ فى ذلك ووقع فيه شيء من الزيادة والنقصان فهو لازم لى، وأنا أستغفر الله من ذلك، وإنما ذكرتُ فى كتابى هذا أجوبة هؤلاء المتقدمين وألفاظهم لأن لى فيها غُنْية عن تكلفى كتكلف المتأخِّرين فى زماننا هذا إذا تكلموا فى هذه المعانى بكلام أو أجابوا عنها بجواب أو أضافوا ذلك إلى أنفسهم وهم متعرون عن حقائقهم وأحوالهم.

وكل من أخذ من كلام المتقدمين الذين وصفناهم معنًى من معانيهم التى هى أحوالهم ووجدهم ومستنبطاتهم، وحلاَّها من عنده بحلية غير ذلك، أو كساها عبارة أُخْرى، أو أضافها إلى نفسه حتى يشار إليه بذلك، أو يطلب بذلك جاهًا عند العامَّة، أو يريد أن يصرف بذلك وجوه الناس إليه لجرِّ منفعة أو لدفع مضرَّة، فإنه عزَّ وجلَّ خصْمُهُ فى ذلك وهو حسيبه، لأنَّه قد ترك الأمانة وعمل بالخيانة، وهذه أعظم (وأكبر من) الخيانة التى فى أسباب الدنيا: ﴿وأَنَّ الله لاَ يَهْدِى كَيْدَ الخائنين﴾[1]، وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ٥٢ من سورة يوسف.

باب البيان عن علم التصوف، ومذهب الصوفية، ومنزلتهم من أولى العلم القائمين بالقسط

قال الشيخ أبو نصر: سألنى سائلٌ عن البيان عن علم التصوف، ومذهب الصوفية، وزعم أن الناس اختلفوا فى ذلك: فمنهم من يغلو فى تفضيله ورفعه فوق مرتبته، ومنهم من يُخرجه عن حدِّ المعقول والتحصيل، ومنهم من يرى أن ذلك ضربٌ من اللهو واللعب وقلَّة المبالاة بالجهل، ومنهم من ينسب إلى التقوى والتقشُّف ولبْس الصوف والتكلب فى تنوُّق[1] الكلام واللباس وغير ذلك، ومنهم من يُسرف فى الطعن وقُبْح المقال فيهم حتى ينسبهم إلى الزندقة والضلالة؛ فسألنى أن أشرح له من ذلك ما صحَّ عندى من أصول مذهبهم المؤيَّد المنوط بمتابعة كتاب الله عز وجل، والاقتداء برسول الله ﷺ، والتخلق بأخلاق الصحابة والتابعين، والتأدُّب بآداب عباد الله الصالحين، وأُقيِّد ذلك بالكتاب والأثَر بالْحُجَّة، ليحق الحق ويبطل الباطل، ويُعْرَف الجدَّ من الهزل، والصحيح من السقيم، ويرتب كلَّ نوع منه فى موضعه إذ كان علمًا من علوم الدين، فأقولُ وبالله التوفيق:

إن الله تبارك وتعالى، أحكم أساسَ الدين، وأزال الشبهة عن قلوب المؤمنين بما أمرهم به من الاعتصام بكتابه، والتمسك بما وصل إليهم من خطابه، إذ يقول جلَّ جلاله: ﴿واعْتَصموا بحَبْل الله جَميعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[2] الآية، وقال عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ ثم ذكر الله تعالى أفضل المؤمنين درجةً وأعلاهم فى الدين رتبة فذكرهم بعد ملائكته وشهد على

(١) ترتيبه وتنسيقه.

(٢) تكملة الآية: ﴿واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ (آل عمران: ١٠٥).

شهادتهم له بالوحدانية بعدما بدأ بنفسه وثنى بملائكته فقال عز وجل: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هُو والْمـلائكةُ وأُولو الْعلمَ قائمًـا بالْقسط**﴾[1] وروى عن النبى ﷺ أنه قال: [١] «العلماءُ ورَثةُ الأنبياء».

وعندى، والله أعلم، أن أُولى العلم القائمين بالقسط الذين هم ورثة الأنبياء، هم المعتصمون بكتاب الله تعالى، المجتهدون فى متابعة رسول الله ﷺ، المقتدون بالصحابة والتابعين، السالكون سبيل أوليائه المتقين وعباده الصالحين، هم ثلاثة أصناف: أصحاب الحديث، والفقهاء، والصوفية، فهؤلاء هم الأصناف الثلاثة من أُولى العلم القائمين بالقسط الذين هم ورثة الأنبياء، وكذلك أنواع العلم كثيرة: فعلم الدين من ذلك ثلاثة علوم: علم القرآن، وعلم السُّنن والبيان، وعلم حقائق الإيمان، وهى العلوم المتداولة بين هؤلاء الأصناف الثلاثة وجملة علوم الدين لا تخرج عن ثلاث: آيات من كتاب الله عز وجل، أو خَبَر عن رسول الله ﷺ، أو حكمة مستنبطة خطرت على قلب ولى من أولياء الله تعالى.

وأصل ذلك حديث الإيمان حيث سأل جبريل عليه السلام النبىَّ ﷺ عن أصولٍ ثلاثة: عن الإسلام والإيمان، والإحسان الظاهر والباطن، والحقيقة، فالإسلام ظاهر، والإيمان ظاهر وباطن، والإحسان حقيقة الظاهر والباطن، وهو قول النبى ﷺ: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وصدقه على ذلك جبريل، والعلم مقرون بالعمل، والعمل مقرون بالإخلاص، والإخلاص أن يريد العبد بعلمه وعمله وَجْهَ الله تعالى؛ وهؤلاء الأصناف الثلاثة فى العلم والعمل متفاوتون، وفى مقاصدهم ودرجاتهم متفاضلون، وقد ذكر الله تعالى تفاضلهم ودرجاتهم فقال عز وجل: ﴿**وَالَّذينَ أُوتُوا الْعلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾[2] وقال: ﴿**ولِكُلٍّ دَرَجَاتٌ ممَّا عَملُوا**﴾[3]

(١) سورة آل عمران ١: ١٨.

(٢) سورة المجادلة: ١١

(٣) الأحقاف: ١٩

وقال: ﴿انْظُرْ كيْفَ فَضَّلْنَا بَـعْضَهُم عَلَى بَعْض﴾[1]، وقال النبى ﷺ: [٢] «الناس أكْفـاء متسـاوون كأسْنان المـشط، لا فَضْل لأحد علـى أحد إلا بالعلم والتُّقَى».

فكل من أشكل عليـه أصلٌ من أصول الدين وفروعـه وحقـوقه وحقـائقه وحـدوده وأحكامـه ظاهرًا وباطنًا فـلا بد لـه من الرجـوع إلى هؤلاء الأصناف الثـلاثة: أصحـاب الحديث، والفـقـهاء، والصـوفيـة؛ وكل صنف من هؤلاء مترسم بنوع من العلم والعمل والحقـيقة والحال، ولكل صنف منهم فى معناه علم، وعمل، ومـقام ومقال، وفـهم، ومكان، وفقه، وبيان عَلِمَـهُ مَنْ عَلِمَهُ وجَهِلَـهُ من جَهِلَهُ، ولا يبلغ أحـد إلى كمـال يحوى جـميع العلوم والأعـمال والأحوال، وكلٌّ واحد فمقامُهُ حيث وقفه الله تعالى ومحله حيث حبسه الله عز وجل، وأنا أبيِّن لك مـن ذلك إن شـاء الله تعـالى على حـسب الطاقـة أن كل صنف من هؤلاء بأى نوع مـن العلم والعـمل ترسمـوا وبأى حـال تفـاضلوا، وأيُّهم أعْلى طبقة بما لا يدفعه عقلك ويحيط به فهمك إن شاء الله تعالى.

---

(١) الإسراء: ٢١

باب فى نعت طبقات أصحاب الحديث، ورسمهم فى النقل ومعرفة الحديث، وتخصيصهم بعلمه

قال الشيخ رحمة الله: فأما أصحاب الحديث فإنهم تعلقوا بظاهر حديث رسول الله ﷺ، وقالوا: هذا أساس الدين لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ فلما خوطبوا بذلك جوَّلوا[1] البلاد، وطلبوا رُوَاة الحديث، فلزموهم حتى نقلوا عنهم أخبار رسول الله ﷺ، وجمعوا ما رُوى عن الصحابة والتابعين، وضبطوا ما وصل إليهم من سيرهم وآثارهم ومذاهبهم واختلافهم فى أحكامهم وأقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم وأحوالهم، وصححوا رواياتهم بسماع الأذن وحفظ القلب والضبط من أصول الثقات عن الثقات العدول عن العدول، فأتقنوا ذلك، وعرفوا أماكن الرُّواة فى النقل والضبط، ودوَّنوا أسماءهم وكُناهم ومواليدهم ووفاتهم، وأرخوا ذلك حتى عرفوا أن كل رجل من هؤلاء كم من حديث رواه؟ وعمَّن رواه؟ وعمن نقل إليه؟ ومن أخطأ منهم فى النقل؟ ومن غلط منهم فى زيادة حرف أو نقصان لفظة، ومن تعمد منهم فى ذلك، ومن سومح له بغلطة أو هفوة، حتى عرفوا أسماء المتهمين منهم بالكذب على رسول الله ﷺ، وعرفوا من تصح عنه الرواية ومن لا تصح، ومن انفرد منهم بحديث لا يرويه غيره، أو انفرد بلفظة ليست عند غيره، فحفظوا أن كل حديث من ذلك كم من نفس رواه؟ وما العلة فى ناقله؟ حتى جمعوا الأبواب، وبوَّبوا السنن، وميزوا ما يدخل فى الصحيح وما يختلف فى صحته، وما كان فى رواية المقلين والمُكثرين، وفهموا أحاديث أئمة الأمصار، وطبقات الرُّواة: التابع من المتبوع، والكبير

(١) طافوا بها

من الصغير، وأحاط عِلمُهم بعلل اختلاف الرواة، وزياداتهم ونقصانهم، وأماكنهم، فى رواية السنن والآثار، إذ كان ذلك أساس الدين.

وهم فى ذلك متفاضلون حتى يستحق أحدهم بزيادة علمه وإتقانه وحفظه قبول الشهادة على العلماء فى العدل والتجريح، والرد والقبول؛ وتكون شهادته مقبولة على رسول الله ﷺ فيما قال وفعل وأمر ونهى وندب ودعا؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أى عدولا ﴿لتكونُوا شُهَدَاء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[1]، يقال: إنهم أصحاب الحديث: يشهدون على رسول الله ﷺ، وعلى الصحابة والتابعين فيما قالوا وفعلوا ويكون الرسولُ عليكم شهيداً فيما شهدوا عليه من أفعاله وأقواله وأحواله وأخلاقه، قال النبى ﷺ: من كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعدَه من النار، وقال النبى ﷺ: [٣] «نضر الله وجه امرئ سمع منى حديثًا فبلَّغه...» الحديث. يقال: إنه لا يكون واحد من أصحاب الحديث إلا وفى وجهه نضرة لموضع دعاء رسول الله ﷺ.

ولأصحاب الحديث فى معانى علومهم ورسومهم مصنفات ولهم أئمة مشهورون [كل منهم] قد أجمع أهل عصره على إمامته، لفضل علمه وزيادة عقله وفهمه ودينه وأمانته؛ وشرح ذلك يطول، وفيما ذكرت كفايةٌ لمن علم وبالله التوفيق.

(١) سورة البقرة ١٤٣

باب ذكر طبقات الفقهاء

وتخصيصهم بما ترسموا به من أنواع العلوم

قال الشيخ أبو نصر رحمه الله: وأما طبقات الفقهاء فإنهم فضلوا على أصحاب الحديث [بقبول علوم أصحاب الحديث] والاتفاق معهم فى معانى علومهم ورسومهم.

ثم خُصّوا بالفهم والاستنباط فى فقه الحديث والتعمق بدقيق النظر فى ترتيب الأحكام وحدود الدين وأصول الشرع، فبينوا ذلك، وميزوا الناسخ من المنسوخ، والأصول من الفروع، والخصوص من العموم، بالكتاب والسنة والإجماع والقياس.

وبينوا للخلق فى أحكام دينهم من القرآن والأثر ما نسخ حكمه وبقى كتابته، وما نسخ كتابته وبقى حكمه؛ وما كان لفظه عامًا والمراد به خاص، أو كان لفظه خاصًا والمراد به عامٌّ، أو كان خطاب جماعة والمراد به واحد، أو خطاب واحد والمراد به جماعة، وتكلموا بالاحتجاجات العقلية على المخالفين، واستدلوا بالبراهين البينة على أهل الضلالة نصرة للدين، وتمسكوا بنص الكتاب، أو نص السنة، أو قياس على النص، أو إجماع الأمة، وناظروا من خالفهم برسم النظر، وجادلوا من جادلهم بأدب الجدل، وعارضوا خصمهم بالمعارضات، واعترضوا عليهم برد الاعتراضات واطراد العلل فى المعلومات، فوضعوا كل شىء فى مواضعه، ورتبوا كل حدٍّ فى مراتبه، وفرقوا بين المقايسة والمشاكلة والمجانسة والمقارنة، وميزوا فى الأوامر والنواهى ما كان منه حتمًا وما كان منه ندبًا، وما كان منه ترغيبًا وترهيبًا، وما كان [منه] محثوثًا عليه ومدعوًا إليه، فبينوا المشكل، وحلوا العُقد وأوضحوا الطرق، وأزالوا الشبهات، وفرعوا على الأصول، وشرحوا المُجْمَل، وبسطوا

المجموع، وأخذوا حدود الدين بالاحتياط، حتى لا يقلد العالم عالمًا، ولا الجاهل جاهلا، ولا الخاص خاصًا، ولا العامّ عامًا فى ظاهر الأحكام وحدود الشريعة.

بهم يحفظ على المسلمين حدودهم، وقد ذكرهم الله تعالى فى كتابه فقال عز وجل: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كلِّ فرْقَة منهمْ طائفةٌ ليَتَفَقَّهُوا فى الدِّين﴾ الآية، وقال النبى ﷺ: [٤] «من يُرِد الله به خيراً يفقهه فى الدين».

وللفقهاء فى معانى علومهم ورسومهم أيضًا مصنفات، ولهم أئمة مشهورون، قد أجمع أهل عصرهم على إمامتهم، لزيادة علمهم وفهمهم ودينهم وأمانتهم، وشرح ذلك يطول، والعاقل يستدل بالقليل على الكثير، وبالله التوفيق.

باب ذكر الصوفية، وطبقاتهم وما ترسموا به من العلم والعمل، وما خصوا به من الفضائل، وحسن الشمائل

قال الشيخ أبو نصر رحمة الله: ثم إن طبقات الصوفية أيضًا اتفقوا مع الفقهاء وأصحاب الحديث فى معتقداتهم وقبلوا علومهم، ولم يخالفوهم فى معانيهم ورسومهم، إذا كان ذلك مجانبًا للبِدَع واتباع الهوى، ومنوطًا بالأسوة والاقتداء، وشاركوهم بالقبول والموافقة فى جميع علومهم.

ومن لم يبلغ من الصوفية مراتب الفقهاء وأصحاب الحديث فى الدراية والفهم، ولمْ يحط بما أحاطوا به علمًا فإنهم راجعون إليهم فى الوقت الذى يُشكل عليهم حكمٌ من الأحكام الشرعية أو حدٌّ من حدود الدين، فإذا اجتمعوا فهم فى جملتهم فيما اجتمعوا عليه، فإذا اختلفوا فاستحباب الصوفية فى مذهبهم الأخذُ بالأحسن والأولى والأتم احتياطًا للدين وتعظيمًا لما أمر الله به عبادة واجتنابًا لما نهاهم الله عنه.

وليس من مذهبهم النزول على الرُّخَص وطلب التأويلات [والميل إلى] الترفُّه والسَّعات وركوب الشبهات، لأن ذلك تهاونٌ بالدين [وتخلفٌ عن الاحتياط؛ وإنما مذهبهم التمسك بالأولى والأتم فى أمر الدين] فهذا الذى عرفْنا من مذاهب الصوفية ورسومهم فى استعمال العلوم الظاهرة المبذولة المتداولة بين طبقات الفقهاء وأصحاب الحديث.

ثم إنهم [من] بعد ذلك ارتقوا إلى درجات عالية، وتعلقوا بأحوال شريفة ومنازل رفيعة من أنواع العبادات وحقائق الطاعات والأخلاق الجميلة، ولهم فى معانى ذلك تخصيص لغيرهم من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث وشرح ذلك يطول، غير أنى أبين لك من كل شىء طَرَفًا حتى تستدل بما أذكرهُ على ما لا أذكره إن شاء الله تعالى.

باب ذكر تخصيص الصوفية بالمعانى التى قد ترسموا بها من الآداب والأحوال والعلوم التى تفرَّدوا بها من جملة العلماء

قال الشيخ أبو نصر رحـمه الله: فأول شيء من التخصصات للصـوفية وما تفـردوا بها عن جـملة هؤلاء الذين ذكـرتُهم من بعـد أداء الفرائض واجـتناب المـحارم: تَرْكُ مـا لا يعنيهـم، وقَطْعُ كل علاقـة تحول بيـنهم وبين مطلوبهم ومقصـودهم؛ إذ ليس لهم مطلوب ولا مقصود غيـر الله تبارك تعالى؛ ثم لهم آداب وأحوال شتى، فمن ذلك:

القناعـة بقليل الدنيـا عن كـثيـرها، والاكـتفـاء بالقـوت الذى لا بُدَّ منه، والاختـصار علـى ما لا بدَّ منه من مـهنة الدنيا: من الملـبوس، والمـفروش، والمأكـول، وغير ذلك؛ واخـتيار الفـقر على الغنى اختـيارًا، ومعـانقة القِلَّة، ومجانبـة الكثرة، وإيثار الجوع على الشبع، والقليل عـلى الكثير، وترك العلوِّ والترفع، وبـذل الجاه، والشفـقة على الخلق، والتـواضع للصغـير والكبـير، والإيثار فى وقت الحاجة إليه، وأن لا يبالى من أكَلَ[1] الدنيا، وحُسْن[2] الظن بالله، والإخلاص فى المسابقة إلى الطاعات، والمـسارعة إلى جميع الخيرات، والتـوجـه إلى الله تعالـى، والانقطاع إليـه، والعكوف على بلائه والرضـا عن قضائه، والصبر على دوام المجاهدة ومخالفة الهوى، ومجانبة حظوظ النفس، والمخالقة لها؛ إذ وصفها الله تعـالى بأنها أمارةٌ بالسوء، والنظر إليها بأنها أعْدَى عدوك التى بين جنبَيْك، كما رُوى عن رسول الله ﷺ.

(١) لا يبالى بمن يستمتع بها من المترفين أو من يجرى وراءها من أصحاب الثراء، أى لا يغبطه ولا يحسده ولا ينظر إليه نظرة تقدير.

(٢) أى ومن آدابهم حسن الظن... إلخ.

فصل آخر

ثم إن من آدابهم وشمائلهم أيضًا مراعاة الأسرار، ومراقبة المَلك الجبار، ومداومة المحافظة على القلوب بنفى الخواطر المذمومة، ومساكنة الأفكار الشاغلة التى لا يَعْلَمها غير الله عز وجل، حتى يعبدوا الله تعالى بقلوب حاضرة، وهموم جامعة، ونيات صادقة، وقصود خالصة؛ لأن الله عز وجل لا يقبل من عباده من أعمالهم إلا ما كان لوجهه خالصًا، قال الله عز وجل: ﴿أَلاَ لله الدينُ الخَالِصُ﴾[1].

[فصل آخر]

ومن آدابهم وشمائلهم وتخصيصهم أيضًا الاعتراض لسلوك سُبُل أوليائه، والنزول فى منازل أصفيائه، ومباشرة حقيقة الحقوق ببذل الروح وتلف النفس، واختيار الموت على الحياة، وإيثار الذل على العز واستحباب الشدة على الرخاء؛ طمعًا فى الوصول إلى المراد، وأن لا يريد إلا ما يريد[2].

وهذا فى أول بادٍ من بوادى الحقائق وحقيقة الحقوق، أما ترى أن النبى ﷺ، حيث سأل حارثة [فقال]: «لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ [بأى شىء أجابه] فقال: عزفت نفسى عن الدنيا، فأسهرت ليلى، وأظمأت نهارى، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزًا، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة: كيف يتزاورون، وإلى أهل النار فى النار: كيف يتعاوون، فقال له النبى ﷺ: عرفت فالزم» أو كما روى فى الحديث، والله أعلم.

---

(١) الزمر: ٣

(٢) أى ما يريده الله.

باب فى تخصيص الصوفية من طبقات أهل العلم فى معانٍ أخر من العلم

قال الشيخ [أبو نصر] رحمه الله: وللصوفية أيضًا تخصيص من طبقات أهل العلم باستعمال آيات من كتاب الله تعالى متلوة، وأخبار عن رسول الله ﷺ مروية، ما نسختها آية، وما رفع حكمها خبر ولا أثر يدعو ذلك إلى مكارم الأخلاق، ويبحث عن معالى الأحوال وفضائل الأعمال، وينبئ عن مقامات عالية فى الدين، ومنازل رفيعة خص بذلك طائفة من المؤمنين، وتعلق بذلك جماعة من الصحابة والتابعين، وذلك أدب من آداب الرسول ﷺ، وخلق من أخلاقه إذ يقول ﷺ: إن الله أدبنى فأحسن أدبى، وإذ يقول الله عز وجل: ﴿**وإنك لعلى خُلُق عظيم**﴾ وذلك موجود فى دواوين العلماء والفقهاء، وليس لهم فى ذلك تفقه واستنباط كتفقههم فى سائر العلوم، وليس لغير الصوفية من أولى العلم القائمين بالقسط فى ذلك نصيب غير الإقرار به والإيمان بأنه حق، وذلك مثل حقائق التوبة وصفاتها، ودرجات التائبين وحقائقهم، ودقائق الورع وأحوال الورعين، وطبقات المتوكلين، ومقامات الراضين، ودرجات الصابرين، وكذلك فى باب الخشية والخضوع، والمحبة والخوف، والرجاء والشوق والمشاهدة، [والإنابة] والطمأنينة: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم**﴾[1]، واليقين والقناعة، ومدة أحوال أكثر من أن يحصى عددها؛ ولكل حال من ذلك أهل وطبقات، ولهم فى ذلك حقائق [ومشاهدات، وأحوال ومراقيات، وأسرار واجتهادات، ومقامات ودرجات متباينات]، وإرادات متفاوتة، وتفاضل فى قوة الإرادة، واعتراض الفترة، وغلبات الوجد؛ ولكل واحد من ذلك حد ومقام، وعلم وبيان، على مقدار ما قُسم له من الله عز وجل.

ومن أعظم النعم التى اختصوا بها دوام المراقبة وهى التحقق بمقام الإحسان.

---

(١) الأنفال: ٢

فصـــــل

وللصوفية أيضًا تخصيص فى معرفة الحرص والأمل ودقائقهما، ومعرفة النفس وأماراتها وخواطرها، ودقائق الرياء والشهوة الخفية والشرك الخفى، وكيف الخلاص من ذلك، وكيف وجه الإنابة إلى الله عز وجل، وصدق الالتجاء، ودوام الافتقار والتسليم والتفويض، والتبرى من الحول والقوة.

فصـــــل آخر

وللصوفية أيضًا مستنبطات فى علوم مشكلة على فهوم الفقهاء والعلماء، لأن ذلك لطائف مودعة فى إشارات لهم تخفى فى العبارة من دقتها ولطافتها؛ وذلك فى معنى العوارض والعوائق والعلائق والحجب وخبايا السر ومقامات الإخلاص، وأحوال المعارف وحقائق العبودية، ومحو الكون بالأزل، وتلاشى المحدث إذا قورن بالقديم وفناء رؤية الأعواض وبقاء رؤية المعطى [بفناء رؤية العطاء] وعبور الأحوال والمقامات، وجمع المتفرقات، وفناء رؤية القصد ببقاء رؤية المقصود [والإعراض عن رؤية الأعواض]، وترك الاعتراض، والهجوم على سلوك سبل منطمسة وعبور مفاوز مهلكة.

فالصوفية مخصوصون من أولى العلم القائمين بالقسط بحلٍّ هذه العُقد، والوقوف على المُشْكل من ذلك، والممارسة لها بالمنازلة والمباشرة، والهجوم عليها ببذل المُـهَج، حتى يُخبروا عن طعمها وذوقها ونقصانها وزيادتها، ويطالبوا من يدَّعى حالا منها بدلائلها، ويتكلموا فى صحيحها وسقيمها، وهذا أكثرُ من أن يتَهيَّأ لأحد أن يذكر قليلَهُ؛ إذ لا سبيل إلى كثيره.

وجميع ذلك موجود علْمُهُ فى كتاب الله عز وجلّ، وفى أخبار رسول الله ﷺ مفهوم عند أهله ولاينكره العلماء إذا استبحثوا عن ذلك.

وإنَّما أنكر علم التـصوُّف جماعـةٌ من المترسِّمـين بعلم الظاهر، لأنهم لم يعرفوا من كـتاب الله تعالى، ولا من أخبار رسـول الله ﷺ، إلا ما كان فى الأحكام الظاهرة وما يصلح للاحتجاج علـى المخالفين، والناس فى زماننا هذا إلى مـثل ذلك أمْيَـلُ لأنه أقْرَبُ إلى طلب الريـاسة واتِّخـاذ الجـاه عند العامـة والوصول إلى الدنيا.

وَقَلَّ من تراه يشـتغل بهـذا العلم الذى ذكـرنا، لأن هذا علم الخصـوص ممزوج بالمرارة والغـصص، وسماعه يُضعف الركبـتين، ويُحزن القلب ويدُمع العين، ويصـغر العظيم ويعظم الصـغير، فكيف اسـتعمـاله ومباشـرته، وذوقه ومنازلتـه، وليس للنفس فى منازلتـه حظ؛ لأنه منوط بأمـانة النفـوس، وفقـد الحسوس، ومجانبة المـراد، فمن أجل ذلك ترك العلماء هذا العلم، واشتغلوا باسـتـعـمـال علم يُخف عليـهم المـؤن، ويحـثـهم على التـوسـيع والرخص والتأويلات، وقد يكون أقرب إلى حظوظ البشرية، وأخف تحمُّلاً على النفوس التى جُبلت على متابعة الحظوظ والمنافرة عن الحقوق، والله تعالى أعلم.

باب الرد على من زعم أن الصوفية قوم جهلة وليس لعلم التصوف دلالة من الكتاب والأثَر

قال الشيخ [الإمام أبو نصر] رحمه الله: لا خلاف بين الأئمة فى أنَّ الله تبارك وتعالى ذكر فى كتابة: الصادقين والصادقات، والقانتين والقانتات، والخاشعين، والموقنين، والمخلصين، والمحسنين، والخائفين، والراجين، والواجلين، والعابدين، والسائحين، والصابرين، والراضين، والمتوكلين، والمخبتين، والأولياء، والمتَّقين، والمصطفين، [والمجتبين]، والأبرار، والمقرَّبين.

وقد ذكر الله تعالى المشاهدين فقال: ﴿أو ألْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهيدٌ﴾(١) وذكر الله المطمئنِّين فقال: ﴿ألاَ بِذِكرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(٢)، وذكر الله تعالى السابقين، والمقتصدين، والمسارعين إلى الخيرات.

وقال النبى ﷺ: [٦] «إنَّ من أمَّتى مُكلَّمين ومُحدَّثين، وإنَّ عُمَرَ منهم» وقال النبى ﷺ: [٧] «رُبَّ أشْعَثَ أغبَرَ ذى طِمْرَيْنِ لو أقسم على الله لأبره، وإن البَراء منهم» وقال لوابصة: [٨] «استَفْتِ قَلْبَكَ» ولم يقل لأحد غيره ذلك.

وقال النبى ﷺ: [٩] «يدخل بشفاعة رجل من أمَّتى الجنة مثلُ ربيعة ومُضر، ويقال له أُوَيْس القَرَنى» وفى الحديث: [١٠] «إن فى أُمَّتى من إذا قرأ ريتَ أنه يخشى الله تعالى، وإن طلق بن حبيب منهم» وقول النبى ﷺ: [١١] «يدخل من أمَّتى الجنَّة سبعون ألفًا بلا حساب، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين لايكتوون ولا يَسْتَرْقون وعلى ربِّهم يتوكلون» والآثار والأخبار فى مثل هذا تكثر.

(١) سورة ق: ٣٧
(٢) سورة الرعد: ٢٨

ولاخلاف أن هؤلاء كلهم فى أمَّة محـمد ﷺ ، ولو لم يكونوا فى الأمة موجـودين، واستحال كـونهم فى كل وقت، لم يذكرهم الله تعالى فى كـتابه، ولـم يصفهم رسول الله ﷺ .

ولمَّا رأينا أن اسم الإيمان قد شمل جمـيع المؤمنين، وأفرد هؤلاء بأسماء مختصـة من ذلك دل ذلك على تخصيصهم من عامَّـة المؤمنين الذين شملهم اسم الإيمان، ولايختلف أحد من الأئمة فى أن الأنبياء عليهم السلام الذين هم أعلَى درجةً مـن هؤلاء، وأقْرَبُ عند الله تعالى مـنهم، أنهم كانوا بشـرًا يجرى عليهم ما يجرى على سائر البشر من الأكل والنوم والحوادث.

وإنما وقع التخـصيص للأنبياء صلوات الله عليهم أجمـعين، ولسائر هؤلاء الذين ذكرتُهم لسرٍّ بينهم وبين مـعبودهم، ولزيادة يقينهم وإيمانهم بمـا خاطبهم الله تعالى به وندبهم إليه، إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم ينفردون عن هؤلاء بتخصيص الوحى والرسالة ودلائل النبـوَّة، فلا يجوز لأحد أن يزاحمهم فى ذلك، والله أعلم.

باب فى ذكر اعتراض الصوفية على المتفقه، وبيان الفقه فى الدين، ووجه ذلك بالحجة

قال الشيخ [أبو نصر] رحمة الله: رُوى عن النبى ﷺ أنه قال: «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين» وبلغنى عن الحسن البصرى رحمه الله: أنه قيل له: فلان فقيه، فقال الحسن: وهل رأيتَ فقيهًا قط؟ إنَّما الفقيه الزاهد فى الدنيا، الراغب فى الآخرة، البصير بأمر دينه، وقول الله تعالى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ﴾[1] فالدين اسم يشتمل على جميع الأحكام ظاهرًا وباطنًا.

وليس التفقُّه فى أحكام هذه الأحوال ومعانى المقامات التى تقدَّم ذِكْرُها بأقلَّ فائدةً من التفقه فى أحكام الطلاق والعتاق والظهار والقصاص والقسامة والحدود، لأنَّ تلك أحكام ربَّما لا تقع فى العمر حادثة تحتاج إلى علم ذلك، فإذا وقعت تلك الحادثة فمن سأل عنها قَلَّدَ فى ذلك، وأَخَذَ بقول بعض الفقهاء، فقد سقط عنه فرضُ ذلك إلى أن تقع به حادثة أُخرَى؛ وهذه الأحوال والمقامات والمجاهدات التى يتفقه فيها الصوفية ويتكلَّمون فى حقائقها، فالمؤمنون مفتقرون إلى ذلك، ومعرفة ذلك واجبة عليهم، وليس لذلك وقت مخصوص دون وقت، وذلك مثل الصدق والإخلاص والذكر ومجانبة الغفلة وغير ذلك ليس لها وقت معلوم، بل يجب على العبد فى كلِّ لحظة وخطرة أن يعلم أيش قصْدُهُ وإرادته وخاطره، فإن كان حقا من الحقوق فواجبٌ عليه أن يلزمه، وإن كان حظّا من الحظوظ فواجبٌ عليه مجانبته؛ قال الله تعالى لنبيه وصفيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[2] فمن ترك خالا من هذه الأحوال ما تركها إلا من غلبة الغفلة على قلبه.

(١) التوبة: ١٢٢

(٢) الكهف: الآية ٢٨

واعلم أن مستنبطات الصوفية فى معانى هذه العلوم ومعرفة دقائقها وحقائقها ينبغى أن تكون أكثر من مستنبطات الفقهاء فى معانى أحكام الظاهر، لأن هذا العلم ليس له نهاية، لأنه إشارات وبواد وخواطر وعطايا وهبات يغرفها أهلها من بحر العطاء، وسائر العلوم لها حدٌّ محدود، وجميع العلوم يؤدِّى إلى علم التصوف [وعلم التصوف لا يؤدِّى إلا إلى نوع من علم التصوف] وليس له نهاية، لأن المقصود ليس له غاية، وهو علم الفتوح يفتح الله تعالى على قلوب أوليائه فى فهم كلامه ومستنبطات خطابه ما شاء كيف شاء، قال الله عز وجلَّ: ﴿قُلْ لَو كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا﴾[1]، وقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2]، والزيادة من الله تعالى لا نهاية لها، والشكر نعمة تستوجب شكراً مستوجباً لمزيدٍ لا نهاية له، وبالله التوفيق.

---

(١) الكهف: ١٠٩ (٢) ابراهيم: ٧

باب ذكر التخصيص فى علوم الدين وتخصيص كل علم بأهله، والرد على من أنكر علمًا برأيه ولم يدفع ذلك إلى أهله وإلى من يكون ذلك من شأنه

قال الشيخ [الإمام أبو نصر] رحمه الله: أنكرت جماعة من العلماء أن يكون فى علم الشريعة تخصيص، ولا خلاف بين [هذه] الأمة فى أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بإبلاغ ما أنزل عليه فقال: ﴿يَأَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾(١).

ورُوى عن النبى ﷺ أنه قال: [١٣] «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا» فلو كان الذى علم مما لا يعملون من العلوم التى أمره بالإبلاغ، لأبلغ ولو جاز لأصحابه أن يسألوه عن ذلك العلم لسألوه.

ولا خلاف بين أهل العلم أن فى أصحاب رسول الله ﷺ من كان مخصوصًا بنوع من العلم، كما كان حُذَيفة مخصوصًا بعلم أسماء المنافقين كان قد أسرَّه إليه رسول الله ﷺ، حتى كان يسأله عُمَرُ رضي الله عنه فيقول: هل أنا منهم؟.

وروى عن على بن أبى طالب رضي الله عنه أنه قال: [١٤] «علَّمنى رسول الله ﷺ سبعين بابًا من العلم لم يعلم ذلك أحدًا غيرى».

وقد ذكر هذا الباب بتمامه فى آخر الكتاب والمراد من تكراره هاهنا أن العلم الثابت بين أصحاب الحديث، والفقهاء، والصوفية هو علم الدين.

ولكلِّ صنف من أهل العلم فى علمه دواوين ومصنَّفات [وكتُب] وأقاويل، ولكلِّ صنف منهم أئمة مشهورون قد أجمع أهل عصرهم على إمامتهم، لزيادة علمهم وفهمهم.

(١) المائدة: ٦٧

ولا خلاف فى أن أصحاب الحديث إذا أشكل عليهم علم من علوم الحديث وعِلَل الأخبار ومعرفة الرجال لا يرجعون فى ذلك إلى الفقهاء، كما أن الفقهاء لو أشكل عليهم مسألة فى الخَلِيَّة والبَرِّيَّة والدور والوصايا لا يرجعون فى ذلك إلى أصحاب الحديث، وكذلك من أشكل عليه علم من علوم هؤلاء الذين تكلموا فى مواجيد القلوب ومواريث الأسرار ومعاملات القلوب، ووصفوا العلوم واستنبطوا فى ذلك بإشارات لطيفة ومعانٍ جليلة فليس له أن يرجع فى ذلك إلا إلى عالم ممن يكون هذا شأنه، ويكون ممن قد مارس هذه الأحوال ونازلها واستبحث عن علومها ودقائقها، فمن فعل غير ذلك فقد أخطأ، وليس لأحد أن يبسط لسانه بالوقيعة فى قوم لا يعرف حالهم، ولم يعلم علمهم ولم يقف على مقاصدهم ومراتبهم فيهلك ويظن أنه من الناصحين، أعاذنا الله تعالى وإياكم.

باب الكشف عن اسم الصوفية

ولِمَ سُمُّوا بهذا الاسم، ولِمَ نُسبوا إلى [هذه] اللبسة

قال الشيخ رحمه الله: إن سأل سائلٌ فقال: قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث، ونسبت الفقهاء إلى الفقه فلِمَ قلت: الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم، ولم تُضِف إليهم حالا كما أضفت الزهد إلى الزهّاد والتوكل إلى المتوكلين والصبر إلى الصابرين؟ فيقال له: لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم، وذلك لأنهم معدن جميع العلوم، ومحل جميع الأحوال المحمودة، والأخلاق الشريفة، سالفًا ومستأنفًا، وهم مع الله تعالى فى الانتقال من حال إلى حال، مستجلبين للزيادة؛ فلما كانوا فى الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين اسمًا دون اسم، فلأجل ذلك ما أضفتُ إليهم حالا دون حال، ولا أضفتهم إلى علم دون علم، لأنى لو أضفتُ إليهم فى كل وقت حالا [هو] ما وجدت الأغلب عليهم من الأحوال والأخلاق والعلوم والأعمال وسميتهم بذلك، لكان يلزم أن أسميهم فى كل وقت باسم آخر، وكنت أضيف إليهم فى كل وقت حالا دون حال على حسب ما يكون الأغلب عليهم، فلمَّا لم يكن ذلك نسبتهم إلى ظاهر[1] اللبسة، لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء، ويكثر فى ذلك الروايات والأخبار، فلمَّا أضفتهم إلى ظاهر اللبسة كان ذلك اسمًا مُجْملا عامّا مخبرًا عن جميع

---

(١) هل الصوفية نسبة إلى الصوف؟ ذلك ما اختلف فيه مؤرخو التصوف فبعضهم ينسبها إلى الصوف وبعضهم يرجعها إلى «الصفة» وآخرون يرجعونها إلى الصفاء، ويريد بعض المتأخرين أن ينسبها إلى كلمة: «سيوزوفى» التى تعنى الإشراق، وسيذكر المؤلف بعض هذه الآراء فيما بعد.

والأعمال والأخـلاق والأحوال الشريفة المحمـودة، ألا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾[الآية][1] وكانوا قومًا يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ولم ينسبهم إلى نوع من العلـوم والأعمال والأحوال التى كانوا مترسمين؛ فكذلك الصوفية عندى، والله أعلم.

نُسبـوا إلى ظاهر اللباس، ولم ينسبـوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التى هم بهـا متـرسمـون؛ لأن لبْس الصوف كـان دأب الأنبيـاء عليهم الـسلام والصديقين وشعار [المساكين] المتنسكين.

(١) المائدة: ١١٢.

باب الرد على من قال:

لم نسمع بذكر الصوفية فى القديم وهو اسم مُحْدَث

إن سأل سائلٌ فقال: لم نسمع بذكر الصوفية فى أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم أجمعين، ولا فيمن كان بعدهم، ولا نعرف إلا العبَّاد والزهَّاد والسيَّاحين والفقراء؛ وما قيل لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ: صوفىٌّ، فنقول وبالله التوفيق:

الصُّحبة مع رسول الله ﷺ لها حرمة، وتخصيص من شمله ذلك، فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرفُ من الصحبة، وذلك لشرف رسول الله ﷺ وحرمته، ألا ترى أئمة الزهَّاد والعبَّاد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين، وغير ذلك، وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول الله ﷺ، فلمَّا نُسبوا إلى الصحبة التى هى أجلُّ الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التى هى أجلُّ الأحوال **وبالله التوفيق.**

وأما قول القائل: إنه اسم محدث أحدثه البغداديون فمحال، لأن فى وقت الحسن البصرى رحمه الله كان يُعرف هذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم، وقد رُوِى عنه أنه قال: رأيتُ صوفيًا فى الطواف فأعطيته شيئًا فلم يأخذه وقال: معى أربعة دوانيق فيكفينى ما معى.

ورُوِى عن سفيان الثورى رحمه الله أنه قال: لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء، وقد ذكر فى الكتاب الذى جُمع فيه أخبار مكة عن محمد ابن إسحاق بن يسار، وعن غيره يذكر فيه حديثًا: أنه قبل الإسلام قد خلت

مكة فى وقت من الأوقات، حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجىء من بلد بعيد رجل صوفىٌ فيطوف بالبيت وينصرف؛ فإن صح ذلك فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم، وكان يُنسب إليه أهل الفضل والصلاح، والله أعلم.

باب إثبات علم الباطن

والبيان عن صحة ذلك بالحجة

قال الشيخ رحمه الله: أنكرت طائفة من أهل الظاهر وقالوا: لا نعرف إلا علم الشريعة الظاهرة التي جاء بها الكتاب والسنة، وقالوا: لا معنى لقولكم علم الباطن وعلم التصوف، فنقول، وبالله التوفيق:

إن علم الشريعة علم واحد، وهو اسم واحد يجمع معنيَين: الرواية والدراية؛ فإذا جمعتَهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال: الظاهرة والباطنة، ولا يجوز أن يجرَّد القول فى العلم: أنه ظاهر أو باطن؛ لأن العلم متى ما كان فى القلب فهو باطن فيه إلى أن يجرى ويظهر على اللسان؛ فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر، غير أنَّا نقول:

إن العلم: ظاهر، وباطن، وهو علم الشريعة الذى يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة، والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة، وهى العبادات والأحكام، مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك؛ فهذه العبادات، وأما الأحكام فالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض القصاص وغيرها، فهذا كله على الجوارح الظاهرة التى هى الأعضاء، وهى الجوارح، وأما الأعمال الباطنة فكأعمال القلوب وهى المقامات والأحوال، مثل التصديق والإيمان واليقين والصدق والإخلاص

والمعرفة والتوكل والمحبة والرضا، والذكر، والشكر، والإنابة، والخشية، والتقوى، والمراقبة، والفكرة والاعتبار، والخوف، والرجاء، والصبر، والقناعة، والتسليم، والتفويض، والقرب، والشوق، والوجد، والوجل، والحزن، والندم، والحياء، والخجل، والتعظيم، والإجلال، والهيبة، ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه وبيان وفهم وحقيقة ووجد، ويدل على صحة كل عمل منها من الظاهر والباطن آيات من القرآن وأخبار عن الرسول ﷺ علمه من علمه وجهله من جهله؛ فإذا قلنا: علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي الجارحة الباطنة، وهي القلب، كما أنّا إذا قلنا: علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة، وهي الأعضاء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1] فالنعمة الظاهرة ما أنعم الله تعالى بها على الجوارح الظاهرة من فعل الطاعات، والنعمة الباطنة ما أنعم الله تعالى بها على القلب من هذه الحالات، ولا يستغني الظاهر عن الباطن، ولا الباطن عن الظاهر، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[2]، فالعلم المستنبط هو العلم الباطن، وهو علم أهل التصوف، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك، ونحن نذكر إن شاء الله طرفًا من ذلك، فالعلم ظاهر وباطن، والقرآن ظاهر وباطن، وحديث رسول الله ﷺ ظاهر وباطن، والإسلام ظاهر وباطن، ولأصحابنا في معنى ذلك استدلالات واحتجاجات من الكتاب والسنة والعقل، وشرحه يطول ويخرج على حدّ الاختصار إلى حد الإكثار، وفيما قلناه كفاية، وبالله التوفيق.

---

(١) لقمان: ٢٠.

(٢) النساء: ٨٣.

باب التصوف: ما هو نعته وماهيته؟

قال الشيخ رحمه الله: فأما التصوف ونعته وماهيته فقد سئل محمد بن على القصاب، وهو أستاذ الجنيد، رحمه الله، عن التصوف ما هو؟ قال: أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام.

وسُئِل الجنيد رحمهُ الله عن التصوُّف، فقال: أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة.

وسُئل رُوَيْم بن أحمد رحمة الله عن التصوف، فقال: استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده.

وسئل سمنون، رحمه الله، عن التصوف، فقال: أن لا تملك شيئًا ولا يملكك شيء، وسئل أبو محمد الجريرى رحمه الله عن التصوف، قال: الدخول فى كل خُلق سنى والخروج من كل خلق دنى.

وسئل عمرو بن عثمان المكى رحمة الله عن التصوف، فقال: أن يكون العبد فى كل وقت بما هو أولى فى الوقت.

وسئل على بن عبد الرحيم القناد رحمة الله عن التصوف، فقال: نشر مقام واتصال بدوام.

باب صفة الصوفية، ومن هم؟

قال الشيخ رحمه الله: وأما صفة الصوفية ومن هم: فقد قيل لعبد الواحد ابن زَيد، كما بلغنى، وكان ممن يصحب الحسن رحمه الله، وكان من أجلة أصحابه: مَنِ الصوفية عندك؟ فقال: القائمون بعقولهم على همومهم والعاكفون عليها بقلوبهم، المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم، هم الصوفية.

وسئل ذو النون المصرى رحمة الله عن الصوفى، فقال: هو الذى لا يتعبه

طلب ولا يزعجه سلب، وقال أيضًا؛ هم قوم آثروا الله تعالى على كل شىء فآثرهم الله على كل شىء.

وقيل لبعضهم: من أصحبُ؟ فقال: اصحب الصوفية، فإن للقبيح عندهم وجوهًا من المعاذير، وليس للكثير عندهم موقع فيرفعوك به فتعجب نفسك.

وسئل الجنيد بن محمد رحمه الله عن الصوفية: من هم؟ فقال: أثرة الله فى خلقه يخفيها إذا أحب ويظهرها إذا أحب.

وقيل لأبى الحسين أحمد بن محمد النورى رحمه الله: من الصوفى؟ فقال: من سمع السماع وآثر بالأسباب.

وأهل الشام يسمون الصوفية فقراء، ويقولون قد سماهم الله تعالى فقراء فقال: ﴿لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِم﴾[1] وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ الله﴾[2].

وقيل لأبى عبد الله أحمد بن محمد بن يحيى الجلاء، رحمه الله: ما معنى الصوفى؟ قال: ليس نعرفه في شرط العلم، ولكن نعرف فقيرًا مجردًا من الأسباب كان مع الله عز وجل بلا مكان ولا يمنعه الحق من علم كل مكان سُمى صوفيًا.

وقد قيل: كان فى الأصل صفوى فاستُثْقِل ذلك فقيل: صوفى.

وسئل أبو الحسن القناد رحمة الله عن معنى الصوفى فقال: مأخوذ من الصفاء وهو القيام لله عز وجل فى كل وقت بشرط الوفاء.

وقال بعضهم: من إذا استقبله حالان أو خُلقان حسنان فيكون مع الأحسن والأعلى.

---

(١) تكملة الآية: ﴿وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾ (الحشر: ٨)

(٢) تكملة الآية: ﴿لا يستطيعون ضربًا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ (البقرة ٢٧٥)

وسئل آخر عن معنى الصوفى فقال: معناه أن العبد إذا تحقق بالعبودية وصافاه الحق حتى صفا من كدر البشرية نزل منازل الحقيقة وقارن أحكام الشريعة، فإذا فعل ذلك فهو صوفىٌّ، لأنه قد صوفى.

قال الشيخ رحمه الله: فإذا قيل لك: الصوفية من هم فى الحقيقة؟ صِفْهم لنا فقال: هم العلماء بالله وبأحكام الله، العاملون بما علمهم الله تعالى: المتحققون بما استعملهم الله عز وجل، الواجدون، بما تحققوا، الفانون بما وجدوا، لأن كل واجد قد فنى بما وجد.

وقال القناد رحمة الله: التصوف اسم قد وقع على ظاهر اللبسة، وهم متفاوتون فى معانيهم وأحوالهم.

وسئل الشِّبْلى رحمة الله: لِمَ سُميت الصوفية بهذا الاسم؟ فقال: لبُقيا بقيت عليهم من نفوسهم، ولولا ذلك لما لاقت بهم الأسماء، ولا تعلقت بهم.

وقد قيل أيضًا: إن الصوفية هم بقية من بقايا أهل الصُّفَّة.

وأما من قال: إنه اسم واقع على ظاهر اللبسة فقد رُوى فى ذلك أخبار فى ذكر من لبس الصوف، واختار لبسه من الأنبياء والصالحين وذكره يطول.

وقد أجاب عن التصوف: ما هو؟ جماعة بأجوبة مختلفة، منهم إبراهيم بن المولد الرقى، قد أجاب عنها بأكثر من مائة جواب، وفيما ذكرناه كفاية؛ وقد قال على بن عبد الرحيم القناد رحمه الله فى التصوف واندراس أهله شعرًا:

أَهْلُ التَّصَوُّفِ قد مَضَوْا صارَ التَّصَوُّفُ مَخْرَقَهْ
صارَ التَّصَوُّفُ صَيْحَةً وتَوَاجُدًا ومُطَبَّقَهْ
مَضَتِ العُلومُ فلا عُلومَ ولا قُلوبٌ مُشْرِقَهْ
كَذَبَتْكَ نَفسُكَ ليسَ ذَا سَنَنَ الطَّرِيقِ الْمَخْلَقَهْ
حَتَّى تَكُونَ بعَيْنِ مَنْ عَنْهُ العُيُونُ المُحْدِقَهْ
تَجْرِى عَلَيْكَ صُرُوفُهُ وهُمُومُ سِرِّكَ مُطْرِقَهْ

ولبعض المشايخ فى التصوف ثلاثة أجوبة: جواب بشرط العلم، وهو تصفية القلوب من الأكدار، واستعمال الخُلق مع الخليفة، واتباع الرسول فى الشريعة، وجواب بلسان الحقيقة، وهو عدم الأملاك، والخروج من رِق الصفات، والاستغناء بخالق السموات، وجواب بلسان الحق، أصفاهم بالصفاء عن صفاتهم، وصفاهم من صفاتهم، فسموا صوفيةً.

وقلت للحصرى رحمه الله: من الصوفى عندك؟ قال: الذى لا تقله الأرض ولا تظله السماء، بمعناه: أنه، وإن كان على الأرض وتحت السماء فالله عز وجل الذى يقله بالأرض ويظله بالسماء لا السماء ولا الأرض.

وعن أبى بكر الصديق ﷺ أنه كان يقول أى أرض تقلنى؛ وأى سماء تظلنى إذا قلت فى كتاب الله عز وجل برأيى.

باب التوحيد، وصفة الموحد، وحقيقته، وكلامهم فى معنى ذلك

قال الشيخ رحمه الله: بلغنى عن يوسف بن الحسين الرازى رحمه الله أنه قال: قام رجل بين يدى ذى النون المصرى رحمه الله فقال: خبرنى عن التوحيد: ما هو؟ قال: هو أن تعلم أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شىء صنعه ولا علة لصنعه، وليس فى السموات العلى ولا فى الأرضين السفلى مدبر غير الله تعالى، ومهما تصور وهمك فالله تعالى بخلاف ذلك، أو قال غير ذلك.

وقال الجنيد رحمه الله، وقد سئل عن التوحيد، فقال: إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته بأنه الواحد الذى لم يلد ولم يولد بنفى الأضداد والأنداد والأشباه وما عُبد من دونه، بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل، إلهًا واحدًا صمدًا فردًا ليس كمثله شىء وهو السميع البصير.

وسئل جنيد رحمه الله عن التوحيد مرة أخرى، فقال: معنى تضمحل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم، ويكون الله تعالى كما لم يزل.

قال أبو نصر رحمه الله: فالجوابان اللذان لذى النون والجنيد رحمهما الله فى التوحيد هما ظاهران، أجابا عن توحيد العامة، وهذا الجواب الذى ذكرناه أشار إلى توحيد الخاصة.

وقد سئل الجنيد رحمه الله عن توحيد الخاصة، فقال: أن يكون العبد شبحًا بين يدى الله عز وجل تجرى عليه تصاريف تدبيره فى مجارى أحكام قدرته فى لُجَج بحار توحيده بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له وعن استجابته بحقائق وجود وحدانيته فى حقيقة قربه بذهاب حسه وحركته، لقيام الحق له فيما أراد منه، وهو أن يرجع آخر العبد إلى أوله، فيكون كما كان قبل أن يكون؛ وقال أيضًا، التوحيد هو الخروج من ضيق رسوم الزمانية إلى سعة فِناء السرمدية.

فإن قال قائل: ما معنى قوله: يرجع آخر العبد إلى أوله فيكون كما كان قبل أن يكون، فيقول: بيان ذلك فيما قال الله عز وجل: ﴿وإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَم مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِيَّتَهُمْ﴾[1].

قال الجنيد رحمه الله فى معنى ذلك: فمن أين كان وكيف كان قبل أن يكون؟ وهل أجابت إلا الأرواح الظاهرة بإقامة القدرة وإنفاذ المشيئة؟ فهو الآن فى الحقيقة كما كان قبل أن يكون، وهذا غاية حقيقة التوحيد للواحد: أن يكون العبد كما لم يكن، ويبقى الله تعالى كما لم يزل؛ قال رجل للشبلى رحمه الله، واسمه دُلَف بن جَحْدَر: يا أبا بكر أخبرنى عن توحيد مجرد بلسان حق مفرد، فقال: ويحك! من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو مُلحد، ومن أشار إليه ثَنَوى، ومن سكت عنه فهو جاهل، ومن وهم أنه واصلٌ فليس له حاصلٌ، ومن أومأ إليه فهو عابد وَثَنٍ، ومن نطق فيه فهو غافل، ومن ظن أنه قريب فهو بعيد، ومن تواجد فهو فاقد، وكل ما ميزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم فى أتم معانيكم فهو مصروف مردود إليكم محدث مصنوع مثلكم.

وإن أخذنا فى شرح ما قال الشبلى رحمه الله كما يجب فيطول ذلك، ولكن على الإيجاز والاختصار كأنه يريد بما أجاب عن التوحيد: إفراد القديم عن المُحْدَث، وأن ليس للخلق طريق إلا ذكره ووصفه ونعته، على مقدار ما أبْدَى إليهم ورسم لهم.

قال الشيخ رحمه الله: ووجدت ليوسف بن الحسين فى التوحيد ثلاث أجوبة:

جواب منها فى توحيد العامة؛ وهو الانفراد بالوحدانية بذهاب رؤية الأضداد والأنداد والأشباه الأشكال مع السكون إلى معارضة الرغبة والرهبة بذهاب حقيقة التصديق لأنه ببقاء حقيقة التصديق لا يسكن إلى معارضة الرغبة والرهبة.

(١) التكملة: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ (الأعراف: ١٧٢).

والجواب الثانى: توحيد أهل الحقائق على الظاهر، وهو الإقرار بالوحدانية بذهاب رؤية الأسباب والأشباه بإقامة الأمر والنهى فى الظاهر والباطن بإزالة معارضة الرهبة والرغبة مما سواه بقيام شواهد الحق مع قيام شواهد الدعوة والاستجابة، فإن قيل: ما معنى قوله: إزالة معارضة الرهبة والرغبة وهما حقان؟ فيقال: هما حقان، هما فى موضعهما كما هما، ولكن قَهَرَهما سلطان الوحدانية كما قهر سلطان ضوء الشمس ضوء الكواكب وهى فى موضعها.

والجواب الثالث: توحيد الخاصة، وهو أن يكون العبد بسره ووجده وقلبه كأنه قائم بين يدى الله عز وجل تجرى عليه تصاريف تدبيره، وتجرى عليه أحكام قدرته فى بحار توحيده بالفناء عن نفسه وذهاب حسه بقيام الحق له فى مراده منه، فيكون كما كان قبل أن يكون، يعنى فى جريان أحكام الله عليه وإنفاذ مشيئته فيه.

وبيان ذلك كما قال الجُنَيْد رحمه الله فى قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ﴾ الآية وقد ذكرناه.

قال الشيخ رحمه الله: ولهم فى حقيقة التوحيد لسان آخر، وهو لسان الواجدين؛ وإشارتهم فى ذلك تبعد عن الفهم ونحن نذكر من ذلك طَرَفًا كما يُمكن شرحه، وهذا العلم أكثرُه إشارة لا تخفى على من يكون أهله، فإذا صار إلى الشرح والعبارة يخفى ويذهب رَوْنقه، وإنما دعانى إلى شرحه لأنى وضعته فى الكتاب، والكتاب ربما ينظر فيه من يفهم ومن لا يفهم فيهلك، وهو مثل قول رُوَيْم بن أحمد بن يزيد البغدادى رحمه الله، حين سئل عن التوحيد، فقال: مَحْوُ آثار البشرية، وتجرد الألوهية، وإنما يريد بقوله: محو آثار البشرية تبديل أخلاق النفس، لأنها تدعى الربوبية بنظرها إلى أفعالها، كقول العبد: أنا وأنا، لا يقول إلا الله، إذ الإنية لله عز وجل، فهذا معنى محو آثار البشرية، ومعنى قوله تجرد الألوهية يعنى إفراد القديم عن المُحدثات.

وقال آخر: التوحيد نسيان ما سوى التوحيد بالتوحيد، يعنى فيما يوجب حُكْم الحقيقة؛ وقال: الوحدانية بقاء الحق بفناء كل ما دون، يعنى: فناء يوجب فناء، يوجب حُكْم الحقيقة، وقيل: الوحدانية بقاء الحق وفناء كل ما دونه، يعنى: فناء العبد عن ذكر نفسه وقلبه بدوام ذكر الله تعالى وتعظيمه.

وقال آخر: ليس فى التوحيد خَلْقٌ، وما وحد الله غير الله، والتوحيد للحق من الخلق طُفَيْلىٌّ، قلنا: وبيان ذلك وما أشار إليه هؤلاء والله أعلم فى قول الله تعالى: ﴿شَهِدَ الله أَنَّه لاَ إله إلا هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وأولواْ الْعِلْم قَائِمًا بالقِسْط لاَ إله إلا هُوَ الْعزِيزُ الْحكيمُ﴾[1] فقد شهد لنفسه بالوحدانية قبل الخلق، فحقيقة التوحيد من حيث الحق ما شهد الله لنفسه بالوحدانية قبل الخلق، ومن حيث الخلق فقد وحدوه حقيقة ووجدًا على مقدار ما قسم لهم وأرادهم بذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْملاَئِكَةُ وَأُولُواْ الْعِلْمِ﴾ وأما من طريق الإقرار فأهل القبلة متساوون فيها، والمعول على ما فى القلب لا على ما فى اللسان، وقد قال الشبلى رحمه الله: ما شم روائح التوحيد من تصورٍ عنده التوحيد وشاهد المعانى وأثبت الأسامى وأضاف الصفات وألزم النعوت، ومن أثبت هذا كله فهو موحد حكما ورسمًا لا حقيقة ووجدًا.

قال الشيخ رحمه الله: معناه والله أعلم: أنه يثبت الصفات والنعوت على رسم ما رسم له من ذلك، ولا يثبتها من حيث الإدراك والإحاطة[2] والتوهم.

وقال غيره من العارفين: أما التوحيد: فهو الذى يُعمِّى البصير، ويحير العاقل، ويُدهش الثابت.

قلت: لأنه من تحقق بذلك وجد فى قلبه من عظمة الله تعالى وهيبته ما يدهشه ويحير عقله إلا من يُثبته الله تعالى.

(١) آل عمران: ١٨.

(٢) فى نسخة أخرى والتفهم.

وقال أبو سعيد أحمد بن عيسى الخرّاز رحمه الله:

أول مقام لمن وَجَدَ علم التوحيد وحقّق بذلك: فناء ذكر الأشياء عن قلبه وانفراده بالله عز وجل.

وقال أيضًا: أول علامة التوحيد: خروج العبد عن كلّ شيء، ورد جميع الأشياء إلى متوليها، حتى يكون المتولّي بالمتولى ناظرًا إلى الأشياء قائمًا بها متمكنًا فيها، ثم يُخفيهم فى أنفسهم من أنفسهم، ويُميت أنفسهم فى أنفسهم ويصطنعهم لنفسه فهذا أول دخول فى التوحيد من حيث ظهور التوحيد بالديمومية.

قال: وبيان ذلك، والله أعلم: فناء ذكر الأشياء بذكر الله تعالى؛ ومعنى خروجه عن كل شىء يعنى لا يضيف إلى نفسه واستطاعته شيئًا، ويرى قوام الأشياء بالله فى الحقيقة لا بهم، ومعنى قوله: حتى يكون المتولى بالمتولى ناظرًا إلى الأشياء قائمًا بها يشير إلى تولية الحق له وما يستولى عليه من حقائق التوحيد، حتى يرى قوام الأشياء بالله عز وجل لا بذواتها، ألا ترى إلى قول القائل:

وفى كلِّ شىء له شاهد
يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ واحِدُ

وأما قوله: «متمكنًا فيها» يريد بذلك أن التلوين لا يجرى عليه فى نظره إلى الأشياء؛ فإن قوامها بالله عز وجل، ثم قال: «يخفيهم فى أنفسهم من أنفسهم، ويميت أنفسهم فى أنفسهم» يعنى لا يحسون حسًا، ولا يلاحظون حركة من حركاتهم الظاهرة والباطنة يومأ إليها فى الحقيقة إلا وهى منطمسة تحت سلطان القدرة وإنفاذ المشيئة، وإن أضيفت إلى المضاف إليه.

وقال الشبلى، رحمه الله لرجل: تدرى لم لا يصح لك التوحيد؟

قال: لا.

قال: لأنك تطلبه بإياك.

وقال، أيضًا: لا يصح التوحيد إلا لمن كان جحدُه إثباتَه، فسئل عن الإثبات فقال: إسقاط الياءات.

معناه، والله أعلم، أن الموحد فى الحقيقة يجحد إثباته إياه: يعنى إثبات نفسه فى جميع الأشياء بسره كقوله: بى ولى ومنى وإلىَّ وعلىَّ وفىَّ وعنى، فيسقط هذه الياءات ويجحدها بسره، وإن كانت جارية، من حيث الرسم على لسانه.

وقال الشبلى رحمه الله، لرجل، أيضًا: توَحِّدُ توحيدَ البشرية أو توحيد الإلهية؟ فقال: فيهما فرقٌ؟ فقال: نعم.

توحيد البشرية: خوف العقوبات، وتوحيد الألوهية توحيد التعظيم.

قال الشيخ رحمه الله: قلتُ: إن معناه أن من صفة البشرية طلب العوض ورؤية الفعل والطمع فى غير الله عز وجل؛ وليس من وحد الله تعالى إجلالا لله كمن وحده خوفًا من عقوبته، وإن كان الخوف من عذاب الله عز وجل حالة شريفة.

وقال الشبلى رحمه الله: من اطلع على ذرة من علم التوحيد ضعف عن حمل بقة لثِقَلِ ما حمل.

وقال مرة أخرى: من اطلع على ذرة من علم التوحيد حمل السموات والأرض على شعرة من جفن عينيه.

وقال: معناه، والله أعلم: أن السموات والأرض وجميع ما خلق الله عز وجل يتصاغر فى عينه، عندما يشاهد بقلبه بأنوار التوحيد من عظمة الله عز وجل.

وقد روى: [١٥] «أن لجبريل، عليه السلام، ستمائة جناح، جناحان منها إذا نشرهما غطى بهما المشرق والمغرب».

وقد روى، أيضًا فى الحديث عن ابن عباس ﭬ: [١٦] «أن صورة جبريل عليه السلام فى قائمة الكرسى مثل الزردة فى الجوشن».

ويقال: [١٧] «إن جبريل عليه السلام والعرشَ والكرسى، كل هذا مع الملكوت الذى ظهر لأهل العلم بالله عز وجل، فإنما هى كرَمْلة فيما وراء الملكوت بل أقل من ذلك».

وقال أبو العباس أحمد بن عطاء البغدادى رحمه الله فى بعض كلامه: علامة حقيقة التوحيد نسيان التوحيد، وصدق التوحيد أن يكون القائم به واحدًا يريد بذلك: أن ينسى العبد رؤية توحيده فى توحيده برؤية قيام الله عز وجل له بذلك قبل خلقه؛ لأنه لو لم يُرِدْهم بذلك ما أرادوه[١] ولا وحدوه.

ولمشايخنا فى التوحيد مصنفات، وقد قصدنا إلى القليل المشكل من ألفاظهم ليُستدرَك به ما لم أذكره، إن شاء الله.

(١) يناسب هذا قول الله تعالى: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾.

باب ما قالوا في المعرفة، وصفة العارف
وحقيقة ذلك ببيانها

سئل أبو سعيد الخراز رحمه الله عن المعرفة فقال:

المعرفة تأتي من وجهين: من عين الجود، وبذل[1] المجهود.

وسئل أبو تراب النخشبي رحمه الله عن صفة العارف فقال:

هو الذي لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء.

وقال أحمد بن عطاء، رحمه الله:

المعرفة معرفتان: معرفة حق، ومعرفة حقيقة، فمعرفة الحق: معرفة وحدانيته، على ما أبرز للخلق من الأسامي والصفات، ومعرفة الحقيقة على أن لا سبيل إليها؛ لامتناع الصمدية وتحقيق الربوبية؛ لقوله عز وجل:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[2].

قال أبو نصر، رحمه الله: معنى قوله: لا سبيل إليها يعنى إلى المعرفة على الحقيقة؛ لأن الله تعالى أبرز لخلقه من أسمائه وصفاته ما علم أنهم يطيقونه؛ ذلك لأن حقيقة معرفته لا يطيقها الخلق، ولا ذرة منها؛ لأن الكون بما فيه يتلاشى عند ذرة من أول بادٍ يبدو من بوادى سطوات عظمته، فمن يطيق معرفة من يكون هذا صفة من صفاته؟ فلذلك قال القائل:

ما عرفه غيره ولا أحبه سواه؛ لأن الصمدية ممتنعة عن الإحاطة والإدراك، قال الله عز وجل:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾[3].

---

(١) هذه الفكرة الصحيحة فيما يتعلق بالمعروف: فبعضها لا شك هبة من الله، وبعضها كسب للعبد.

(٢) طه: ١١٠

(٣) البقرة: ٢٥٥

وقد حكى فى هذا المعنى عن أبى بكر الصديق ﷺ، أنه قال:

«سبحان من لم يجعل للخلق طريقًا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته».

وسئل الشبلى:

متى يكون العارف بمشهد من الحق؟ قال:

إذا بدا الشاهد، وفنى الشواهد، وذهب الحواس، واضمحل الإحساس.

وسئل أيضًا:

ما بدؤ هذا الشأن وما انتهاؤه؟ قال:

بدؤه معرفته، وانتهاؤه توحيده

وقال: من علامة المعرفة: أن يرى نفسه فى قبضة العزة، ويجرى عليه تصاريف القدرة، ومن علامة المعرفة: المحبة، لأن من عرفه أحبه.

وبلغنى عن أبى يزيد طيفور بن عيسى البسطامى، رحمه الله أنه سئل عن صفة العارف، فقال:

لون الماء لون إنائه إن صببته فى إناء أبيض خِلته أبيض، وإن صببته فى إناء أسود خِلته أسود؛ وكذلك الأصفر والأحمر، وغير ذلك، يتداوله الأحوال، وولىُّ الأحوال وليُّه.

وقال الشيخ، رحمه الله: معناه، والله أعلم: أن الماء على قدر صفائه بصفة لون إنائه، ولا يغيره لون إنائه عن صفائه وحاله، ويخال الناظر إليه أبيض أو أسود، وهو فى الإناء بمعنى واحد، وكذلك العارف وصفته مع الله، عز وجل فيما يتداوله الأحوال يكون سره مع الله تعالى واحد.

وسئل الجنيد رحمه الله عن معقول العارفين، فقال:

ذهبوا عن وصف الواصفين.

وسئل بعضهم عن المعرفة فقال: مطالعة القلوب لإفراده على لطائف تعريفه.

وسئل الجنيد، رحمه الله، فقيل له: يا أبا القاسم ما حاجة العارفين [إلى الله تعالى]؟.

قال حاجتهم إليه: كلائة ورعاية لهم.

وقال محمد بن المفضل السمرقندى، رحمه الله، بل لا حاجة لهم ولا اختيار؛ إذ بغير الحاجة والاختيار نالوا ما نالوا؛ لأن قيام العارفين بموجدهم وبقاءهم بموجدهم وفناءهم بموجدهم.

وقيل لمحمد بن المفضل، رحمه الله: حاجة العارفين إلى ماذا؟ قال: حاجتهم إلى الخصلة التى كملت بها المحاسن كلها، وبفقدها قبحت المقابح كلها وهى الاستقامة[1].

وسئل يحيى بن معاذ رحمه الله، عن صفة العارف، فقال: داخل معهم بائن منهم.

وسئل مرة أخرى عن العارف فقال: عبد كان فبان.

وقيل لأبى الحسين النورى، رحمه الله: كيف لا تدركه العقول ولا يعرف إلا بالعقول؟ فقال:

كيف يدرك ذو أمَد من لا أمَدَ له، أم كيف يدرك ذو عاهة من لا عاهة له ولا آفة، أم كيف يكون مكيفًا من كيف الكيف، أم كيف يكون مُحَيَّثًا من حيث الحَيْث فسماه حيثًا، وكذلك أوَّل الأول، وأَخَّرَ الآخر، فسماه أولا وآخرًا؛ فلولا أنه أول الأول وأخر الآخر ما عُرف ما الأولية وما الآخرية.

ثم قال: وما الأزلية فى الحقيقة إلا الأبدية، ليس بينهما حاجزٌ، كما أن الأولية هى الآخرية والآخرية هى الأولية، وكذلك الظاهرية والباطنية، إلا أنه يفقدك وقتًا ويشهدك وقتًا لتجديد اللذة ورؤية العبودية، لأن من عرفه بالخلقة لم يعرفه بالمباشرة؛ لأن الخلقة على معنى قوله: كنْ، والمباشرة إظهار حُرْمة لا استهانة فيه.

(١) يقول الله لرسوله: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ والرسول ﷺ هو الذى يقول الله له: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

قلتُ: معنى قوله: مباشرة يعنى مباشرة يقين ومشاهدة القلب بحقائق الإيمان بالغيب.

قال الشيخ رحمه الله: والمعنى، فيما أشار إليه والله أعلم، أن التوقيت والتغيير لا يجوز على الله تعالى، فهو فيما كان كهو فيما يكون، وهو فيما قال كهو فيما يقول، والأدنى عنده كالأقصى، والأقصى عنده كالأدنى، وإنما يقع التفاوت[1] للخلق من حيث الخلق والتلوين[2] فى القرب والبعد والسخط والرضا صفة للخلق وليس ذلك من صفات الحق، والله أعلم.

وقال أحمد بن عطاء، رحمه الله، فى كلام له فى معنى المعرفة: ويحكى أيضًا عن أبى بكر الواسطى رحمه الله والصحيح لابن عطاء رحمه الله قال: إنما قبحت المستقبحات باستتاره وحسنت المستحسنات بتجليه؛ فإنهما نعتان يجريان على الأبد بما جريا به فى الأزل يظهر الوسمين على المقبولين والمطرودين، فقد بان شواهد تجليه على المقبولين بضيائها كما بان شواهد استتاره على المطرودين بظلمتها، فما ينفع بعد ذلك الألوان المصفرة ولا الأكمام المقصرة ولا التدرع بالمطبقة والمرقعة.

قلت: وهذا الذى قال ابن عطاء، رحمه الله، معناه قريب من قول أبى سليمان عبد الرحمن بن أحمد الدارانى، رحمه الله، حيث يقول:

ليس أعمال الخلق بالذى يسخطه ولا بالذى يرضيه، وإنما رضى عن قوم فاستعملهم بعمل أهل الرضا، وسخط على قوم فاستعملهم بعمل أهل السخط.

ومعنى قول ابن عطاء رحمه الله: قبحت المستقبحات باستتاره، يعنى بإعراضه عنها وحسنت المستحسنات بتجليه يعنى بإقباله عليها وقبوله لها، ومعنى ذلك كما جاء فى الحديث:

(١) فى نسخة أخرى التعارف.

(٢) فى نسخة أخرى التكوين.

[١٩] «خرج رسول الله ﷺ وبيده كتابان: كتاب بيمينه وكتاب بشماله، فقال: هذا كتاب أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم» الحديث.

وقال أبو بكر الواسطى، رحمه الله، لما تعرف بنفسه إلى خاصته: امتحقت نفوسهم فلم يشهدوا وحشة بشواهد الأول مما يبدو لهم من شواهد الحظوظ، وكذلك كل من أعقب بمعنى، وهذا معناه، والله أعلم: أن شاهد الأولية، فيما عرف بما تعرف إليه معبوده لم يشهد وحشة مع معرفته بذلك فيما سواه ولا أنسًا بهم.

باب فى صفة العارف

وما قالوا فيه

قال يحيى بن معاذ الرازى، رحمه الله: ما دام العبد يتعرف فيقال: لا تختر شيئًا، ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف، فإذا عرف وصار عارفًا فيقال له: إن شئت اختر وإن شئت لا تختر، لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت، وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار، فإنك بنا فى الاختيار وفى ترك الاختيار.

وقال يحيى بن معاذ، رحمه الله: الدنيا عروس ومن يطلبها ماشطتها، والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف بالله مشتغل بسيده لا يلتفت إليها.

وقال: إذا ترك العارف أدبه عند معرفته فقد هلك مع الهالكين.

وقال ذو النون، رحمه الله: علامة العارف ثلاثة: لايطفئ نورُ معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطنًا من العلم ينقض عليه ظاهرًا من الحكم، ولا يحمله كثرة نعم الله تعالى عليه وكرامته على هتك أستار محارم الله تعالى.

وقال بعضهم: ليس بعارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف عند أبناء الدنيا؟

وقال: إن التفت العارف إلى الخلق عن معروفه بغير إذنه، فهو مخذول بين خلقه.

وقال: كيف تعرفه وليس فى قلبك سلطان هيبته؟ وكيف تذكره وتحبه وليس فى قلبك وجود ألطافه وأنت غافل عما ذكرك به قبل خلقه؟

سمعت محمد بن أحمد بن حمدون الفراء يقول: سمعت عبد الرحمن الفارسى وقد سئل عن كمال المعرفة فقال: إذا اجتمعت المتفرقات واستوت الأحوال والأماكن وسقطت رؤية التمييز.

وقال أبو نصر، رحمه الله: معنى ذلك أن يكون وقت العبد وقتًا واحدًا بلا تغيير، ويكون العبد فى جميع أحواله بالله ولله مأخوذًا عما سوى الله فعند ذلك يكون هذا حاله.

باب فى قول القائل بم عرفت الله؟
والفرق بين المؤمن والعارف

قيل لأبى الحسين النورى، رحمه الله: بم عرفت الله تعالى؟ فقال: بالله، قيل: فما بال العقل؟ قال: العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله [٢٠] «لما خلق الله العقل قال له: من أنا فسكت، فكحله بنور الوحدانية فقال: أنت الله» فلم يكن للعقل أن يعرف الله إلا بالله.

وسئل عن أول فرض افترض الله تعالى على عباده ما هو؟ فقال: المعرفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1] وقال ابن عباس، رضي الله عنهما: لِيَعْرِفونِ.

وسئل بعضهم ما المعرفة؟ فقال:

تحقيق القلب بإثبات وحدانيته بكمال صفاته وأسمائه؛ فإنه المتفرد بالعز والقدرة والسلطان والعظمة الحى الدائم الذى ليس كمثل شىء، وهو السميع البصير بلا كيف ولا شبه ولا مثل، بنفى الأضداد والأنداد والأسباب، عن القلوب.

وقد قيل أيضًا: إن أصل المعرفة موهبة، والمعرفة نار والإيمان نور، والمعرفة وجد، والإيمان عطاء؛ والفرق بين المؤمن والعارف:

المؤمن ينظر بنور الله، والعارف ينظر بالله عز وجل؛ وللمؤمن قلب وليس للعارف قلب، وقلب المؤمن يطمئن بالذكر ولا يطمئن العارف بسواه.

---

(١) الذاريات: ٥٦

والمعـرفة على ثلاثـة أوجه: معـرفة إقـرار، ومعـرفة حقـيقـة، ومعـرفة مـشاهدة؛ وفـى معـرفـة المشـاهدة يندرج الفـهم والعلم والعـبـارة والكلام؛ والإشارات فى المـعرفة ورصـفهـا كثيـر، وفى القليل كفاية وغنـية للمسـتدل والمسترشد، وبالله التوفيق.

وعن الحسن بن على بن حيويه الدامـغانى قال: سئل أبو بكر الزاهراباذى عن المعرفـة فقال: المعرفة اسم، ومـعناه وجود تعظيم فى القلب يمنعك عن التشبيه والتعطيل.

كتاب الأحوال والمقامات

باب فى المقامات وحقائقها

قال الشيخ: رحمه الله: فإن قيل: ما معنى المقامات؟ يقال: معناه مقام العبد بين يدى الله عز وجل، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله عز وجل، وقال الله تعالى:

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾(١) وقال:

﴿وَمَا منا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾(٢).

وقال: سئل أبو بكر الواسطى رحمه الله عن قول النبى ﷺ: [٢١] «الأرواح جنود مجندة».

قال «مجندة» على قدر المقامات، والمقامات مثل التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل وغير ذلك.

---

(١) إبراهيم: ١٤.

(٢) الصافات: ١٦٤.

باب فى معنى الأحوال[1]

قال الشيخ، رحمه الله: وأمَّا معنى الأحوال فهو ما يحل بالقلوب، أو تحل به القلوب: من صفاء الأذكار.

وقد حُكى عن الجُنَيْد، رحمه الله: أنه قال: الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم.

وقد قيل، أيضًا: إن الحال هو الذكر الخفىُّ.

وقد رُوِى عن النبى ﷺ أنه قال: [٢٢] «خيرُ الذكرِ: الخفىُّ».

وليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضات كالمقامات التى ذكرناها، وهى[2] مثل المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين وغير ذلك.

وقد حُكى عن أبى سليمان الدارانى رحمه الله، أنه قال: إذا صارت المعاملة إلى القلوب استراحت الجوارح.

وهذا الذى قال أبو سليمان، يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه أراد بذلك: استراحت الجوارحُ من المجاهدات، والمكابداتُ من الأعمال: إذا اشتغل بحفظ قلبه ومراعاة سره من الخواطر المشغلة، والعوارض المذمومة التى تشغل قلبه عن ذكر الله تعالى.

ويحتمل أيضًا أنه أراد بذلك: أن يتمكن من المجاهدة والأعمال والعبادات،

---

(١) فى هامش إحدى النسخ الفرق بين المقام والحال: أن الحال ينزل بالقلوب يدوم، والمقام: مقام الرجل بظاهره وباطنه فى حقائق الطاعات.

(٢) أى الحال.

وتصير وطَنَهُ حتى يستلذَّها بقلبه، ويجد حلاوتها، ويسقط عنه التعب، ووجود الألم الذى كان يجد قبل ذلك.

كما قال بعضهم، وأَظُنُّهُ محمد بن واسع، رحمه الله، قال: كابدتُ الليل عشرين سنة فتنعَّمتُ به عشرين سنة.

وقال آخر، وأظنُّه مالك بن دينار، رحمه الله: مضغتُ القرآن عشرين سنة ثم تنعَّمت بتلاوته عشرين سنة.

وقال الجُنيد، رحمه الله: لا يُوصَلُ إلى رعاية الحقوق إلا بحراسة القلوب، ومن لم يكن له سرٌّ فهو مُصِرٌّ، والمصرُّ لا تصفو له حسنة.

وأجوبة الشيوخ فى المقامات تكثر، وكذلك فى الأحوال، وقد ذكرته على الاختصار، والله الموفق.

باب مقام التوبة

قال أبو يعقوب يوسف بن حمدان السوسى، رحمه الله: أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله تعالى التوبة.

وسئل السوسى عن التوبة فقال: التوبة الرجوع من كل شىء ذمه العلم إلى ما مدحه العلم.

وسئل سهل بن عبد الله عن التوبة فقال: أن لا تنسى ذنبك.

وسئل الجنيد رحمه الله عن التوبة فقال: هى نسيان ذنبك.

قال الشيخ، رحمه الله: فالذى أجاب السوسى رحمه الله عن التوبة أجاب عن توبة المريدين والمتعرضين والطالبين والقاصدين، وهم الذين تارة لهم وتارة عليهم.

والذى قال سهل بن عبد الله أيضًا فكذلك.

وأما ما أجاب الجنيد رحمه الله عن التوبة: أن ينسى ذنبه: أجاب عن توبة المتحققين: لا يذكرون ذنوبهم؛ لما غلب على قلوبهم من عظمة الله تعالى ودوام ذكره.

وهو مثل ما سئل رُوَيْم بن أحمد رحمه الله عن التوبة فقال: التوبة من التوبة.

كذلك سئل ذو النون رحمه الله عن التوبة فقال: توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة.

فأما لسان أهل المعرفة والواجدين وخصوص الخصوص فى معنى التوبة فهو: ما قاله أبو الحسن النورى رحمه الله، حين سئل عن التوبة فقال: التوبة أن تتوب من كل شىء سوى الله تعالى.

وإلى هذا أشار الذى أشار بقوله: ذنوب المقربين حسنات الأبرار وهو ذو النون.

والذى قال أيضًا: رياء العارفين إخلاص المريدين؛ لأن الذى كان يتقرب به العارف إلى الله عز وجل فى وقت قصده وابتدائه وتعرضه من القربات والطاعات فلما تمكن وتحقق بذلك، وشملته أنوار الهداية، وأتته العناية، وحوته الرعاية، وشاهد ما شاهده بقلبه من عظمة سيده، والتفكر فى صنع صانعه، وقديم إحسانه، تاب عن الملاحظة والسكون، والالتفات إلى ما كان من طاعاته وأعماله وقرباته فى حين إرادته وبداياته، فشتان بين تائب وتائب: فتائب يتوب من الذنوب والسيئات، وتائب يتوب من الزلل والغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات.

والتوبة تقتضى الورع.

باب مقام الورع

قال الشيخ رحمه الله، ومقام الورع مقام شريف.

قال النبى ﷺ : [٢٣] «ملاكُ دينكم الورع».

وأهل الورع على ثلاث طبقات: فمنهم من تورع عن الشبهات التى اشتبهت عليه، وهى ما بين الحرام البيِّن والحلال البيِّن، وما لا يقع عليه اسم حلال مطلق ولا اسم حرام مطلق، فيكون بين ذلك فيتورع عنهما.

وهو كما قال ابن سيرين رحمه الله: ليس شىء أهْوَنُ علىَّ من الورع؛ إذا رابنى شىء تركتهُ.

ومنهم من يتورع عما يقف عنه قلبه ويحيك فى صدره عند تناولها[1] وهذا لا يعرفه إلا أربابُ القلوب والمتحققون.

وهو كما روى عن النبى ﷺ أنه قال: [٢٤] «الإثم ما حاك فى صدرك».

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله: الورع أن تتبرأ من مظالم الخلق من مثاقيل الذر، حتى لا يكون لأحدهم قِبَلَكَ مظلمة ولا دعوى ولا طِلبة.

وكما حُكى عن الحارث المحاسبى رحمه الله أنه كان لا يمد يده إلى طعام فيه شبهة.

وقال جعفر الخلدى رحمه الله: كان على طرف أصبعه[2] الوسطى عِرْقٌ إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق.

وكما حكى عن بشر الحافى رحمه الله: أنه حُمِل إلى دعوة، فوُضع بين

(١) عند تناول الشبهات.

(٢) يريد أصبع الحارث المحاسبى ﷺ.

يديه طعام، فجهد أن يمد يده إليه فلم تمتد، ثم جهد فلم تمتد ثلاث مرات، فقال رجل ممن كان يعرفه: إن يده لا تمتد إلى طعام حرام أو فيه شبهة، ما كان أغنى صاحب هذه الدعوة أن يدعو هذا الرجل إلى بيته.

وتُقوى هذا حكاية سهل بن عبد الله: سمعت أحمد بن محمد بن سالم بالبصرة يقول: سُئل سهل بن عبد الله عن الحلال فقال: الحلال الذى لا يُعصى الله فيه.

قال أبو نصر رحمه الله: والذى لا يعصى الله فيه لا يتهيأ لأحد الوقوف عليه إلا بإشارة القلب.

فإن قال قائل: هل تجد لذلك أصلا يتعلق به من العلم فيقال: نعم، قول النبى ﷺ لوابصة: [٢٥] «استَفْتِ قَلْبَكَ وإن أَفْتاك المُفتون» والذى قال أيضًا: «الإثم ما حاك فى صدرك» ألا ترى أنه قد رده إلى ما يشير به عليه قلبه؟

وأما الطبقة الثالثة فى الورع فهم: العارفون والواجدون، وهو كما قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله: كل ما شغلك عن الله فهو مشئوم عليك.

وكما قال سهل بن عبد الله حين سئل عن الحلال الصافى فقال: الحلال الذى لا يُعصى الله فيه، والحلال الصافى الذى لا يُنسى الله فيه.

فالورع فيما لا ينسى الله فيه هو الورع الذى سئل عنه الشبلى رحمه الله، فقيل له: يا أبا بكر ما الورع؟ فقال: أن تتورع ألا يتشتت قلبك عن الله عز وجل طرفة عين.

فالأول ورع العموم، والثانى ورع الخصوص، والثالث ورع خصوص الخصوص، والورع يقتضى الزهد.

باب مقام الزهد

قال الشيخ رحمه الله: والزهد مقام شريف، وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية؛ وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل، والمنقطعين إلى الله، والراضين عن الله، والمتوكلين على الله تعالى، فمن لم يُحكم أساسه فى الزهد لم يصح له شىء مما بعده، لأن حُب الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد فى الدنيا رأس كل خير وطاعة.

ويقال: إن من سُمِّى باسم الزهد فى الدنيا فقد سُمى بألف اسم محمود، ومن سمى باسم الرغبة في الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم.

وهو ما اختار رسول الله ﷺ لنفسه باختيار الله له، والزهد فى الحلال الموجود.

وأما الحرام والشبهة فتركه واجب.

والزهَّاد على ثلاث طبقات:

فمنهم المبتدئون، وهم الذين خلت أيديهم من الأملاك، وخلت قلوبهم بما خلت منه أيديهم.

كما سئل الجنيد رحمه الله عن الزهد فقال: تخلى الأيدى من الأملاك، وتخلى القلوب من الطمع.

وسئل سرى السَّقَطى، رحمه الله عن الزهد فقال: أن يخلو قلبه مما خلت منه يداه.

وفرقة منهم متحققون فى الزهد.

ووصفهم ما أجاب رُوَيْم بن أحمد رحمه الله، حين سئل عن الزهد فقال: ترك حظوظ النفس من جـميع ما فى الدنيـا، فهذا زهد المـتحقـقين، لأن فى الزهد فى الدنيا حظا للنفس، لما فى الزهد من الراحة والثناء والمحمدة واتخاذ الجاه عند الناس؛ فمن زهد بقلبه فى هذه الحظوظ فهو متحقق فى زهده.

والفرقة الثالثة: علموا وتيـقنوا: أن لو كانت الدنيا كلها لهم ملكًا حلالاً، ولا يحاسـبون عليـها فى الآخـرة، ولا ينقص ذلك ممـا لهم عند الله شيـئًا ثم زهدوا فيهـا لله عز وجل، لكان زهدهم فى شىء منذ خلقها الله تـعالى ما نظر إليها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة من ماء، فعند ذلك زهدوا فى زهدهم وتابوا من زهدهم.

كمـا سئل الشبلى رحمـه الله عن الزهد فقال: الزهد غـفلة، لأن الدنيا لا شىء، والزهد فى لا شىء غفلة.

وقال يحـيى بن معاذ رحمـه الله: الدنيا كالعـروس، ومن يطلبها ماشطتـها والزاهد فيها يسخم وجهها، وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله لا يلتفت إليها.

والزهد يقتضى معانقة الفقر واختياره.

باب مقام الفقر وصفة الفقراء

قال الشيخ، رحمه الله، والفقر مقام شريف، وقد وصف الله تعالى الفقراء وذكرهم في كتابه فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الذينَ أُحْصِروا في سَبِيلِ الله﴾[1] تكملة الآية.

وقال ﷺ: [٢٦] «الفقر أزين بالعبد المؤمن من العِذَار الجيد على خد الفرس».

وقال إبراهيم بن أحمد الخواص رحمه الله: الفقر رداء الشرف، ولباس المرسلين، وجلباب الصالحين، وتاج المتقين، وزين المؤمنين، وغنيمة العارفين، ومُنية المريدين، وحصن المطيعين، وسجن المذنبين، ومكفر للسيئات، ومعظم للحسنات، ورافع للدرجات، ومبلغ إلى الغايات، ورضا الجبار، وكرامة لأهل ولايته من الأبرار؛ والفقر هو شعار الصالحين، ودأب المتقين.

والفقراء على ثلاث طبقات:

فمنهم من لا يملك شيئًا، ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئًا، ولا ينتظر من أحد شيئًا، وإن أعطى شيئًا لم يأخذ، فهذا مقامه مقام المقربين.

كما حُكي عن سهل بن على بن سهل الأصبهاني: أنه كان يقول: حرامٌ على كل من يسمى أصحابنا الفقراء؛ لأنهم أغنى خلق الله عز وجل.

وكما سئل أبو عبد الله بن الجلاء عن حقيقة الفقر فقال: اضرب بكميك على الحائط وقل: ربى الله.

وكما قال أبو على الروزبارى: سألنى أبو بكر الزقاق فقال: يا أبا على، لِمَ ترك الفقراء أخذ البُلغة في وقت الحاجة؟ قال: فقلت: لأنهم مستغنون بالمُعْطى عن العطاء، فقال: نعم، ولكن وقع لى شيء آخر، فقلت: هات، أفدنى،

(١) البقرة: ٢٧٤ وتكملة الآية كالآتى: ﴿لايستطيعون ضربًا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم﴾.

ما وقع لك؟ فقال: لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود؛ إذ الله فاقتهم، ولا تضرهم الفاقة، إذ الله وجودهم.

وسمعت أبا بكر الوجيهي يقول: سمعت أبا علي يقول هذا.

وسمعت أبا بكر الطوسي يقول: كنت مدة طويلة أسأل عن معنى اختيار أصحابنا لهذا الفقر على سائر الأشياء، فلم يُجبنى أحد بجواب يُقنعنى، حتى سألت نصر بن الحمامى، فقال لى: لأنه أول منزلة من منازل التوحيد، فقنعت بذلك.

ومنهم من لا يملك شيئًا، ولا يسأل أحدًا، ولا يطلب، ولا يعرض، وإن أعطى شيئًا من غير مسألة أخذ.

وقد حُكى عن الجنيد، رحمه الله، أنه قال: علامة الفقير الصادق أن لا يسأل، ولا يعارض، وإن عورض سكت.

وكما حُكى عن سهل بن عبد الله، رحمه الله، أنه سئل عن الفقير الصادق فقال: لا يسأل ولا يرد، ولا يحبس.

وكما سئل أبو عبد الله بن الجلاء رحمه الله عن حقيقة الفقر فقال: هو أن لا يكون لك، فإذا كان لك لا يكون لك، ومن حيث لم يكن لك لم يكن لك.

وكما سئل إبراهيم الخواص رحمه الله عن علامة الفقير الصادق فقال: ترك الشكوى وإخفاء أثر البلوى، ولهذا قد قيل: إن هذا مقامه مقام الصدّيقين.

ومنهم من لا يملك شيئًا، وإذا احتاج انبسط إلى بعض إخوانه ممن يعلم أنه يفرح بانبساطه إليه، فكفارة مسألته صدقة.

وهذا كما سئل الجريرى مسألته، رحمه الله، عن حقيقة الفقر فقال: لا يطلب المعدوم حتى يفقد الموجود.

وكما سئل رُويم رحمه الله عن الفقر فقال: عدم كل موجود، ويكون دخوله فى الأشياء لغيره لا له، وهذا مقامه مقام الصديقين فى الفقر.

والفقر يقتضى مقام الصبر.

باب مقام الصبر

قال الشيخ، رحمه الله: والصبر مقام شريف وقد مدح الله تعالى الصابرين وذكرهم فى كتابه فقال:

﴿إنما يُوَفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[1].

وقد سئل الجنيد عن الصبر فقال: حَمْلُ المؤن لله تعالى حتى تنقضى أوقات المكروه.

وقال إبراهيم الخواص رحمه الله: هرب أكثر الخلق من حمل أثقال الصبر فالتجئوا إلى الطلب والأسباب واعتمدوا عليها كأنها لهم أرباب.

قال: ووقف رجل على الشبلى رحمه الله، فقال له: أى صبر أشد على الصابرين.

فقال: الصبر فى الله تعالى.

فقال: لا.

فقال: الصبر لله.

فقال الرجل: لا.

فقال: الصبر مع الله.

فقال: لا.

قال: فغضب الشبلى رحمه الله وقال: ويحك فأيش؟

فقال الرجل: الصبر عن الله عز وجل، قال: فصرخ الشبلى رحمه الله صرخة كاد أن يتلف روحه.

وسألت ابن سالم بالبصرة عن الصبر فقال: على ثلاثة أوجه: متصبر، وصابر، وصبار، فالمتصبر من صبر فى الله تعالى، فمرة يصبر على المكاره، ومرة يعجز.

(١) الزمر: ١٠

وهذا كما سئل القناد، رحمه الله، عن الصبر فقال: ملازمة الواجب فى الإعراض عن المنهى عنه، والمواظبة على المأمور به، والصابر من يصبر فى الله، ولله، ولا يجزع، ولايتمكن منه الجزع، ويتوقع منه الشكوى.

كما حكى عن ذى النون، رحمه الله، أنه قال: دخلت على مريض أعوده، فبينما كان يكلمنى أنَّ أنة، فقلت له: ليس بصادق فى حبه من لم يصبر على ضربه، قال: فقال: بل ليس بصادق فى حبه من لم يتلذذ بضربه.

وكما قال الشبلى، رحمه الله؛ لما أُدخل المارستان، وقُيد، فدخل عليه بعض أصدقائه، فقال لهم: أيش أنتم؟ فقالوا: نحن قوم نحبك، فأخذ يرميهم بالآجر، فهربوا، فقال: يا كذابون، تدعون محبتى ولم تصبروا على ضربى؟!.

وأما الصبار: فذاك الذى صبره فى الله، ولله وبالله، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يعجز ولا يتغير من جهة الوجوب والحقيقة، لا من جهة الرسم والخلقة.

وكان يتمثل الشبلى، رحمه الله، بهذه الأبيات إذا سئل عن الصبر:

عبراتٌ خططْنَ فى الخدِّ سطْرًا ... قدْ قراها منْ ليس يحسنُ يقرا

إن صوت المحب من ألم الشو ... ق وخوف الفراق يورث ضرا

صابر الصبر فاستغاث به الصبـ ... ـر فصاح المحب بالصبر: صبرا

وحجة هذا فى العلم ما روى فى الخبر: [٢٧] «أن زكريا عليه السلام لما وضع على رأسه المنشار أنَّ أنة واحدة فأوحى الله تعالى إليه إن صعدت منك إلىَّ أنة أخرى لأقلبن السموات والأرضين بعضها على بعض».

والصبر يقتضى التوكل.

باب مقام التوكل

قال الشيخ، رحمه الله: والتوكل مقام شريف، وقد أمر الله تعالى بالتوكل وجعله مقرونًا بالإيمان؛ لقوله تعالى:

﴿وَعَلَى الله فليتوكل المتوكلون﴾[1].

وقال في موضع آخر: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[2] فخص توكل المتوكلين من توكل المؤمنين، ثم ذكر توكل خصوص الخصوص فقال:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[3] لم يردهم إلى شيء سواه كما قال لسيد المرسلين وإمام المتوكلين:

﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت وكفى به﴾[4] ﴿وتوكل على العزيز الرحيم * الذى يراك حين تقوم﴾ الآية، فهم على ثلاث طبقات:

فأما توكل المؤمنين فشرطه ما ثلاث قال أبو تراب النخشبى، رحمه الله، حين سئل عن التوكل، فقال:

التوكل: طرح البدن فى العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أعطى شكر، وإن منع صبر راضيًا موافقًا للقدر.

وكما سئل ذو النون رحمه الله عن التوكل فقال: التوكل ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة.

وكما قال أبو بكر الزقاق رحمه الله: التوكل رد العيش إلى يوم واحد، وإسقاط همِّ غد.

وسئل رويم رحمه الله، عن التوكل فقال: الثقة بالوعد.

وسئل سهل بن عبد الله رحمه الله، عن التوكل فقال: الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد.

وأما توكل أهل الخصوص فكما قال أبو العباس بن عطاء، رحمه الله: من

(١) إبراهيم: ١٢.
(٢) المائدة: ١١
(٣) الطلاق: ٣.
(٤) الفرقان: وتكملة الآية: ﴿بذنوب عباده خبيراً﴾: ٥٨.

توكل على الله لغير الله لم يتـوكل على الله فى توكله حتى يتوكل على الله بالله لله، ويكون متوكلا على الله فى توكله لا لسبب آخر.

أو كما قـال أبو يعقوب النهرجـورى، رحمه الله، وقد سـئل عن التوكل، فقال: موت النفس عند ذهاب حظوظها من أسباب الدنيا والآخرة.

وقد قـال أيضًا أبو بكر الواسطى: أصل التوكل الـفاقة والافتـقار، وأن لا يفارق التوكل فى أمانيه، ولا يلتفت بسرِّه إلى توكله لحظة فى عمره.

وسئل سهل بن عبد الله، رحمه الله أيضًا عن التوكل، فقال: التوكل وجْهٌ كلُّه وليس له قفًا، ولا يصح إلا لأهل المقابر.

فهولاء أشاروا إلى حقيقة توكل المتوكلين وهم الخصوص.

وأما توكل خصوص الخصوص فعلى ما قال الشبلى رحمه الله، حين سئل عن التوكل فقال: أن تكون لله كما لم تكن ويكون الله تعالى لك كما لم يزل.

وكما قال بعضهم: حقيـقة التوكل لا يقوم له أحد من خلقه على الكمال، لأن الكمال بالكمال لا يكون إلا لله، جل جلاله.

وسئل أبو عبد الله بن الجلاء عن التوكل فقال: الإيواء إلى الله وحده، فى جميع الأحوال.

وسئل الجنيـد رحمه الله عن التوكل فـقال: اعتمـاد القلب على الله تعالى وقـد حكى عن أبى سلـيـمـان الدارانى رحـمـه الله أنه قـال لأحـمـد بن أبى الحوارى، رحمه الله: يا أحـمد، إن طرق الآخرة كثيرة وشيـخك عارف بكثير منهـا إلا هذا التوكل المـبارك فـإنى ما شـممت منه رائحـة، وليس منه مـشام الريح.

وقال بعضـهم: من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحـفر لنفسه قـبرًا ويدفنها فيه، وينسى الدنيا وأهلها؛ لأن حقـيقة التوكل لا يقوم له أحد من الخلق على كماله، والتوكل يقتضى الرضا.

باب مقام الرضا وصفة أهله

قال الشيخ رحـمه الله: الرضا مقام شريف، وقد ذكـر الله عز وجل الرضا في كتابه فقال:

﴿رَضِى الله عنهم ورضوا عنه﴾[1]

وقال: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾[2] فذكر أن رضا الله عز وجل، عن عباده أكبر وأقدم من رضاهم عنه.

والرضا بـاب الله الأعظم، وجنة الدنيا، وهو أن يكون قلب الـعبد سـاكنًا تحت حكم الله عز وجل.

وسئل الجنيد رحمه الله عن الرضا، فقال: الرضا رفع الاختيار.

وسئل القناد رحمه الله عن الرضا فقال: سكون القلب بمر القضاء.

وسئل ذو النون عن الرضا فقال سرور القلب بمر القضاء.

وقال ابن عطاء رحـمه الله: الرضا نظر القلب إلى قـديم اختيـار الله تعالى للعبد؛ لأن يعلم أنه اختار له الأفضل فيرضى به ويترك السخط.

وقال أبو بكر الواسطى، رحمه الله استعمل الرضا جهدك، ولا تدع الرضا يستعملك فتكون محجوبًا بلذته ورؤية حقيقته.

غير أن أهل الرضا فى الرضا على ثلاثة أحوال:

فمنهم من عمل فى إسقاط الجزع حتى يكون قلبه مستويًا لله عز وجل فيما يجرى عليه من حكم الله من المكاره والشدائد والراحات والمنع والعطاء.

(١) المائدة: ١١٩.

(٢) التوبة: ٧٢.

ومنهم من ذهب عن رؤية رضائه عن الله عز وجل برؤية رضا الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿**رضى الله عنهم ورضوا عنه**﴾[1]، فلا يثبت لنفسه قدم فى الرضا وإن استوى عند الشدة والرخاء والمنع والعطاء.

ومنهم من جاوز هذا وذهب عن رؤية رضا الله عنه ورضاه عن الله لما سبق من الله تعالى لخلقه من الرضا، كما قال أبو سليمان الدارانى، رحمه الله: ليس أعمال الخلق بالذى يرضيه ولا بالذى يسخطه، ولكنه رضى عن قوم فاستعملهم بعمل أهل الرضا، وسخط على قوم فاستعملهم بعمل أهل السخط.

والرضا آخر المقامات ثم يقتضى من بعد ذلك أحوال أرباب القلوب، ومطالعة الغيوب، وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار وحقائق الأحوال.

فأول حال من أحوال أرباب القلوب حال المراقبة.

(١) المائدة: ١١٩.

باب حال المراقبة وحقائقها وصفة أهلها

قال الشيخ، رحمه الله: والمراقبة حال شريف، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾(١) وقال عز وجل: ﴿ما يَلْفِظُ من قَوْلٍ إلا لديْه رقيبٌ عَتِيدٌ﴾(٢) وقال: ﴿أَلَمْ يعْلَموا أن اللهَ يعلمُ سِرَّهم ونجْواهُم وأنَّ اللهَ علاَّمُ الغُيوبِ﴾(٣) ومثله في القرآن كثير.

وروى عن النبى أنّه قال: [٣١] «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والمراقبة: لعبد قد علم وتيقن أن الله تعالى مطلع على ما فى قلبه وضميره وعالم بذلك، فهو يراقب الخواطر المذمومة المشغلة للقلب عن ذكر سيده.

كما قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله: كيف يخفى عليه ما في القلوب! ولا يكون في القلوب إلا ما يلقى فيها، أفيخفى عليه ما هو منه؟!.

قال الجنيد رحمه الله: قال لى إبراهيم الآجرى رحمه الله: يا غلام، لأن ترد من همك إلى الله تعالى ذرة خير لك مما طلعت عليه الشمس.

وقال الحسن بن على الدامغانى، رحمه الله: عليكم بحفظ السرائر، فإنه مطلع على الضمائر.

وأهل المراقبة على ثلاثة أحوال فى مراقبتهم:

فأما ما قال الحسن بن على، فهذا حال الابتداء فى المراقبة.

وأما الحال الثانى فى المراقبة، فكما حكى عن أحمد بن عطاء رحمه الله:

(١) الأحزاب: ٥٢. (٢) ق: ١٨.

(٣) التوبة: ٧٨

أنه قال: خيركم من راقب الحق بالحق فى فناء ما دون الحق وتابع المصطفى ﷺ فى أفعاله وأخلاقه وآدابه.

وأما الحال الثالث فحال الكبراء من أهل المراقبة: فإنهم يراقبون الله تعالى ويسألونه أن يرعاهم فيها، لأن الله عز وجل قد خص نجباءه وخاصته بألا يكلهم فى جميع أحوالهم إلى أحد وهو الذى يتولى أمرهم فقال عز وجل: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[1].

وقال ابن عطاء، رحمه الله، لبعض حكماء خراسان ممن قد ولع بالجهل وقارن[2] التقشف: أوَما علمت أن ما تقارن ببدنك أقذار فى جنب ما تطالع بقلبك؟ وما تطالعه بقلبك هباء فى جنب ما تراقب فى سرك! فراقب الله تعالى فى سرك وعلانيتك؛ فإنه خير مما تقارن من عملك وعبادتك.

والمراقبة تقضى حال القرب.

(١) الأعراف: ١٩٥.

(٢) بمعنى صاحب ولازم.

باب حال القرب

قال الشيخ، رحمه الله: قال الله تعالى: ﴿وإذَا سَأَلَكَ عِبادِى عنِّى فَإنى قَرِيبٌ﴾[1]، وقال: ﴿ونَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2]، وقال: ﴿ونَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْه منْكُمْ ولكنْ لاَ تُبْصرونَ﴾[3]، ثم قال فى صفة ملائكته: ﴿أُولئكَ الّذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلَى رَبهمُ الْوَسيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[4]، الوسيلة يعنى القرب، وقال: ﴿ونَحْنُ أَقَرَبُ إلَيْه منْكُمْ ولكنْ لاَ تُبْصرُونَ﴾[5]، فذكر الله تعالى قربهم منه، ثم ذكر قربهم بمعنى توسلهم إلى الله تعالى بالقرب أيهم أقرب.

وحال القرب: لعبد شاهد بقلبه قرب الله منه فتقرب إلى الله تعالى بطاعته، وجميع همه بين يدى الله تعالى بدوام ذكره فى علانيته وسره.

وهم على ثلاثة أحوال:

فمنهم المتقربون إليه بأنواع الطاعات لعلمهم بعلم الله تعالى بهم وقربه منهم وقدرته عليهم.

ومنهم من تحقق بذلك، كما قال عامر بن عبد القيس، رحمه الله: ما نظرت إلى شىء إلا رأيت الله تعالى أقرب إليه منى.

وهو كما قال القائل:

وتحققتك فى السر فناجاك لسانى

فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعانى

إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عيانى

فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى

---

(١) البقرة: ١٨٦.
(٢) ق: ١٦
(٣) الواقعة: ٨٥
(٤) الإسراء: ٥٧.
(٥) أى حال القرب.

وقال الجنيد رحـمه الله: واعلم أنه يقرب من قلوب عبـاده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه، فانظر ماذا يقرب من قلبك؟

وقال آخر: إن لله تعالى عبـادًا قربهم الله عز وجل بما هو به قريب منهم، وكانوا قريبين منه بما هو به قريب إليهم؛ وهذه الدرجة الثانية من حال القرب.

فأما حـال الكبراء وأهل النهايات: فـهو على ما قال أبو الحـسين النورى، رحمـه الله، لرجل دخل عليه فقـال: من أين أنت؟ قال: من بغـداد، قال من صحـبتَ بها؟ قال: أبا حـمزة، قال: إذا رجـعت إلى بغداد فقل لأبى حـمزة: قرب القرب فى معنى ما نحن نشير إليه: بعد البعد.

وكما قال أبو يعقوب السوسى، رحـمه الله: ما دام العبد يكون بالقرب لم يكن قرب حتى يـغيب عن القرب بالقرب، فإذا ذهب عن رؤيـة القرب بالقرب فذلك قرب؛ يعنى عن رؤية قربه من الله عز وجل بقرب الله منه.

وحال القرب يقتضى حال المحبة وحال الخوف.

باب حال المحبة

قال الشيخ، رحمه الله: فأما حال المحبة فقد ذكر الله تعالى المحبة فى مواضع من كتابه، فقال: ﴿فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾[1] وقال: ﴿قل إنْ كنتم تُحبون الله فاتبعُونى يحببكم الله﴾[2]، وقال فى موضع آخر: ﴿يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله﴾[3].

فذكر فى الآية الأولى محبته قبل محبتهم، وفى الآية الثانية ذكر محبتهم له ومحبته لهم، وفى الآية الثالثة ذكر محبتهم له.

وحال المحبة: لعبد نظر بعينه إلى ما أنعم الله به عليه، ونظر بقلبه إلى قرب الله تعالى منه وعنايته به وحفظه وكلاءته له، فنظر بإيمانه وحقيقة يقينه إلى ما سبق له من الله تعالى من العناية والهداية وقديم حب الله له، فأحب الله عز وجل.

وأهل المحبة على ثلاثة أحوال:

فالحال الأول من المحبة: محبة العامة، يتولد ذلك من إحسان الله تعالى إليهم وعطفه عليهم.

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها» الحديث.

وهذا الحال من المحبة شرطها ما سئل سمنون، رحمه الله، عن المحبة فقال: صفاء الود مع دوام الذكر؛ لأن من أحب شيئًا أكثر من ذكره.

(١) المائدة: ٥٤

(٢) آل عمران: ٣١.

(٣) البقرة: ١٦٥.

وكمـا سئل سهـل بن عبد الله، رحـمه الله، عن المحـبة فـقال: موافـقة القلوب لله؛ والتزام الموافقة لله، واتباع الرسول ﷺ، مع دوام الاستهتار[1] بذكر الله تعالى ووجود حلاوة المناجاة لله عز وجل.

وسئل الحسـن بن على ﵄ عن المحبـة فقال: بذل المـجهود والحـبيب يفعل ما يشاء.

وكما سئل بعض المشايخ عن المحبة فقال: استهتار[2] القلوب بالثناء على المحبوب، وإيثار طاعته، والموافقة له كما قال القائل:

لو كـان حـبك صـادقًـا لأطـعتـه

إن الـمـــحب لـمن يـحب مـطيـع

والحال الثانى من المحبة، وهو يتولد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته، وعلمه وقدرته، وهو حب الصادقين والمتحققين.

وشرطها ووصفها كما حكى عن أبى الحسين النورى، رحمه الله: أنه سئل عن المحبة فقال: هتك الأستار وكشف الأسرار.

وسـئل أيضًا، إبراهـيم الخوّاص عن المـحـبة فـقـال: محـو الإرادات، واحتراق جميع الصفات والحاجات.

وقد سـئل أبو سعيد الـخراز، رحمه الله، عن المـحبة فـقال: طوبى لمن شرب كـأسًا من محـبته، وذاق نعـيمًا من مناجـاة الجليل وقربه بمـا وجد من اللذات بحبه فملئ قلبُه حبًا وطار بالله طربًا، وهام إليه اشتياقًا؛ فيا له من وامق أسف بربه، كلف دنف، ليس له سكن غيره ولا مألوف سواه.

وأما الحال الثالث من المحبة فهـو محبة الصدِّيقين والعارفين، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة، فكذلك أحبوه بلا علة.

(١) يقل: استهتر بالشىء إذا أولع به وشغف به.

(٢) استهتار القلوب بالثناء: شغفها وحبها له.

وصفة هذه المحبة ما سئل ذو النون المصرى، فقيل له: ما المحبة الصافية التى لا كدرة فيها؟ قال: حب الله الصافى الذى لا كدرة فيه: سقوط المحبة عن القلب والجوارح، حتى لا يكون فيها المحبة، وتكون الأشياء بالله ولله، فذلك المحب لله.

وقال أبو يعقوب السوسى، رحمه الله: لا تصح المحبة حتى يخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب: بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب فى الغيب، ولم يكن هو بالمحبة، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة.

وسئل الجنيد رحمة الله عن المحبة فقال: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب، فهذا على معنى قوله: [٣٢] «حتى أُحِبَّهُ فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ عَيْنَهُ التى يبصر بها وسمعه الذى يسمع به، ويده التى يبطش بها».

باب حال الخوف

قال الشيخ، رحمه الله: فأما حال الخوف فإنما ذكرنا الخوف والمحبة، لأن حال القرب يقتضى حالين:

فمنهم من يغلب على قلبه الخوف من نظره إلى قرب الله منه، ومنهم من يغلب على قلبه المحبة، وذلك على حسب ما قسم الله للقلوب من التصديق وحقيقة اليقين والخشية، وذلك من كشف الغيوب؛ فإن شاهد قلبه فى قربه من سيده عظمته وهيبته وقدرته فيؤديه ذلك إلى الخوف والحياء والوجل، وإن شاهد قلبه فى قربه لطف سيده وقديم عطفه وإحسانه له ومحبته أداه ذلك إلى المحبة والشوق والقلق والحرق، والتبرم بالبقاء؛ وذلك بعلمه ومشيئته وقدرته، ذلك تقدير العزيز العليم.

والخوف على ثلاثة أوجه، وقد ذكر الله تعالى الخوف وقرنه بالإيمان بقوله: ﴿**فَلا تخافوهُمْ وَخافون إنْ كنتم مُؤْمنينَ**﴾[1]، فهذا خوف الأجلة.

وقوله: ﴿**ولَمَنْ خافَ مقامَ ربِّه جنَّتَان**﴾[2]، فهذا خوف الأوساط.

وقال: ﴿**يخافونَ يَومًا تتقَلبُ فيه الْقلوبُ والأَبْصَارُ**﴾[3]، فهذا خوف العامة.

فمنهم من خاف من سخطه وعقابه، كما ذكر الله تعالى: ﴿**يخافونَ يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار**﴾ وهم العامة فخوفهم: اضطراب قلوبهم مما علموا من سطوة معبودهم.

وأما الأوساط فخوفهم من القطيعة واعتراض الكدورة فى صفاء المعرفة.

وسئل الشبلى رحمه الله عن الخوف فقال: تخاف ألا يسلمك إليك.

(١) آل عمران: ١٧٥.

(٢) الرحمن: ٤٦.

(٣) النور: ٣٧

كما قال أبو سعيد الخراز، رحمه الله فى كلام له قال: شكوت إلى بعض العارفين الخوف فقال لى: إنى أشتهى أن أرى رجلا يدرى أيش الخوف من الله؟ ثم قال: إن أكثر الخائفين خافوا على أنفسهم من الله شفقة منهم على أنفسهم، وعملا فى خلاصها من أمر الله عز وجل.

وقال ابن خبيق، رحمه الله: الخائف عندى: أن يكون بحكم الوقت: فوقت يخافه المخلوق ووقت يأمنه.

وقال القناد، رحمه الله: علامة الخوف: أن لا يعلل نفسه بعسى وسوف.

وقال بعضهم: علامة خوف الله تعالى: هيجان القلوب، وشدة الذعر من الترهيب.

وقال ابن خبيق، رحمه الله: الخائف عندى من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان.

وأما أهل الخصوص من الخائفين فخوفهم، على ما قال سهل بن عبد الله، رحمه الله، لو قسم ذرة من خوف الخائفين على أهل الأرض لسعدوا بذلك أجمعين.

فقيل له: فكم يكون مع الخائفين من هذا الخوف؟ قال مثل الجبل.

وقال ابن الجلاء الخائف عندى الذى لا يخاف غير الله تعالى.

وقال الواسطى، رحمه الله: الأكابر يخافون القطع والأصاغر يخافون العقوبة وخوف الأكابر أقطع، لأن ما دام للنفس فى النفس من رعوناتها بقية فليس بمحسن وإن أتى بكل تفويض وتسليم.

قال الشيخ، رحمه الله: معنى رعوناتها: تدبيرها ودعواها ونظرها إلى طاعاتها.

والرجاء مقرون بالخوف.

باب حال الرجاء

قال الشيخ رحمه الله: والرجاء حال شريف، قال الله تعالى:

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾(١).

وقال فى آية أخرى: ﴿يرجون رحمته ويخافون عذابه﴾(٢).

وقال فى آية أخرى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾(٣) قالوا فى التفسير: ثواب ربه.

وقال ﷺ: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا».

وقال بعضهم: الخوف والرجاء جناحا العمل ولا يطير إلا بهما.

وقال أبو بكر الوراق: الرجاء ترويح من الله تعالى لقلوب الخائفين، ولولا ذلك لتلفت نفوسهم وذهلت عقولهم.

والرجاء على ثلاثة أقسام:

رجاء فى الله.

ورجاء فى سعة رحمة الله.

ورجاء فى ثواب الله.

فالرجاء فى ثواب الله وفى سعة رحمته لعبد مريد قد سمع من الله ذكر المنن فرجاه، وعلم أن الكرم والفضل والجود من صفات الله فارتاح قلبه إلى المرجو من كرمه وفضله.

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) الإسراء: ٥٧.

(٣) الكهف: ١١٠

وكمـا حكى عن ذى النون المصرى، رحـمه الله: أنه كان يدعـو ويقول: اللهم إن سعة رحمـتك أرجأ لنا من أعمالنا عندنا، واعتمـادنا على عفوك أرجأ عندنا من عقابك لنا.

وكما قـال بعضهم: إلهى أنت لطيف لمن قـصدك فى إرادته، ورجاك فى ملمـاته، فيـا منتهى آمـال الراجين أرجِـنا راحة عـاجلة توردنا مناهل مسـرتك وتؤدينا إلى قربك.

والراجى فى الله تعالى: هو عبد تحقق فى الرجاء، فلا يرجو من الله شيئًا سوى الله.

كما سئل الشبلى رحمه الله عن الرجاء فقال: الرجاء أن ترجوه أن لا يقطع بك دونه.

وقال ذو النون، رحمه الله: بينا أنا أسير فى بعض البوادى إذ لقيتنى امرأة فقالت لـى: من أنت؟ قلت: رجل غريب، فقالت: وهل يوجـد مع الله تعالى أحزان الغربة.

* * *

فصل فى معنى الخوف والرجاء

قال الشيخ، رحمـه الله: وأما لسان أهل النهايات والمتحـققين فى الخوف والرجاء: فـالذى يقول أحـمد بن عطاء، رحمـه الله، حين سـئل عن الخوف والرجاء فقال: إن الخلق بالرجاء والخـوف مؤذنون، وما دام لم يترق العبد فى طرقهما، ولم يترق من بينهما، لم يصل إلى حقـيقة حقهما؛ ويكون مرتبطًا بما لا حاصل له فيهما عند الحقيقة.

قيل: فمـا هما؟ يعنى الخوف والرجاء قال: زمامـان للنفس حتى لا تخرج إلى رعوناتها: من الإدلال والأمن، والإياس والقطع.

وقال أبو بكر الواسطى، رحمه الله: الخوف له ظلَم يتحير صاحبه تحته يطلب أبدًا المخرج منه، فإذا جاء الرجاء بضيائه خرج إلى مواضع الراحة فغلب عليه التمنى، ولا ينفع حسن النهار إلا بظلمة الليل، وفيهما صلاح الكون، فكذلك القلب: مرة فى ظلم الخوف أسير، فإذا طرق طوارق الرجاء فهو أمير.

والمحبة والخوف والرجاء مقرون بعضها ببعض.

وقال بعضهم: كل محبة لا خوف معها فهى مأوفة، وكل خوف لا رجاء معه فهو مأوف، وكل رجاء لا خوف معه كذلك.

والرجاء والمحبة يقتضيان الشوق.

باب حال الشوق

قال الشيخ، رحمه الله تعالى: وحال الشوق حال شريف، روى عن النبى ﷺ: أنه قال:

[٣٣] «ألا هل مشتاق إلى الجنة؟ هى ورب الكعبة ريحانة تهتز، ونهر مطرد، وزوجة حسناء».

وروى عنه، ﷺ أنه كان يقول: فى دعائه:

[٣٤] «أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك»

ولذة النظر إلى وجه الله تعالى فى الآخرة والشوق إلى لقائه فى الدنيا.

[٣٥] «وقد روى أيضًا: «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات».

[٣٦] «وقد روى أيضًا: «اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: إلى على وعمار **وسلمان رضى الله عنهم أجمعين»**.

والشوق: هو لعبد قد تبرم ببقائه شوقًا إلى لقاء محبوبه.

وسئل بعضهم عن الشوق فقال: هيمان القلب عند ذكر المحبوب.

وقال آخر: الشوق: نار الله تعالى أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات.

وقال الجريرى، رحمه الله تعالى: لولا أن فى الشوق متعة ما حمل الضر.

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله: ملئت قلوبهم عن المحبة فطاروا بالله عز وجل طربًا، وهاموا إليه اشتياقًا؛ فيا لهم من قلق مشتاق أسف بربه كلف دنف ليس لهم سكن غيره ولا مألوف سواه!!!

وأهل الشوق على ثلاثة أحوال:

فمنهم من اشتقاق إلى ما وعد **الله تعالى** لأوليائه من الثواب والكرامة، والفضل والرضوان.

ومنهم من اشتاق إلى محبوبه من شدة محبته وتبرمه ببقائه شوقًا إلى لقائه.

ومنهم من شاهد قرب سيده أنه حاضر لا يغيب، فينعم قلبه بذكره وقال: إنما يشتاق إلى غائب وهو حاضر لا يغيب، فذهب بالشوق عن رؤية الشوق، فهو مشتاق بلا شوق، ودلائله تصفه عند أهله بالشوق، وهو لا يصف نفسه بالشوق، والشوق يقتضى الأنس.

باب حال الأنس

قال الشيخ، رحمه الله تعالى: ومعنى الأنس بالله تعالى: الاعتماد عليه، والسكون إليه والاستعانة به، ولا يتهيأ أن يعبر عنه بأكثر من هذا.

وقد روى فى الخبر: أن مطرف بن عبد الله بن الشخير، رحمه الله كتب إلى عمر بن عبد العزيز ﷺ: ليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه؛ فإن لله تعالى عبادًا استأنسوا بالله فكانوا فى وحدتهم أشد استئناسًا من الناس فى كثرتهم، وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون، وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون.

ومطرف بن عبد الله من كبار التابعين، وكذلك عمر بن عبد العزيز ﷺ من الأئمة الراشدين.

وذكر عن بعض العارفين: أنه قال: إن لله عز وجل عبادا أرادهم بحق حقائق الأنس به فأخذهم به عن وجد طعم الخوف مما سواه.

والأنس بالله: لعبد قد كملت طهارته وصفا ذكره واستوحش من كل ما يشغله عن الله تعالى، فعند ذلك آنسه الله تعالى به.

وأهل الأنس فى الأنس على ثلاثة أحوال:

فمنهم من أنس بالذكر واستوحش من الغفلة، وأنس بالطاعة واستوحش من الذنب.

كما حكى عن سهل بن عبد الله، رحمه الله أنه قال:

أول الأنس من العبد أن تأنس النفس والجوارح بالعقل، ويأنس العقل والنفس بعلم الشرع، ويأنس العقل والنفس والجوارح بالعمل[1] لله خالصا، فيأنس العبد بالله أى يسكن إليه.

والحال الثانى من الأنس: فهو لعبد قد استأنس بالله واستوحش مما سواه من العوارض والخواطر المشغلة.

(١) وفى رواية أخرى بالعلم.

كما ذكر عن ذى النون، رحمه الله، أنه قيل له:

ما علامة الأنس بالله؟ قال: إذا رأيته يؤنسك بخلقه فإنه هو ذا يوحشك من نفس، وإذا رأيته يوحشك من خلقه فهو ذا يؤنسك بنفسه.

وسئل الجنيد رحمه الله، عن الأنس بالله فقال: ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة.

وقال إبراهيم المارستانى، رحمه الله، وسئل عن الأنس، قال: فرح القلب بالمحبوب.

والحال الثالث من الأنس: هو الذهاب عن رؤية الأنس بوجود الهيبة والقرب والتعظيم مع الأنس.

كما ذكر عن بعض أهل المعرفة أنه قال: إن لله عبادًا أوجد لهم من الهيبة له ما أخذهم به عن الأنس بغيره.

وهذا كما ذكر عن ذى النون، رحمه الله: أن رجلا كتب إليه: آنسك الله بقربه، فكتب إليه ذو النون: أوحشك الله من قربه، فإنه إذا آنسك بقربه فهو قدرك، وإذا أوحشك من قربه فهو قدره.

معنى قوله: أوحشك من قربه، يعنى بأن يوجدك هيبة قربه.

وسئل الشبلى رحمه الله عن الأنس فقال: وحشتك منك ومن نفسك ومن الكون.

والأنس بالله اقتضى الطمأنينة.

باب حال الطمأنينة

قال الشيخ رحمه الله: وقد قال الله تعالى: ﴿يأيتها النفس المطمئنة﴾[1] وفى التفسير: المطمئنة بالإيمان.

وقال عز وجل: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[2].

وقال فى قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿ولكن ليطمئن قلبى﴾[3].

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله، إذ سكن قلب العبد إلى مولاه واطمأن إليه، قويتْ حال العبد فإذا قويت أنس بالعبد كل شيء.

وسئل الحسن بن على الدامغانى رحمه الله عن قوله عز وجل: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾[4] فقال: إن القلوب هشت وبشت وسكنت واستأنست ثم كشف عنه، قال: هشت من معرفة جلال الله تعالى، وعظمته، وبشت من معرفة رحمة الله وفضله، وسكنت من معرفة كفاية الله وصدقه، واستأنست من معرفة إحسان الله ولطفه.

قال: وسئل الشبلى رحمه الله عن معنى قول أبى سليمان الدارانى رحمه الله: النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت؛ فقال: إذا عرفت من يقوتها اطمأنت.

والطمأنينة: حال رفيع، وهى لعبد رجح عقله، وقوى إيمانه ورسخ علمه، وصفا ذكره وثبتت حقيقته.

وهى على ثلاثة ضروب:

(١) الفجر: ٢٧

(٢) الرعد: ٢٨.

(٣) البقرة: ٢٦٠.

(٤) الرعد: ٢٨.

فضرب منها للعامة، لأنهم إذا ذكروه اطمأنوا إلى ذكرهم له، فحظهم منه: الإجابة للدعوات باتساع الرزق ودفع الآفات، وهو ما قال الله عز وجل: ﴿النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[1] يعنى بالإيمان بأن لا دافع ولا مانع إلا الله.

قال: والضرب الثانى: للخصوص، لأنهم رضوا بقضائه وصبروا على بلائه، وأخلصوا، واتقوا، وسكنوا، واطمأنوا إلى قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الذينَ اتَّقَوْا وَالذينَ هُمْ مُحْسِنُون﴾[2] ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[3] فاطمأنوا وسكنوا إلى قوله: ﴿مع﴾ فكانت طمأنينتهم ممزوجة برؤية طاعتهم.

والضرب الثالث: لخصوص الخصوص: علموا أن سرائرهم لا تقدر أن تطمئن إليه، ولا تسكن معه، هيبة وتعظيمًا؛ لأنه ليس له غاية تدرك، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[3] فمن كانت له الأشياء فى سره كذلك فإلى ماذا يطمئن أو يسكن قلبه؟ ومن وقع فى عطش التمنى فى طلب الزيادة وقع فى البحر الذى لا تجرى فيه الأوهام، وهذا كلام قد اختصرته من كلام الواسطى.

والطمأنينة تقتضى حال المشاهدة.

(١) الفجر: ٢٧.

(٢) النحل: ١٢٨.

(٣) الرعد: ٤٦.

(٤) الإخلاص: ٤.

باب حال المشاهدة

قال الشيخ، رحمه الله: وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(١) يعنى حاضر القلب.

وقال أيضًا: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾(٢).

وقال أبو بكر الواسطى، رحمه الله: فالشاهد الرب والمشهود الكون: أعدمهم ثم أوجدهم.

وقال أبو سعيد الخراز، رحمه الله: فمن شاهد الله بقلبه خنس عنه ما دونه، وتلاشى كل شىء وغاب عند وجود عظمة الله تعالى، ولم يبق فى القلب إلا الله عز وجل.

وقال عمرو بن عثمان المكى رحمه الله: المشاهدة ما لاقت القلوب من الغيب بالغيب ولا يجعلها عيانًا ولا يجعلها وجدًا.

وقال أيضًا: المشاهدة وصل بين رؤية القلوب ورؤية العيان، لأن رؤية القلوب عند كشف اليقين فى زيادة توهم.

وهو قول النبى ﷺ [٣٧] لعبد الله بن عباس، رضى الله عنهما: «اعبُد الله كأنك تراه» الحديث.

وأما قوله عز وجل: ﴿وهُوَ على كل شىءٍ شهيدٌ﴾(٣) فقالوا: هو مشاهدة الأشياء بعين العبر، ومعاينتها بأعين الفكر.

وقال عمرو المكى رحمه الله: المشاهدة يعنى المحاضرة، يعنى المداناة، كما ذكر الله عز وجل: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ التي كانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾(٤) يعنى قريبة من البحر.

(١) ق: ٣٧.
(٢) البروج: ٣.
(٣) سبأ: ٤٧.
(٤) الأعراف: ١٦٣.

وقال عمرو المكى، رحمه الله: المشاهدة: زوائد اليقين، سطعت بكواشف الحضور، غير خارجة من تغطية القلب.

وقال أيضًا: المشاهدة: حضور بمعنى قرب، مقرون بعلم اليقين وحقائقها.

وأهل المشاهدة على ثلاثة أحوال:

فالأول منها: الأصاغر، وهم المريدون، وهو ما قال أبو بكر الواسطى، رحمه الله: يشاهدون الأشياء بعين العبر، ويشاهدونها بأعين الفكر.

والحال الثانى من المشاهدة: الأوساط، وهو الذى أشار إليه أبو سعيد الخراز، رحمه الله، حيث يقول:

الخلق فى قبضة الحق وفى ملكه، فإذا وقعت المشاهدة فيما بين الله وبين العبد لا يبقى فى سره ولا فى وهمه غير الله تعالى.

والحال الثالث من المشاهدة: ما أشار إليه عمرو بن عثمان المكى، رحمه الله، فى كتاب المشاهدة، فقال: إن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت، فشاهدوه بكل شىء، وشاهدوا كل الكائنات به، فكانت مشاهدتهم لديه ولهم به، فكانوا غائبين حاضرين، وحاضرين غائبين، على انفراد الحق فى الغيبة والحضور، فشاهدوه ظاهرًا وباطنًا، وباطنًا وظاهرًا، وآخرًا أولاً، وأولا آخرًا، كما قال عز وجل: ﴿**هوَ الأوَّلُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ وهوَ بكلِ شىْءٍ عَليمٌ**﴾[1].

والمشاهدة: حال رفيع وهى من لوائح زيادات حقائق اليقين.

وتقتضى حال اليقين.

(١) الحديد: ٣.

باب حال اليقين

قال الشيخ، رحمه الله : وقد ذكر الله تعالى اليقين فى مواضع من كتابه على ثلاثة أوجه: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

وقال النبى ﷺ [٣٨] : «سلوا الله تعالى العفو والعافية واليقين فى الدنيا والآخرة» وقال ﷺ [٣٩] « رحم الله أخى عيسى، عليه السلام لو ازداد يقينا لمشى فى الهواء».

وقال عامر بن عبد قيس، رحمه الله: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا» يعنى عند معاينتى لما آمنت به من الغيب، وهذا كلام غلبات ووجد وتحقق.

وقد روى عن النبى ﷺ [٤٠] أنه قال : «الخلق يبعثون على ما يموتون عليه» ولا يكون الخبر كالمعاينة فى جميع معانيها، ويجوز أن يكون له وجه آخر، وهو أن يعنى: ما ازددت علم اليقين.

وقال أبو يعقوب النهرجورى، رحمه الله: إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة؛ والرخاء مصيبة.

واليقين هو المكاشفة.

والمكاشفة على ثلاثة أوجه:

مكاشفة العيان بالأبصار يوم القيامة .

ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان بمباشرة اليقين بلا كيف ولا حد.

والحالة الثالثة : مكاشفة الآيات بإظهار القدرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالمعجزات، ولغيرهم بالكرامات والإجابات.

واليقين: حال رفيع، وأهل اليقين على ثلاثة أحوال:

فالأول: الأصاغر، وهم المريدون، والعموم[1].

(١) فى رواية أخرى: والعوام.

وهو كما قال بعضهم: أول مقام اليقين: الثقة بما فى يد الله تعالى، والإياس مما فى أيدى الناس.

وهو ما قال الجنيد، رحمه الله، حيث سئل عن اليقين، فقال: اليقين ارتفاع الشك.

وقال أبو يعقوب: إذا وجد العبد الرضا بما قسم الله له فقد تكامل فيه اليقين.

وسئل رُوَيْم بن أحمد، رحمه الله، عن اليقين، فقال: تحقيق القلب بالمعنى على ما هو به.

والثانى الأوساط وهم الخصوص، وهو ما سئل ابن عطاء عن اليقين، فقال: ما زالت فيه المعارضات على دوام الأوقات.

وكما قال أبو يعقوب النهرجورى، رحمه الله: العبد إذا تحقق باليقين ترحَّل من يقين إلى اليقين حتى يصير اليقين له وطنًا.

وسئل أبو الحسين النورى، رحمه الله، عن اليقين، فقال: اليقين: المشاهدة ومعنى المشاهدة قد ذكرناه.

والثالث: الأكابر، وهم خصوص الخصوص، وهو ما قال عمرو بن عثمان المكى، رحمه الله: اليقين، فى جملته: تحقيق الإثبات لله عز وجل بكل صفاته.

وقال: حد اليقين: دوام انتصاب القلوب لله عز وجل بما أورد عليها اليقين من حركات ما لاقى به الإلهام.

وقال أبو يعقوب: لا يستحق العبد اليقين حتى يقطع عن كل سبب حال بينه وبين الله تعالى، من العرش إلى الثرى، حتى يكون الله لا غير، ويوثر الله تعالى، على كل شىء سواه، وليس لزيادات اليقين نهاية؛ كلما تفهموا وتفقهوا فى الدين ازدادوا يقينًا على يقين.

واليقين أصل جميع الأحوال وإليه تنتهى جميع الأحوال، وهو آخر

الأحوال، وباطن جميع الأحوال، وجميع الأحوال ظاهر اليقين، ونهاية اليقين: تحقق التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب، ونهاية اليقين: الاستبشار، وحلاوة المناجاة، وصفاء النظر إلى الله تعالى، بمشاهدة القلوب بحقائق اليقين بإزالة العلل ومعارضة التهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1] ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾[2].

وقال الواسطي، رحمه الله:

إذا أيقن بالمعنى وقع له مشاهدة الأحوال، وإذا انكشف له حقائق المعنى خرج من أشجان الخلق، خاطبهم بالتقريب، وهو الكشف من الصديقية، وخاطبهم الله تعالى، بالمشاهدة فقال:

﴿والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ﴾[3]، الشهداء باعوه نفوسهم، والصالحون الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون.

(١) الحجر: ٧٥.

(٢) الذاريات: ٢٠.

(٣) النساء: ٦٩.

كتاب أهل الصفوة

فى الفهم والاتباع لكتاب الله عز وجل

باب الموافقة لكتاب الله تعالى

قال الشيخ، رحمه الله: قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الذى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾(١)، وقال: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين﴾(٢)، وقال: ﴿يس * والقرآن الحكيم﴾(٣)، وقال: ﴿حكمة بالغة﴾(٤).

وقال النبى ﷺ [٤٢]: «القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن حكم به عدل، ومن اعتصم به هدى».

وروى عن عبدالله بن مسعود، رضي الله عنه أنه قال: «من أراد العلم فليثوِّر القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين» وقد قال الله تعالى: ﴿الم * ذلك الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيه هُدًى لِلْمتَّقِينَ * الذينَ يُؤمِنُونَ بالغَيْبِ﴾(٥).

فعلم أهل العلم بهذا الخطاب أن فى كتاب الله الذى أنزل على رسوله ﷺ، وهو القرآن الذى لا شك فيه لأحد من المؤمنين أنه من عند الله، أن

---

(١) آل عمران: ١٧.

(٢) الإسراء: ٨٢.

(٣) يس: ١، ٢.

(٤) القمر: ٥

(٥) البقرة: ١، ٢.

وبيانًا لهم فى جميع ما أشكل عليهم من أحكام الدين، بعد إيمانهم بالغيب، وهو التصديق بما أخبرهم الله به عما غاب عن أعينهم.

ثم قال فى آية أخرى: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيءٍ وهدًى ورحمةً وبُشْرَى للمسلمين**﴾(١).

فأفادت هذه الآية لأهل الفهم من أهل العلم، بعد إيمانهم بالغيب أيضًا، أن تحت كل حرف من كتاب الله تعالى كثيرًا من الفهم مذخورًا لأهله على مقدار ما قسم لهم من ذلك، واستدلوا على ذلك بآيات من القرآن، مثل قوله عز وجل: ﴿**ما فرَّطنا فى الكتابِ من شيء**﴾(٢) وقوله: ﴿**وكلَّ شيء أحصيناه فى إمامٍ مبينٍ**﴾(٣) وقوله: ﴿**وإن من شيءٍ إلَّا عندنا خزائنُه وما نُنَزِّلُهُ إلا بقَدَرٍ معلومٍ**﴾(٤).

وقالوا فى معنى قوله عز وجل: ﴿**من شيء**﴾ إن معناه: من شيء من علم الدين، وعلم الأحوال التى بين الخلق وبين الله تعالى وغير ذلك.

وقال عز وجل فى آية أخرى: ﴿**إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم**﴾(٥) يعنى يدل إلى الذى هو أصوب، فعلم أهل الفهم من أهل العلم أن لا سبيل إلى التعلق بالأصوب مما يهدى إليه القرآن إلا بالتدبر، والتفكر، والتيقظ، والتذكر وحضور القلب عند تلاوته، وعلموا ذلك أيضا بقوله: ﴿**كتابٌ أنزلْناهُ إليكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياته وليتذكَّرَ أُولُو الألباب**﴾(٦).

ثم استفاد أهل الفهم من هذه الآية، أيضًا أن التدبر، والتفكر، والتذكر

(١) النحل: ٨٩.

(٢) الأنعام: ٣٨.

(٣) يس: ١٢.

(٤) الحجر: ٢١.

(٥) الإسراء: ٩.

(٦) ص: ٢٩

لا وصول إليه إلا بحضـور القلب، لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1] يعنى حاضر القلب.

ثم لم يترك على ذلك حتى ذكـر القلب فى آية أخرى فقال: ﴿يَوْمَ لاينفعُ مالٌ ولا بنون * إلا من أتى اللهَ بقلب سليمٍ﴾[2].

ثم لم يترك على ذلك حـتى أقام إمامًا للخلق فى القلب السليم، فـقال عز وجل: ﴿وإنَّ من شيـعتـه لإبراهيمَ * إذ جـاءَ ربَّه بقلبٍ سـليمٍ﴾[3] قـال أهل الفهم: القلب السليم الذى ليس فيه غير الله، عز وجل.

وقال سهل بن عبد الله، رحمه الله: لو أعطى العبدُ لكل حرف من القرآن ألف فـهم لما بلغ نهـاية مـا جعل الله تعـالى فى آية من كـتاب الله تعـالى من الفهم، لأنه كلام الله تعالى، وكلامه صفته.

وكما أنه ليس لله نهـاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفـهمون على مقـدار ما يفتح الله تعـالى على قلوب أوليائه من فهم كـلامه، وكلام الله غـير مخلوق فلا تبلغ إلى نهاية الفهم فيه فهومُ الخلق، لأنها محدثة مخلوقة.

وقد ذكر الله تعالى الهداية فى القرآن قوله: ﴿هُدًى للمُتقينَ﴾[4].

(١) ق: ٣٧.

(٢) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

(٣) الصافات: ٨٣، ٨٤.

(٤) البقرة: ٢.

باب فى تخصيص الدعوة

ووجه الاصطفاء

قال سهل بن عبد الله، رحمه الله: الدعـوة عامة، والهداية خاصة، وأشار إلى قوله تـعالى: ﴿والله يَدْعُـو إلى دارِ السَّـلامِ ويَـهْـدِي مَنْ يَشَـاءُ إلى صِـرَاطٍ مُسْتَقيمٍ﴾(١)، لأن الدعـوة عامة، والهـداية مخـتصـة على تفاضلـها، لأن ردّ المشـيئة فى باب الهداية إليـه، فكان الذين اختارهم وأحبـهم واصطفاهم دون من دعاهم.

وقـد ذكر الله تعـالى الاصطفاء أيضًـا، فى مـواضع من كتـابه، فقـال فى موضع: ﴿قلِ الحَـمْـدُ لله وَسَـلامٌ عَلَى عِـبادِهِ الذينَ اصطفى * ءآلله خـيرٌ أمـا يشركونَ﴾(٢).

فأشار بالسلام إلى عباد قد اصطفاهم واجتباهم، ولم يبين من هم؟ وكيف هم؟.

ثم لم يتـرك على ذلك وقـال فى آية أخـرى: ﴿الله يصطفى منَ المـلائكةِ رُسلا ومن الناسِ﴾(٣).

قال المفسرون: ﴿ومنَ الناس﴾ يعنى به الأنبيـاء، فلو ترك على هذا أيضًا لكان للقائل أن يقـول: إن الاصطفاء لا يجوز إلا للأنبيـاء، فقال: ﴿ثم أورثنا الكتابَ الذينَ اصطفيْنا منْ عبادِنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيراتِ﴾(٤).

ففرَّقَ بين الاصطفاء الذى ذكر للرسل، عليـهم السلام والاصطفاء الذى ذكر لعـباده الذين أورثهم الكتـاب، وهم المؤمنون، ثم بيَّـن أنهم متفاوتون أيضًـا فى

(١) يونس: ٢٥.

(٢) النمل: ٥٩.

(٣) الحج: ٥٧.

(٤) فاطر: ٣٢.

أحـوالهم التى بينـهم وبين الله تعـالى : ﴿فمنهم ظالمٌ لنفسه﴾ الآية ، فـوقع الاصطفاء على وجهين :

اصطفـاء الأنبيـاء عليـهم السلام بالـعصـمة ، والتـأييـد ، والوحى ، وتبليغ الرسالة ، ولسائرهم من المؤمنين : الاصطفاء بصفـاء المعاملة وحسن المجاهدة والتعلق بالحقائق والمنازلة .

ثم قال عز وجل : ﴿لكلٍّ جَعلنَا منكم شرْعةً ومنهاجًا﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحـدةً ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات﴾[2] .

فأمر الله تعالى بالاستباق ، والمسارعة والمبادرة إلى الخيرات مجملا ، ولم يبين أيْشَ الخيـرات التى أمرهم بالاستبـاق إليها ؛ ثم فصَّل وبيَّن مواضع كـثيرة كقوله : ﴿هدًى للمتقين﴾[3] ، ﴿وموْعظةً للمتقين﴾[4] ، ﴿وإيَّاىَ فاتقون﴾[5] ، ﴿وإيَّاىَ فارْهـبون﴾[6] ، ﴿فـلا تخافـوهُمْ وخافـون﴾[7] ، ﴿فـلا تخشـوهُمْ واخشونى﴾[8] ، ﴿فاذكُرونى أذْكرْكم﴾[9] ، ﴿وعلى الله فتـوكَّلوا﴾[10] ، ﴿وأطيعـوا الله وأطيعـوا الرسُولَ﴾[11] ، ﴿والذين جاهـدوا فينا﴾[12] ، ﴿ومَن شكر فإنما يشكرُ لنفسه﴾[13] ، ﴿والله يحبُّ الصابرينَ﴾[14] ، ﴿وما أُمِروا إلا ليعبدوا الله مخلصينَ له الدينَ﴾[15] .

(١) المائدة : ٤٨ .
(٢) المائدة : ٤٨
(٣) البقرة : ٢
(٤) البقرة : ٦٦
(٥) البقرة : ٤١
(٦) البقرة : ٤٠
(٧) آل عمران : ٧٥
(٨) البقرة : ١٥٠
(٩) البقرة : ١٥٢
(١٠) المائدة : ٢٣
(١١) المائدة : ٩٢ .
(١٢) العنكبوت : ٦٩
(١٣) النمل : ٤٠
(١٤) آل عمران : ١٤٦ .
(١٥) البينة : ٥

وقال: ﴿رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾[1]، ثم ذكر: القانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات.

وذكر فى آيات من القرآن: التوبة، والإنابة، والتفويض، والرضا، والتسليم، والقناعة، وترك الاختيار.

ثم قال: ﴿قل متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرة خيرٌ لمن اتقى﴾[2].

وقال: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسنُ المآب﴾[3]، ﴿وما الحياةُ الدنيا إلا لعبٌ ولهوٌ﴾[4]، ﴿وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور﴾[5]، ثم قال: ﴿من كان يريد حرثَ الآخرة نَزِدْ له فى حرثه ومنْ كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة منْ نصيب﴾[6].

ثم ذكر الشيطان فقال: ﴿إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوّاً﴾[7]، وقال: ﴿أفرأيتَ من اتخذ إلهه هواه وأضلهُ الله على علمٍ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾[8]، وقال: ﴿فأما من طغى $ وآثر الحياة الدنيا﴾[9] الآية.

وما يشبه ذلك من الآيات التى ندب الله تعالى الخلق إلى المسارعة والاستباق إلى التعلق والخلق بها، والصدق والإخلاص فيها كثيرة؛ والمؤمنون فى قبول ذلك متساوون، وفى منازلتها وركوب حقائقها متفاوتون، والجميع مخاطبون.

وهم على ثلاث درجات.

---

(١) الأحزاب: ٢١.
(٢) النساء: ٧٧
(٣) آل عمران: ١٤
(٤) الأنعام: ٣٢
(٥) الحديد: ٢٠
(٦) الشورى: ٢٠
(٧) فاطر: ٦.
(٨) الجاثية: ٢٣.
(٩) النازعات: ٢٧، ٢٨..

باب ذكر تفاوت المستمعين

خطاب الله تعالى ودرجاتهم فى قبول الخطاب.

قال الشيخ، رحمه الله: فمنهم من سمع الخطاب، وقَبِلَه، وأقر به، وتعرض لما خوطب به من هذه الآيات البينات التى ذكرناها، والتى لم نذكرها فيما يشبه ذلك وحال بينه وبين العمل بها والانتفاع بما وعدهم الله تعالى من الثواب عليها، والاشتغال بالدنيا والغفلة ومتابعة النفس، واختيار الحظوظ على الحقوق، والإجابة لدواعى العدو، والميل إلى أمارات الهوى والشهوات؛ وهم الذين وصفهم الله تعالى فى كتابه وزجرهم ووبخهم، حيث يقول:

﴿أفرأيتَ من اتخذ إلهه هواهُ وأضلهُ الله على علم﴾[1] وقال: ﴿ولا تُطعْ مَن أغفلنا قلبَهُ عن ذكرنا واتبعَ هواه﴾[2]، وقال: ﴿ خُذ العفوَ وَأْمُرْ بالْعُرْف﴾[3] وقال: ﴿زُيِّنَ للناسِ حبُّ الشهوات من النساء والبنينَ والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيلِ المُسَوَّمة والأنعامِ والحرث ذلك متاعُ الحياة الدنيا والله عنده حُسْنُ المآب﴾[4]، ثم قال، عز وجل: ﴿قل أَؤُنبئكم بخيرٍ منْ ذلكم للذين اتَّقَوْا عندَ ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها وأزواجٌ مطهرةٌ ورضوانٌ من الله والله بصيرٌ بالعباد﴾[5].

ومنهم من سمع الخطاب، فأجاب، وتاب، وأناب، وعمل فى الطاعات، وتحقق فى الأحوال والمنازلات، وصدق فى المعاملات، وأخلص فى المقامات؛ وهم الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه، وذكر ما أعد الله لهم،

(١) الجاثية: ٢٣. (٢) الكهف: ٢٨. (٣) الأعراف: ١٩٩
(٤) آل عمران: ١٤ (٥) آل عمران: ١٥.

فقال: ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتونَ الزكاة وهمْ بالآخرة هم يوقنون﴾[1] ﴿أولئك على هُدًى من ربهمْ﴾، وقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جناتُ الفردوْس نزلا﴾[2]، وقال: ﴿من عملَ صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً ولنجزينَّهم أَجْرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملونَ﴾[3].

قالوا: الحياة الطيبة: هى الرضا والقناعة بالله عز وجل.

ثم قال: ﴿قد أفلحَ المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعونَ * والذين هم عن اللَّغْوِ مُعرِضونَ﴾[4] الآية.

وقال عمرو المكى رحمه الله: فكل شيء غير الله مما وقع فى القلوب فهو لغوٌ، فأخبر أن الموحدين عن كل شيء غير الله معرضون، ثم قال: ﴿أولئك همُ الوارثون * الذينَ يرثون الفردوس هم فيها خالدونَ﴾[5].

وذكرهم فى القرآن كثير، وقد فضلهم على غيرهم بذكره لهم ووعده إياهم بالثواب الجزيل.

والطبقة الثالثة من المخاطبين: هم الذين ذكرهم الله تعالى، وشرفهم بذكره لهم، ونسبهم إلى العلم والخشية فقال: ﴿إنما يخشى اللهَ من عبادِهِ العلماءُ﴾[6].

وقال: ﴿وأولو العلم قائمًا بالقسطِ﴾[7]، وقال: ﴿هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[8].

ثم خص من هؤلاء قومًا أيضًا، فقال: ﴿والراسخون فى العلم﴾[9] زاد فى الوصف الذى شرفهم به، معنى آخر:

(١) البقرة: ٣ - ٥.
(٢) الكهف: ١٠٧.
(٣) النحل: ٩٧.
(٤) المؤمنون: ١، ٢.
(٥) المؤمنون: ١٠، ١١.
(٦) فاطر: ٢٨.
(٧) آل عمران: ١٨.
(٨) الزمر: ٩.
(٩) آل عمران: ٧.

قال أبو بكر الواسطى، رحمه الله: الراسخون فى العلم: هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب، وفى سر السر، فعرّفهم ما عرفهم، وأراد منهم من مقتضى الآيات ما لم يرد من غيرهم، وخاضوا بحر العلم بالفهم، لطلب الزيادات، فانكشف لهم من مذخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص، فاستخرجوا الدر والجواهر، ونطقوا بالحكم.

ومنهم من كانت البحار عنده كتفلة فيما شاهد من المستأثرات، يعنى مستأثرات العلم الذى استأثر الله تعالى به أنبياءه، وخص بذلك أولياءه وأصفياءه، فغاص بسره عند صفاء ذكره وحضور قلبه فى بحار الفهم، فوقع على الجوهر العظيم، وهو الذى علم مصادر الكلام من أين، فوقع على العين، فأغناهم عن البحث والطلب والتفتيش.

وهذا شرح من كلام الواسطى فيما ذكر وبيان ما قال الواسطى فى كلام ذكر ذلك عن أبى سعيد الخراز فى معنى ذلك.

قال أبو سعيد، رحمه الله: أول الفهم لكتاب الله عز وجل: العمل به: لأن فيه العلم، والفهم، والاستنباط؛ وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة، لقول الله، عز وجل: ﴿**إن فى ذلك لذكرَى لمن كان له قلبٌ أو ألقَى السمعَ وهو شهيدٌ**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**الذين يستمعون القولَ فيتبعون أحسنَه**﴾[2].

والقرآن كله حسن، ومعنى اتباع الأحسن ما يكشف للقلوب من العجائب عند الاستماع وإلقاء السمع من طريق الفهم والاستنباط.

---

(١) ق: ٣٧.

(٢) الزمر: ١٨.

باب فى شرح استنباط إلقاء السمع والحضور بالتدبر عند التلاوة وفهم الخطاب بما خوطب به العبد

قال الشيخ، رحمه الله: واعلم أن إلقاء السمع والحضور عند الاستماع على ثلاثة أوجه:

قال أبو سعيد الخراز، رحمه الله، فيما بلغنى عنه: أول إلقاء السمع لاستماع القرآن هو أن تسمعه كأن النبى ﷺ يقرأه عليك ثم ترقى عن ذلك فكأنك تسمعه من جبريل عليه السلام وقراءته على النبى ﷺ؛ لقول الله، عز وجل: ﴿وإنهُ لَتنزيلُ رَبِّ العَالمينَ * نَزَلَ بهِ الرُّوحُ الأمينُ * علَى قَلبكَ...﴾[1] الآية، ثم ترقى عن ذلك فكأنك تسمعه من الحق، وذلك قول الله، عز وجل: ﴿ونُنزلُ منَ القرآنِ ما هُوَ شفاءٌ ورَحْمةٌ للمؤمنينَ﴾[2] وقوله: ﴿تنزيلُ الكتَابِ منَ الله العَزيزِ الْحَكيمِ﴾[3] فكأنك تسمعه من الله، تعالى، وكذلك: ﴿حم * تَنزيلُ الكتَابِ منَ الله العزيزِ العليمِ﴾[4].

ومخرج الفهم فى استماعك من الله تعالى: عند حضور قلبك وغيبتك عن أشغال الدنيا وعن نفسك بقوة المشاهدة، وصفاء الذكر، وجمع الهم، وحسن الأدب، وطهارة السر، وصدق التحقيق، وقوة دعائم التصديق، والخروج إلى السعة من الضيق، وحضور المشاهدة لنفاذ الغيب، وسرعة الوصول إلى المذكور بالغيب بكلام اللطيف الخبير.

(١) الشعراء: ٩٣- ٩٤.

(٢) الإسراء: ٨٢.

(٣) الزمر: ١.

(٤) غافر: ١- ٢.

وشرح هذا كله مفهوم ومستنبط من قوله تعالى: ﴿الذينَ يؤمِنونَ بالغيبِ﴾[1].

قال أبو سعيد بن الأعرابى: هم فى غيبة مغيبون، فبالغيب آمنوا بالغيب، وهو، وإن كان غيبًا، فإنه لا يلحقهم فى ذلك شك ولا ريب.

وقال تعالى: ﴿قلِ الله يهدي للحقِّ أفمنْ يهدِى إلى الحقِّ أحقُّ أنْ يُتَّبَعَ أمَّنْ لا يَهِدِّى إلا أنْ يُهْدَى﴾[2]؛ وقال: ﴿فمَاذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرَفونَ؟﴾[3].

وقال أبو سعيد الخراز، رحمه الله: كل ما أدرك الخلق من الله فإنما أدركوا غيبًا خارجًا عن نعوت الحقائق، وهو قوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ والغيب هو ما أشهد الله تعالى القلوب من إثبات صفات الله وأسمائه، وما وصف به نفسه، وما أدى إليهم الخبر فأثبتوا الصفات، ولم يدعوا إدراكها على نهاية، ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿ولوْ أنَّ ما فِي الأرْض منْ شجرة أقلامٌ والبحرُ يمدهُ منْ بعدِهِ سبعة أبحر مَا نفدَتْ كلماتُ الله﴾[4]؟ فإذا كان وصف كلامه لا يدرك، ولا يوصل إلى نهاية فهمه، فكيف يدرك حقيقة وصفه وهويته وكنهه؟

فلذلك قرر عند أهل الفهم من أهل العلم أن كل شىء أشار إليه المتحققون، والواجدون، والعارفون، والموحدون؛ وما عبروا عنه، وما لم تسعه العبارة، ولا يومئ إليه بالدلالة، ولا يشار إليه بالإشارة، من اختلاف المعارف، وتباين الأحوال والمقامات والأماكن، وغير ذلك مما شاهدوه ظاهرًا وباطنًا، هو الغيب الذى وصفه الله تعالى، بقوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾.

---

(١) البقرة: ٣.

(٢) يونس: ٣٥.

(٣) يونس: ٣٢.

(٤) لقمان: ٢٨.

باب وصف أرباب القلوب فى فهم القرآن

قال الشيخ، رحمه الله: وقد ذكر الله تعالى وصف جميع أرباب القلوب وأهل الحقائق: من المريدين، والعارفين، والمتحققين، والواجدين، وأهل المجاهدات، والرياضات، والمتقربين إليه، بأنواع الطاعات، ظاهرًا وباطنًا، كما فى كتابه وهو قوله، عز وجل، فيما يصف به ملائكته: ﴿أولئكَ الذينَ يدعون يبتغونَ إلَى ربِهمُ الوَسيلَةَ أيهمْ أقربُ﴾[1] وقال للمؤمنين: ﴿يأيها الذينَ آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلَةَ﴾[2].

فكان فى هذه الآية شرح وبيان فى صفة الذين يؤمنون بالغيب بابتغاء الوسيلة.

ثم زاد فى البيان والتفصيل فى آية أخرى، يحث به المؤمنين على المسارعة إلى الخيرات، فقال عز وجل: ﴿أيحسبونَ أنمَا نمدهُم به منْ مالٍ وبنينَ * نسارعُ لهمْ فى الخيرات بل لا يشعرون﴾[3].

واستفاد أهل الفهم من هذه الآية أن أول المسارعة إلى الخيرات هو التقلل من الدنيا، وترك الاهتمام للرزق، والتباعد والفرار من الجمع والمنع باختيار القلة على الكثرة، والزهد فى الدنيا على الرغبة فيها.

ثم ذكر الذين يسارع لهم فى الخيرات ووصفهم فقال: ﴿الذينَ همْ منْ خشية ربهمْ مشفقونَ﴾[4] فوصفهم بالإشفاق من الخشية؛ والخشية والإشفاق اسمان باطنان، وهما عملان من أعمال القلب، فالخشية سر فى القلب خفى والإشفاق من الخشية أخفى من الخشية.

وهو الذى ذكر الله تعالى فقال: ﴿يعلمُ السرَّ وأخفَى﴾[5].

وقد قيل: إن الخشية انكسار القلب من دوام الانتصاب بين يدى الله تعالى.

(١) الإسراء: ٥٧.

(٢) المائدة: ٣٥.

(٣) المؤمنون: ٥٥، ٥٦.

(٤) المعارج: ٢٧.

(٥) طه: ٧.

ثم من بعد هذه المرتبة الشريفة والحال الرفيعة التى وصفهم الله تعالى بها من الخشية والإشفاق وغير ذلك فقال: ﴿والذينَ همْ بآيات ربهمْ يُؤْمنونَ﴾[1]، وكانوا قبل الخشية والإشفاق مؤمنين بآيات الله فعلم أنه أراد بذلك زيادة الإيمان، ألا ترى أنه يصف رسول الله ﷺ بالإيمان به بعد الرسالة والنبوة، وذلك قوله عز وجل: ﴿فآمنوا بالله ورَسولِه النبيِّ الأُمِّيِّ الذى يُؤْمنُ بالله وكلماته﴾[2].

فاستنبط أهل الفهم واستفادوا من هذه الآية أن زيادة الإيمان لا نهاية لها، وأن جميع ما وصل إليه أهل الحقائق من بدايتهم، أن ذلك من حقائق الإيمان وزيادته، وبراهينه وأنواره، وأن لا نهاية لذلك.

ثم قال عز وجل: ﴿والذينَ هم بربِّهمْ لاَ يُشْرِكونَ﴾[3]، فذكر أنهم لا يشركون بربهم بعدما وصفهم بالخشية والإشفاق والإيمان.

فاستفاد أهل الفهم أيضًا من ذلك وعلموا مستنبط هذه الآية، وذكر الشرك هاهنا: أنه من الشرك الخفى الذى يعارض القلوب من رؤية الطاعات وطلب الأعواض بعدما شهد شاهد صريح الإيمان أن لا ضار ولا نافع، ولا معطى ولا مانع، إلا الله؛ فعند ذلك شمروا وجدوا، وتضرعوا إلى الله تعالى، وطلبوا منه الخلاص لقلوبهم بصدق الإخلاص فى الإخلاص، وعلموا أنهم على قدر إخلاصهم فى إيمانهم ينظرون إلى دقائق شركهم وريائهم الذى هو أخفى من دبيب النمل على الحجر الأسود فى الليلة الظلماء.

وقد ذكر عن سهل بن عبد الله، رحمه الله أنه كان يقول: [٤٤] «أهل لا إله إلا الله كثير، والمخلصون منهم قليل».

(١) المؤمنون: ٥٨.

(٢) الأعراف: ١٥٨.

(٣) المؤمنون: ٥٩.

وقال سهل، أيضًا: الدنيا كلها جهل إلا ما كان منه العلم، والعلم كله حجة إلا ما كان العمل به، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص فيه، وأهل الإخلاص على خطر عظيم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[1].

فاستنبط أهل الفهم من هذه الآية، أيضًا؛ أن وجل قلوبهم مع ما آتوا من المسارعة والاستباق إلى هذه الأحوال التى ذكرنا، أن ذلك الوجل هو الوجل الذى لا سبيل إلى الكشف عن علم ذلك، ولا وقوف عليه لأحد من خلقه، وهو علم الخاتمة، وما سبق لهم من الله تعالى فى الغيب من الشقاوة والسعادة؛ فعند ذلك تقطع نياط قلوبهم، وذهلت عقولهم، وذهبت علومهم، وغابت فهومهم، وأقبلوا على الله تعالى، بصدق اللجأ، وإظهار الفاقة ودوام الافتقار.

وتصديق ذلك ما قد روى فى ذلك عن عائشة رضي الله عنها: **أنها سألت رسول الله** ﷺ، فقالت: يا رسول الله [٤٥] «الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة» هو الذى يزنى ويسرق ويشرب؟ فقال النبى ﷺ: لا، ولكن هو الذى يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه، ثم قال: **﴿أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون﴾**[2].

فدل ذلك على أن بالمسارعة إلى هذه الخيرات تنال درجة السابقين وتبتغى منزلتهم.

---

(١) المؤمنون: ٦٠.

(٢) المؤمنون: ٦١.

باب ذكر السابقين، والمقربين، والأبرار
من طريق الفهم والاستنباط

قال الشيخ، رحمه الله: قال الله تعالى: ﴿**والسابقون السابقون * أولئك المقربون**﴾[١]، ثم بين فضل المقربين على من دونهم من الأبرار والسابقين بعد ذلك فقال: ﴿**كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين * وما أدراك ما عليون**﴾[٢]، ثم قال: ﴿**إن الأبرار لفى نعيم * على الأرائك ينظرون**﴾[٣] وصف الكرامات التى أكرم بها الأبرار، وما خصهم به من النعيم والدرجات فى عليين فقال: ﴿**تعرفُ فى وجوههمْ نضرة النعيم**﴾[٤]، يعنى أن أهل الجنة يعرفون بالنضارة التى فى وجوههم، يعنى فى وجوه الأبرار من النعيم الذى خصوا به من بين أهل الجنة، ثم قال: ﴿**يسقون من رَحيق مختوم**﴾[٥].

ولم يصف لأهل الجنة أنهم يسقون من الرحيق المختوم إلى قوله: ﴿**ومزاجهُ من تسْنيم * عينًا يشربُ بها المقربون**﴾[٦].

فخص الأبرار فى الجنة من بين أهل الجنة بالرحيق المختوم، ثم فضل شراب الأبرار وهو الرحيق المختوم على شراب أهل الجنة بمزاجه لأن مزاجه من التسنيم، والتسنيم هو العين التى يشرب بها المقربون، فصار شراب الذى فضلوا به على أهل الجنة معلولا بمزاجه عند شراب المقربين الذى ليس بممزوج.

(١) الواقعة: ١٠، ١١.
(٢) المطففين: ١٨، ١٩.
(٣) المطففين: ٢٢، ٢٣.
(٤) المطففين: ٢٥.
(٥) المطففين: ٢٥.
(٦) المطففين: ٢٧، ٢٨.

فانظر إلى هذه الإشارة، ما ألطفها فى معنى المقربين، لأن الأبرار الذين خصوا من أهل عليين بالرحيق المختوم ونضرة النعيم والأرائك يمزج لهم فى شرابهم مزاجًا من شراب المقربين، الذى يشرب به المقربون على الدوام.

واستنبط أهل الفهم فيها معنيين:

أحدهما: أن شراب الأبرار ممزوج، وشراب المقربين صرف غير ممزوج، كما قال الله عز وجل فى آية أخرى: ﴿**إن الأبرار يشربونَ من كأسٍ كانَ مزاجها كافوراً**﴾[1] ثم وصف ما أعد الله لهم، ثم قال: ﴿**ويسقون فيها كأسًا كان مزاجها زنجبيلا * عينًا فيها تسمى سلسبيلا**﴾[2]، ثم أخذ فى صفة أخرى من نعيم أهل الجنة فقال: ﴿**وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيمًا وملكًا كبيرًا**﴾[3]، أشار إلى نعيم لا صفة له بقوله: ﴿**ثم رأيت نعيمًا**﴾ ولم يصف النعيم، فلما بلغ إلى آخر القصة قال: ﴿**وسقاهم ربهم شرابًا طهوراً**﴾[4]، فكلما ذكر شربهم ووصف فى ذلك فعلهم بقوله: ﴿**يشربون**﴾ يذكر المزاج فى شربهم، فلما قال: ﴿**وسقاهم ربهم شرابًا طهوراً**﴾ لم يذكر المزاج فى شربهم.

والمعنى الآخر: أن العين التى هى شراب المقربين يمزج منه بالعين التى هى شراب الأبرار.

ففضلوا على أهل الجنة بمزاج مزج شرابهم من التسنيم، وهو العين التى يشرب بها المقربون.

(١) الإنسان: ٥.

(٢) الإنسان: ١٧، ١٨.

(٣) الموجود فى قراءتنا «ثَم» بمعنى هناك وقرأ الجمهور بفتح الثاء وحميد الأعرج بضمها: الإنسان: ٢٠.

(٤) الإنسان: ٢١.

فهذا فرق بين الأبرار والمقربين والله أعلم.

ثم قال جل ذكره: ﴿**ولا نكلفُ نفسًا إلا وسعها**﴾[1]، فبين أن المؤمنين إنما أعطوا الاستطاعة على قدر الطاقة فى ركوب هذه الحقائق ومنازلة هذه الأحوال، لأن جميع ما أتى به الأنبياء، عليهم السلام، فمن دونهم من الحقائق هو داخلٌ فى قوله عز وجل: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتُمْ**﴾[2] لم يخرج أحد من ذلك.

(١) المؤمنون: ٦٢.

(٢) التغابن: ١٦.

باب بيان التشديد فى القرآن، ووجوه ذلك

قال الشيخ، رحمه الله: اعلم أن الله تعالى قد أوجب على عباده بقوله: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ فرضًا، لو أنهم أتوا بجميع أعمال الملائكة والأنبياء والصديقين، ثم يطالبهم بحقيقة ذلك كان الذى عليهم فى ذلك من إثبات الحجة أكثر من الذى لهم.

ألا ترى أن الملائكة مع ما جبلهم الله تعالى عليه من أنواع العبادات يقولون: [٤٥] «سبحانك ربنا، ما عبدناك حقَّ عبادتك» ويقولون: ﴿**سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا**﴾[١].

فقد تبرأوا من علمهم وعبادتهم عند مشاهدة الحقيقة.

ومعنى قوله عز وجل: ﴿**اتقوا الله حق تقاته**﴾[٢] راجع إلى قوله: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾.

والتشديد فى قوله: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ لأنك لو صليت ألف ركعة واستطعت أن تصلى ركعة أخرى فأخرت ذلك إلى وقت آخر فقد تركت استطاعتك، ولو ذكرت الله تعالى ألف مرة، واستطعت أن تذكره مرة أخرى فتؤخر ذلك إلى وقت ثان فقد تركت استطاعتك، وكذلك لو تصدقت على سائل بدرهم، واستطعت أن تعطيه درهمًا آخر، أو حبة أخرى فلم تفعل ذلك، فقد تركت استطاعتك.

فمن أجل ذلك قلنا: التشديد فى قوله ﴿**ما استطعتم**﴾.

ومن الآيات التى فيها التشديد أيضًا قوله تعالى: ﴿**فلا وربِّكَ لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا**﴾[٣] موضع التشديد فى هذه الآية: أن الله تعالى ذكر القسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسول الله ﷺ فيما شجر بينهم، ثم إن وجدوا

(١) البقرة: ٢٣ (٢) آل عمران: ١٠٢. (٣) النساء: ٦٥.

فى أنفسهم حـرجًا، يعنى فى قلوبهم وأسرارهم وباطنهم ضيـقا، أو كراهة فى حكمه، لو أنه حكم عليهم بالقتل، فقد خرجوا من الإيمان.

وقد ذكر الله القسم على خروجهم من الإيمان.

فلو قـسنا على ذلك ما أمـرنا الله تعالى به من الصـبر على أحكـام الله عز وجل، والرضا بما قسم الله لنا من الأخـلاق والأرزاق، والآجال والأعمال لـم نجد معنا، ومع كثيـر من الناس، ذرة من الإيمان؛ ولولا رجاء الخلق فى سعة رحمة الله تعالى لهلكوا بذلك.

باب ما قيل فى فهم الحروف والأسماء

قال: الشيخ رحمه الله: يقال: إن جميع ما أدركته العلوم وألحقته الفهوم: ما عبر عنه وما أشير إليه، مستنبط من حرفين من أول كتاب الله تعالى، وهو قوله: «باسم الله، والحمد لله: لأن معناه بالله ولله، والإشارة فى ذلك: أن جميع ما أحاط به علوم الخلق وأدركته فهومهم فليست هى قائمة بذواتها، إنما هى بالله ولله.

وقيل للشبلى، رحمه الله، كما بلغنى: أيش الإشارة فى الباء من «بسم الله؟» فقال أى بالله قامت الأرواح، والأجساد، والأجساد والحركات، لا بذواتها.

وقيل لأبى العباس بن عطاء، رحمه الله: إلى ماذا سكنت قلوب العارفين؟ فقال: إلى أول حرف من كتابه وهو الباء من: «بسم الله الرحمن الرحيم» فإن معناه أن بالله ظهرت الأشياء، وبه فنيت، وبتجليه حسنت وباستتاره قبحت وسمجت لأن فى اسمه «الله» هيبته وكبرياءه؛ وفى اسمه: «الرحمن» محبته ومودته؛ وفى اسمه: «الرحيم» عونه ونصرته.

فسبحان من فرق بين هذه المعانى فى لطائفها بهذه الأسماء فى غوامضها!!!.

قال الشيخ رحمه الله: معنى قوله: بتجليه حسنت يعنى بقبوله لها، وبذا سميت الحسنة حسنة، لأنه قبلها، ولو لم يقبلها ما سميت الحسنة حسنة، ومعنى قوله: باستتاره قبحت وسمجت، يعنى برده لها وإعراضه عنها، وبذلك سميت السيئة سيئة ولولا ذلك لما سميت سيئة.

وقال أبو بكر الواسطى، رحمه الله: كل اسم من أسماء الله تعالى يتخلق به إلا اسمه: الله، واسمه الرحمن؛ لأنهما للتعلق دون التخلق، وكذلك الصمدية ممتنعة عن الإدراك والإحاطة قال الله تعالى: ﴿**ولا يحيطون به علما**﴾[1].

(١) طه: ١١٠.

وقد قيل، أيضًا: إن اسم الله الأعظم هو: الله؛ لأنه إذا ذهب عنه الألف يبقى لله وإن ذهب عنه اللام يبقى له، فلم تذهب الإشارة، وإن ذهب عنه اللام الآخر فيبقى هاء وجميع الأسرار فى الهاء؛ لأن معناه: هو، وجميع أسماء الله تعالى إذا ذهب عنه حرف واحد يذهب المعنى ولم يبق فيه موضع الإشارة، ولا تحمل العبارة.

فمن أجل ذلك لا يسمى به غير الله تعالى.

وعن سهل بن عبد الله رحمه الله: أنه قال: الألف أول الحروف وأعظم الحروف وهو الإشارة فى الألف، أى: الله الذى ألف بين الأشياء وانفرد عن الأشياء.

وقال أبو سعيد الخراز، رحمه الله: إذا كان العبد مجموعًا على الله تعالى، لا ينصرف منه جارحة إلى غير الله عز وجل، فعندها تقع له حقائق الفهم عند تلاوة كتاب الله عز وجل الذى ليس مع الخلق.

وقال أبو سعيد، رحمه الله: كلما بدا جرف من الأحرف من كتاب الله عز وجل على قدر قربك وحضورك عنده فله مشرب وفهم غير مخرج الفهم الآخر؛ إذا سمعت بقوله: ﴿الم * ذلك﴾ فللألف علم يظهر فى الفهم غير ما يظهر اللام، وعلى قدر المحبة، وصفاء الذكر ووجود القرب يقع التفاوت فى الفهم.

قال أبو سليمان الدارانى: ربما جاءت الآية خمس ليال، فلولا أنى أترك الفكر فيها ما جزتها أبدا وربما جاءت الآية من القرآن فيطير معها العقل!!! فسبحان الذى يرده بعد ذلك.

وقال وهيب بن الورد رحمه الله، نظرنا فى هذه الأحاديث والآداب فلم نجد شيئًا أرق لهذه القلوب، ولا أشد استجلابا للحزن من تلاوة القرآن وتدبره!!

باب في وصف من أصاب في الاستنباط، والإشارة والفهم في القرآن ووصف من غلط وأخطأ في ذلك

قال الشيخ رحمه الله: وأما ما قال الناس من طريق الاستنباط والفهم، فالصحيح من ذلك: أن لا تقدم ما أخر الله تعالى، ولا تؤخر ما قدم الله، ولا تنازع الربوبية، ولا تخرج عن العبودية، ولا يكون فيه تحريف الكلم.

وهذا حكى عن بعضهم كما أنه سئل عن قوله عز وجل: **﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر﴾**[1] فقال: معناه: ما ساءني الضر.

وبلغني عن بعضهم، أيضًا: أنه سئل عن قوله: **﴿ألم يجدك يتيما فآوى﴾**[2]، فقال معنى اليتيم مأخوذ من الدرة اليتيمة التي لا يوجد مثلها.

وكما سئل آخر عن معنى قوله عز وجل: **﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾**[3] فقال: معناه: أنا مثلكم عندكم.

فهذا وأشباه ذلك خطأ وبهتان وخسارة على الله تعالى وجهل، وقلة المبالاة، وهو تحريف الكلام عن مواضعه، فهذا هو السقيم.

وأما الصحيح من ذلك فكما سئل أبو بكر الكتاني، رحمه الله، عن قوله تعالى: **﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾**[4]، فقال: القلب السليم على ثلاثة أوجه من طريق الفهم:

أحدها: هو الذي يلقى الله تعالى عز وجل وليس في قلبه مع الله شريك.

والثاني: هو الذي يلقى الله تعالى وليس في قلبه شغل مع الله، عز وجل، ولا يريد غير الله تعالى.

(١) الأنبياء: ٨٣.
(٢) الضحى: ٦
(٣) الكهف: ١١٠.
(٤) الشعراء: ٨٩.

والثالث: الذى يلقى الله، عز وجل، ولا يقوم به غير الله عز وجل فنى عن الأشباه بالله ثم فنى عن الله بالله.

ومعنى قوله عن الله بالله يعنى يذهب عن رؤية طاعة الله عز وجل ورؤية ذكر الله ورؤية محبة الله، بذكر الله له، ومحبته قبل الخلق، لأن الخلق بذكره لهم ذكروه، وبمحبته لهم أحبوه، وبقديم عنايته بهم أطاعوه.

وكما سئل شاه الكرمانى رحمه الله، عن معنى قوله عز وجل: ﴿**الذى خلقنى فهو يهدين $ والذى هوَ يطعمنى ويسقين $ وإذا مرضتُ فهو يشفين**﴾[1]، فقال: الذى خلقنى فهو يهدين إليه لا غيره، وهو الذى يطعمنى الرضا ويسقينى المحبة، وإذا مرضتُ بمشاهدة نفسى فهو يشفينى بمشاهدته، والذى يميتنى عن نفسى ويحيينى به فأقوم به لا بنفسى، والذى أطمعُ أن لا يخجلنى يوم ألقاه بنظرى إلى طاعتى وأعمالى، ثم أفتقر إليه بكليتى.

لما علم أنه لم ينل ما نال إلا به ولا ينال ما يأمل إلا به فقال: ﴿**ربِّ هب لى حكمًا وألحقنى بالصالحينَ**﴾[2].

كما سئل أبو بكر الواسطى رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكر الله**﴾[3]، فقال: قلبُ المؤمن قلب يطمئن بذكر الله تعالى، وقلبُ العارف لا يطمئن بسواه.

وكما سئل الشبلى رحمه الله، عن قوله: ﴿**قل للمؤمنينَ يغضوا من أبصارهم**﴾[4] فقال: «أبصار الرءوس عن محارم الله تعالى».

(١) الشعراء: ٧٨ ـ ٨٠.

(٢) الشعراء: ٨٣.

(٣) الرعد: ٢٨.

(٤) النور: ٣٠.

وكما سئل الشبلى، رحمه الله، عن قوله: ﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كانَ لهُ قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[1] فقال لمن كان الله تعالى قلبه، ثم أنشد:

لَيْسَ مِنِّى إليْكَ قَلْبٌ مُعَنّى كلُّ عُضْوٍ مِنّى إلَيكَ قلوبُ

فهذا من طريق الفهم.

وأما طريق الإشارة فعلى ما قال أبو العباس بن عطاء، رحمه الله: الحق لا يوجد مع الزلل، وأشار إلى قوله: ﴿فإن زللتم من بعدِ ما جاءتكم البيناتُ فاعلموا أنَّ الله عزيز حكيم﴾[1].

وكما كان يقول: (المُحِبُّ يسقط عنه التعذيب، ووجود الألم بصفات البشرية).

وكان يستدل بقوله تعالى: ﴿وقالَت اليَهُودُ والنصارى نحنُ أبناءُ الله وأحبَّاؤه قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بَشرٌ ممن خلق﴾[٣].

وكما أشار أبو يزيد البسطامى، رحمه الله، حين سئل عن المعرفة فقال: ﴿إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدُوها وجَعلوا أعِزَّة أهلها أذِلة وكذلك يَفعلونَ﴾[٤].

أراد بذلك أن عادة الملوك إذا نزلوا قرية أن يستعبدوا أهلها، ويجعلوهم أذلة لهم، ولا يقدرون أن يعملوا شيئًا إلا بأمر الملك؛ وكذلك المعرفة: إذا دخلت القلب لا تترك فيه شيئًا إلا أخرجته، ولا يتحرك فيه شىء إلا أحرقته.

وكما كان يشير الجنيد رحمه الله: إذا سئل عن سكونه وقلة اضطراب جوارحه عند السماع إلى قوله: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أَتْقنَ كلَّ شىء﴾[٥].

(١) ق: ٣٧.
(٢) البقرة: ٢٠٩.
(٣) المائدة: ١٨.
(٤) النمل: ٣٤.
(٥) النمل: ٨٨.

وكما كان يشير أبو على الروذبارى، رحمه الله، إذا رأى أصحابه مجتمعين فيقرأ ﴿وَهُوَ على جَمْعِهم إذا يَشاءُ قديرٌ﴾(١).

واحتجَّ أبو بكر الزقّاق، رحمه الله، على ما قيل للزُّهرى فى تعريف الإنسان فقال: إن تكلم ففى ساعة، وإن سكت ففى يوم لقول الله تعالى: ﴿ولَوْ نَشاءُ لأَرَيْناكَهم فَلَعَرَفْتَهم بِسِيماهُمْ ولَتَعْرِفَنَّهم فى لَحْنِ القَوْلِ﴾(٢).

فهذا وأشباه ذلك صحيح والله أعلم، فقِسْ على ما بيَّنْتُ لك ما تسمعُ من إشارات القوم ومستنبطاتهم، حتى تميز بين الصحيح والسقيم، والعاقل يستغنى بالقليل عن الكثير، ويستدل بالشاهد على الغائب، وبالله التوفيق.

(١) الشورى: ٢٩.

(٢) محمد: ٣٠.

كتاب الأسوة والاقتداء برسول الله

باب وصف أهل الصفوة أهل فى الفهم، والموافقة والاتّباع للنبى عليه الصلاة والسلام

قال الشيخ، رحمه الله: قال الله تعالى لنبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ يأَيُّهاَ النَّاسُ إنِّى رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(١)، فأعْلَمنا بذلك أنه بُعثَ للخلق كافّةً.

ثمّ قال: ﴿وَإنكَ لَتَهْدِى إلَى صِراطٍ مستُقيمٍ * صراَط الله الذى لَهُ مَا فِى السَّموَات وما فى الأرْضِ﴾(٢).

فقد شهد الله تعالى له بأنه يَهدى إلى صراط مستقيم.

ثم أوجب علينا نفى الهوى عن نُطْقه، لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهوَى﴾(٣).

ثم وصفه الله تعالى فقال: ﴿هُوَ الَّذى بَعَثَ فى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً منهمْ يَتْلُو عليهمْ آياته وَيُزَكِّيهم وَيُعَلِّمهمُ الكتابَ وَالحكمة﴾(٤)، فأعلَمنا أنه يَتْلو علينا آياته، ويعلمنا الكتاب ـ وهو القرآن، والحكمة ـ وهى الإصابة، والإصابة سُنّته، وآدابه، وأخلاقه، وأفعاله، وأحواله، وحقائقه.

---

(١) الأعراف: ١٥٨.

(٢) الشورى: ٥٢، ٥٣.

(٣) النجم: ٣.

(٤) الجمعة: ٢.

ثم بلّغ رسول الله ﷺ مـا أنزل إليه من ربِّه، وما أُمر بإبلاغـه لقوله عز وجل: ﴿يأيُّها الرَّسُولُ بلغْ ما أُنْزِلَ إليكَ مِنْ ربِّكَ﴾[1].

ثم أمر الله عـزّ وجلّ الخلق كافـة بطاعة رسـول الله ﷺ، كمـا أمرهم بطاعته؛ لـقوله عزّ وجلّ: ﴿أطيعُوا الله وَأَطيـعُوا الرَّسُولَ﴾[2]، وقوله: ﴿مَنْ يُطعِ الرَّسولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله﴾[3]، وأمرهم بالقبـول منه، بقوله عزّ وجلّ: ﴿ومَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[4]، وأمرهم بالانتـهاء عما نهى عنه بقـوله جل وعلا: ﴿وَمـا نَهاكُمْ عنْهُ فَـانْتَهُـوا﴾[5]، ودلهم على الاهتـداء باتّبـاعه بقـوله تعـالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ﴾[6]، ووعدهم الهداية بطاعته بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنْ تُطيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[7]، وحذّرهم الفتـنة، والعذاب الأليم، إن خالفوا أمْـره فقال عز وجل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُون عنْ أَمْرِه أن تُصيبَهم فِتْنَةٌ أو يصيبَهُمْ عذابٌ أليمٌ﴾[8].

ثم عـرَّفنا الله تعـالى، أن محبَّـة الله للمؤمنين، ومـحبَّة المـؤمنين لله فى اتّبـاع رسوله بـقوله عـزّ وجلّ: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبـُّونَ اللهَ فاتَّبِـعُونِـى يُحْبِـبْكُم اللهُ﴾[9].

ثم ندب الله المؤمنين إلى الأسوة الحسنة برسوله ﷺ، فقال ﴿لَقَدْ كانَ لَكمْ فى رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[10].

---

(١) المائدة: ٦٧.
(٢) النور: ٥٤.
(٣) النساء: ٨٠.
(٤) الحشر: ٧.
(٥) الحشر: ٧.
(٦) الأعراف: ١٥٨.
(٧) النور: ٥٤.
(٨) النور: ٦٣.
(٩) آل عمران: ٣١.
(١٠) الأحزاب: ٢١.

ثم روى عن رسول الله ﷺ أخبار؛ فكل خبر ورد عن رسول الله ﷺ بنقل الثقة عن الثقة، حتى انتهى إلينا، فالأخذ به لازم لجميع المسلمين؛ لقوله عز وجل: ﴿أقيموا الصلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ وأطِيعوا الرَّسول﴾(١) وقوله: ﴿إنك على صراط مستقيمٍ﴾(٢).

فصار الأسوة به، والاتباع له، والطاعة لأمره، واجبًا على جميع خلقه ممن شهد أو غاب إلى يوم القيامة، غير الثلاثة الذين رفع القلم عنهم.

فمن وافق القرآن ولم يتبع سنن رسول الله، ﷺ، فهو مخالف للقرآن غير متبع له، والمتابعة والاقتداء: هى الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ فى جميع ما صح عنه من أخلاقه، وأفعاله وأحواله، وأوامره، ونواهيه، وندبه، وترغيبه، وترهيبه، إلا ما قام الدليل على خلافه، كقوله، عز وجل: ﴿خالِصةً لكَ من دون المؤْمنينَ﴾(٣)، وقول النبى عليه الصلاة والسلام [٤٦] فى الوصال: لست كأحدكم، وقوله، ﷺ فى حديث الأضحية لأبى بردة بن نيار: [٤٧] اذبح، ولا تجزى عن أحد بعدك؛ وما يشبه ذلك مما يقوم عليه الدليل من نص الكتاب والآثار.

فأما ما روى عن رسول الله ﷺ، فى الحدود، والأحكام، والعبادات: من الفرائض، والسنن، والأمر، والنهى؛ والاستحباب والرخص، والتوسيع؛ فذلك من أصول الدين، وهو مدون عند العلماء والفقهاء، ومستعمل فيما بينهم، ومشهور عندهم؛ لأنهم الأئمة الحافظون لحدود الله، المتمسكون بسنن رسول الله ﷺ، الناصرون لدين الله، عز وجل، يحفظون على الخلق

(١) النور: ٥٦.
(٢) الزخرف: ٤٣.
(٤) الأحزاب: ٥٠.

دينهم، ويبينون لهم الحلال من الحرام، والحق والباطل؛ فهم حجج الله تعالى على خلقه، والدعاة له فى دينه، فهؤلاء هم الخاصة من العامة.

فأمَّا الخاصة من هؤلاء الخاصَّة: لمَّا أحكموا الأصول، وحفظوا الحدود، وتمسكوا بهذه السُّنن، ولم يبق عليهم من ذلك بقيَّة، استبحثوا أخبار رسول الله ﷺ، التى وردت فى أنواع الطاعات، والآداب، والعبادات، والأخلاق الشريفة، والأحوال الرضيَّة؛ وطالبوا أنفسهم بمتابعة رسول الله ﷺ، والأسوة به، واقتفاء أَثَره بما بلغهم من آدابه، وأخلاقه، وأفعاله، وأحواله؛ فعظموا ما عظّم، وصغروا ما صغّر، وقلّلوا ما قلّل، وكثّروا ما كثّر، وكرهوا ما كره، واختاروا ما اختار، وتركوا ما ترك، وصبروا على ما صبر، وعادَوْا من عادى، ووَالَوا من وَالَى، وفضّلوا من فضّل، ورغبوا فيما رغب، وحذروا ما حذر، لأن عائشة رضي الله عنها، سئلت عن خُلق رسول الله ﷺ ؟ فقالت: [٤٨] كان خُلقه القرآن، تعنى موافقة القرآن.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: [٤٩] بُعثتُ بمكارم الأخلاق.

باب ما روى عن رسول الله ﷺ في أخلاقه، وأفعاله، وأحواله التي اختارها الله تعالى له

قال الشيخ، رحمه الله: روى عن النبـى ﷺ أنه قال: إنه سبحانه أدبنى فأحسن أدبى.

وقد رُوى عنه، ﷺ، أنه قال: [٥٠] «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله».

وصح عن رسـول الله ﷺ، أنه قال: [٥١] «خُيِّرْتُ بين أن أكـون نبيًا مَلِكا أو أكون نبيًا عبدًا؛ فأشـار إلىَّ جبريل عليه السلام أن تواضع، فقلت: بل أكون نبيًا عبدًا: أشبع يومًا وأجوع يومًا».

ورُوى عنه، ﷺ أنه قال: [٥٢] «عُرِض علىَّ الدنيا فأبيتُها».

وقال ﷺ: [٥٣] «لو كان لى أُحُدٌ ذهبًا لأنفـقتهُ فى سبيل الله إلا شىء أرصدهُ لدَين».

ورُوى عنه ﷺ: [٥٤] «أنه لم يدّخر شـيئًا لـغدٍ، وأنه إنما ادخـر مرة قُوت سنة لعياله ولمن يَردُ عليه من الوفود.

وقـد رُوى عنه ﷺ: [٥٥] «أنه لم يكن له قـميـصـان، ولم ينخل له طعـام، وأنه خرج ﷺ من الدنيـا ولم يشـبع من خـبز بُرّ قطّ، اخـتيـارًا لا اضطرارًا؛ لأنه لو سـأل الله عز وجل أن يجـعل له الجبـال ذهبًا ولم يحـاسب عليه، لَفَعَل ذلك.

وقد رُوى شبيهًا بذلك فى الأخبار والروايات.

وروى عنه ﷺ أنه قال لبلال ﷺ: [٥٦] «أنفقْ بلال، ولا تخش من ذى العرش إقلالا».

ووضعت بريرة بين يديه ﷺ طعاما فأكل منه فردته إليه الليلة الثانية؛ فقال لها: أما خشيتِ أن يكون له بُخارٌ يوم القيامة؟ لا تدّخرى شيئًا لغدٍ؛ فإنه عز وجل يأتى برزق كل غدٍ، أو قال: يومٍ [٥٧].

ورُوى عنه ﷺ: [٥٨] أنه لم يعب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإن لم يشتهه تركه، ولا خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

ولم يكن النبى، ﷺ زراعًا، ولا تاجرًا، ولا حرّاثا.

وكان من تواضعه ﷺ: [٥٩] يلبس الصوف، وينتعل المخصوف، ويركب الحمار، ويحلب الشاة، ويخصف نعله، ويرقع ثوبه، وكان لا يأنف أن يركب الحمار، ويُردِف خلفه.

وقد روى فى الخبر: [٦٠] أنه ﷺ كان يكره الغنا، ولا يخشى من الفقر، وكان يمر به وبأزواجه الشهر والشهران فلا يوقد فى بيته نار للخبز، وأنه كان طعامهم الأسودين: التمر، والماء.

وروى عنه ﷺ أنه خير نساءه فاخترن الله ورسوله، وفيهن نزل: ﴿يأيها النبىُّ قُلْ لأزْوَاجِكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدنْيا وزينتها﴾(١) الآيتين جميعا.

وكان من دعائه ﷺ: [٦١] «اللهم أحينى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين».

(١) الأحزاب: ٢٨.

«ومن دعائه ﷺ أيضا: اللهمّ ارزقْ آل محمد قوت يوم بيوم».

وكان أبو سعيد الخدري ﷺ يصف رسول الله ﷺ كما رُوى عنه:

[٦٢] كان رسول الله ﷺ يعقل البعير، ويعلف الناضح، ويقمّ البيت، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم، ويطحن معها إذا هى أعيت، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله، وكان يصافح الغنى والفقير، ويسلم مبتدئا، وكان لا يرد من دعاه، ولا يحقر ما دُعى إليه، ولو إلى حَشَف التمر، وكان لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساما من غير ضحك، محزونا من غير عُبوس، متواضعًا من غير ذلة، جوادًا من غير سَرَف، رقيق القلب، دائم الإطراق، رحيمًا بكل مسلم، لم يتجشأ قط من شِبَع، ولا مدّ يده إلى طمع.

وقالت عائشة ﷺ: [٦٣] كان النبى ﷺ أجود من الريح المرسلة.

ووهب النبى ﷺ [٦٤] ما بين جبلين من الغنم لرجل واحد، فرجع ذلك الرجل إلى قبيلته، وقال: إن محمدًا ﷺ يُعطى عطاء من لا يخشى الفقر.

ولم يكن رسول الله ﷺ [٦٥] صخّابًا، ولا فحّاشًا، ولا متفحشًا.

وكــان النبـى ﷺ يأكل على الأرض، ويـجلس على الأرض، ويـلبس العبـاء، ويجالس المـساكـين ويمشى فى الأسـواق، ويتوسد يده ويـقتص من نفسه، ولم يُرَ ضـاحكا ملء فيه، ولم يأكل وحده قط، ولا ضـرب عبده قط، ولا ضرب أحـدًا بيده إلا فى سبيل الله عـز وجل وكان لا يجلس متـربعا، ولا يأكل متكئا، ويقول: «آكلُ كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد.

وروى عنه عليـه الصلاة والسـلام: [٦٦] أنه شـد الحجـر على بطنه من الجوع، ولو سأل ربه أن يجعل له أبا قبيس ذهبًا لأجابه.

وحمل النبى ﷺ أصحابه إلى بيت أبى الهيثم بن التيهان [٦٧] من غير أن دعاه، وأكل فى بيـته من طعامـه، وشرب من شرابه، وقـال هذا من النعيم الذى تسألون عنه.

ودعاه ﷺ رجل آخر إلى بيـته مع خمسة من أصحـابه؛ فلم يدخل معه السادس إلا بإذنه.

ويُرْوَى فى الحـديث أن النبى ﷺ [٦٨] لبس منديلا لـه عَلم، ثم رمى به، وقال: [٦٩] كاد تلهينى أعلامه، وقال: ائتونى بأنبجانية أبى جهم.

وسئل عن الصلاة فى ثوب واحد فقال: [٧٠] أوَكلكم يجدُ ثوبين؟.

وقال: [٧١] أنا ابن امرأة [من قريش] كانت تأكل القديد.

وقال: [٧٢] لا تفضلونى على يونس ابن متى عليه السلام.

وقال: [مرّةً]: [٧٣] أنا سيد ولد آدم ولا فخر.

وقال ﷺ : [٧٤] «إنى أُعطى أقوامًا وأمنع آخـرين، وليس الذى أُعطيه بأحب إلىَّ من الذى أمنعه».

وقال: [٧٥] أول من يدخل الجنة فقراء الأنصار، الشعثة رءوسهم، الدنسة ثيابُهم، الذين لا ينكحون المتنعمات، ولا تفتح لهم السدد.

وقال ﷺ: [٧٦] «ما لى وللدنيا».

وقال: [٧٧] «ليكن بُلغة أحدكم كزاد الراكب».

وقال: [٧٨] « يدخل فقراء أُمَّتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام».

وقال: [٧٩] «نحن معشر الأنبياء أشد الناس بلاءً، ثم الأمثل فالأمثل، ويُبتلى الرجل على قدر دينه؛ فإن كان فى دينه صلابة فهو أشد بلاءً».

وقال رجل للنبى ﷺ: [٨٠] إنى أُحبُّك، قال: استعدّ للبلاء جلبابا.

ورُوى عن النبى ﷺ قال: [٨١] «حبِّب إلىَّ من دنياكم ثلاث».

وقال: [٨٢] أنتم أعلم بدنياكم، فأضاف الدنيا إليهم وأخرج نفسه منها.

ولم يضع رسول الله ﷺ [٨٣] لبنةً على لبنة إلى أن خرج من الدنيا.

وخرج ﷺ [٨٤] من الدنيا ودِرْعُه مرهونة عند يهودى على صاع من شعير، ولم يترك دينارًا، ولا درهمًا، ولم يقسم له ميراثٌ، ولم يوجد فى بيته أثاث.

وقال: [٨٥] نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة.

وكان يقبل الهدية، والكرامة، والعطية، وكان لا يأكل من الصدقة، ويأخذها منهم.

وروى عنه ﷺ : [٨٦] ما أوحى الله تعالى، أن أجمع المال وأكون تاجرًا، ولكن أوحى إليّ أن: ﴿سَبِّحْ بِحَمد رَبكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجدين * واعْبُدْ رَبكَ حَتَّى يأتيكَ اليقين﴾(١).

وروى عن عائشة رضي الله عنها: [٨٧] أنها قالت ذبحنا شاة فتصدقنا بها حتى لم يبق إلا كتفها [قالت]: فقلت: يا رسول الله، ذهب كلها إلا كتفها!! فقال النبى عليه الصلاة والسلام: بقيت كلها إلا كتفها.

قال الله عز وجلّ: ﴿ن والقَلَمِ ومَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بنعمَة ربكَ بَمجْنُون * وإنَّ لَكَ لأجْرًا غَيْرَ مَمْنون * وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيم﴾(٢).

وقال النبى ﷺ [٨٨] إن الله يحب مكارم الأخلاق، ويكره سفسافها.

وقال ﷺ : بُعثتُ لآتى بمكارم الأخلاق.

وكان من خُلقه، صلوات الله عليه[٨٩] الحياء، والسخاء، والتوكل، والرضا، والذكر، والشكر والحلم، والصبر، والعفو، والصفح، والرأفة، والرحمة والمداراة، والنصيحة، والسكينة والوقار، والتواضع، والافتقار، والجود، والسماحة، والخضوع، والقوة، والشجاعة، والرفق، والإخلاص، والصدق، والزهد، والقناعة، والخشوع، والخشية، والتعظيم، والهيبة، والدعاء والبكاء، والخوف، والرجاء، واللياذة(٣)، واللجأ، والتهجد، والعبادة، والجهاد، والمجاهدة.

وكما روى عنه ﷺ : [٩٠] أنه كان متواصل الأحزان، دائم الفكرة وكان لصدره أزيزٌ كأزيز المِرْجَل.

وأنه ﷺ ،صلى حتى تورمت قدماه، فقيل له: يا رسول الله أليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر!! قال: [٩١] أفلا أكون عبدًا شكورًا.

(١) الحجر: ٩٨، ٩٩.

(٢) القلم: ١- ٤

(٣) لاذ به: لجأ إليه.

وكان ﷺ [٩٢] يُعطى من حرمَهُ ويَصلُ من قطعه، ويعفو عمن ظلمه؛ وما انتقم رسـول الله ﷺ ، لنفسه قط، ولا غضب لنفسـه قط إلا أن تنتهك محارم الله فيغضب لله.

[٩٣] وكان للأرملة كالزَّوج الشفيق، ولليتيم كالأب الرحيم!!!.

[٩٤] وقال عليه الصلاة والسـلام من ترك مالا فلورثته، ومن ترك كَلا أو ضياعًا فإلىَّ.

وقال: اللهم إنى بشـرٌ أغضب كمـا يغضب البشـر فأيما امـرىءٍ سببتـه أو لعنته فاجعل ذلك كفارة له،أو كما قال.

وقال أنس بـن مالك: [٩٥] خدمت رسـول الله ﷺ عشر سنين، فـما ضربنى ولا كَهرنى[1]، ولا قال لى لشىء فعلته: لَمِ فعلت! ولا لشىء لم أفعله لِمَ لم تفعله.

[٩٦] ولو لم يكن من كرمـه وعفوه وحلمه إلا ما كـان منه يوم فتح مكة لكان من كمال الكمال.

وذلك أنه دخل مكة صلحًا، وقد قتلوا أعمامه وأولياءه بعد أن حصروه فى الشعاب، وعـذبوا أصحابه بأنواع العذاب، وأخرجوه، وأدمـوه، وطرحوا عليه الرَّوْث، وآذوه فى نفسه، وفى أصحابه، وسفهـوا عليه، واجتمعوا على كيده؛ فلما دخلها بغير حمدهم، وظهر عليهم، على صغر منهم، قام خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه.

ثم قال: أقول كما قال أخى يوسف عليه السلام: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾ وقال من دخل دار أبى سفيان فهو آمن.

وما يشبه ذلك مما يرد من الأخبار الصحيحة فى هذا المعنى أكثر مما يتهيأ ذكره؛ وإنما ذكرنا طرفًا ليُستدل به على ما لم نذكره، والله أعلم بالصواب.

---

(١) كهر وقهر بمعنى واحد.

باب بيان ما روى عن النبى ﷺ
فى الرخص والتوسيع على الأمة فيما أباح الله تعالى لهم
ووجه ذلك فى حال الخصوص والعموم
فى الاقتداء برسول الله ﷺ

فأما ما روى عن النبى، ﷺ ، مما جمع الله عليه من أموال بنى قريظة، والنضير، وفدَك، وخيبر، وأشباه ذلك، والحُلة التى أهديت إليه والمجمع والسيف الذى فى قرابه فضة، والستور التى كانت فى البيت، والراية التى كانت له، والبغل، والناقة، والحمار، والبردة، والعمامة، والخف الذى أهدى إليه النجاشى، وغير ذلك مما يكثر ذكره، وأنه كان يحب الحلو البارد، وأنه أكل الخبيص، والذى قال لأصحابه: كلوا واشبعوا، وما جانس ذلك من الأخبار المروية عنه، ﷺ ، فإن جميع ذلك فى الرخصة والتوسيع على الأمة والإباحة لها، لأنه كان ﷺ ، إمام الخلق إلى يوم القيامة، وأنه قال ﷺ : بُعثتُ بالحنفية السمحة، وقال: ﷺ : إنما أنسى لأسُنَّ.

ولو لم يوسع الله تعالى على الخلق التعلق بالرُّخص والأخذ بما أباح الله تعالى لهم فى الطلب والجمع والإمساك والمكاسب بشرط العلم لهلكوا؛ لأن الله، تعالى، لم يدع الخلق إلى جمع الأموال والصنائع والتجارات ولكن أباح لهم ذلك، لعلمه بضعفهم.

وقد دعاهم الله تعالى إلى طاعته، وعبادته، وندب كافة المؤمنين إلى ذكره،

وقال سهل بن عبد الله، رحمه الله: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل.

وقال أبو سليمان الداراني، رحمه الله: ربما تنكت الحقيقة قلبي أربعين يومًا فلا آذن لها أن تدخل قلبي إلا بشاهدين من الكتاب والسنة.

فهذا ما حضرني في الوقت مما ذهب إليه الصوفية في اتباعهم رسول الله ﷺ، وكرهت التثقيل؛ واقتصرت على ما ذكرت للتخفيف، وبالله التوفيق.

والناس فى موافقة كتاب الله تعالى واتباع رسول الله، ﷺ على ثلاثة أقسام:

فمنهم من تعلق بالرخص، والمباحات، والتأويل، والسعة.

ومنهم من تعلق بعلم الفرائض، والسُّنن، والحدود والأحكام.

ومنهم من أحكم ذلك، وعلم من أحكام الدين ما لا يسعه الجهل به، ثم تعلق بالأحوال السنية، والأعمال الرضية، ومكارم الأخلاق، ومعالى الأمور، وحقائق الحقوق، والتحقق، والصدق.

كما روى فى الحديث: أن النبى ﷺ قال لحارثة: لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسى عن الدنيا، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى، وكأنى... كما جاء فى الحديث.

فقال النبى ﷺ: عرفت فالزم، أو قال: عبد نوَّر الله قلبه.

ويقال: إن أصل جميع ما تكلموا فيه من علم الباطن أربعة أحاديث.

حديث جبريل، عليه السلام، حيث سأل رسول الله، ﷺ، عن الإيمان، والإحسان، فقال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه... الحديث.

وحديث عبد الله بن عباس ﵄، أنه قال: أخذ الرسول ﷺ بيدى، وقال لى: يا غلام احفظ الله يحفظك....

وحديث وابصة الإثم ما حاك فى صدرك، والبر ما اطمأن إليه نفسك.

وحديث النعمان بن بشير عن النبى ﷺ: الحلال بين والحرام بين، وقول النبى ﷺ لا ضرر ولاضرار فى الإسلام.

الهوى، ومحبة الدنيا، وطول الغـفلة، وشدة الحرص، وحبّ الراحة، وحبّ الثناء والمحمدة؛ وغير ذلك من الغفلال والزلات، والمخالفة والخيانات.

فـإذا كشف الله تعـالى: [ذلك عن] القلوب بصـدق التـوبـة والندم على الحوبة، فقد فتح الأقفال عن القلوب وأتته الزوائد والفوائد من الغيوب، فيعبر عن زوائده وفـوائده بتـرجـمـانه، وهو اللسـان الذى ينـطق بغـرائب الحكم، وغرائب العلم.

فإذا شرحوا هذه التقط المـريدون والقاصدون والطالبون من تلك الجواهر بآذان واعية، وقلوب حاضرة، فعاشوا وانتفعوا بذلك، وأنعشوا.

وقد قـال الله، عز وجل: ﴿أَفَلاَ يَتَـدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَـيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾[1].

فدل على أن بتدبرهم فى القرآن يستـنبطون؛ إذ لو كان القرآن من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

ثم قال: ﴿وَإِذَا جَـاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْـخَوْفِ أَذَاعُـوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَـهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُـمْ﴾[2] يعنى من أهل العلم وقالوا: أولو الأمر هاهنا أهل العلم.

فقد بين هـاهنا خصوصية لأهل الـعلم، وخصوصية لأهل الاسـتنباط من أهل العم.

وقـد روى فى الخـبـر: «أن رجـلا جـاء إلى رسـول الله ﷺ، فـقـال: يـا رسـول الله علمنى من غرائب الـعلم، فقـال: وما عـملت فى أول العلم؟ أحكم أول العلم ثم تعال حتى أعلمك غرائب العلم» أو كما قال.

(1) النساء: ٨٢.

(2) النساء: ٨٣.

أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأمونًا على ما يدّعيه من مقامات الأولياء والصديقين؟!.

وسمعت طيفور يقول: سمعت موسى بن عيسى يقول: سمعت أبى يقول: سمعت أبا يزيد، رحمه الله، يقول: لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفينى مؤنة الأكل، ومؤنة النساء؛ ثم قلت: كيف يجوز لى أن أسأل الله عز وجل هذا، ولم يسأله رسول الله ﷺ ؟! فلم أسأله، وكفانى الله تعالى مؤونة النساء حتى لا أبالى استقبلتنى امرأة أو أحائط، أو كما قال.

وسمعت أبا الطيب أحمد بن مقاتل العكى البغدادى يقول: كنت عند جعفر الخلدى، رحمه الله [يوم مات الشبلى] فدخل عليه بندار الدينورى، وكان خادم الشبلى، رحمه الله، وكان قد حضر موته، فسأله جعفر: أيش رأيت منه فى وقت موته؟ فقال: لما أمسك لسانه وعرق جبينه أشار إلى: وضئنى للصلاة، فوضأته، فنسيت تخليل لحيته، فقبض على يدى وأدخل أصابعى فى لحيته يخللها! قال: فبكى جعفر، وقال: أيش يتهيأ أن يقال فى رجل لم يذهب عليه تخليل لحيته فى الوضوء، عند نزع روحه، وإمساك لسانه، وعرق جبينه؟!! أو كما قال.

وسمعت أحمد بن على الوجيهى يقول: سمعت أبا على الروذبارى يقول: كان أستاذى فى علم التصوف: الجنيد، وكان أستاذى فى الفقه: أبو العباس ابن سريج، وكان أستاذى فى النحو واللغة: ثعلب، وكان أستاذى فى حديث رسول الله ﷺ : إبراهيم الحربى.

وسئل ذو النون، رحمه الله: بماذا عرفت الله تعالى؟ فقال عرفت الله بالله، وعرفت ما سوى الله برسول الله ﷺ .

باب فى كيفية الاختلاف

فى مستنبطات أهل الحقيقة فى معانى علومهم وأحوالهم

قال الشيخ، رحمه الله: اعلم، أيدك الله بالفهم، وأزال عنك الوهم، أن أبناء الأحوال، وأرباب القلوب، أن لهم أيضًا، مستنبطات فى معانى أحوالهم، وعلومهم وحقائقهم؛ وقد استنبطوا من ظاهر القرآن، وظاهر الأخبار معانى لطيفة باطنة، وحكما مستطرفة، وأسرارًا مذخورة.

ونحن نذكر طرفًا من ذلك إن شاء الله تعالى.

وهم أيضًا فى مستنبطاتهم مختلفون، كاختلاف أهل الظاهر، غير أن اختلاف أهل الظاهر يؤدى إلى(حكم) الغلط والخطأ، والاختلاف في علم الباطن لا يؤدى إلى ذلك لأنها فضائل، ومحاسن، ومكارم، وأحوال، وأخلاق، ومقامات، ودرجات.

وقيل: إن اختلاف العلماء فى علم الظاهر رحمةٌ من الله تعالى، لأن المصيب يرد على المخطئ، ويبين للناس غلط المخالف، وخلافَهُ للمصيب فى الدين حتى تجنبوا منه، ولولا ذلك لهلك الناس بذهاب دينهم.

وأما الاختلاف بين أهل الحقائق أيضًا رحمة (من) الله، لأن كل واحد يتكلم من حيث وقته، ويجيب من حيث حاله، ويشير من حيث وجده؛ فتكون فيهم لكل واحد من أهل الطاعات، وأرباب القلوب، والمريدين، والمتحققين، فائدة من كلامهم.

كتاب المستنبطات

باب مذهب أهل الصفوة فى المستنبطات الصحيحة فى فهم القرآن والحديث، وغير ذلك، وشرحها

قال الشيخ، رحمه الله: [إذا] قالوا: ما معنى المستنبطات فيقال:

المستنبطات: ما استنبط أهل الفهم من المتحققين بالموافقة لكتاب الله، عز وجل، ظاهرًا وباطنًا، والمتابعة لرسول الله ﷺ ظاهرًا وباطنًا، والعمل بها بظواهرهم وبواطنهم.

فلما [عملوا بما] علموا من ذلك ورثهم الله تعالى، علم ما لم يعلموه وهو علم الإشارة، وعلم مواريث الأعمال التى يكشف الله تعالى، لقلوب أصفيائه من المعانى المذخورة، واللطائف والأسرار المخزونة، وغرائب العلوم وطرائف الحكم فى معانى القرآن ومعانى أخبار رسول الله ﷺ من حيث أحوالهم، وأوقاتهم، وصفاء أذكارهم.

وقال الله تعالى: ﴿أفلاَ يتدَبرونَ الْقرآنَ أمْ علىَ قلوبٍ أقفالها﴾[1].

وقال النبى ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم ما لم يعلم».

وهو العلم الذى ليس لغيرهم ذلك من أهل العلم.

وأقفال القلوب ما يقع على القلوب من الصدأ، لكثرة الذنوب، واتباع

(١) محمد: ٤٢.

وكما سئل المرتعش النيسابورى رحمه الله، عن الفقير قال: الذى يأكله القمل ولا يكون له ظفر يحك به نفسه[١].

وقد اختلف هؤلاء فى أجوبتهم: كاختلافهم فى أوقاتهم وأحوالهم؛ وكل ذلك حسن؛ ولكل جواب من أجوبتهم أهلٌ يليق بهم ما أجابوا، وهى فائدة، ونعمة وزيادة لهم؛ ورحمة.

(١) من طبيعة الإسلام أن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وهل صاحبنا هذا أراد بكلامه هذا: عدم جزع الفقير الصوفى مما أصابه، رضاء بقضاء الله وقدره.

ولفقهاء الأمصار وعلمائها فى كل وقت مستنبطات، مشهورة فى آيات القرآن والأخبار الظاهرة مستعدة للاحتجاج بها بعضهم على بعض فى المسائل الخلافية بينهم.

وقد قال بعضهم: إن فى هذا الحديث الذى قال رسول الله ﷺ: «الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله» على ما جاء فى الحديث: إنه يدخل فى ثلاثين بابا من أبواب العلم.

وهذا لا يكون إلا من طريق الاستنباط.

وكذلك أهل الكلام والنظر: احتجاجاتهم العقلية كلها مستنبطات، وكل ذلك حسن عند أهله ومقبول؛ إذ المقصود من ذلك النصرة للحق والرد للباطل.

وأحسن من ذلك مستنبطات أهل العلم بالعلم والتحقيق والإخلاص فى العمل من المجاهدات، والرياضات، والمعاملات؛ والمتقربين إلى الله تعالى: بأنواع الطاعات، وأهل الحقائق.

هذا لأنه كما بدأكم تعودون عند العواقب، في معنى قوله تعالى: ﴿**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾[1] معناه: سنريهم نعوتنا وصفاتنا، في الملكوت، حتى يتبين لمن تبين لهم أنه الحق، وما سواه باطل، لا جرم؛ فلذلك قال النبى ﷺ: «أصدق كلمة قالت العرب: «ما قال لبيد»:

* ألا كل شىء ما خلا الله باطلُ *

ومما استنبطوا من خصوصية النبى ﷺ: أن موسى عليه السلام، سأل ربه، عز وجل، فقال: ﴿**رب اشرح لى صدرى * ويسر لى أمرى**﴾[2] (ونودى محمد ﷺ، بلا سؤال: ﴿**ألم نشرَحْ لكَ صدْرَك**﴾[3] إلى آخر السورة، وكذلك سؤال إبراهيم عليه السلام: ﴿**ولا تخْزِنى يوْمَ يبعثون**﴾[4] (فضل الحبيبَ على الخليل).

وقال لنبينا، ﷺ، من غير سؤال: ﴿**يوْمَ لا يخزى اللهُ النبىَّ والذينَ آمنوا معهُ**﴾[5].

«وقيل له ﷺ: ﴿**ألَمْ نشرَحْ لك صدْرَك * ووضعنا عنك وزرَك**﴾ إلى قوله: ﴿**إنْ معَ العسر يسرًا**﴾[6].

ومما قيل فى هذا المعنى أيضًا: أن الله عز وجل، خاطب جميع الخلق، ودعاهم إليه، ودلهم عليه بذكر الملك والملكوت، فقال: ﴿**وكذلكَ نُرِى إبراهيمَ ملكوتَ السموات والأرض**﴾[7] وقوله: ﴿**أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء**﴾[8] وقوله تعالى: ﴿**أولم يتفكروا فى أنفسهم**﴾[9] وقوله: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل**

---

(١) فصلت: ٥٣.
(٢) طه: ٢٥، ٢٦.
(٣) الشرح: ١
(٤) الشعراء: ٨٧.
(٥) التحريم: ٨
(٦) الشرح: ١ ـ ٦.
(٧) الأنعام: ٧٥.
(٨) الأعراف: ١٨٥.
(٩) الروم: ٨.

وذلك أيضًا على قدر تفاوتهم واختصاصهم ودرجاتهم.

وبيان ما قلنا فى اختلافهم ما حكى عن ذى النون، رحمه الله، أنه سئل عن الفقير الصادق فقال: هو الذى لا يسكن إلى شىء، وإليه يسكن كل شىء.

وسئل أبو عبد الله المغربى عن الفقير الصادق، فقال الفقير الصادق: الذى يملك كل شىء، ولا يملكه شىء.

وسئل أبو الحارث الأولاسى عن الفقير الصادق فقال: هو الذى لا يأنس بشيء ويأنس به كل شىء.

وسئل يوسف بن الحسين عن الفقير الصادق، فقال: من آثر وقته، فإن كان فيه تطلعٌ إلى وقت ثان لم يستحق اسم الفقر.

وسئل الحسين بن منصور رحمه الله عن الفقير الصادق، فقال: الفقير الصادق: الذى لا يختار، بصحة الرضا، ما يرد عليه من الأسباب.

وسئل النورى، رحمه الله عن الفقير الصادق، فقال: الفقير الصادق: الذى لا يتهم الله تعالى فى الأسباب ويسكن إليه فى كل حال.

وسئل سمنون، رحمه الله عن الفقير الصادق، فقال: الذى يأنس بالمفقود كما يأنس الجاهل بالموجود، ويستوحش بالموجود كما يستوحش الجاهل بالنقد.

وسئل أبو حفص النيسابورى رحمه الله، عن الفقير الصادق، فقال: الذى يكون مع كل وقت بحكمه، فإذا ورد عليه واردٌ يخرجه عن حكم وقته ويستوحش منه.

وسئل الجنيد رحمه الله عن الفقير الصادق، فقال: هو أن (لا) يستغنى بشىء، ويستغنى به كل شىء.

وزاد له (عليهم): مثل انشقاق القمر، ونبع الماء من الأصابع، والمعراج، وغير ذلك.

ثم ذكر الأنبياء وذكر ما استخصهم (به)، وأضاف إلى إبراهيم عليه السلام الخلة، وإلى موسى عليه السلام الكلام، وإلى سليمان عليه السلام الملك، وإلى أيوب عليه السلام الصبر، ولم يضف إلى محمد عليه ﷺ شيئًا مما أعطاه من الكرامات فقال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ يا محمد ﴿فلا وَرَبِّكَ لا يؤمنونَ حتى يحكموكَ فيما شجَرَ بيْنهُمْ﴾[1] الآية، ثم قال ﴿إن الذينَ يبُايعونَكَ إنما يبُايعونَ الله﴾[2] الآية، وقال: ﴿فلمْ تَقْتُلوهمْ ولكنَّ الله قتلهم وما رَميْتَ إذ رَميت ولكنَّ الله رمى﴾[3] ولم يذكر لنبيه عليه الصلاة والسلام شيئًا غيره، فلما أدبه بذلك قال اللهم بك أصول وبك أجول، وبك أقاتلُ وبك أحاول.

وسئل الشبلى، رحمه الله: عن معنى قوله تعالى: ﴿لو اطلعتَ عليهمْ لوليتَ منهُمْ فراراً ولمُلئت منهُمْ رعبًا﴾[4] قال: لو اطلعتَ على الكلّ مما سوانا لوليت منهُمْ فرارًا إلينا يا محمد.

وقالوا فى معنى قوله: ﴿سبحانَ الذى أسرَى بعبده ليلا منَ الْمسجد الحرَامِ إلى الْمسجدِ الأقصى الذى باركْنا حوْلَه﴾[5] إنه لو أسرى بروحه، كما قال المخالفون، لم يقل: أسرى بعبده؛ لأن اسم العبد لا يقع إلا على الروح والجسد.

وقيل، أيضًا، فى معنى قوله: ﴿وكانَ فضل الله عليكَ عظيمًا﴾[6]: يعنى باجتبائك واصطفائك، لأن النبوة والرسالة لم تقسم على الجزاء والاستحقاق، ولو كانت من جهة الجزاء والاستحقاق، لما فضل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء عليهم السلام، لأنهم أكثر أعمالا وأطول أعماراً.

(١) النساء: ٦٥. (٢) الفتح: ١٠ (٣) الأنفال: ١٧
(٤) الكهف: ١٨ (٥) الإسراء: ١ (٦) النساء: ١٣.

باب فى مستنبطات أهل الصفوة فى تخصيص النبى ﷺ وشرفه، وفضله على إخوانه، عليه السلام من كتاب الله عز وجل من طريق الفهم

قال الشيخ رحمه الله : فأما المستنبطات التى فى كتاب الله، عز وجل؛ فقد ذكرنا طرفا من ذلك فى باب مذهب أهل الصفوة فى موافقة كتاب الله، عز وجل، وهذا (الذى نذكره) إنما نذكره فى (معنى) خصوصية رسول الله ﷺ ، وفيما استنبطوا فيما نطق القرآن بشرفه، وما خص به من سائر الرُّسل، عليهم السلام: قوله عز وجل: ﴿**قل هذه سبيلى أدْعو إلى الله على بصيرة أنا ومَنِ اتبعنى وسبحان الله وما أنا مِنَ المشركين**﴾[1] .

قال أبو بكر الواسطى، رحمه الله أدعو إلى الله على بصيرة: يعنى أن لا أشهد لنفسى، يعنى أن لا أرى نفسى فأستقطعهم بشواهدى، ومعنى آخر على بصيرة: أيقن أنه ليس إلى شىء، فيكون إلى نفسى من الهداية شىء، ومعنى آخر على بصيرة: أنه لا نملك ضرًا ولا نفعًا إلا أن يتولى الله تعالى تقريبهما، ومعنى قوله: أنا ومن اتبعنى على ذلك دعوتهم سبحان الله [أن يكون] أحد يلحق ما يهمه ويقصده إلا به وما أنا من المشركين أن أرى الهداية من نفسى أو منه بدعوتى، قوله تعالى: ﴿**قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون**﴾[2] قالوا: معناه: من طريق الفهم والاستنباط قل أمر ربى بالقسط فيما بينى وبين الخلق، وبينى وبين الله تعالى، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد، يعنى عند كل قصد تقصدونه وادعوه مخلصين له الدين، يعنى ادعوه بلا رياء، ولا عجب ثم لا تعمدوا على

(١) يوسف: ١٠٨.   (٢) الأعراف: ٢٩.

باب فى مستنبطاتهم فى خصوصية النبى ﷺ وفضله على إخوانه، عليهم السلام من الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ

قال الشيخ رحمه الله: فأما مستنبطاتهم فى أخبار رسول الله ﷺ، فكما قيل فى معنى قول النبى ﷺ: إنه كان يقول فى سجوده: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

قالوا: يقول الله: ﴿**واسْجُدْ واقترِبْ**﴾[1] فوجد رسول الله ﷺ، فى سجوده معنى من القرب.

فقال: أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، فاستعاذ بصفاته من صفاته؛ ثم شاهد معنى آخر من القرب، ما اندرج فيه القرب الذى شاهد (به) الصفات والنعوت.

فقال: «أعوذ بك منك» وكان قد استعاذ بصفاته من صفاته، فلما استعاذ به لم يكن المستعاذ به إلا منه، ثم زيد فى قربه؛ ووجد من المشاهدة معنى أفناه عن الاستعاذة به.

فقال: «لا أحصى ثناء عليك» فاحتشم من الاستعاذة به فى محل بالقرب، فالتجأ إلى الثناء عليه، ومن لم يطق الاستعاذة التى هى حد العبودية، فكيف يطيق الثناء وهو صفة الربوبية؟.

(١) العلق: ١٩.

كيفَ خلقت﴾[1] إلى آخر الآية، فلما خاطب رسول الله ﷺ، قال: ﴿ألم تَرَ إلى ربك﴾[2] يا محمد ﴿كيفَ مد الظلّ﴾ فلما كان الخطاب مع الحبيب بدأ بذكره، فقال: ﴿ألم تر إلى ربك﴾.

وفى (معنى) قوله: ﴿واتخذَ اللهُ إبراهيم خليلاً﴾ قالوا: إن الخلة: ما يخلل القلبَ، والمحبة ما يكون فى حبة القلب، يعنى سُوَيداء القلب، وسمى المحبة محبة لأنها تمحو بها ما سواها من القلب؛ فذلك فضل الحبيب على الخليل.

وقال: ﴿افْعَلْ ما تؤمَرُ﴾[3] وقال لنبينا ﷺ: ﴿ولسوْف يُعْطيكَ ربك فترْضى﴾[4] فدل بذلك على فضل الحبيب على الخليل.

وما قالوا فى هذا المعنى أيضًا: إن آدم صلوات الله عليه، لما ذكر الله تعالى توبته، فقال: ﴿وَعصى آدمُ ربَّهُ فغَوَى﴾[5] فذكر جنايته قبلَ توبته ﴿ثم اجتباهُ ربه فتابَ عليه وَهدَى﴾[6].

وذكر أيضًا: خطيئة داود عليه السلام ثم قال: ﴿فَغَفَرْناَ لهُ﴾[7].

وكذلك أخبر عن سليمان عليه السلام بقوله: ﴿ولقدْ فتنَّا سُلَيْمانَ وألقينا على كرْسيِّه جسداً ثمَّ أنَابَ * قالَ ربِّ اغفرْ لى﴾[8]، وقال للنبى ﷺ: ﴿عفَا الله عنْكَ لمَ أذنتَ لهمْ﴾[9].

قال بعضهم: آنسه بذكر العفو حتى لا يوحشه ذكر العتاب؛ وقال أيضًا: ﴿ليغفرَ لكَ الله مَا تقدَّم منْ ذنبك وما تأخر﴾[10] فابتدأ بذكر الغفران قبل الذنب، وغفر له الذنبَ قبل أن يذنب، (وقبل العتب)، وقالوا أيضًا معنى آخر: إن جميع ما أعطى الأنبياء عليهم السلام من الكرامات قد أعطى مثلهُ محمدًا ﷺ

(١) الغاشية: ١٧. (٢) الفرقان: ٤٥ (٣) الصافات: ١٠٢
(٤) الضحى: ٥. (٥) طه: ١٢١. (٦) طه: ١٢٢.
(٧) ص: ٢٥ (٨) ص: ٣٤، ٣٥. (٩) التوبة: ٤٣. (١٠) الفتح: ٢.

ﷺ : «لستُ كأحدكم إنى أظل عند ربى يطعمنى ويسقينى»؛ فلا يتهيأ لأحد أن يخبر عن الذى أطعمه وسقاه؛ لأن النبى ﷺ ، فى علو مرتبته وما خص به من العلم بالله، لم يخبر عنه ولم يصفه.

وقيل فى معنى قول النبى ﷺ فى دعواته: «اللهم اكفلْنى كفالة الوليد، لا تكِلْنى إلى نفسى طرفة عين، وجهتُ وجهى إليك، وألجأت ظهرى إليك، لا ملجأ ولا منْجَى منك إلا إليك» وما يشبه ذلك من دعواته أنه ﷺ أظهر من نفسه اللجأ، وأظهر الفاقة إليه، والاستكانة بين يديه، بلا مشاهدة حركة من حركاته، ولا إضافة فعل إلى نفسه.

قال أبو بكر الواسطى رحمه الله: وبصدق اللجأ وإظهار الفقر، وصدق الفاقة، تزينت السرائر.

وقيل فى معنى قول النبى ﷺ عند موته: «واكرْباه» قالوا: يسرت المنية عليه لمبادرته إلى ما لاحظ عند الموت المراتب الرفيعة فقالوا: «واكرباه» من البقاء فيما بينكم شوقا منى إلى اللقاء.

وسمعت محمد بن داود الدينورى المعروف بالدُّقى، يقول: سمعت الجريرى يقول: قيل للجُنَيد رحمه الله: ما معنى قول النبى ﷺ «وأنا سيدُ ولد آدم، ولا فخر» فقال لى: هاتِ أيْشَ وقع لك فى ذلك، فقلت: معنى قوله «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» وهذا عطاؤه وأنا لا أفتخر بالعطاء لأن فخرى بالمعطى، فقال لى: أحسنت يا أبا محمد أو كما قال.

وسئل (الجنيد) عن معنى قول النبى ﷺ فى زينب امرأة زيد، يدْعى ابن النبى ﷺ ؛ وكان ابن الدعاية لا ابن الولادة؛ فأراد الله عز وجل أن يتزوج بخليلته حتى يكون فرقا بين أبناء الولادة وأبناء الدعاية.

وقالوا، فى معنى قوله، عزّ وجلّ: ﴿واصبرْ لحكم ربّكَ فإنكَ بأعْيننا﴾[1]: إنه خاطبه بأتم الخطاب وأخص الفضيلة، إذ قال: ﴿واصبرْ لحكم ربّك فإنك بأعيننا﴾ وقال لغيره: ﴿اصبروا وصابروا﴾[2] وقال: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[3].

طالبهم بالصبر على المعاوضة، وطالب المصطفى، عليه الصلاة والسلام بالصبر مع المراقبة؛ وقال فى موضع آخر: ﴿واصبرْ وما صبرُكَ إلاّ بالله﴾[4] لأنه، عليه الصلاة والسلام أجل عنده من أن يطالبه بمعاملة يقتضى عليها معاوضة؛ لأن محله ﷺ، محل الاختصاص.

فهذا طرف من المستنبطات التى للقوم من القرآن فى معنى خصوصية النبى ﷺ.

(١) الطور: ٤٩. (٢) آل عمران: ٢٠٠

(٣) الزمر: ١٠. (٤) النحل: ١٢٧.

باب فى مستنبطاتهم فى معنى أخبار مروية عن رسول الله ﷺ من طريق الاستنباط والفهم

قال الشيخ رحمه الله: سمعت أبا الحسن: أحمد بن محمد بن سالم بالبصرة، وقد سئل عن معنى قول النبى ﷺ ما أطيب ما أكل الرجال: من كسب يده فقال له السائل: نحن مستعبدون بالاكتساب إذًا، فقال الشيخ رحمه الله: الكسب سنة الرسول ﷺ، والتوكل: حال الرسول ﷺ، وإنما استن لهم الكسب، لعلمه بضعفهم حتى إذا عجزوا عن التوكل الذى هو حاله وسقطوا عن مرتبته فى التوكل ودرجته، وقعوا فى الاكتساب التى هى سنته، ولولا ذلك لهلكوا.

وقيل فى معنى ذلك: إن رفع العبد يده إلى الله تعالى، فيدعو الله تعالى، فيجيبه، أيكون ذلك كسب يده.

وسئل الشبلى رحمه الله: عن معنى قول النبى ﷺ: [١٠١] «جعل رزقى تحت ظل سيفى» فقال: كان سيفه: [التوكل على] الله تعالى، وأما ذو الفقار، فهو قطعة من حديد.

ومثل ذلك فى مستنبطاتهم كثير، إن ذكرناه يطول الكتاب.

وأما ما كان من مستنبطاتهم فى غير هذا المعنى من الحديث، فهو كما سمعت أبا عمرو عبد الواحد بن علوان، برحبة مالك بن طوق، قال: سأل رجل الجنيد رحمه الله، وأنا عنده جالس عن معنى قول النبى ﷺ: [١٠٢] «لو توكلتم على الله حق توكله لغذاكم كما يغذو الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا» وهو ذا ترى أن الطير يطير فى طلب الرزق، من موضع إلى موضع، ويتحرك، ويطلب وينبعث.

فلذلك قال: «لا أحصى ثناء عليك» ثم احتشم أيضًا، من الثناء عليه فى محل القرب، فأخرج نفسه من الثناء عليه بما أثنى الله تعالى (به) على نفسه، قبل الخلق وحمد نفسه قبل حمدهم له، وشهد لنفسه بالوحدانية، قبل شهادتهم له.

فقال: «أنت كما أثنيت على نفسك».

وهذا حقيقة نهاية التقريب، وحقيقة التجريد: أن يتلاشى العبد كما لم يكن، ويكون الله تعالى كما لم يزل، فلو جمع جميع (إشارات) الواجدين والعارفين والمتحققين فى التوحيد لم يبلغ عشر معشار ما أشار إليه رسول الله ﷺ، فى هذا المعنى.

وقيل أيضًا، فى معنى قول النبى ﷺ: «لو تعلمون ما أعلَمُ لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرًا، ولخرجتم إلى الصعدات، ولما تقاررتم على الفرش».

قالوا: لو أن الذى علم رسول الله ﷺ، كان من العلوم التى أنزل الله تعالى عليه، وأمر بإبلاغه لبلغهم ذلك؛ ولو علموا ذلك لم يقل: لو تعلمون ما أعلم ولو علم أنهم يطيقون ذلك لعلمهم كسائر العلوم، ولو كان من العلوم المتعارفة بين الخلق أيضًا، لقالوا علمنا، بعدما قال: لو تعلمون ما أعلم؛ لأن حقائق رسالته وما خصه الله تعالى به من العلم، لو وضعت على الجبال لذابت إلا أنه كان يظهرها لهم على مقاديرهم لأن الله تعالى قال: ﴿فاعلَمْ أنَّهُ لا إله إلا الله﴾[1] وقال: ﴿وقلْ ربِّ زِدْنى علمًا﴾[2].

وقال ﷺ: «أنا أعلمكم بالله»، «ولو تعلمون ما أعلم» وقد أشار رسول الله ﷺ، إلى معنى من معانى تخصيصه إشارة لا تدركها العقول، ولا تصل إليها الفهوم، وتعجز عنها علوم جميع الخلق، وهو قول النبى

(١) محمد: ١٩

(٢) طه: ١٤.

وسئل الجنيد، رحمه الله عن معنى قول النبى ﷺ: [١٠٥] «حبك للشىء يعمى ويصم» فقال: حبك للدنيا يعمى ويصم عن الآخرة.

وسئل الشبلى، رحمه الله، عن معنى ما روى عن النبى ﷺ، أنه قال: [١٠٦] «إذا رأيتم أهل البلاء فسلوا الله ربكم العافية»، فقال: أهل البلاء أهل الغفلة عن الله تعالى، وسئل أيضًا، عن معنى حديث النبى ﷺ الذى روى عنه، أنه قال: [١٠٧] «حرام على قلب عليه زبانية [من الدنيا: أن يجد حلاوة الآخرة» فقال: صدق ﷺ أن قال ذلك، وأنا ذا أقول: حرام على قلب عليه زبانية] من الآخرة أن يجد حلاوة التوحيد.

وسئل محمد بن موسى الفرغانى، رحمه الله، عن معنى قول النبى ﷺ، لأبى جحيفة: [١٠٨] «يا أبا جحيفة، سائل العلماء، [وخالل الحكماء وجالس الكبراء]» فقال: «سائل العلماء» بالحلال والحرام، وخالل الحكماء الذين يسلكون بها على طريق الصدق والصفاء [والإخلاص]، وجالس الكبراء الذين عن الله ينطقون، وإلى ربوبيته يشيرون، وبنور قربه ينظرون.

وسئل سهل بن عبد الله، رحمه الله، عن [معنى] قول النبى ﷺ: [١٠٩] «المؤمن من تسره حسنته وتسوءه سيئته» قال: حسنته: نعم الله وفضله، وسيئته نفسه إن وكل إليها.

وسئل سهل، أيضًا عن معنى قوله، ﷺ: [١١٠] «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى» قال: ذكر الله فى موضع الزهد فى الحرام، وهو: أن يكون إذا استقبله حرام بذكر الله، تعالى، ويعلم أن الله مطلع عليه فيجتنب ذلك الحرام.

ومثل هذا كثير من مستنبطاتهم فى معنى حديث رسول الله ﷺ وذكرنا طرفًا منه، فيه كفاية، إن شاء الله تعالى.

وقال الجنيد رحمه الله، في معنى قول النبى ﷺ : [٩٧] «استغفروا الله وتوبوا إليه، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة» أو كما قال؛ قالوا: كان حال النبى ﷺ مع الله تعالى: [زيادة] فى كل نفس وطرفة عين، فكان إذا رقى به إلى زيادة حال أشرف من زيادته على حالته فى النفس الماضى، استغفر الله من ذلك وتاب إليه.

وسئل الجنيد رحمه الله، أيضًا كما بلغنى، عن معنى قول النبى ﷺ : [٩٨] «رحم الله أخى عيسى، عليه السلام لو ازداد يقينًا لمشى فى الهواء» فقال: معناه والله أعلم: أن عيسى عليه السلام: مشى على الماء بيقينه، والنبى ﷺ مشى فى الهواء ليلة المعراج بزيادة يقينه على يقين عيسى عليه السلام، فقال: «لو ازداد يقينًا» يعنى لو أعطى من زيادة اليقين مثل ما أعطيت لمشى فى الهواء، يخبر رسول الله ﷺ عن حالته.

وسمعت الحصرى رحمه الله، يقول فى معنى قول النبى ﷺ : [٩٩] «لى مع الله وقت لا يسعنى فيه شىء غير الله عز وجل» فقال: إن صح ذلك عن النبى ﷺ ، أنه قال ذلك، أو لم يصح، فإن جميع أوقات رسول الله ﷺ كانت وقتًا لا يسعه فيه [معه] غير الله بسره وقلبه، ولكن كان يرد بصفاته إلى الخلق، حتى يؤدبهم، ويعلمه، ويجرى على صفاته تلوين الأحكام، لينتفع به الخلق؛ فإذا بدا على صفاته من أنوار سره، أخذه عن الخلق كما قالت عائشة رضي الله عنها «انتبهت ليلة، فلم أجد رسول الله ﷺ فى فراشه، فقمت أطلبه، فوقعت يدى على قدميه، وهما منتصبتان، ساجدًا لله عز وجل، [وسمعته] وهو يقول: [١٠٠] «أعوذ برضاك من سخطك. . .» الحديث؛ فهذا هو الوقت الذى كان يبدو على سره، والأنوار على صفاته، وإذا ردت الأنوار إلى سره، رد بصفاته إلى الخلق، لينتفعوا به، ويقتدوا به.

معنى صفاته أى ظاهره، ومعنى سره أى باطنه.

كتاب الصحابة رضوان الله عليهم

باب فى ذكر أصحاب رسول الله ﷺ ومعانيهم رضي الله عنهم

قال الله تعالى: ﴿وَالسابِقون الأولونَ منَ المهَاجرِينَ والأنصارِ الذينَ اتبعوهُمْ بإحسَانٍ رضى الله عنهم ورَضوا عنْهُ﴾(١) فقد وقع اسم السابقين على الجميع بظاهر الآية مع رضا الله تعالى عنهم وشهد لهم بأنهم راضون عنه، والسابقون هم المقربون بنص الآية، وقد ذكرنا تخصيص الأبرار من أهل الجنة فى باب الموافقة لكتاب الله عزّ جل.

فأما قوله تعالى: ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾ فقد قال الله تعالى فى آية أخرى: ﴿ورضوانٌ منَ الله أكبرُ﴾(٢) قال ذو النون، رحمه الله: [يعنى] أكبر وأقدم حين قال: ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾ فى سابق علمه فلذلك استرضاهم له وأرضاهم حتى رضوا عنه.

وقال النبى ﷺ: [١١٣] «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

وقد ذكر الله تعالى القسم بالنجوم من الكواكب، والنجوم ما يهتدى به فى البر والبحر لكبره وكثرة ضوئه ونوره، فلذلك شبههم بالنجوم ولم يشبههم بالكواكب، لأن الكواكب هى الصغار التى لا يهتدى بها، ثم دل على الاهتداء بالاقتداء بهم ولم يخص الاقتداء، يعنى دون الآخر، فعلمنا أن الاهتداء بهم فى الاقتداء بهم فى جميع معانيهم الظاهرة والباطنة.

---

(١) التوبة: ١٠٠.
(٢) التوبة: ٧٢.

فقال الجنيد رحمه الله: قال الله تعالى: ﴿**إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها**﴾[1] وإنما طيران الطير، وحركته من موضع إلى موضع، ونقلته من مكان إلى مكان من أجل الزينة التى ذكر الله تعالى؛ فقد جعل الله، تعالى، طيرانهم للزينة التى ذكر الله تعالى، لا لطلب الرزق.

ووجدت فى كتاب عمرو بن عثمان المكى رحمه الله فى معنى قول النبى ﷺ، لعبد الله عمر رضي الله عنه: «يا عبد الله بن عمر، اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وكذلك إجابة جبريل عليه السلام حين سأل عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فقال عمرو بن عثمان رحمه الله: [معنى قوله]: «كأنك تراه: شىء بين شيئين: بين رؤية ويقين، فلم يخرجها، ﷺ، إلى رؤية عيان ولم يردها إلى صفة يقين، وإنما مثل له مثل يدل على نهاية من نهايات حقائق الإيمان؛ وبذلك طالب حارثة، إن صح الخبر، وما كان كأن بمعنى أن وليس هو أن ولكنه قد قرب من معنى الرؤية فى تغليب المشاهدة عند حضور القلب، ومداناتها إلى ما وارته الغيوب فهذا أصل الحجة على مشاهدة القلوب.

وسئل أبو بكر الواسطى، رحمه الله عن معنى قول النبى، ﷺ [١٠٤] «جبل ولى الله تعالى على السخاء وحسن الخلق» فقال: أما السخاوة من ولى الله تعالى: أن يهب نفسه وقلبه لله، عز وجل.

وسئل الشبلى رحمه الله، عن معنى ما روى فى الحديث: «أن النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت» فقال: إذ عرفت من يقوتها اطمأنت ثم قرأ قوله، عز وجل ﴿**وكان الله على كل شىء مقيتًا**﴾[2].

---

(١) الكهف: ٧.

(٢) النساء: ٨٥.

باب ذكر أبى بكر الصديق ﷺ وتخصيصه من بين أصحاب رسول الله ﷺ بالأحوال التى تعلق بها أهل الصفوة من هذه الأمة وتخلّق بذلك واقتدى به

رُوى عن مطرِّف بن عبد الله رحمه الله أنه قال: قال أبو بكر الصدّيق ﷺ: لو نادى منادٍ من السماء أنه لن يَلجَ الجنّة إلا رجلٌ واحد لرجوتُ أن أكون أنا [هو]، ولو نادى مناد من السماء أنه لا يدخل النار إلا رجل واحد لخفتُ أن أكون أنا هو؛ قال مطرِّف رحمه الله: هذا والله أعظمُ الخوف، وأعظم الرجاء.

وحُكى عن أبى العباس بن عطاء رحمه الله أنه سئل عن قوله تعالى ﴿كونوا ربّانيين﴾[1] الآية؛ قال: معناه كونوا كأبى بكر الصديق ﷺ، فإنه لما مات رسول الله ﷺ اضطربت أسرار المؤمنين كلّها لموته ولم يؤثر ذلك فى سر أبى بكر ﷺ شيئًا، وخرج وقال للناس: [يأيها الناس] من كان يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا ﷺ قد مات، ومن كان يعبد الله تعالى فإن الله حى لا يموت، فحكم الربانى أن يكون بهذه الصفة لا تؤثر الحوادث فى سره شيئًا، ولو كان فيه انقلابُ الخافقين.

وقال أبو بكر الواسطى، رحمه الله: أول لسان الصوفية ظهرت فى هذه الأمة على لسان أبى بكر ﷺ إشارة، فاستخرج منها أهل الفهم لطائف توَسْوَسَ فيها العقلاء.

(١) آل عمران: ٧٩.

فإن قال قائل: هل تجد للاستنباط فى القرآن والحديث وغير ذلك أصلا فى العلم فيقال: نعم، قول النبى ﷺ لأصحابه، وهم [عنده] مجتمعون، وفيهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وهو أحدثهم سنًّا فقال: النبى ﷺ: [١١١] «أيُّما شجرة تُشبه ابن آدم؟» قال فوقع الناس فى أشجار البادية ووقع فى قلبى أنها النخلة واستحييتُ أن أجيب رسول الله ﷺ فسكَتّ حتى قال رسول الله ﷺ «هى النخلة» قال ابن عمر رضي الله عنه: [١١٢] فقلت لعمر رضي الله عنه: لقد كدت أن أقول أنها النخلة، فقال عمر رضي الله عنه: لئن قلت ذلك كان أحبَّ إلى من حُمْر النعم، أو كما فى الخبر.

والحجة فى ذلك: أن أحدًا لم يستنبط من أصحاب رسول الله ﷺ معنى ما سألهم عنه رسول الله ﷺ إلا عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وهو أصغرهم سنا، وكذلك الاستنباط فى هذه المعانى على مقدار ما يفتح الله تعالى للقلوب من غيبه، وبالله التوفيق.

فيقـال: لأن النبى ﷺ أعلم بالله من أبى بكر، ؓ، وأبو بكر ؓ، أقوى إيمانا من أصحاب رسول الله ﷺ، فثبات أبى بكر، ؓ، من حقيقة إيمانه بما وعد الله تعالى، وتغـير النبى ﷺ من زيادة علمه بالله تعالى، لأنه يعلم من الله ما لا يعلم أبو بكر، ؓ، ولا غيره.

ألا ترى أنه ﷺ [كان] إذا اشتد هبوب الريح تغير لونه [ولم يتغير لون واحد من أصحابه].

وقال: [١١٨] «لو تعلمـون ما أعـلم لضحكتم قـليلا ولبكيـتم كـثيـرًا، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى، ولما تقاررتم على فرشكم».

ولأبى بكر الصديق ؓ [أيضًا] خصوصية فى الإلهام والفراسة [من بين أصحاب رسول الله ﷺ] فى ثلاثة مواضع:

أحدها: حـين اتفق رأى الجميع من أصحـاب رسول الله ﷺ على ترك مقاتلة أهل الردة على منع الزكاة، وثـبت أبو بكر، ؓ، على قتالهم، وقال: والله لو منعونى عـقالا مـما كانوا يؤدون إلى رسـول الله ﷺ لقاتلتـهم عليه [بالسيف] فأصـاب رأيه [وقـالوا: إن الإصابة فى رأيه مع خـلافه لهم فـيمـا أشاروا عليه] ورجع الجميع إلى رأيه حيث رأوا الصواب معه.

والثانى: عند خلافه رأى جـمهور فيما رأوا من رد جـيش أسامة، وقوله: والله لا أحل عقدًا عقده رسول الله ﷺ.

والثـالـث: قول أبـى بكـر ؓ لعـائشـة ؓ: إنـى كنت نحلتك نحـلا وإنما هو أخـواك وأختاك، ومـا عرفت [عائشة] إلا أخوين وأختًـا، وكانـت

فأما الظاهر فمشهور عند العلماء والفقهاء، فى علم الحدود والأحكام والحلال والحرام، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: [١١٤] «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأقواهم فى دين الله عمر رضي الله عنه، وأصدقهم حياء عثمان رضي الله عنه، وأفرضهم زيد رضي الله عنه، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل رضي الله عنه، وأقرأهم أبىّ بن كعب رضي الله عنه، وأقضاهم علىّ رضي الله عنه، وما أظلّت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر رضي الله عنه».

وأما الباطن فنبدأ بما بدأ به ﷺ بقوله: [١١٥] «اقتدوا باللذيْن من بعدى أبى بكر وعمر رضي الله عنهما».

فنبدأ بأبى بكر ثم من بعد أبى بكر بعمر.

وبلغنى عن أبى عُتْبة الحلوانى رحمه الله، أنه قال: ألا أخبركم عن حال كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ؟

أولها: لقاء الله تعالى كان أحب [إليهم] من الحياة،

والثانية: كانوا لا يخافون عدواً قلوا أو كثروا.

والثالثة: لم يكونوا يخافون عوزا من الدنيا، وكانوا واثقين برزق الله تعالى.

والرابعة: إن بدأ بهم الطاعون لم يبرحوا حتى يقضى الله فيهم، وكانوا أخوف ما يكونون من الموت أصح ما يكونون.

ويحكى عن محمد بن على الكتانى رحمه الله، أنه قال: كان الناس فى ابتداء الإسلام يتعاملون بالدين حتى رق الدين، ثم تعامل القرن الثانى بالوفاء حتى ذهب الوفاء، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب الحياء، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة.

والثانية: قوله ﴿فاذكُرونى أذكُرْكم﴾ فاشتغلت بذكر الله تعالى عن كل مذكور سوى الله.

والثالثة قوله ﴿وَمَا مِنْ دابةٍ فى الأرضِ إلا على اللهِ رزقها﴾[1] فوالله ما هممت برزقى منذ قرأت هذه الآية.

ويقال: إن هذه الأبيات لأبى بكر الصديق رضي الله عنه:

يا من ترفّع بالدنيا وزينتها	لَيسَ الترفعُ رَفعَ الطين بالطين
إذا أرَدتَ شريفَ الناس كلهم	فانظر إلى ملكٍ فى زى مسكين
ذاك الذى عظمت فى الناس رأفته	وذاك يَصْلُحُ للدنيا وللدِّين

[وحكى عن الجنيد أنه قال: أشرف كلمة فى التوحيد قول أبى بكر: سبحان من لم يجعل للخلق طريقًا إلى معرفته إلا العجز عن معرفته].

(١) هود: ٦

قال الشيخ، رحمه الله: وهذا الذى أشار إليه الواسطى فى قوله: أول لسان الصوفية ظهرت على لسان أبى بكر ﷺ، فذلك قول أبى بكر ﷺ لأنه حين خرج من جميع ملكه قال له النبى ﷺ: [١١٦] «أيش خلفت لعيالك» قال: الله ورسوله، فقال: الله، ثم قال: ورسوله، ولعمرى إنها إشارة جليلة لأهل التوحيد فى حقائق التفريد، غير أن لأبى بكر الصديق ﷺ إشارات غيرها مستخرجة منها لطائف غير ذلك.

وهى معلومة عند أهل الحقائق ومفهومة للتعلق والتخلق بها، منها قوله حين صعد المنبر بعدما مات رسول الله ﷺ، واضطربت قلوب أصحاب رسول الله ﷺ، وخشوا على ذهاب الإسلام بموته ﷺ، وخروجه من بين ظهرانيهم، فقال: من كان يعبد منكم محمداً ﷺ فإن محمداً ﷺ قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت.

واللطيفة فى ذلك ثباته فى التوحيد وما ثبّت به قلوب الجماعة من الصحابة ﷺ.

ومنها قوله يوم بدر للنبى ﷺ حيث كان يقول: [١١٧] «اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد فى الأرض [من بعد ذلك]» فقال أبو بكر، ﷺ: دع مناشدتك ربك، فإنه والله منجز لك ما وعدك؛ أو كما قال، وهو قول الله تعالى: ﴿**إذْ يوحى رَبكَ إلى الملائكة أنى معكُمْ فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرُّعبَ**﴾[١] فخص بحقيقة التصديق لما وعدهم الله تعالى من النصر من جميع الصحابة [عند اضطراب قلوبهم] فدل على حقيقة إيمانه وخصوصيته.

فإن قال قائل: فما معنى تغير النبى ﷺ وثبات أبى بكر، ﷺ، وهو أتم من أبى بكر، ﷺ، فى جميع الأحوال؟

(١) الأنفال: ١٢.

ويقال: إنه أخـذ تبنة من الأرض فقـال: يا ليتنى لم تلدنى أمى، يـا ليتنى كنت هذه التبنة، يا ليتنى لم أك شيئًا.

وقد روى عن عمر ﷺ، أنه قال: ما ابتليت ببلية إلا كان لله [على فيها] أربع نعم: إذ لم تكن فى دينى، وإذ لم تكن أعظم منهـا، وإذ لم أحرم الرضا فيها، وأن أرجو الثواب عليها.

وقال عمر ﷺ: لو كان الصبر والشكر بعيرين، لم أبالِ أيهما ركبت.

وجاء رجل إلى عـمر ﷺ، فشكا إليه الفـقر فقال: عندك عـشاء ليلتك؟ قال: نعم، قال: لست بفقير.

وروى عن على ﷺ، أنه قـال: ما على وجه الأرض أحـد أحب إلىّ أن ألقى الله تعالى بمثل صحيفته إلا هذا المسجَّى عمر ﷺ.

قال: ورأى على ﷺ، يومـا عمـر ﷺ، وهو يعدو فى وقت الهـاجرة، فسأله عن عَدْوِه، فقال: [قد] أغير على إبل الصدقة فـرحت أعدو فى طلبها؛ قال: فقال على ﷺ: لقد أتعبت الخلفاء بعدك يا أمير المؤمنين.

قال الشيخ، رحمه الله: ولأهل الحقـائق أسوة وتعلق بعمر ﷺ، بمعانى خص بذلك عـمر ﷺ، من اختـياره لبـس المرقـعـة، والخـشـونة، وترك الشهـوات، واجتناب الشبهـات، وإظهار الكرامات، وقلة المبـالاة، مَنْ لأئمة الخلق عند انتـصـاب الحق، ومحـق الباطل ومـسـاواة الأقارب والأباعـد فى الحقوق، والتمسك بالأشد من الطاعـات، واجتناب ذلك، مما روى عنه وبيانُهُ يطول.

وأما ما روى عن عمر ﷺ، أنه رأى جماعـة جلوسًا فى المسجد فأمرهم بطلب الكسب، والذى كـتب به إلى سلـمان، فلعلـه عرف منهـم عجـزًا فى جلوسهـم وطمعهم فى الناس، أو غـير ذلك [فلذلك أمـرهم بطلب الكسب]

لأبى بكر ﷺ جارية حبلى فـقال: لقد ألقى فى روعى أنها أنثى، فـهذا أتم ما كان فى الفراسة والإلهام.

وقـال النبى ﷺ : [١١٩] «اتقـوا فراسـة المـؤمن فـإنه ينظر بنور الله تعالى» ولأبى بكر ﷺ معـان أخر مما تعلق بها أهـل الحقائق وأرباب القلوب وإن ذكرنا جميع ذلك طال الكتاب.

وقد حُكى عن بكر بن عـبد الله المزنى أنه قال: مـا فاق أبو بكر، ﷺ، جميع أصحاب رسـول الله ﷺ بكثرة الصوم والصلاة، ولكن بشىء كان فى قلبه.

قال بعضهم: الذى كان فى قلبه الحبّ لله عز وجل والنصيحة له.

ويقـال: إن أبا بكر ﷺ كـان إذا دخل وقـت الصـلاة يقـول: يا بنى آدم قوموا إلى ناركم التى أوقدتموها فأطفئوها.

وروى عنه أنه أكل طعامًا من شبهـة فلما علم به تقيًّأ، وقال: والله: لو لم تخرج إلا مع روحى لأخـرجتهـا، وسمعت رسـول الله ﷺ يقول: [١٢٠] «بدن غُذِى بحرام فالنار أوْلى به».

[وكان يقول: وددتُ أن أكون خضراء تأكلنى الدواب، ولم أخلق، مخافة العذاب وهول يوم الحساب.

وروى عن أبى بكر الصديـق أنه قال: ثلاث آيات من كتـاب الله عز وجل اشتغلتُ بها عما سواها.

إحداها: قوله: ﴿وإن يَمْـسَسْكَ الله بضـر فلاَ كـاشِفَ له إلا هو وإن يردْك بخيرٍ فلا رادَّ لفضله﴾ فعلمت أنه إن أرادنى بـخير لم يقـدر أحد أن يرفع عنى غيره، وإن أرادنى بشر لم يقدر أحد أن يصرف غيره.

باب فى ذكر عثمان رضي الله عنه

قال الشيخ، رحمه الله: أما عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقد خص بالتمكين، والتمكين من أعلى مراتب المتحققين، ومما يتعلق به أهل الحقائق من أهل التصوف بعثمان بن عفان رضي الله عنه، ما روى عن بعض المتقدمين [أنه سئل] عن الدخول فى السعات فقال: لا يصح إلا للأنبياء والصديقين، والدخول فى السعة التى هى من أحوال الصديقين أن يكون داخلا فى الأشياء [خارجا منها وأن يكون مع الأشياء] بائنًا عنها.

كما سئل يحيى بن معاذ رضي الله عنه، عن صفة العارف فقال: رجل كائن [معهم] بائن عنهم.

وسئل ابن الجلاء، رحمه الله، عن الفقير الصادق فقال: يكون دخوله فى الأشياء لغيره لا لنفسه.

وهذا وصف حال عثمان رضي الله عنه، لأنه قد روى أنه قال: لولا أنى خشيت أن يكون فى الإسلام ثلمة أسدها بهذا المال ما جمعته.

وعلامة من يكون هذا حاله أن يكون الإنفاق أحب إليه من الإمساك، والخرج عنده آثر من الدخل كعثمان رضي الله عنه فى تجهيز جيش العسرة وشرَى بئر رومة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [١٢٣] «ما ضرّ عثمان رضي الله عنه، ما فعل بعد هذا».

وروى عنه أنه بعث إلى أبى ذر رضي الله عنه، بكيس فيها ألف درهم، ودفعها إلى عبد له وقال: إن قبلها فأنت حر لوجه الله تعالى، فدل ذلك على أن أمواله كانت مستعدة لمثل هذه الجهات ولا يصح هذا الحال إلا لعبد كامل المعرفة.

سمعت ابن سالم رحمه الله يقول: قال سهل بن عبد الله، رحمه الله: لا يصح الدخول فى السعة إلا لعبد يعرف الإذن إذا أَذِنَ الله له أن يُنْفق أنفق على

باب فى ذكر عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

قال الشيخ، رحمه الله: وأما عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: [١٢١] «قد كان فى الأمم محدَّثون ومكلَّمون فإن يَكُ فى هذه الأمة فعمر رضي الله عنه».

سئل بعض أهل الفهم عن المحدث، فقال: أعلى درجة من درجات الصديقين.

ودلائل ذلك ظهرت عليه وهو ما ذكر عنه أنه كان يخطب فصاح، فقال فى وسط خطبته: يا سارية الجبل، وسارية فى عسكر على باب نهاوَنْد، فسمع صوت عمر رضي الله عنه، وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو.

وقيل لسارية: كيف علمت ذلك؟ فقال: سمعت صوت عمر رضي الله عنه، يقول: يا سارية الجبلَ الجبلَ.

وروى عن أبى عثمان النهدى أنه قال: رأيت على عمر رضي الله عنه، قميصا فيه اثنتا عشرة رقعة، وهو يخطب.

وروى عن عمر رضي الله عنه، أنه قال: رحم الله امرأ أهدى إلىَّ عيوبى.

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الشيطان يَفْرَقُ من ظل عمر رضي الله عنه».

وقال عمر رضي الله عنه: مَنْ خاف الله تعالى لم يشف غيظه، ومن اتقى الله لم يفعل كل ما يريد، ولولا القيامة لكان غير ما ترون.

وروى عنه أنه قال: ما تمنّيتُ ولا تغنّيت ولا مسستُ ذكرى بيمينى منذ بايعتُ رسول الله ﷺ .

و [مما يدل على] تخصيصه بالتمكين والثبات والاستقامة ما روى عنه: أنه يوم قُتِلَ لم يبرح من موضعه، ولم يأذن لأحد بالقتال، ولا وضع المصحف من حجره إلى أن قُتِل، رضي الله عنه، وسال الدم على المصحف وتلطخ بالدم، ووقع الدم على موضع هذه الآية ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

والتمكين حال رفيع.

سمعتُ أبا عمرو بن علوان يقول: سمعت الجنيد رحمه الله ليلةً من الليالى وهو [يقول] فى مناجاته: إلهى أتُرِيد أن تخدعنى [عنك] بقُرْبك، أم تريد أن تقطعنى عنك بوصلك، هيهات هيهات؛ قلت لأبى عمرو: ما معنى قوله: هيهات هيهات؟ قال: التمكين.

وروى عن عثمان رضي الله عنه، أنه قال: وجدتُ الخير مجموعًا فى أربعة:

أولها: التحبب إلى الله تعالى [بالنوافل].

والثاني: الصبر على أحكام الله تعالى.

والثالث: الرضا بتقدير الله عز وجل.

والرابع: الحياء من نظر الله عز وجل.

لأن النبى ﷺ وأبا بكر وعمر ﷺ، قد رأوا أصحاب الصُّفّة، وهم نيّف وثلاثمائة، ولم يكرهوا ذلك، ولم يؤمروا بالخروج من المسجد وطلب المعاش.

وروى عن عمر ﷺ أنه قال لأخيه زيد بن الخطاب يوم أحد: إن شئت نزعت دِرْعى هذه حتى تلبسها، فقال له زيد: أنا أيضًا أحب الشهادة كما أنك تحب الشهادة؛ وهذه إشارة عظيمة منهما تدل على حقيقة التوكل.

وأشباه ذلك كثيرة، وفى القليل كفاية.

وقد روى عن عمر ﷺ، أنه قال: وجدت العبادة فى أربعة أشياء:

أولها: أداء فرائض الله تعالى.

والثانى: اجتناب محارم الله تعالى.

والثالث: الأمر بالمعروف ابتغاء ثواب الله تعالى.

والرابع: النهى عن المنكر اتقاء غضب الله تعالى.

وكان أمير المؤمنين رضي الله عنه، يقول فى خطبته: خلق الأشياء لا من شىء كان معه، ولا عن شىء احتذاه، ولا عن شىء امتثله، فكل صانع فمن شىء صنع، وكل عالم فمن بعد جهل علم، والله تعالى عالم لا من بعد جهل.

وقوله فى الإيمان كما ذكر عنه عمرو بن هند قال: سمعت عليًا رضي الله عنه، يقول: الإيمان يبدو لمظةً بيضاء فى القلب، فكلما ازداد الإيمان ازداد القلب بياضًا، فإذا استكمل الإيمان ابيض القلب؛ وإن النفاق يبدو لمظةً سوداء فى القلب، فكلما ازداد النفاق ازداد القلب سوادًا، فإذا استكمل اسودَّ القلب.

وقام رجل إلى على بن أبى طالب رضي الله عنه، فسأله عن الإيمان، فقال: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد؛ ثم وصف الصبر على عشر مقامات، وكذلك اليقين والعدل والجهاد، فوصف كل واحد منها على عشر مقامات.

فإن صح ذلك عنه فهو أول من تكلم فى الأحوال والمقامات.

وقيل لأمير المؤمنين رضي الله عنه: من أسلم الناس من سائر العيوب؟ قال: من جعل عقله أميرهُ، وحذَره وزيره، والموعظة زمامَهُ، والصبر قائده، والاعتصام بالتقوى ظهيره، وخوف الله تعالى جليسه، وذكر الموت والبلى أنيسه.

وقال على رضي الله عنه، فى حديث كميل بن زياد: ها إن هاهنا علْمٌ لو وجدت له حملة وأشار إلى قلبه؛ فكان تخصيصه من بين الصحابة بالبيان والعبارة عن التوحيد والمعرفة، والبيان من أتم المعانى وأعلى الأحوال، قال الله تعالى: **﴿وإذْ أخَذَ اللهُ ميثاق الذين أُوتُوا الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ للناسِ﴾**وقال تعالى: **﴿هذا بيانٌ للناسِ﴾**[1].

ولا يبلغ العبد كمال الشرف إلا بالبيان لأنه ليس كل من عقل يعلم، ولا

(١) آل عمران: ١٣٨.

ما يأذن الله تعالى لـه، وإن أمسكها أمسك على حسب مـا يأذن الله تعالى له، ويكون قيامـه فيما يجـمع الله عليه من الأموال للحقـوق لا للحظوظ، فيكون مثله كمـثل الوكيل يتصرف فى مـال صاحبه تصرف المـالكين بإذن ربّ المال، وهو مكانٌ صعبٌ وقد غلط فى ذلك خلق كثيـر بدعواهم هذا الحال وهـم عبيدُ الدنيا، وعندهم أنهم من هؤلاء.

وقد حُكى عن سهل بن عـبد الله، رحمه الله، أنه قال: ربمـا يملك العبد الدنيا ويكون أَزْهَدَ الخلق فى زمانـه، فقيل له: مِثْل مَنْ؟ فقال: مـثل عمر بن عبد العزيز.

وكان [ﷺ أَعْنى عمر بن عـمر العزيز] فى خلافتـه يُميز بين الزيت الذى يُسْـرج لنفـسه والزيت الذى يسـرج للعـامـة، وكان يضع سـراجـه على ثلاث قَصَبَات، وفى يده خزائن الأرض.

فمن هـاهنا غلط من غلط فى تشريف الغنى عـلى الفقر، وذهب عـليه أن هؤلاء لم يكونوا أغنياء بأعـراض الدنيا، ولا فقراء بما يعـدمون من الدنيا، لأن غناهم بالله وفقرهم إليه.

ومما يتـعلق به أهل الحقائق بعـثمان ﷺ، ما رُوى عنه أنه حـمل حزمة حطب من بعض بساتينه، وكان له عدة مماليك، فقيل له: لو دفعتها إلى بعض عبيـدك، فقال: إنى قد استطعت أن أفـعل ذلك، ولكن أردتُ أن أجرب نفسى هل تعجز عن ذلك، أو هل تكره ذلك، أو كما قال.

فدلّ ذلك أيضًا [على] أنه كان لا يدع افـتقاد نفسـه، وكان يفتقـد رياضة نفسه لئلا يسكن إلى ما جُمع إليه من الأموال لأنه ليس فى ذلك كغيره.

ورُوى عنه: أنها كان يقرأ بالسَّبْع الطُّول فى ركعة واحدة خَلْفَ المقام وهو مقنّعٌ رأسه بالليل.

ولعلى ﷺ، أشباه ذلك كثير من الأحوال والأخلاق والأفعال التى يتعلق بها أرباب القلوب وأهل الإشارات وأهل المواجيد من الصوفية، فمن ترك الدنيا كلها وخرج من جميع ما يملك وجلس على بساط الفقر والتجريد بلا علاقة فإمامه فيه أبو بكر الصديق ﷺ، ومن أخرج بعضها وترك البعض لعياله ولصلة الرحم وأداء الحقوق فإمامه [فيها] عمر بن الخطاب ﷺ، ومن جمع لله ومنع لله وأعطى لله وأنفق لله فإمامه [فيها] عثمان بن عفان ﷺ، ومن لا يحوم حول الدنيا، وإن جمعتْ عليه مِنْ غير طلبه رفضها وهرب منها فإمامُهُ فى ذلك علىّ بن أبى طالب ﷺ.

وروى عن علىّ ﷺ، أنه قال: الخير كله مجموع فى أربعة: الصمت والنطق والنظر والحركة، فكلّ نطق لا يكون فى ذِكْر الله تعالى فهو لغوٌ، وكلّ صمت لا يكون فى فكر فهو سهوٌ، وكل نظر لا يكون فى عبرة فهو غفلة، وكل حركة لا تكون فى تعبد الله فهى فترة، فرحم الله عبدًا جعل نطقه ذكرًا وصمته فكرًا ونظره عبرة وحركته معبدًا، ويسلم الناس من لسانه ويده.

باب فى ذكر على بن أبى طالب ﷺ

قال الشيخ، رحمه الله: وأما علىّ ﷺ، فإنى سمعتُ أحمد بن على الوجيهى يقول: سمعتُ أبا على الروذبارى يقول: سمعت جنيدًا رحمه الله يقول: رضوان الله على أمير المؤمنين علىّ ﷺ، لولا أنه اشتغل بالحروب لأفادنا من علمنا هذا معانى كثيرة، وذاك امرؤٌ أعطىَ علم اللَّدُنى، والعلم اللدُنى هو العلم الذى خصَّ به الخضرُ عليه السلام، قال الله تعالى ﴿**وعلمناهُ من لدنَّا علمًا**﴾[1].

وقد سمعتَ بقصة الخضر وموسى عليهما الصلاة والسلام وقوله ﴿**إنكَ لَنْ تستطيع مَعِيَ صَبرًا**﴾[2] فمن هاهنا غلط من غلط فى تفضيل الولاية على النبوة، وسنذكر ذلك فى باب الردّ على من قال ذلك إن شاء الله.

ولأمير المؤمنين [علىّ] ﷺ خصوصية من بين جميع أصحاب رسول الله ﷺ بمعانى جليلة، وإشارات لطيفة، وألفاظ مفردة، وعبارة وبيان للتوحيد والمعرفة والإيمان [والعلم]، وغير ذلك، وخصال شريفة تعلق وتخلق به أهل الحقائق من الصوفية، وإن ذكرْنا ذلك كله طال به الكتاب، ولكن نذكر من ذلك طرفًا نكتفى به عن التطويل إن شاء الله.

فمنها ما سُئل أمير المؤمنين ﷺ، وقيل له: بم عرفتَ ربك؟ فقال: بما عرفنى نفسَهُ، لا تشبهه صورةٌ، ولا يُدْرَك بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب فى بعده، بعيد فى قرْبه، فوق كل شىء ولا يقال شىء تحته، وتحت كل شىء ولا يقال شىء فوقه، أمام كل شىء ولا يقال شىء أمامه، داخلٌ فى الأشياء، لا كشىء ولا من شىء، ولا فى شىء، ولا بشىء، سبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره.

(١) الكهف: ٦٥

(٢) الكهف: ٦٧.

وقال أبو موسى الأشعرى ﷺ: كان يشبه رائحتنا رائحة الشاة من لبس العباء.

وقال عبد الله بن طلحة: صحبنا جماعة أهل الصفة يومًا فقلنا: يا رسول الله، أحرق بطوننا التمر، وحرمت علينا الجيفة؛ فسمع ذلك رسول الله ﷺ فصعد المنبر ثم قال: [١٢٦] «ما بال أقوام يضحون ويقولون أحرقت بطوننا التمر، أما علمتم أن هذا التمر [إنما] هو طعام أهل المدينة، فقد واسونا به، فواسيناكم مما واسونا به، والذى نفس محمد بيده إن منذ شهر أو شهرين لم ترتفع من [بيت] رسول الله دخان للخبز وليس لهم غير الأسودين التمر والماء».

والمعنى فى ذلك أن رسول الله ﷺ اعتذر [فى ذلك] إليهم، ولم يرد عليهم شكايتهم، ولم يأمرهم بطلب المعاش [من الاكتساب والتجارات]، وقد روى فى الخبر أن النبى ﷺ [١٢٧] وقف على جماعة من أهل الصفة وقد استتر بعضهم ببعض من العرى وقارئ يقرأ عليهم القرآن وهم يبكون، فأما غير أهل الصفة فقد رُوى عن كل واحد منهم ما انفردوا به وخصوا به من الأحوال الرضية والأعمال الزكية ومكارم الأخلاق ما تعلق بها أهل الحقائق من المتصوفة وطلب الاهتداء فى الاقتداء بهم، ويكثر ذكر ذلك ولكن نذكر طرفًا ليستدل بذلك على ما لم نذكره إن شاء الله تعالى.

كل من علم يحسن أن يبين، فإذا أعطى العبدُ العقل والعلم والبيان فقد بلغ إلى الكمال، والمشهور عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا إذا أشكل عليهم شيء من أمور الدين سألوا عليّا، ﷺ فكان يبين لهم الذى يشكل عليهم.

وروى عن على ﷺ، أنه كان يقول: أحبب حبيبك هونًا ما، كيما يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما كيما يكون حبيبك يومًا ما.

وذكر عنه أيضًا: أنه وقف على باب الخزانة ـ خزانة الأموال ـ وقال: يا صفراء ويا بيضاء غُرِّى غيرى.

وذكر عنه أيضًا: أنه لبس قميصًا شراه ثلاثة دراهم، فقطعه من رأس أصابعه.

وذكر عنه أنه عمل بأجرة، فأخذ أجرته مدّا من تمر، وحمل ذلك إلى رسول الله ﷺ حتى تقوّت به.

وروى عنه أنه قال لعمر بن الخطاب ﷺ إن أردت أن تلقى صاحبيك فرقع قميصك واخصف نعلك، وقصر أملك، وكل دون الشبع.

وروى عن عمر ﷺ، أنه قال: لولا علىّ ﷺ، لهلك عمر.

ويقال: أنه لما قتل ﷺ، صعد الحسن ﷺ، منبر الكوفة وقال: ياأهل الكوفة، لقد قتل بين ظهرانيكم أمير المؤمنين ﷺ، والله إنه ما خلف من الدنيا شيئًا إلا أربعمائة درهم، وكان قد عزلها ليشترى بها خادمًا يخدمه.

ويقال: إن عليّا ﷺ، كان إذا جاء وقت الصلاة يتزلزل ويتغير لونه فيقال له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، فلا أدرى أُحْسِنُ أداء ما احتملت أم لا؟

وقال على، ﷺ: ما أنا ونفسى إلا كراعى غنم كلما ضمها من جانب انتشرت من جانب.

وأمـا أبو الدرداء ﷺ، فإنه قـال: كنت امرأ تاجـرًا فى الجـاهلية، فلمـا أسلمت أردت أن أجمع بين الـتجارة والعبـادة فلم تجتمـعا لى، فآثرت العـبادة على التجارة.

قـال: وسـئلت أم الدرداء ﷺ، عـن أفـضل عـبـادة أبى الدرداء ﷺ، فقالت: التفكر والاعتبار.

وأما أبو ذر ﷺ، فـإنه روى عنه أنه قال: إن قـيامى بالحق لله تعـالى لم يترك لى صـديقًا، وإن خوفى من يوم الحـساب ما ترك على بدنى لحـمًا، وإن يقينى بثواب الله تعالى ما ترك فى بيتى شيئًا.

ويروَى عنه أنه قال: قتلنى هَمُّ يوم لم أدركه، فـقيل له: وما ذاك؟ قال إن أملى جاوز أجلى، ووددت أن الله تعالى خلقنى شجرة تعضد.

ودعى أبو ذر ﷺ، إلى وليمة فسمع صوتـًا فانصرف وهو يقول: من أكثر سواد قوم فهو منهم، ومن رضى عمل قوم فهو شريكهم.

وحمل حـبيب بن مسلمـة إلى أبى ذر ﷺ، ألف درهم فرد عليـه وقال: عندنا عنز نحلبها، ومركوب يسارع على ظهرها، فلا حاجة لنا فى غير ذلك.

وأما أبو عبـيدة بن الجراح ﷺ؛ فإنه روى عنه أنه خـرجت فى كفه طعنة فى أيام الطاعون، فـعظم ذلك على أصحـاب رسول الله ﷺ وفرقـوا منها، فأقسم لهم أبو عبيدة ﷺ؛ ما يحب أن له مكانها حمر النعم.

وجاء رجل إلـى أبى عبيـدة ﷺ؛ فسـأله فرده، ثم جـاءه فسأله فـأعطاه، فقال: الذى أعطاك والذى ردك الله عز وجل.

[وقال أبو عـبيدة: وددت أن أكون كـبشًا لأهدَى فـيُتعرّق لحـمى ويتجنى فرْقى ولم أخلقْ].

باب صفة أهل الصُّفَّة رضوان الله عليهم أجمعين

قال الشيخ، رحمه الله: ثم إن أهل الصفة كانوا كما جاء في الخبر نيف وثلاثمائة لا يرجعون إلى نَدْع ولا إلى ضَرْع ولا إلى تجارة، وكان أكلهم في المسجد ونومهم في المسجد، وكان رسول الله ﷺ يؤانسهم ويجلس معهم ويأكل معهم ويحث الناس على إكرامهم و [معرفة] فضلهم.

وقد ذكرهم الله تعالى في مواضع من القرآن منها قوله عز وجل: ﴿للفقرَاء الذينَ أحصرُوا في سَبيلِ الله﴾(1) الآية وقوله: ﴿ولا تطرُد الذينَ يَدْعونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية وقوله: ﴿واصْبِرْ نفسكَ مَعَ الذينَ يدْعونَ ربَّهم﴾(2) الآية.

وقد عاتب الله تعالى نبيه ﷺ فيهم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿عَبَسَ وتَوَلَّى * أن جاءهُ الأعمى﴾(3)، قيل: نزلت في شأن ابن أم مكتوم ﷺ، وكان من أهل الصفة، فكان إذا رآه رسول الله ﷺ بعد ذلك يقول: [١٢٤] «يا من عاتبني فيه ربي عز وجل».

ويقال: إن رسول الله ﷺ [١٢٥] «كان لا يقوم من مجلسه إذا جلس أهل الصفة حوله حتى يقومون، وكان إذا صافحهم لم ينزع يده من أيديهم قبلهم، وربما كان يفرقهم على أهل الجِدَّات والسعة على كل واحد على مقداره، يبعث بهم مع واحد ثلاثة، ومع الآخر الأربعة والخمسة، قال فربما كان ينقلب سعد بن معاذ ﷺ، بثمانين منهم إلى بيته فيطعمهم.

وقال أبو هريرة ﷺ: رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب منهم من لا يبلغ ركبتيه، فإذا ركع أحدهم قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته.

---

(1) البقرة: ٢٧٤. (2) الكهف: ٢٨.
(3) عبس: ١، ٢.

حتى يكـرهوا المدحة والثـناء، وأن ينالوا الملامـة فى الله تعالى؛ وقـال كعب ﷺ: لن يستكمل العبد أجر الحج والجهاد حتى يصبر على الأذى.

وأما حارثة ﷺ، فـقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: [١٢٩] «من أراد أن ينظر إلى عبد نوّر الله تعالى الإيمان فى قلبه فلينظر إلى حارثة ﷺ».

وأما أبو هريرة ﷺ، فإن ثعلبـة بن أبى مالك قال: رأيت أبا هريرة ﷺ، وهو يحمل حـزمة حطب وهو يومئذ خـليفة مروان بن الحكم، فـقال: أوسع الطريق للأمير يا بن أبى مالك، فقلت: أصلحك الله تُكْفَى هذا، فقال: أوسع الطريق للأمير يا بن أبـى مالك؛ وروى أنه بكى لما حضرته الوفـاة، فقيل له: ما يبكيك؟ قـال: بُعْدُ المـفازة، وقلة الزاد، وضعف اليـقين، وعـقبة كـئود، والمـهبط منهـا إلى الجنة أو النار؛ وقـال أبو هريرة ﷺ: جـزأت الليل ثلاثة أجزاء ثلثًا أصلى وثلثًا أنام وثلثًا أستذكر [فيه] حديث رسول الله ﷺ.

وأمـا أنس بن مالك ﷺ، فـروى عنه أنه قال: إن أول من يرد الحـوض يوم القيامة الذابلون الناحلون الذين إذا جنهم الليل استقبلوه بحزن.

وأما عبـد الله بن عمر ﷺ، فروى عنه أنه كان يقـول: ما كنا ننام ونحن عُـزّاب فى أيام رسـول الله ﷺ إلا فى المسـجـد، ولم يكن لنا مـسكن ولا مـأوى، وروى عنه أنه قـال: لا تحـبب أبدًا من تثق بدينه، وكـان يقـول: لا تطعمـوا طعامكم إلا كل تقى [نقىّ] ولا تأكلوا إلا من طعـام تـقى نقى، وعن ابن عمـر ﷺ أنه قال: إنما سُلّط على ابن آدم من يخـافه، ولو لم يخف ابن آدم إلا الله لم يسلط الله تعالى عليه شيئًا.

وأما حذيفة بن اليمان ﷺ، فروى عنه أنه قال: إن أقرّ يوم لعينى ليومٌ إذا

باب فى ذكر سائر الصحابة فى هذا المعنى

قال الشيخ، رحمه الله: وأما طلحة بن عبيد الله ﷺ، فقد روى زياد بن حُدَير أنه قال: رأيت طلحة بن عبيد الله ﷺ، فوق مائة ألف فى مجلس وإنه ليخيط طرف إزاره بيده.

وأما معاذ بن جبل ﷺ، فقد روى عنه الحارث بن عُميرة، قال: إنى لجالس عند معاذ بن جبل ﷺ، وهو يجود بنفسه ويقول: اخنق خَنقَك فوعزتك إنى لأحبك.

وأما عمران بن حصين ﷺ، قال: وددت أنى كنت ترابًا تذرونى الرياح ولم أخلق مخافة العذاب.

وقال ثابت البنانى، رحمه الله: أنه - يعنى عمران بن حصين ﷺ - اشتكى بطنه ثلاثة وثلاثين سنة، فدخل عليه أصحابه يعودونه فقالوا: يمنعنا من الدخول عليك طول شكايتك، فقال: لا تفعلوا [ذلك] فإن أحبَّهُ إلى ربى أحبه إلى.

وأما سلمان الفارسى ﷺ، فقد قيل: إنه لما نزلت هذه الآية ﴿وإنَّ جَهنمَ لَموْعدهُمْ أجمعينَ﴾[1] صاح صيحة ووضع [يده] على رأسه، ثم خرج هاربًا ثلاثة أيام.

وفى الخبر أن سلمان ﷺ، زار أبا الدرداء ﷺ، من العراق إلى الشام راجلا وعليه كساء غليظ مضموم الرأس شاحبًا، فقيل له: شهرت نفسك، فقال: الخير خير الآخرة وإنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبيد، فإذا أعتقت لبست جبة لابتلاء محاسنها.

---

(١) الحجر: ٤٣

وأما عدى بن حاتم رضي الله عنه، فروى عنه أنه ربما كان يفت الخبز للنمل ترحمًا عليهم.

وأما أبو رافع رضي الله عنه، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى عن ابن عمر رضي الله عنه، أنه قال: قال رجل: يا رسول الله أى الناس أفضلُ؟ قال [١٣٠] «كل مخموم القلب صدوق اللسان» قيل: يا رسول الله، وما مخموم القلب؟ قال: [١٣١] «التقى النقى الذى لا كدر فيه [ولا بغى] ولا حسد، الذى يشنأ الدنيا ويحبّ الآخرة» قالوا: فما نعرف فينا [مثل] ذلك غير أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنه.

وأما محمد بن كعب رضي الله عنه، فإنه ذكر عنه أنه قال: إذا أراد الله بعبد خيرًا [جَعل فيه ثلاث خلال] فقهه فى الدين، وزهده فى الدنيا، وبصره عيوب نفسه.

وأما زُرارة بن أوْفَى رضي الله عنه، فإنه رُوى عنه أنه أَمّ فى مسجد بنى قشير فقرأ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾[1] فخر ميتًا.

وأما حنظلة الكاتب رضي الله عنه، فإنه روى عنه أنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا الجنة والنار حتى كأنها رأى العين، فعدتُ إلى أهلى فضحكت ولقيت الناس فقلت: نافقَ حنظلة، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما لك؟ فأخبرته، فقال: إنا لنفعله أيضًا، فذهب حنظلة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك، فقال: [١٣٢] «يا حنظلة، لو كنتم فى بيوتكم كما تكونون عندى لصافحتكم الملائكة على فرشكم» أو كما قال [١٣٣] «يا حنظلة ساعة وساعة».

وأما اللجاج ـ قال الشيخ: وكنيته أبو كثير هكذا فى كتاب أبى داود

(١) المدثر: ٨- ٩.

وأما عبد الله بن مسعود ﷺ، فإنه رُوى عنه أنه كان يقول: يا حبذا المكروهان: الموت والفقر، فما أبالي بأيهما ابتدئت؛ وروى أن فى بيته كانت عشاش الخطاطيف، وكان له بنون فقيل له: لو نقضت هذه العشاش، فقال: والله لئن نفضت يدى من تراب قبورهم - يعنى أولاده - أَحَبُّ إلىَّ من أن أكسر من عشاش هذه الخطاطيف بيضة واحدة.

وأما البراء بن مالك فقد روى عن أنس بن مالك ﷺ، أنه قال: دخلتُ على البراء بن مالك، ﷺ، وقد مال برجليه على الحائط وهو يترنم بالشعر فقلت: يا أخى أَبعدَ الإسلام والقرآن؟ فقال: يا أخى ديوانُ العرب، ثم قال: أترانى أموتُ على فراشى وقد قتلتُ تسعة وتسعين مبارزًا بين يدى رسول الله ﷺ سوى ما أُشركتُ [فيه] فلما كان يوم شهرك مَلِكَ تُسْتُرَ قال أبو موسى الأشعرى ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [١٢٨] «كم من ذى طِمْرَين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك ﷺ» فقال البراء: اللهم فإنى أقسم عليك لما رزقتنى الشهادة ورزقت أصحابى الفتح، قال: فاستشهد البراء، وفتح الله عليهم.

وأما عبد الله بن العباس ﷺ، فإنه روى عنه أنه كان يقول: أفضلُ المجالس مجلس فى قعر بيتك حتى لا تَرَى ولا تُرَى؛ وروى عنه أنه كان يقول إن الله تعالى ليبتلى العبد بالفقر شوقًا إلى دعائه؛ ويقال: إن هذا الموضع يعنى خده [كان] مثل شراك النعل من كثرة الدمع، يعنى ابن عباس ﷺ، و [روى] عنه أنه قال: لأن أرقع ثوبًا فألبسه فيرفعنى عند الخالق أحب إلىَّ من أن ألبس ثيابًا تضعنى عند الخالق، وترفعنى عند المخلوقين.

وأما كعب الأحبار ﷺ، فقد روى عنه أنه قال: لن ينالوا شرف الآخرة

قال عبد الله: كنت أنظر إلى مصعب فتدمع عينى رقة عليه، وكنت رأيته بمكة فى الرفاهية وكان على رأسة ثلة من الشعر، قال: فكنت أمر إلى بعض حيطان المدينة فأعمل فى السوانى إلى الأدلى على مد من التمر فأحمله إلى مصعب بن عمير، ومر مصعب يومًا إلى رسول الله ﷺ [١٣٥] فلم يجد عند رسول الله ﷺ إلا قطعة حيس، فأكل بعضها، وحمل النصف الآخر إلى عبد الله بن ربيعة.

وروى أن رسول الله ﷺ آخى بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع رضي الله عنهما، وكان لسعد امرأتان فقال سعد: أقاسمك مالى وأنزل عن إحدى امرأتى حتى تزوج بها، فلم يفعل ذلك عبد الرحمن، وقال: دلونى على السوق، فدخل السوق وكسب حتى جمع شيئًا من التمر والسمن والأقط، وروى عنه أنه نزل برسول الله ﷺ [١٣٦] ضيف فلم يجد أهله شيئًا فدخل علية رجل من الأنصار فذهب إلى أهله، ووضع بين يديه الطعام، وقال لامرأته: أطفئى السراج، وجعل يمد يده كأنه يأكل حتى أكل الضيف الطعام، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: [١٣٧] «لقد عجب الله تعالى من صنعتكم إلى ضيفكم» ونزلت هذه الآية **﴿ويؤثرونَ علَى أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ﴾**[1].

وروى عن [ابن] عمر رضي الله عنهما، أنه [قال]: أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ [١٣٨] رأسُ شاة، فقال: إن أخى كان أحوج إليه منى، فبعث إليه، فلم يزل يبعث الواحد الى الآخر حتى تناوله سبعة أبيات فرجعت إلى الأول، قال: ونزلت فيهم هذه الآية: **﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾**.

---

(١) الحشر: ٩.

رجعت إلى أهلى فيشكون إلىّ الحاجة، وقال حذيفة ﵁، كم من شهوة ساعة أورثت صاحبها حزنًا طويلا؛ ودعى حذيفة إلى مائدة فرأى عليها زى العجم فانصرف وهو يقول: من تشبه بقوم فهو منهم.

وأما عبد الله بن جحش ﵁، فروى سعيد بن المسيب رحمه الله، قال: قال عبد الله بن جحش ﵁، يوم أحد: اللهم إنى أقسم عليك أن ألقى العدو، وإذا لقيت العدو أن يقتلونى ثم يبقروا بطنى ثم يمثلوا بى، فإذا لقيتك قلت: فيم قتلت؟ فأقول: فيك، قال: فلقى العدو فقتل وفعل به ذلك.

وأما صفوان بن محرز المازنى فإنه كان يقول: إذا أويت إلى أهلى وأصبت رغيفًا أكلته فجزى [الله] الدنيا عن أهلها شرا، وما زاد على ذلك إلى أن خرج من الدنيا.

وأما أبو فروة فإنه رجل من أصحاب رسول الله ﷺ كان مولى لبنى سليم سار ميلا لم يذكر الله تعالى فيه فرجع حتى [سار فيه] ذاكرًا لله تعالى، فلما بلغ منتهاه قال: اللهم لا تنس أبا فروة [فإن أبا فروة] ليس ينساك.

وأما أبو بكرة ﵁ فإنه أغمى عليه عند قبر فصرخوا عليه فلما أفاق قال: ما من نفس تخرج ولا نفس دابة [إلا وهى] أحب إلىّ من نفسى، قيل له: ولم؟ قال: إنى أخاف أن أبقى إلى زمان لا آمرُ فيه بالمعروف ولا أنهى عن المنكر.

وأما عبد الله بن رواحة ﵁، فذكر عنه أنه بكى فبكت امرأته، فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: إنك بكيتَ فبكيتُ، قال: إنى أنبئتُ أنى وارد النار ولم أنبأ أنى صادر.

وأما تميم الدارى فذكر عنه أنه قام ليلة إلى الصباح يبكى ويقرأ هذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ الذينَ اجترَحُوا السَّيئات﴾ الآية.

كتاب آداب المتصوفة

باب في ذكر الآداب

قال الشيخ، رحمه الله: قال الله تعالى ﴿يأيها الذينَ آمنوا قوا أنفسكُمْ وأهْليكُم نَاراً﴾[1] وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال في تفسيره: يعنى أدبوهم وعلموهم تقوهم بذلك من النار، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «ما نحلَ والدٌ ولداً أفضل من أدب حسن» وروى عن النبى ﷺ أنه قال «إن الله أدبنى فأحسنَ أدبى».

قال الشيخ، رحمه الله: موضع تخصيصه بالأدب من جملة الأنبياء، عليهم السلام بقوله فأحسن أدبى، وإلا فجميع الأنبياء عليهم الصلاة السلام كانوا ممن أدبهم الله تعالى.

وروى عن محمد بن سيرين أنه سئل: أى الآداب أقربُ إلى الله تعالى، وأزكى للعبد عنده؟ قال: معرفة بربوبيته، وعمل بطاعته، والحمد لله على السراء، والصبر على الضراء.

وقيل للحسن بن أبى الحسن البصرى رحمه الله: أكثر الناس تعلم الآداب فما أنفعها عاجلا، وأوْصلها آجلا؟ قال: التفقه فى الدين فإنه يصرف إليه قلوب المتعلمين، والزهد فى الدنيا فإنه يقربك من ربّ العالمين، والمعرفة بما لله عليك يحويها كمال الإيمان.

وقال سعيد بن المسيب، رحمه الله: من لم يعرف ما لله تعالى عليه فى نفسه ولم يتأدب بأمره ونهيه، كان من الأدب فى عزلة.

(١) التحريم: ٦.

السجستانى - صاحب رسول الله ﷺ فإنه روى عنه أنه قال: أسلمت مع النبى ﷺ وأنا ابن خمسين سنةً، ومات اللجاج وهو ابن عشرين ومائة سنة، وقال: ما ملأت بطنى من طعام منذ أسلمتُ مع رسول الله ﷺ، آكلُ حسبى وأشرب حسبى.

وأما أبو جحيفة ﷺ، فإنه روى عنه أن امرأته استخبأت ثلاثين درهمًا فنسيتها حتى مضت لها سنة، ثم إنها ذكرتها، فقال لها: يا أخت هذيل اعتدى، بئس حشوة البيت أنت، لو مت لعددت عند الله من الكنازين، إن نبى الله ﷺ مات، وعهده بين أعيننا جديدًا، لم يترك دينارًا ولا درهما ولا فلسًا ولا برا ولا شعيرًا.

وأما حكيم بن حزام ﷺ، فإنه روى عنه أنه قال: ما أصبحت ذا صباح قط لم أر عندى طالب حاجة ولا مستعينًا على أمر إلا عددته من المصائب التى أسأل الله تعالى الأجر عليها.

وأما أسامة ﷺ، فإنه روى عنه أنه اشترى فرسًا إلى شهرين، فقال النبى ﷺ لما بلغه ذلك [١٣٤] «إن أسامة لطويلُ الأمل».

وأما بلال وصهيب ﷺ فإنه روى عنهما أنهما أتيا قبيلة من العرب فخطبا إليهم فقيل لهما: من أنتما؟ فقالا: بلال وصهيب، كنا ضالين فهدانا الله تعالى: وكنا مملوكين فأعتقنا الله تعالى، وكنا عائلين فأغنانا الله تعالى فإن تزوجونا فنحمد الله وإن تردونا فسبحان الله، فقالوا: تزوجون والحمد لله، فقال: صهيب لبلال: هلا ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله ﷺ؟ فقال بلال: اسكت فقد صدقت فأنكحك الصدق.

وأما عبد الله بن ربيعة ومُصعب بن عمير ﷺ، فكانا متواخيين.

واستواء السر مع الإعلان، وحسن الأدب فى مواقف الطلب ومقامات القرب وأوقات الحضور والقرب والدنو والوصلة.

سمعت أحمد بن محمد البصرى رحمه الله يقول: سمعت الجلاجلى البصرى يقول: التوحيد موجب يوجب الإيمان فمن لا إيمان له لا توحيد له، والإيمان يوجب الشريعة، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له، والشريعة توجب الأدب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا توحيد.

وسئل أبو العباس بن عطاء رحمه الله: ما الأدب فى ذاته؟ فقال: الوقوف مع المستحسنات؟ فقال: أن تعامل الله تعالى بالأدب سرا وإعلانًا، فإذا كنت كذلك كنت أديبا وإن كنت أعجميا، ثم أنشد ابن عطاء فى هذا المعنى.

إذا نطقتْ جاءتْ بكلِّ ملاحةٍ وإن سكنتْ جاءتْ بكلِ جميلِ

قال الشيخ رحمه الله: فالصوفية لهم آداب فى سفرهم، وآداب فى أوقاتهم وأخلاقهم، وآداب فى سكونهم وحركاتهم، وهم مختصون بها من غيرهم ومعروفون بها عند أشكالهم وعند أبناء جنسهم؛ يعرف بذلك تفاضل بعضهم على بعض.

وبهذه الآداب تميز بين الصادقين والكاذبين والمدعين والمحققين، وقد بينا طرفًا من آدابهم فى كل باب من هذه الأبواب التى ذكرنا على الاختصار لينظر الناظر فيه، ويقف على ذلك إن شاء الله تعالى.

قال الشيخ، رحمه الله تعالى: ومثل هذا كثير فى الأخبار عن الصحابة وما منهم أحد إلا وله تخصيص فى معان من هذا النوع الذى ذكرْنا، والمؤمنون مندوبون إلى التعلّق بمثل هذه الأفعال والتخلّق بأخلاقهم فيما أتوا به من أنواع الطاعات ونطقوا به من [أنواع] الحِكَم، وقد ذكرْنا القليل من الكثير والمراد من هذه الأخبار التى ذكرناها عن هؤلاء الصحابة: إشارةٌ ولطافةٌ تخصيصًا لأهله، وله بيان وشرح كشرح مَنْ تقدّم ذِكْرُهُ فى أوّل الباب باب الأئمة الأربعة: أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ﷺ أجمعين، ولا يخفى على المتأمّل والمتدبّر بالنظر فيه بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

﴿فإذا جاءَ أَجلهُمْ لايستأخرونَ ساعةً وَلا يستقدمونَ﴾[1] يريدون بذلك إن جاءهم الموت بغتة يخرجوا من الدنيا على الطهارة.

سمعت الحصرى رحمه الله، يقول: ربما أنتبه بالليل فلا يحملنى النوم إلا بعدما أقوم وأجدد الوضوء، قال الشيخ، رحمه الله تعالى: وذلك أنه كان ينام على الطهارة، فإذا انتبه وقد نقضت طهارته جدد، فقد أدب نفسه بذلك أن لا يحمله النوم وهو على غير طهارة، وكان شيخ من المشايخ الأجلة به وسوسة فى الوضوء، وكان يكثر صب الماء، فسمعته يقول: كنت ليلة من الليالى أجدد الوضوء لصلاة العشاء، وكنت أصب الماء على نفسى حتى مضى شطر من الليل، فلم يطب قلبى، ولم يذهب عنى الوسوسة، فبكيت، فقلت: يا رب العفو، فسمعت هاتفًا يقول: يا فلان، العفو فى العلم يعنى فى استعمال العلم.

وقال أبو نصر هو أبو عبد الله الروذبارى رحمه الله:

ويقال إن الشيطان يجتهد فى أن يأخذ نصيبه من جميع أعمال بنى آدم فلا يبالى أن يأخذ نصيبه بأن يزدادوا فيما أمروا به، أو ينقصوا منه، وذكر عن ابن الكريتى، وكان أستاذ الجنيد رحمه الله، أنه أصابته الجنابة ليلة من الليالى، وكانت عليه مرقعة ثخينة غليظة (كانت فرد كمه وتخاريزه عند جعفر الخلدى وكان فيه أرطال قال) فجاء إلى الشط ليلة، وكان برد شديد، فحرنت نفسه عن الدخول فى الماء لشدة البرد، قال: فطرح نفسه فى الماء مع المرقعة، ولم يزل يغوص فى الماء مع مرقعته ثم خرج من الماء، وقال: اعتقدت أن لا أنزعها من بدنى حتى تجف على، قال: فلم تجف عليه شهرًا كاملا، وأراد بذلك تأديبًا لنفسه: لأنها حرنت عند الائتمار لما أمر الله تعالى به من غسل الجنابة.

(١) الأعراف: ٣٤.

وقال كلثوم الغسانى: أدبان أدب قول وأدب فعل، فمن رفق لنفسه فى أدبه بقوله عدم ثواب العمل، ومن تقرب إلى الله تعالى بأدب فعله منحه محبة القلوب، وصرف عنه العيوب، وجعله شريكًا فى ثواب المتعلمين.

وروى عن ابن المبارك، رحمه الله، أنه قال: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم؛ وقال ابن المبارك، رحمه الله، أيضًا: الأدب للعارف بمنزلة التوبة للمستأنف.

قال الشيخ رحمه الله: الأدب سند للفقراء وزين للأغنياء، والناس فى الأدب متفاوتون وهم على ثلاث طبقات: أهل الدنيا، وأهل الدين، وأهل الخصوصية من أهل الدين، فأما أهل الدنيا فإن أكثر آدابهم فى الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم، وأسمار الملوك، وأشعار العرب، ومعرفة الصنايع.

وأما أهل الدين فإن أكثر آدابهم فى رياضة النفوس، وتأديب الجوارح، وطهارة الأسرار، وحفظ الحدود، وترك الشهوات، واجتناب الشبهات، وتجريد الطاعات، والمسارعة إلى الخيرات.

وقد حكى عن سهل بن عبد الله رحمه الله أنه قال: من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله تعالى بالإخلاص، وقال سهل أيضًا رحمه الله: استعانوا بالله على أمر الله فصبروا على أدب الله تعالى ويقال: إن أفضل الآداب التوبة، ومنع النفوس عن الشهوات، وسئل بعضهم عن أدب النفس فقال أن تعرفها الخير فتحثها عليه وتعرفها الشر فتزجرها عنه؛ ويقال: إن الأدب كمال الأشياء لا يصفو إلا للأنبياء والصديقين.

قال الشيخ رحمه الله: فأما أدب أهل الخصوصية من أهل الدين فإن أكثر آدابهم فى طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار؛ والوفاء بالعقود بعد العهود؛ وحفظ الوقت؛ وقلة الالتفات إلى الخواطر والعوارض والبوادى والطوارق،

وقت واحد إذا خلا الموضع حتى لا يراه أحد إذا دخل الخلاء أو خرج منه، ورأيت أيضًا من كان قد عوَّد نفسه وأدَّبها حتى كان لا يخرج منه ريح إلا فى وقت البراز وهو فى البادية وفى مواضع الخلوة، وكان إبرهيم الخواص رحمه الله ، يخرج من مكة وحده، فيجىء إلى الكوفة، فلا يحتاج أن يتيمم بالتراب، وكان يحفظ الماء الذى يحمل لشربه حتى يتوضأ به .

وكان جماعة من الشيوخ يكرهون دخول الحمام إلا فى أوقات الضرورة فإذا اضطروا إلى ذلك لم يدخلوا إلا فى حمام خال، فإذا دخلوها لم يحلوا إزارهم إلى أن يخرجوا، ولم يتركوا أن يمسهم القوام ويعطوهم طمعهم من غير أن يدنو منهم حتى يوسعوا عليهم الماء، فإذا كانوا جماعة دلكوا بعضهم بعضًا، فإن كان فى الحمام غيرهم استقبلوا بوجوههم الحائط حتى لا تقع أعينهم على عورات الناس، وكان جماعة من المتصوفة إذا دخلوا الحمام لا يتركون أحدًا يدخل معهم إلا بإزار.

والاستحباب: نتفُ الإبط وحلق العانة، فمن لم يحسن الحلق فليتنور بيده فى الخلوة.

وكان أصحاب سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى يحلقون رءوسهم بعضهم لبعض كما بلغنى عنهم.

وسمعت عيسى القصار الدينورى رحمه الله تعالى، يقول: أول من قص شاربى بيده الشبلى رحمه الله تعالى، وكنت أخدمه، قال الشيخ رحمه الله تعالى: وفرق الرأس اختاره جماعة للسنة ويكره ذلك للشباب، ويحسن بالمشايخ إن أرادوا بذلك استعمال السنة.

وكان يقول: بعض المشايخ هب أن الفقر من الله تعالى، فما بال الوسخ، وأحب الأشياء إلى المتصوفة النظافة، والطهارة، وغسل الثوب، والمداومة على السواك، والنزول عند المياه الجارية والفضاء الواسعة والمساجد التى فى

باب آدابهم فى الوضوء والطهارات

قال الشيخ رحمه الله، فأول أدب يحتاج إليه فى باب الوضوء والطهارات: طلب العلم وتعلمه، ومعرفة الفرائض والسنن، وما يستحب وما يكره من ذلك، وما أمر به وما ندب وما رغب فيه للفضيلة.

وتفصيل ذلك لا يوقف عليه إلا بالعلم والسؤال، والبحث عليه، والاهتمام له حتى تأتى به على موافقة الكتاب والسنة، بالاحتياط، واتباع الأحسن والأتم، ورفع الملامة وترك الإنكار بالقلب على من لم يأخذ بالاحتياط والأشد: لأن الله تعالى: يحب أن يؤخذ برخصه، كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، وسائر الناس لهم اشغال وأسباب لا بد لهم من السعى فيها والاهتمام بها، فإن أخذوا بالرخص وما فيه السعة فيهم معذورون.

وأما المتصوفة ومن ترك الأسباب، وخرج عن الاشتغال، وفرغ نفسه للعبادة والزهد، فلا عذر له فى ترك التوقى والتنقى والاهتمام بإسباغ الوضوء والتمسك بالاحتياط والأتم فى أبواب الطهارة والنظافة، فمن ليس له شغل غير ذلك فعليه أن يبذل مجهوده على قدر استطاعته فى ذلك، لقول الله تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾[1] وقد رأيت جماعة كانوا يجددون الوضوء لكل صلاة، فيقومون إلى الوضوء قبل دخول وقت الصلاة حتى إذا فرغوا من وضوئهم يكون قيامهم إلى الصلاة متصلا بفراغهم من الوضوء.

ومن آدابهم فى ذلك أيضًا أن يكونوا، دائما على الطهارة فى سفرهم.

وأصلهم فى ذلك أنهم لا يدرون متى تأتيهم المنية، لقول الله تعالى:

(١) التغابن: ١٦.

والطهارة، وكان هذا أبو عبد الله الرازى المقرى، وحكى عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنه كان به قيام فقام فى ليلة واحدة نيفًا وسبعين مرة، وكل مرة يجدد وضوءه ويصلى ركعتين، ومات إبراهيم الخواص رحمه الله فى جامع الرى فى وسط الماء، وذلك أنــه كان به علة البطن، فكان يدخل المــاء ويغسل نفــسه، فدخل مرة فى الماء ليغسل نفسه فخرجت نفسه وهو فى وسط الماء.

فهذا ما حضرنى فى الوقت من آداب أهل الصفوة من الصوفية فى الوضوء والطهارة، وبالله التوفيق.

وكان سهل بن عبد الله رحمه الله، يحث أصحابه على كثرة شرب الماء، وقلة صب الماء على الأرض، وكان يقول إن الماء له حياة، وموته أن تصبه على الأرض، وكان يرى أن فى كثرة شرب الماء ضعف النفس وإماتة الشهوات، وكسر القوة.

وأقام أبو عمرو الزجاجى رحمه الله، بمكة سنين كثيرة وهو مجاور بها، وكان إذا أراد أن يقضى حاجته يخرج من الحرم، وهو مقدار فرسخ، وكان لا يتغوط فى الحرم، كما بلغنى، ثلاثين سنة.

وكان إبراهيم الخواص رحمه الله، إذا دخل البادية لا يحمل معه إلا ركوة من الماء، وكان لا يشرب منها إلا القليل، وكان يحتفظ بذلك للوضوء، ويؤثر الوضوء بالماء على الشرب عند العطش.

قال الشيخ، رحمه الله تعالى: ورأيت جماعة يمشون على شطوط الأنهار، ولا يفارقهم الماء فى ركوتهم، أو فى كوز، وذلك أنه ربما كان يشتد بهم البول، ولا يمكنهم الجلوس على شط النهر وكشف العورة من أجل الناس، فإذا كان معهم ركوة أو كوز عدلوا إلى خلوة، فيكون أصون لأنفسهم.

وكانوا يكرهون كثرة الدلك عند البول، لأنه ربما يسترخى العروق فلا يمسك البول، ويتولد منه التقطير المفرط، وكذلك تكره الشدة إلا عند عوز الماء والاضطرار، ولبس السراويل أحب [إلى] من الإزار بعد الطهارة، والإزار أخف لنزعة عند التهيؤ ويجتنب لبس جميع ما يخرز بشعر الخنزير قل أو كثر، رطبًا كان أو يابسًا، لذلك اختاروا لبس النعال، ويقال إن الصوفى إذا رأيته وليس معه ركوة أو كوز فاعلم أنه عزم على ترك الصلاة وكشف العورة، شاء أو أبى، ورأيت من أقام بين ظهرانى جماعة من النساك وهم مجتمعون فى دار، فما رآه أحد منهم أنه كان قد أدب نفسه وعوّدها القيام إلى الحاجة فى

ويعتبر ذلك بمقدار قامته إذا لم يكن معه مقياس لذلك، ويعلم ذلك فى أى موضع كان بظل شخصه، ويعتبره بقدمه، وكذلك يحتاج إلى معرفة شىء من النجوم، ومنازل القمر وطلوعها وغروبها ونوبة طلوع كل نجم من منازل القمر، حتى إذا نظر بالليل إلى النجوم لا يخفى عليه ما مضى من الليل وما بقى إلى الصبح، ويحتاج أيضًا إلى معرفة القطب والكواكب التى يستدل بها على القبلة، ولا يصح له ذلك إلا بالاجتهاد، ومعرفة سمت كل بلدة حتى أين تقع من الكعبة، ولا يقف على صحة ذلك إلا بعد افتقاده ذلك بمكة، ورجوعه إلى البلدة التى قد عرف أين يقع سمتها من الكعبة وأين كان ذلك فى وقت معلوم من محاذاة القطب والجدى والفرقدين، وأما النجوم السيارات فينبغى أيضًا أن يعلم ذلك؛ للاستدلال والاهتداء بالليل، فإنه ربما يقع فى المفاوز، ويركب البحور فيحتاج إلى معرفة ذلك.

وكان سهل بن عبد الله رحمه الله، يقول: علامة الصادق أن يكون له تابع من الجن إذا دخل وقت الصلاة يحثه على ذلك، وإن كان نائمًا ينبهه.

ومنهم من يكون له أوراد بالليل والنهار من العبادة والذكر وتلاوة القرآن على ممر أيامه، وتصير عادته حتى لا يغلط فى ذلك ليله ونهاره حيثما كان.

وأما آداب الدخول فى الصلاة، بعدما تأهب، إذا دخل أول الوقت، وأراد الدخول فى الصلاة: فتحريمها بالتكبيرة المقرونة بتكبير الإحرام مع النية من حيث لا تسبق النية التكبيرة، ولا التكبيرة النية ويكونان معًا.

وقد حكى عن الجنيد رحمه الله أنه قال: لكل شىء صفوة، وصفوة الصلاة التكبيرة الأولى، والمعنى فى ذلك أن التكبيرة الأولى هى مقرونة بالنية التى لا تجوز الصلاة إلا بها، وهو عقدك بأن صلاتك لله عز وجل، فإذا صح العقد فما دخل بعد ذلك فى صلاتك من الآفات الباطنة لم يفسد الصلاة، بل ينقص من فضلها، ويبقى للمصلى عقدها ونيتها.

الأطراف، والخلوة، والاغتسال فى كل يوم جمعة فى الشتاء والصيف، والرائحة الطيبة، وأطيب الطيب: الماء الجارى، والمداومة على الاغتسال، وتجديد الوضوء، وإسباغ الوضوء[1].

وليس من الوسوسة ما يستقصى الإنسان فى طهارته من التباعد وطلب الماء الجارى، وترك المياه المتغيرة، والتفتيش على المواضع الطاهرة والاستقصاء على ذلك للأعضاء الظاهرة، وافتقاد الأعضاء الباطنة، ومواضع التشنيج والانضمام، وإبلاغ الماء الخياشيم، وإمرار الماء على الأعضاء وجميع البشرة فى الغسل والوضوء وغير ذلك، وليس التوقى والتنقى من الوسواس المنهى عنه أيضًا لأن جميع ذلك داخل فى قوله: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾.

وإنما الوسوسة المنهى عنها ما يخرجك عن حد العلم: وهو أن تشغلك الفضائل عن الفرائض، وأن تخالف العلم، وتبطل صلاة من يتوضأ بالمد، ويغتسل بالصاع.

والصواب فى ذلك أن يكون العبد فى كل وقت بما هو أولى بالوقت، إذا وجد الماء فيسبغ وضوءه على الاحتياط حتى يطيب قلبه، وإذا لم يجد الماء الواسع فيحسن أن يجدد الوضوء، أو يتطهر بقليل من الماء كما روى فى الخبر: أن أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام كانوا يتوضئون وضوءًا لا يلت منه التراب.

قال الشيخ رحمه الله ورأيت من كان على وجهه قرحة لم تندمل اثنتى عشرة سنة: وذلك أن الماء كان يضره، وكان لا يدع تجديد الوضوء عند كل صلاة، ورأيت من نزل الماء فى عينيه، فحملوا إليه المداوى، وبذلوا له دنانير كثيرة على أن يداويه، فقال المداوى: يحتاج أن لا يمس الماء أيامًا، ويكون مستلقيًا على قفاه، فلم يفعل ذلك، واختار ذهاب بصره على ترك الوضوء

(١) من سنن الإسلام الجميلة، ومن فروضه الواجبة فى ظروف مختلفة التطهير، ولقد أجاد المؤلف فى هذه الفقرات كل الإجادة وكما يحب الله التوابين فإنه يحب المتطهرين.

الله أكبر، ثم إنه إذا أخذ فى التلاوة فالأدب فى ذلك: أن يشاهد بسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى، أو كأنه يقرأ على الله تعالى.

قال: أبو سعيد الخراز رحمه الله: وفيه العلم الجليل لأهل الفهم، وإذا ركع فالأدب فى ركوعه: أن يَنْصَبَ ويدنو ويتدلى حتى لا يبقى فيه مفصل إلا وهو منتصب نحو العرش، ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون فى قلبه شىء أعظم من الله عز وجل ويصغر نفسه حتى يكون أقل من الهباء، فإذا رفع رأسه وحمد الله يعلم أنه هو ذا يسمع ذلك، وإذا سجد فالأدب فى سجوده: أن لا يكون فى قلبه عند السجود شىء أقرب إليه من الله تعالى، لأن أقرب ما يكون العبد من ربه عند السجود، فيجب أن ينزهه عن الأضداد بلسانه، ولا يكون فى قلبه أجلُّ منه، ولا أعز منه، ويتم صلاته على هذا، ويكون معه من الخشية والهيبة ما يكاد يذوب، ولا يكون له فى صلاته شغلٌ أكثر من شغله بصلاته حتى لا يشتغل بشىء غير الذى هو واقف بين يديه فى صلاته، وكذلك إذا تشهد ودعا وسلم، كل ذلك يعقل ما يقول، وما يخاطب، ولمن يخاطب، حتى يخرج من الصلاة بالعقد الذى قد دخل فى الصلاة.

فهذا ما وجدت فى كتاب أبى سعيد الخراز رحمه الله.

ورأيت جماعة كانوا يكرهون تطويل الصلاة، ويحبون التخفيف لمبادرة الوسواس حتى يخرج من صلاته على النية والعقد الذى دخل به فيها.

باب فى ذكر آدابهم فى الصلاة

قال الشيخ رحمه الله: وأما آدابهم فى الصلاة فأول ذلك: تعلُّمُ علم الصلاة، ومعرفة فرائضها وسننها وآدابها وفضائلها ونوافلها، وكثرة مساءلة العلماء، والبحث عما يحتاج إليه فى ذلك مما لا يسعه الجهل به: لأن الصلاة عماد الدين، وقرة عين العارفين، وزينة الصديقين، وتاج المقربين، ومقام الصلاة مقام الوصلة، والدنو، والهيبة، والخشوع، والخشية، والتعظيم، والوقار، والمشاهدة، والمراقبة، والأسرار، والمناجاة مع الله تعالى، والوقوف بين يدى الله تعالى، والإقبال على الله تعالى، والإعراض عما سوى الله تعالى.

فأما العامة فلهم أن يقلدوا علماءهم، ويسألوا فقهاءهم، ويعتمدوا على أقاويلهم من الرخص والسعات والفتوى والتأويلات التى أوسع الله تعالى، للخلق.

فأما المتصوفة، وأهل الخصوص الذين باينوا الناس، وانحازوا عن جملة الناس بترك المكاسب، وقطع العلائق، وانقطعوا إلى الله عز وجل، وعُرفوا بالله، ونسبوا إلى الله، فلا يسعهم التخلف عن استعمال الآداب، والاهتمام والتكلف لأحكام الصلاة، وتجويزها، وأحكام فرائضها وسننها وفضائلها ونوافلها وآدابها، لأنهم ليس لهم شغل غير ذلك، ولا ينبغى أن يهمهم أمر أكثر من اهتمامهم بأمر الصلاة.

فأول أدبهم من ذلك: أن يكون تأهبهم للصلاة قبل دخول وقت الصلاة حتى لا يفوتهم الوقت الأول الذى هو المختار، ولا يمكنهم ذلك إلا بمعرفة الوقت الأول لكل صلاة، ولا يقدر على ذلك إلا بمعرفة، وعلم، مع الوقوف على علم الزوال، ومقدار ظل الزوال فى كل وقت وأوان فى كل الأقطار، وأن يعلم على كم تزول الشمس من قدم فى كل وقت وكم يزداد وينقص،

وصلاة الليل والفضائل والسنن والآداب التى كان يستعمل فى الحضر، فكان يقول: أحوال هذه الطائفة ينبغى أن تكون فى السفر والحضر واحدة.

وكان أخ من إخوانى يصطحب فى مكان واحد، فكانت عادته أنه إذا أكل شيئًا يقوم ويصلى ركعتين، وإذا شرب الماء يقوم ويصلى ركعتين، وإذا لبس ثوبًا يقوم ويصلى ركعتين، وإذا دخل المسجد يصلى ركعتين، وإذا أراد الخروج من المسجد يصلى ركعتين، وكذلك إذا فرح أو غضب يقوم ويصلى ركعتين.

وكان جماعة من أصحابنا يسافرون مع أبى عبد الله بن جابان رحمه الله تعالى، فحدثونى عنه أنه كان إذا بلغ إلى الميل فى البادية وأراد التعقب[1] لا يجلس حتى يصلى ركعتين.

ومن آدابهم أيضًا أنهم يكرهون الإمامة والصلاة فى الصف الأول، بمكة وغيرها، ويكرهون التطويل، أما الإمامة، فلو أن أحدهم يحفظ القرآن، فإنهم يختارون الصلاة خلف من يُحْسن أن يقرأ الحمد وسورة أخرى: لأن النبى ﷺ قال [٢٠٢] الإمام ضامن، وأما ترك الصلاة فى الصف الأول فإنهم يريدون بذلك أن لا يزاحموا الناس، ويضيقوا عليهم: لأن الناس يزدحمون، ويطلبون الصف الأول: [٢٠٣] لما جاء فى الخبر من الفضيلة فيه، يريدون بذلك إيثارهم، وإذا كان الموضع خاليًا يغتنمون ذلك الفضل الذى جاء فى الصف الأول.

وأما التطويل فى الصلاة، فكلما طالت الصلاة كثرت الهفوات والوسواس، والاشتغال بتصحيح الأعمال أولى من الاشتغال بكثرتها وتطويلها، وروى عن رسول الله ﷺ: [٢٠٤] أنه كان أخف الناس صلاة فى تمام.

سمعت ابن علوان رحمه الله يقول: كان الجنيد، رحمه الله، لا يترك أوراده من الصلاة على كبر سنه وضعفه، فقيل له فى ذلك، فقال: حال وصلت به إلى الله تعالى فى بدايتى كيف يتهيأ لى أن أتركه فى نهايتى.

(١) فى إحدى النسخ تعليقا على هذه الكلمة: « أن يعقب بأصحابه».

سمعت ابن سالم رحمه الله تعالى، يقول: النية بالله، ولله، ومن الله والآفات التى تدخل فى صلاة العبد بعد النية من العدو، وهو نصيب العدو، وإن نصيب العدو، وإن كثر، لا يوازن بالنية التى هى بالله، ولله، ومن الله، وإن قلت.

وسئل أبو سعيد الخراز رحمه الله، كيف الدخول فى الصلاة؟ فقال: هو أن تُقبل على الله تعالى: كإقبالك عليه يوم القيامة، ووقوفك بين يدى الله تعالى، ليس بينك وبينه ترجمان، وهو مقبل عليك، وأنت تناجيه، وتعلم بين يدى من أنت واقف؟ فإنه: الملك العظيم!!!.

وقيل لبعض العارفين: كيف تكبر التكبيرة الأولى؟ فقال: ينبغى إذا قلت: الله أكبر، أن يكون مصحوب قولك: «الله»: التعظيمَ مع الألف والهيبةَ مع اللام والمراقبةَ والقربَ مع الهاء؛ وقال آخر: إذا كبرت التكبيرة الأولى فاعلم أنه ناظر إلى شخصك، وعالم بما فى ضميرك، ومثِّل فى صلاتك الجنةَ عن يمينك، والنارَ عن شمالك.

ومن آدب الصلاة: أن العبد إذا دخل فى الصلاة فلا يكون فى قلبه شىء غير الله الذى هو بين يديه حتى يعرف كلامه ويأخذ من كل آية ذوقها وفهمها، لأنه ليس من صلاته إلا ما عقل.

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله، فى كتاب له يصف أدب الصلاة، فقال: إذا رفعت يديك فى التكبير فلا يكن فى قلبك إلا الكبرياء[1]، ولا يكن عندك فى وقت التكبير شىء أكبر من الله تعالى: حتى تنسى الدنيا والآخرة فى كبريائه.

قال الشيخ رحمه الله: والمعنى فى ما قال أبو سعيد الخراز رحمه الله أن العبد إذا قال الله أكبر، ويكون فى قلبه شىء غير الله فلا يكون صادقًا فى قوله

(١) أى لله تعالى.

باب ذكر آدابهم فى الزكوات والصدقات

قال الشيخ رحمه الله تعالى: أما آدابهم فى الزكاة فإن الله تعالى جدُّه لم يفرض عليهم الزكاة، لأنه سبحانه قد زوى عنهم من أموال الدنيا ما يجب عليهم فيه الزكاة والصدقة.

وقد حكى عن مطرف بن عبد الله بن الشخير رحمه الله أنه قال: نعمة الله تعالى [علىَّ] فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمة الله تعالى علىَّ فيما أعطانى، وكذلك أهل التصوف نعمة الله تعالى عليهم فيما زوى عنهم من الدنيا [أعظم من نعمته عليهم] فيما أعطاهم إن لو أعطاهم من الدنيا شيئًا كثيرًا، وقد قال فى ذلك بعضهم وهو من أهل الدنيا:

وما وجَبتْ عَلَىَّ زكاةُ مالٍ   وهلْ تجبُ الزكاةُ على كريمِ

يفتخر بذلك ويقول: لم تجب علىَّ زكاة قط، يريد أنه لم يترك حتى يجتمع عنده مالٌ يجب عليه فيه الزكاة.

وبلغنى عن إبراهيم بن شيبان رحمه الله أنه لقى الشبلى رحمه الله وكان إبراهيم ينهى عن الذهاب إليه، والوقوف عليه، واستماع كلامه، فقال للشبلى رحمه الله، وأراد [بذلك] أن يمتحنه: كم فى خمس من الإبل؟ قال: شاة فى واجب الأمر، وفيما يلزمنا نحن: كلها، يعنى: فيما ندعيه من مذهبنا، فقال له إبراهيم: ألك فى هذا إمام؟ قال: نعم، أبو بكر الصديق ﷺ حيث خرج من ماله كله، فقال له النبى ﷺ: ما خلَّفْتَ لعيالك؟ فقال: اللهَ ورسوله، فقام، ولم يَنْهَ الناس بعد ذلك عنه.

فأما آداب جماعة من المتصوفة فى الزكاة: أنهم لا يأكلون منها، ولا

فصل آخر فى آداب الصلاة

قال الشيخ رحمه الله تعالى: وذلك أن العبد إذا كان متأدبًا بأدب الصلاة، قبل دخول وقت الصلاة، فكأنه فى الصلاة، ويكون قيامه إلى الصلاة من حال لا يستغنى عنه فى الصلاة، وذلك أن من آدابهم قَبل الصلاة المراقبة، ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض، وذكر كل شىء غير ذكر الله تعالى، فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة فيبقون مع النية والعقد الذى دخلوا به فى الصلاة، وإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب، والمراعاة، والمراقبة فكأنهم فى الصلاة وإن كانوا خارجين من الصلاة فهذا هو أدب الصلاة.

وقد رُوى عن النبى ﷺ أنه قال: «العبد فى الصلاة ما دام ينتظر الصلاة» فهذا هو الأدب الذى يحتاج إليه المصلى فى صلاته، وفى انتظار الصلاة قبل الصلاة، كما وصفتُ لك إن فهمت ذلك إن شاء الله تعالى.

وقد رأيتُ من إذا قام إلى الصلاة كان يحمر ويصفر وجهه عند التكبيرة الأولى من هيبة الله تعالى ورأيت من كان لا يتهيأ له أن يحفظ العدد، فكان يجلس واحدًا من أصحابه ويعد عليه كم ركعة صلى: لأنه كان يراعى قلبه على ثبات العقد الذى دخل به فى الصلاة فكان يخاف الغلط على نفسه لأنه كان لا يدرى كم ركعة صلاها، فلذلك كان يستعين بمن يعد عليه حتى يتيقن كم ركعة صلاها.

وذُكر عن سهل بن عبد الله أنه كان يضعف، حتى لا يكاد يقوم من موضعه، حتى إذا دخل وقت الصلاة تُرَد إليه قوته، فيقوم فى المحراب مثل الوتد، فإذا فرغ من صلاته يرجع إلى حالة ضعفه، ولا يقدر أن يقوم من موضعه.

ورأيتُ من كان يسافر فى البادية على الوحدة، ولا يترك ورده من التطوع

وصلاة الليل والفضائل والسنن والآداب التى كان يستعمل فى الحضر. فكان يقول: أحوال هذه الطائفة ينبغى أن تكون فى السفر والحضر واحدة.

وكان أخ من إخوانى يصطحب فى مكان واحد، فكانت عادته أنه إذا أكل شيئًا يقوم ويصلى ركعتين، وإذا شرب الماء يقوم ويصلى ركعتين، وإذا لبس ثوبًا يقوم ويصلى ركعتين، وإذا دخل المسجد يصلى ركعتين، وإذا أراد الخروج من المسجد يصلى ركعتين، وكذلك إذا فرح أو غضب يقوم ويصلى ركعتين.

وكان جماعة من أصحابنا يسافرون مع أبى عبد الله بن جابان رحمه الله تعالى، فحدثونى عنه أنه كان إذا بلغ إلى الميل فى البادية وأراد التعقب(١) لا يجلس حتى يصلى ركعتين.

ومن آدابهم أيضًا أنهم يكرهون الإمامة والصلاة فى الصف الأول، بمكة وغيرها، ويكرهون التطويل، أما الإمامة، فلو أن أحدهم يحفظ القرآن، فإنهم يختارون الصلاة خلف من يُحْسن أن يقرأ الحمد وسورة أخرى: لأن النبى ﷺ قال [٢٠٢] الإمام ضامن، وأما ترك الصلاة فى الصف الأول فإنهم يريدون بذلك أن لا يزاحموا الناس، ويضيقوا عليهم: لأن الناس يزدحمون، ويطلبون الصف الأول: [٢٠٣] لما جاء فى الخبر من الفضيلة فيه، يريدون بذلك إيثارهم، وإذا كان الموضع خاليًا يغتنمون ذلك الفضل الذى جاء فى الصف الأول.

وأما التطويل فى الصلاة، فكلما طالت الصلاة كثرت الهفوات والوسواس، والاشتغال بتصحيح الأعمال أولى من الاشتغال بكثرتها وتطويلها، وروى عن رسول الله ﷺ: [٢٠٤] أنه كان أخف الناس صلاة فى تمام.

سمعت ابن علوان رحمه الله يقول: كان الجنيد، رحمه الله، لا يترك أوراده من الصلاة على كبر سنه وضعفه، فقيل له فى ذلك، فقال: حال وصلت به إلى الله تعالى فى بدايتى كيف يتهيأ لى أن أتركه فى نهايتى.

(١) فى إحدى النسخ تعليقا على هذه الكلمة: « أن يعقب بأصحابه».

ومن آدابهم فى الصلاة أيضًا: أن للصلاة أربع شُعَب، حضور القلب فى المحراب وشهود العقل عند الوهاب، وخشوع القلب بلا ارتياب، وخضوع الأركان بلا ارتقاب؛ لأن عند حضور القلب رفع الحجاب، وعند شهود العقل رفع العتاب، وعند خشوع القلب فتح الأبواب، وعند خضوع الأركان وجود الثواب، فمن أتى بالصلاة بلا حضور القلب فهو مصلٍّ لاهٍ، ومن أتاها بلا شهود العقل، فهو مصل ساهٍ، ومن أتاها بلا خشوع القلب فهو مصلٍّ خاطئ، ومن أتاها بلا خضوع الأركان فهو مصلٍّ جافٍ، ومن أتمها فهو مصلٍّ وافٍ.

فهذا ما حضرنى فى الوقت من آدابهم فى الصلاة، وبالله التوفيق.

باب ذكر آدابهم فى الزكوات والصدقات

قال الشيخ رحـمه الله تعالى: أما آدابهم فى الزكاة فـإن الله تعالى جدُّه لم يفرض عـليهم الزكـاة، لأنه سبحـانه قد زوى عنهم مـن أموال الدنيا مـا يجب عليهم فيه الزكاة والصدقة.

وقد حكى عن مطرف بن عبد الله بن الشخير رحمه الله أنه قال: نعمة الله تعالى [علىَّ] فيـما زوى عنى من الدنيـا أعظم من نعمة الله تعـالى علىَّ فيـما أعطانى، وكـذلك أهل التصـوف نعمة الله تعـالى عليهـم فيمـا زوى عنهم من الدنيا [أعظم من نعمـته عليهم] فيـما أعطاهم إن لو أعطاهم من الدنيـا شيـئًا كثيرًا، وقد قال فى ذلك بعضهم وهو من أهل الدنيا:

ومـا وجَـبتْ عَلَىَّ زكـاةُ مـالٍ ... وهلْ تجبُ الـزكـاةُ على كـريمِ

يفـتخـر بذلك ويقـول: لم تجب علىَّ زكاة قط، يـريد أنه لم يترك حـتى يجتمع عنده مالٌ يجب عليه فيه الزكاة.

وبلغنى عن إبراهيم بن شيـبان رحمه الله أنه لقى الشبلى رحـمه الله وكان إبراهيم ينهى عن الذهاب إليه، والوقوف عليه، واستمـاع كلامه، فقال للشبلى رحمه الله، وأراد [بذلك] أن يمتحنه: كم فى خمس من الإبل؟ قال: شاة فى واجب الأمر، وفيما يلزمنا نحن: كلها، يعنى: فيما ندعيه من مذهبنا. فقال له إبراهيم: ألك فى هذا إمام؟ قال: نعم، أبو بكر الصـديق ﷺ حيث خرج من ماله كله، فقال له النبى ﷺ: ما خلَّفْتَ لعيالك؟ فقال: اللهَ ورسوله، فقام، ولم يَنْهَ الناس بعد ذلك عنه.

فأمـا آداب جمـاعة من المـتصوفـة فى الزكاة: أنهم لا يأكلـون منها، ولا

يطلبونها، ولا يـأخذونها وقد أباح الله تعالى لهم أخْـذها، وإن أكلوا منها أكلوا حلالاً طيبًا إلا أنهم يريدون بـترك ذلك إيثار الفقراء، وترك المزاحمـة للضعفاء وأهل الحاجات.

ويقال: أن مـحمـد بن منصور صـاحب أبى يعقـوب السوسى رحـمة الله عليهـما كان إذا أعطَوْه شيـئًا، أو حُمل إليـه شىء من الزكاة والصدقة وكـفارة اليمين، وعلم أنَّها من هذه الجهات، لم يأخذها، ولم يفرقها على أصحابه من الفقراء، ويقول: شىء لا أرضاه لنفـسى، لا أرضاه لأصحابى، وإذا حُمِل إليه ولم يعلم أنه من الزكاة والصدقة أخذها وأكل منها.

وأما البـاقون فكانوا لا يرون الانبـساط فى مثل ذلك، ولا يـمدون أيديهم إلى الطمع وإلى السؤال وإلى مـا يرون فيه المنة، وإن جـاءهم من غير مـسألة فكانوا يتعفـفون عن ذلك، ولقد بلغنى عن بعض إخواننا من الصوفـية أنه كان يُنْفق على إخوانه من الفقراء، فقراء الصوفية، فى كل سنة، كما زعموا، ألف دينار، وكان يحلف أنه ما أنفق عليهم ولا دفع إليـهم درهما قط من زكاته وقد رأيته.

وحكى عن أبى على المشتُـولى أنه كان ينفق على الصوفـية ما يتعـجبون منه تجار مصر، ويقولـون: ما لنا لا يفى بنفقته[1]، ويقال: إنه لم تجب عليه زكاة قط.

وسمـعت بعض الأجلة من المشـايخ الصوفيـة وهو يقول: [كان] يكون بينى وبين رجل من الأغنياء مـودة مؤكدة، ويكون له فى قلبى محبـة وحرمة،

(١) لعل العبارة كما يلى «كان ينفق على الصوفية ما يتعجب منه تجار مصر ويقولون أموالنا لا تفى بنفقته».

فيذكرنى عند إخراج زكاته، وتفرقة صدقته، فيُذْهب [ذلك] جميع ما يكون له فى قلبى من المودة، ورأيت فى رقعة إمام، من الأئمة، من المعروفين، كتبها إلى رجل فقير من الصوفية، وكان فيها: يا أخى، قد أنفذتُ إليك شيئًا ليس من الزكاة، ولا من الصدقة، ولا لأحد غير الله تعالى فيه مِنَّةٌ، فأسألك أن تُدخِل علىَّ السرور بقبوله.

فأما ما جاءهم من غير مسألة [ولا طمع]، ولا استشراف نفس، من أقوام لا يعرفون الصوفية، ولا يدعون أحوالهم، ولا يداخلونها بالمجانسة، ولا يعرفون أصولهم، فلا ينبغى أن يُرَد ذلك للخبر الذى قال النبى ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما آتاك الله من هذا المال من غير مسألة، ولا استشراف نفس فخذه ولا ترده، فإنك هو ذا ترده على الله عز وجل[1]، فإذا لم يرده وأخذه فهو بالخيار، إن أكل منه أكل حلالاً طيبا، وإن دفعه إلى من يعلم أنه أحقُّ بذلك منه فهو جميل.

سمعتُ أبا بكر محمد بن داود الدينورى الدُّقىَّ رحمه الله يقول: كان أبو بكر الفَرْغانى يُكتَب اسمه فى جملة من يأخذ الجراية فى شهر رمضان من المساكين وكان يأخذ كل ليلة الوظيفة، ويحملها إلى امرأة عجوز فى جواره لم يكتبوا اسمها فى جملة من كان يأخذ الوظيفة [من الجراية] التى [كانت] تُفرَّق فى رمضان.

وقال بعضهم: من أخذ من الله تعالى، أخذ بعز، ومن أخذ لغير الله تعالى أخذ بذل، ومن ترك لله عز وجل ترك بعز، ومن ترك لغير الله تعالى ترك بذل، فمن بنى أمره على غير هذا فى الأخذ والإعطاء فهو على خطر عظيم، والله تعالى يعلم المخطئ من المصيب، ولا يخفى على الله شىء.

(١) يعنى فإنك إن فعلت ورددته فإنما ترده على الله الذى جاءك به.

وتصديق من يأخذ لله ويعطى لله، ويترك لله، هو أن يستوى عنده المنع والعطاء والشدة والنعماء.

وطبقة أخرى اختاروا الزكوات والصدقات على الهدايا والهبات والإيثار والمواساة، فقالوا: قد جعل الله تعالى للفقراء حقًا فى أموال الأغنياء، فإذا أخذنا أخذنا حقوقنا التى جعل الله تعالى لنا، فلا معنى لتركه، وقالوا: لا نختار على ما اختار الله تعالى لنا ورسوله، وقالوا: الامتناع من أخذ الزكاة والصدقة ضرب من تعزز النفوس وكراهية الفقر، وقد حكى فى معنى ذلك عن أبى محمد المرتعش أنه كان فى محفل من أصحابه من الأغنياء والتجار فنظر إلى رجل ومعه خبز يتصدق به على المساكين والسُّؤَّال وقد ازدحموا عليه، قال: فقام المرتعش من بين أصحابه، وقصد هناك، وأخذ من ذلك الخبز رغيفًا، وجاء، وجلس، فَسُئل عن فعله ذلك، فقال: خشيت إن لم أقم، وآخذ معهم من ذلك الخبز، أن يمحى اسمى من ديوان الفقراء.

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «لا تحل الصدقة لغنى، ولا لذى مِرَّة سَوِى» فالذى كره للمتصوفة أخذ الزكاة والصدقة [كره] لذلك، لأن النبى ﷺ، قال: « ليس الْغِنَى عن كثرة العَرَض، إنما الغنى غنى النفس أو القلب».

فهؤلاء وإن كانوا فقراء من أعراض الدنيا فإنَّهم أغنَى من الأغنياء: لأن غناهم بالله عز وجل.

وقد حكى فى معنى ما قلنا أن عَلِيَّ بن سهل الأصبهانى قال: حرام على من يدفع إلى أصحابنا شيئًا من أجل أنهم فقراء، لأنهم أغنى خلق الله تعالى: يعنى، أن غناهم بالله عز وجل.

وقالوا: يحتمل أيضًا أن معنى قول النبى ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنى

ولا لذى مِرَّة سَوى» أنها كانت صدقة بعينها مجعولة للزمنَى والمرضى ومن به عاهة، لأن قول الله تعالى: ﴿إنما الصدقَاتُ للفقراءِ وَالمساكِينِ...﴾[1]، لم يعلق عليها شرط غير الفقير، والفقيرُ هو المعدم فى الأصل به، ثم بعد ذلك له أخلاق وأحوال وتفاضل وأسرار.

ويقال: إن اشتقاق الفقر، من فقار الظهر مأخوذ، والفقار، هو العظم الذى به قوام الظهر، فإذا انكسر وضعف واحتاج إلى غيره مما يقيمه، سُمِّىَ فقيرًا للضعف والحاجة إلى ما يقيمه، والله أعلم.

ومن كره الصدقة من جهة ما قيل: إنها من أوساخ الناس، فإنما قيل ذلك على معنى أن الصدقة تحط من أوزار الناس وخطاياهم للذين يتصدقون بها؛ ولو كان نقصًا للفقراء أخْذُهم الصدقات والزكوات، أو وضعًا منهم من جهة أنها أوساخ الناس لَلَزِمَ ذلك، أيضا للعاملين عليها، [والمؤلفةِ قلوبُهم] والغارمين، وفى سبيل الله، وابن السبيل.

ومن ليس له شىء فى الدنيا وقد فاته فضل الصدقات التى يتصدق بها من الأموال [فقد جعل الله له صدقات من الأقوال] والأفعال مما ليس فضلها بأقلّ من ذلك، وهو ما رُوى عن النبى ﷺ، أنه قال: «مداراة الناس صدقةٌ» [ومعاونتك لأخيك صدقةٌ] «ومن الصدقة أن تَلقى أخاك بوجه طَلْق، وأن تُفرغ من إنائك فى إناء أخيك صدقةٌ».

وقد حُكى عن بشر بن الحارث، أنه كان يقول: يا أصحاب الحديث، أَدُّوا زكاة الحديث، قيل: وما زكاة الحديث؟ قال: اعملوا من كل مائتىْ [حديث] بخمسة أحاديث، يعنى من كل مائتى حديث تكتبونها وتحفظونها.

(١) التوبة: ٦٠

ومن وجب عليه الزكاة يحتاج إلى أربعة أشياء حتى يكون مؤديًا للزكاة:

أوله: أن يكون أخذَ المال من حلال.

والثانى: لا يكون جمعه للافتخار والتكثُّر والترفُّع على من يكون دونه فى المال.

والثالث: أن يبدأ بحسن الخلق والسخاوة، مع الأهل والعيال.

والرابع: مجانبة المنِّ والأذى، إلى من يدفع إليه الزكاة.

والزكاة حق الفقراء، قد جعله الله عز وجل فى مال الأغنياء، فمن دفعها إليهم فكأنه قد ردَّ إليهم مالهم، وقد جمع بذلك رضا الله، عز وجل، والخلاص من مناقشة الحساب، والنجاة من أليم العذاب.

باب فى ذكر الصوم وآدابهم فيه

قال الشيخ، رحمه الله: روى عن النبى: ﷺ، أنه قال «يقول الله، تبارك وتعالى: الصوم لى وأنا أجزى به».

فإن قال قائل: ما معنى تخصيص الصوم من بين سائر العبادات، وقد علمنا أن جميع الأعمال له، وهو يجزى بها، فما معنى قوله: « الصوم لى وأنا أجزى به»؟.

فيقال: له معنيان: أحدهما: أن للصوم تخصيصا من بين سائر العبادات المفترضات لأن جميع المفترضات حركات جوارح، يتهيأ للخلق أن ينظروا إليه إلا الصوم، فإنه عبادة بغير حركة الجوارح.

فمن أجل ذلك قال تعالى: الصوم لى.

والمعنى الآخر فى قوله: «لى» بمعنى أن الصمدية لى؛ لأن «الصمد» هو الذى لا جوف له ولا يحتاج إلى الطعام والشراب، [فمن تخلق بأخلاقى أجزيه ما لا يخطر على قلب بشر].

وأما معنى قوله: «وأنا أجزى به»: فإن الله تعالى، وعد على [جميع] فعل الحسنات الثواب المعدود من الواحدة إلى عشر أمثالها [من العشرة] إلى السبعمائة إلا الصائمين و[الصائمون]: هم الصابرون.

[وقد] قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

فخرج الصوم من الحسنات المعدودة وثوابها لأن الصوم هو: صبر النفس عن مألوفاتها، وإمساك الجوارح عن جميع شهواتها، والصائمون هم الصابرون، وقد روى فى معنى ذلك عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا صمت فَلْيَصُمْ سمعُك

(١) الزمر: ١٠.

وبصرُك ولسانك ويدُك» وقد روى عنه ﷺ أنه قال: «إذا صام أحدكم فلا يرفث ولا يفسق، فإن شتمه إنسان فَلْيَقُلْ: إنى صائم».

وصحة الصوم وحسن أدب الصائم فى صومه، صحة مقاصده، ومباينة شهواته وحفظ جوارحه، وصفاء مطعمه، ورعاية قلبه، ودوام ذكره، وقلة اهتمامه بالمضمون من رزقه، وقلة ملاحظته لصومه، ووجله من تقصيره، والاستعانة بالله [تعالى] على تأديته، فذلك أدب الصائم فى صومه.

وحكى عن سهل بن عبد الله التُّسْتَرِى رحمه الله، أنه كان يأكل فى [كل] خمسة عشر يومًا مرة، فإذا دخل رمضان لم يأكل فيها إلا أكلة واحدة، فسألت بعض المشايخ عن ذلك فقال: كان يفطر على الماء القراح وحده كل ليلة.

وحكى عن أبى عبيد البسرى رحمه الله أنه كان إذا دخل رمضان دخل البيت وسدَّ عليه الباب، ويقول لامرأته: اطرحى كل ليلة رغيفًا من كوة [فى] البيت ولا يخرج منه حتى يخرج رمضان، فتدخل امرأته البيت فإذا الثلاثون رغيفًا موضوعة فى ناحية البيت.

وأما صوم التطوع، فإن جماعة من المشايخ كانو يصومون فى السفر والحضر على الدوام إلى أن لحقوا بالله عز وجل، وكان أدبهم فى صومهم ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «الصوم جُنَّة» ولم: يقل جنة من أى شىء، فقالوا: معناه إن الصوم جنة فى الآخرة من النار، لأن الصوم للصائم فى الدنيا جنة من سهام الأعداء الذين يدعونهم إلى النار، وهم: الشيطان، والنفس، والهوى، [والدنيا] والشهوات ومن اختار المداومة على الصيام اختار ذلك للاحتراز بالجنة من مكايد الأعداء لكيلا يجدوا فرصة فيظفروا به ويطرحوه فى النار.

سمعت أحمد بن محمد بن سُنَيْد قاضى الدِّيَنَور يقول: سمعت رُوَيْمًا يقول: اجتزت فى الهاجرة ببعض سكك بغداد، فعطشت، فتقدمت إلى باب

دار فاستسقيت فإذا بجارية وقد فتحت باب الدار وخرجت ومعها كوز جديد ملآن من الماء المبرَّد فلما أردت أن أتناول من يدها قالت لى: ويحك! صوفىٌّ يشرب بالنهار! وضربت بالكوز على الأرض، وانصرفت، قال رُوَيْمٌ: فلقد استحييت منها، ونذرت أن لا أفطر أبدا.

قال صاحب الكتاب: وجماعة أخرى كانوا يختارون صوم داود عليه السلام: لما روى فى ذلك عن النبى ﷺ أنه قال: «أفضل الصيام صيام أخى داود عليه السلام كان يصوم يومًا ويفطر يومًا» وقد قالوا فى معنى قوله «أفضل الصيام»: لأنه أشد الصيام، وزعموا أن هذا الصوم أشد على النفس من صوم الدهر، لأن النفس إذا أَلِفَتِ الصوم مع الدوام، وتعودت، اشتد عليها الإفطار، وإذا ألفت الإفطار وتعودت اشتد عليها الصوم، وهذا الصوم، صوم يوم وإفطار يوم لا تتعود فيه النفس الإفطار ولا الصوم، فلذلك قال من قال: إنه أشد الصيام، وقد حكى فى (معنى) ذلك عن سهل بن عبد الله رحمه الله، إنه كان يقول: إذا شبعتم فاطلبوا الجوع ممن أبلاكم بالشبع، وإذا جعتم فاطلبوا الشبع ممن أبلاكم بالجوع، وإلا تماديتم وطغيتم.

وكان أبو عبد الله أحمد بن جابان رحمه الله قد صام نيفا وخمسين سنة لا يفطر فى السفر ولا فى الحضر، وجهد به أصحابه يومًا أن يفطر، فأفطر، فاعتلَّ من ذلك أيامًا [من الأيام] حتى كاد أن يفوته الفرض.

ومن كره المداومة على الصيام كره ذلك لأن النفس معتادة، فإذا ألفت شيئًا واعتادته يكون قيامها فيه بحظوظها لا بحقوقها، فالأدب فى ذلك أن لا يُجْمَعَ بينها وبين مألوفاتها وإن كانت عبادة أو طاعة لأن النفس مائلة إلى الحظوظ وعاجزة عن الحقوق مجبولة على المنافرة من الطاعات، فإذا ألفت بابًا من أبواب العبادات اتهمها أهل المعرفة بها، وأهل الخبرة والبصيرة بها وبمكايدها وخُدَعِها.

وحُكى عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنه قال: كان بصحبتى رجل كثير الصوم والصلاة، فعجبتُ من ذلك، ثم نظرت فى مأكوله فكان من موضع غير طيب قال: فأمرته بالخروج من ملكه، وأخرجته معى فى سفر، فكنت أُطعمه الحلال من موضع أعرفه وأرضاه، قال: فلما صحبنى مدة كنت أحتاج أن أضربه بالدرَّة حتى يقوم فيؤدى الفرض.

فأما الصوفية والفقراء المجردون الذين قطعوا العلائق، وتركوا المعلومات، وقنعوا بما قسم الله تعالى لهم من الأرزاق، ولا يدرون أىَّ وقت يسوق الله تعالى إليهم أرزاقهم من الغيب وعلى يد من يبعث الله تعالى لهم ذلك، فأوقات هؤلاء أتم من أوقات الصائم الذى يرجع إلى معلوم ومعهود من الطعام المستعد(1) لإفطاره؛ فإن صاموا فلا يلحقهم أحد من الصائمين فى الفضل.

ولهؤلاء الفقراء الذين [قد] ذكرتهم أيضًا آداب فى صومهم إن صاموا، فمن آدابهم أن لا يصوم واحد من بين الجماعة إلا بإذن أصحابه، لأنه إذا صام شغل قلوبَ أصحابه بإفطاره وهم على غير معلوم، وإن صام واحد من دون الجماعة برضا أصحابه وحضر المفطرين شىءٌ من الطعام فليس يلزمهم أن ينتظروا وقت إفطار الصائم، لأنه ربما يكون فى الجماعة من يكون به حاجة إلى الطعام، وربما يُفتح به فى وقت إفطار الصائم منهم شىء آخر بتركه صومَه، إلا أن يكون ضعيفًا فينتظرون وقت إفطاره لضعفه، أو يكون شيخًا فلحرْمته، وليس للصائم أيضًا أن يأخذ نصيبًا لنفسه ويدخرها لوقت إفطاره؛ لأن ذلك ضعف فى حاله، إلا أن يكون ضعيفًا فيفعل ذلك لضعفه.

وإذا كانوا جماعة عادتُهم الصوم وفيهم جماعة عادتُهم الإفطار فليس للصُّوام أن يدعوا هؤلاء المفطرين إلى أحوالهم إلا إن أحبوا هؤلاء مساعدتهم

(1) قوله: المستعد، الصواب، المعد.

على الصوم، ومساعدة الصائم للمفطر على الإفطار أحسنُ من مساعدة المفطر للصائم بالصوم إلى أن تقع الصحبة، فإذا وقعت الصحبة فمساعدة المفطر للصائم بالصيام معهم أحسن.

حُكى عن الجنيد رحمه الله أنه كان يصوم على الدوام، فإذا دخل عليه إخوانه أفطر معهم، ويقول ليس فضل المساعدة مع الإخوان بأقل من فضل الصوم للصائم [إذا كان متطوعًا] أو كلامًا نحو هذا.

ويقال: إذا رأيت الصوفى يصوم صوم التطوع فاتهمه: فإنه قد اجتمع معه شىء من الدنيا.

وإن كانوا جماعة مترافقين متواخين أشكالا وبينهم مريد يحثوه على الصيام، فإن لم يساعدوه يهتموا لإفطاره، ويتكلفوا له رفقًا، ولا يحملون حاله على أحوالهم، وإن كانوا جماعة ومعهم شيخ، يصومون بصومه، ويفطرون بإفطاره، إلا أن يأمرهم الشيخ بغير ذلك فإنهم لا يخالفون أمره: لأن الشيخ يعلم ما يصلح لهم.

وحُكى عن بعض المشايخ الأجلة أنه قال: صمت كذا وكذا سنة لغير الله: وذلك أن شابّا كان يصحبه، فكان يصوم حتى ينظر إليه ذلك الشاب فيتأدب به ويصوم بصيامه.

ورأيت أبا الحسن المكى بالبصرة رحمه الله، فكان يصوم الدَّهْرَ، ولا يأكل الخبزَ إلا كلَّ ليلة جمعة، وكان قوته ـ كما قيل ـ فى كل شهر أربعة دوانيق، يعمل بيده، يفتل حبال الليف ويبيعها، وكان قد هجره ابن سالم، وكان يقول لا أسلم عليه إلا أن يُفطر ويأكل [الخبز] لأنه كان قد اشتهر بترك الأكل.

وبلغنى عن بعضهم من أهل واسط أنه صام سنين كثيرة فكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس إلا فى رمضان، وقومٌ أنكروا [عليه] هذا لمخالفته العلم وإن كان الصوم تطوعًا، وقومٌ كانوا يستحسنون ذلك لأن صاحبه كان يريد

بذلك أن يؤدب نفسه بالجوع ولا يتمنع برؤية الصوم ورؤية الثواب الذى قد وعد الله تعالى للصائمين ولا يسكن إلى ذلك، وعندى أن الذى أنكر فقد أصاب: لأنه[1] اعتقد الصوم فقد لزمه الوفاء به، وإن لم يعتقد الصوم فسبيله سبيل المتقللين، فلا يقال له صائم، وبالله التوفيق.

وحُكى عن الشبْلى رحمه الله، أنه قال: لرجل تُحسن [أن] تصوم الأبد؟ قال: فكيف الأبد؟ قال: تجعل ما بقى من عمرك يومًا وتصومه.

فهذا ما حضرنى فى الوقت من آداب صوم المتصوفة [والله الموفق للصواب].

(١) قوله: لأنه اعتقد ... إلخ والصواب لأنه إن اعتقد فقد لزمه... إلخ.

باب ذكر آدابهم فى الحج

قال الشيخ رحـمه الله: فأول آدابهم فى الحج، الاهتمام لحـجة الإسلام، والتوجه إليه بأى وجـه يجد إليه السبيل والاستطاعة، ويبذل فى ذلـك مُهْجته، ولا يركن إلى سـعة العلـم وطلب الرخصـة فى الجلوس عن حـجة الإسـلام بإعدام الزاد والراحلـة، إلا أن يقعده عن ذلك فـرضٌ لازم، لأن الله عز وجل يقول: ﴿ولله عَلى النَّاس حجُّ الْبَيْت مَن اسْتَطَاعَ إليه سَبِيلاً﴾(١)، وقـال: ﴿وَأَذِّنْ فى النَّاس بالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً﴾(٢)، ويقال فى التفسير ﴿رجالا وعلى كلِّ ضامر يأتينَ منْ كلِّ فَجٍّ عميق﴾ فبدأ بذكر الرجال الذين يمشون.

ورُوِىَ عن النبى ﷺ أنه قـال: [٢٠٥] «من مـات ولم يحج حجـة الإسلام مات إن شاء يهوديا أو نصرانـيا» فمن أجل ذلك لم يسقط عنهم مطالبة الحج وإن عـدموا الزاد والراحـلة: لأن من آدابهم أن يتمسكوا بالأحـوط فى الفـرائض، ويأخـذوا بالأتم من علم الشـريعة، لأن الـتعلق بالرُّخَـص سبـيل العامة، والأخذ بالسـعة والتأويلات حال الضعفـاء، وذلك رحمة من الله تعالى لهم، فـأما العـامة فـقصـدهم إلى الحج وشـرط العلم الذى يعلمه الفـقهـاء، والعلماء والخاصـة والعامة فى ذلك سواء وهو علم المناسـك، فرائضه وسننه وأحكامه وحدوده.

وإنما قصـدنا أن نذكر آداب من ليس سبيلهم فى الحج سبـيل العامة وهم على ثلاثة أصناف:

فصنف منهم، إذا حجوا حجة الإسـلام، جلسوا واشتغلوا بحفظ أوقاتهم ومراعاة أحوالهم، فطلبوا السلامة ولم يتعرضوا للبلاء مما يلحقهم من المشقة فى ذلك، ولصعوبة آداء فرض الحج وقضاء مناسكها وحفظ حدودها.

(١) آل عمران: ٩٧.
(٢) الحج: ٢٧.

سمعت ابن سالم يقول: لم يحج سهل بن عبد الله إلا حجة الإسلام، حج وله ست عشرة سنة، وكان زادُهُ شيئًا من الكبد المشوى المدقوق فكان يستف منه إذا جاع قليلا، وكذلك أبو يزيد البسطامى رحمه الله لم يحج إلا حجة الإسلام، وكذلك الجنيد رحمه الله، وجماعة من المشايخ الأجلة رحمهم الله لم يحجوا إلا حجة الإسلام، وحُجتهم فى اختيارهم فى ذلك أن النبى ﷺ لم يحج إلا حجة واحدة.

وطبقة أخرى من مشايخ الصوفية فإنهم لما قطعوا العلائق، وفارقوا الأوطان، وهجروا الإخوان، قصدوا بيت الله الحرام، وزيارة قبر رسوله ﷺ، فقطعوا البوادى والبرارى والقفار بغير حَمْل نفقة ولا زاد، ولا سلكوا على الطريق ولا تعلقوا بمصاحبة الرفيق، ولا عدوا الأميال ولا البُرُد، ولا طلبوا المنازل ولا المناهل، ولا تعرجوا على سبب، ولا التجأوا إلى طلب، ولا انقضى من الحج وَطرُهم، ولا انقطع عن تلك المشاهد أثرهم، وذلك لأن الله عز وجل يقول: وقولُه الحق، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[1] قال ابن عباس رضي الله عنه: يعنى لا يقضون منه وطرًا، ولا يمكن ذكر آداب هؤلاء فى معانيهم إلا بحكايات بلغتنا عنهم، يدل ذلك على آدابهم، وصحة مقاصدهم وعلوا مراتبهم وأحوالهم وصفاتهم.

سمعتُ أحمد بن على الوجيهى يقول: سمعت بعض المشايخ يقول: حج حسن القزاز الدينورى رحمه الله اثنتى عشرة حجة حافيًا، مكشوف الرأس، فكان إذا دخل فى رجله شوك يمسح رجله بالأرض ويمشى ولا يطأطئ رأسه إلى الأرض من صحة توكله.

وحُكى عن أبى تُراب النخشبى رحمه الله: أنه كان يأكل أكلة بالبصرة، وأكلة بنباج، وأكلة بالمدينة، وكان يدخل مكة وعلى بطنه عُكَنٌ من السِّمَن.

---

(١) البقرة: ١٢٥.

وحُكى عن إبراهيم بن شَيْبان أنه قال: كان أبو عبد الله المغربى رحمه الله يدخل البادية وعليه إزار ورداء أبيض، وفى رجله نعلٌ طاقٌ كأنه يمشى فى السوق، فإذا دخل مكة وفرغ من الحج أحرم من تحت الميزاب، ويخرج من مكة وهو مُحْرِمٌ ويقيم على إحرامه إلى أن يرجع إلى مكة.

وسمعت جعفر الخلْدِى رحمه الله يقول: سلكتُ البادية وعلىَّ قميص أبيض، وبيدى كوز، ورأيت فى البطانية التى فى وسط الرمل دكاكين وتجارًا [كانت] ترد عليهم القوافل من البصرة.

وحُكى عن إبراهيم الخواص رحمه الله أنه قال: أعرف فى البادية تسعة عشر طريقا غير الطريق الذى يسلكه الناس والقوافل، طريقان [منها] ينبت فيهما الذهب والفضة.

وحكى جعفر عن إبراهيم الخواص رحمهما الله، أنه قال: كنت فى البادية، فى موضع منها، جالسًا مستجمع الهم، وقد مضت علىَّ أوقات لم أتناول فيها الطعام، فبينا أنا كذلك إذا [أنا] بالخضر عليه السلام مارًا فى الهواء، فلما رأيته طأطأت رأسى وغمَّضت بصرى، ولم أنظر إليه، فلما رآنى جلس إلى جنبى، فرفعت رأسى، فقال لى: يا إبراهيم، لو أعرتنى الطرف ما جئت إليك.

وحُكى عن إبراهيم رحمه الله أيضًا أنه قال: خرجت فى بعض السنين من مكة، واعتقدت أن لا أتناول شيئًا إلى أن أدخل القادسية، فلما وافيت الرَّبَذة وخرجتُ منها، فإذا أنا بأعرابى [يصيح] من ورائى، فلم أعطف عليه، فلحقنى، وإذا بيده سيف مسلول، وبيده الآخر قعبٌ فيه لبن، فقال لى: اشربْ هذا وإلا ضربتُ رقبتك، قال: فبقيت [متحيِّرًا]، فتناولت منه وشربت وانصرف عنِّى، وما رأيت شيئًا آخر حتى دخلتُ القادسية.

وحكايات هؤلاء أكثر من أن يتهيأ ذكرها [هاهنا] وفيما ذكرنا كناية لمن علم المراد من ذلك إن شاء الله تعالى.

و[أما] الطبقة الثالثة من المشايخ الصوفية فإنهم اختاروا المقام بمكة، والمجاورة بها وحبسوا أنفسهم هناك لما خص الله تعالى به تلك البقاع والمشاهد من الفضيلة والشرف، ولما وجدوا فى أنفسهم من التنافر والعجز عن المقام بها؛ لأنها وادٍ غير ذى زرع كما قال الله، عز وجل، وهو الحجاز، يحجز عن الشهوات واللذات، ولا سيما لمن كان قوته فى الغيب ورزْقه مقسوم ورفْقه معدوم، والنفس مجبولة على الاضطراب عند عدم الوفاء بها، والعبد مُطالبٌ بالسكون تحت الأحكام، فعند ذلك تبين مقامات الرجال.

ولهم فى المجاورة آداب يُذكر بعضها فى حكاياتهم فيما بلغنى، سمعتُ أبا بكر محمد بن داود [الدينورى] الدُّقى يقول: أقام أبو عبد الله بن الجلاء بمكة ثمانى عشرة سنة لم يأكل من طعام يحمل إليها من مصر: لأن مصر صوافٍ كان المتقدمون يتورعون عن أكْل طعامها وما يحمل منها، وكان لا يشرب إلا ماء زمزم يستقى بركوته وحبله من أجْل أن الدلو والحبل المعلق على زمزم يكون من أموال السلاطين.

وحُكى عن أبى بكر الكتانى رحمه الله أنه ختم اثنى عشر ألف ختمة فى الطواف.

وأقام أبو عمرو الزجاجى رحمه الله بمكة، على ما بلغنى، ثلاثين سنة فإذا أراد أن يقضى حاجته خرج عن الحرم، ويعتمر فى كل يوم ثلاث عمر، ويأكل فى كل ثلاثة أيام أكْلة، ومات عن نيف وسبعين وقفةً.

وسمعت الدُّقى يقول: أقمتُ بمكة تسع سنين، وكنت اعتقدت أن لا أصلى صلاتَين فى موضع واحد، فكان يمرُّ بى من الجوع ما إذا رأيت جنازةً أقول ليتنى كنت مكان هذا الميت، قال: وكان يقع فى قلبى فى الوقت يا هذا

أليست هذه الفاقة التى بك لا يعلم بها أحد غير الله، فكنت أشتغل بذلك، ويذهب عنى ما أجدُ من الجوع.

ويقال: إن كلّ من يقدر أن يصبر بمكة على الجوع يومًا وليلةً، فهو يقدر أن يصبر فى سائر الدنيا ثلاثة أيام، وكانوا يقولون: إن المقام بمكة يغير الأخلاق ويكشف الأسرار، ولا يصبر على المقام بها على الصحة إلا الرجال.

سمعت أحمد الطرَسوسى يقول: سمعت إبراهيم بن شَيبان يقول: سمعت إبراهيم الخواص رحمه الله يقول: أقام هاهنا بمكة فتى من الفقراء سنين، فكنا نتعجب من حسن جلسته، وكثير طوافه وعمرته، وصيانة فقره. قال: فجعلت فى نفسى أن أحمل إليه شيئًا من الدراهم، حتى أداخله بذلك، قال: فحملت إليه دراهم كثيرة وصببت على طرف خرْقته.

قال: فنظر إلى، ثم أخذ الخرقة وصب الدراهم على الأرض، وخرج من المسجد، فما رأيت قط أعز منه حين صبها وأعرض عنها، ولا أذلّ منى حين جلستُ أجمعُها وألتقطها من بين الحصا.

فأما الطبقة الذين سافروا إليها، وألفوا ما يلحقهم من البلاء فى القصد إليها، فلمعنيين:

أحدهما: أن النبى ﷺ، قال «لا تشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد، والمسجد الحرام، ومسجدى هذا، ومسجد إيلياء.

والمعنى الآخر: هو أن النفس تدعى أحوالاً فى الوطن، وفى وسط المعارف والمألوفات، من التوكل والرضا والسكون والتسليم والتفويض. فإذا فارقت الوطن والمعارف تتغير أخلاقها ويبطل دعواها.

ويقال سُمى السفر سفرًا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، فإذا عرفوها، وعلموا عجزها وضعفها وشرها، وعاينوا المكمنات التى فى أنفسهم، عملوا فى تبديل هذه الأخلاق، ومخالفتها، ولم يغتروا بدعاويها، ولم يأمنوا خُدَعها وشرها.

وبلغنى أن جماعة أقاموا بمكة فكانوا إذا قام أحدهم إلى الطواف بالنهار يعيبون عليه ذلك، ويقولون: هو ذى تمر وتستعدى، وذلك أنه ربما يتفق فى الطواف من يكون يرُفق الفقراء ويعطيهم شيئًا، فكانوا ينتقدون بعضهم على بعض هذه الأحوال.

ومن آدابهم أيضًا أنهم إذا اعتقدوا أن يحجوا أن يوفوا بعهودهم، وإن أحرموا من دون الميقات فى غير أشهُر الحج أن يوفوا بذلك وإن تلفت فى ذلك نفوسهم، وإذا قصدوا نحو الكعبة لم يعدلوا عن الطريق بعدما توجهوا إليها، ولا يقطعهم عن التوجه إليها قلة النفقة ولا شدة الحر والبرد.

سمعت أحمد بن دلويه يقول: كنت قد أوجبت على نفسى الرجوع إلى مكة من الشام وكان البرد شديدًا، فتأولتْ نفسى، فسألتُ أبا عمران الطبرستانى عن الرخصة فى ذلك، واستعمال العلم، فقال لى: إذا خفتِ عليه فألقيه فى اليَم، فوقفتُ على إشارته، فخرجتُ فما رأيت إلا كل خير، وحججت.

ومن آدابهم أيضًا أنهم إذا دخلوا البادية أن يُتموا الفرائض، ولا يقصرون الصلاة [ولا يتيممون]، ولا يتركون شيئًا مما كانوا يعملون فى أوطانهم ما أطاقوا ذلك وإن أباح لهم العلم تَرْكَ ذلك: لأن السفر والحضر عندهم سواء، وليس لأسفارهم مدة معلومة، ولا يمشون بالأميال والبُرُد والمنازل، فإذا أقامهم الحق قاموا، وإذا سار بهم ساروا، وإذا نزل بهم نزلوا، فإذا بلغوا الميقات غسلوا أبدانهم بالماء، وغسلوا قلوبهم بالتوبة، وإذا نزعوا ثيابهم

للإحرام وتجردوا وحلوا العُقد [واتَّزروا] وارتدَوْا فكذلك نزعوا عن أسرارهم الغل والحسد، وحلوا عن قلوبهم عُقَد الهوى ومحبة الدنيا، ولم يعودوا إلى ما خرجوا منه من ذلك.

ومن آدابهم أيضًا أنهم إذا قالوا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك: أن لا يجيبوا بعد ذلك دواعي النفس والشيطان والهوى بعدما أجابوا الحق بالتلبية وأقروا أنه لا شريك له في ملكه، فإذا نظروا إلى البيت بأعْيُن رءوسهم نظروا بأعين قلوبهم إلى من دعاهم إلى البيت، فإذا طافوا حول البيت بأبدانهم فمن آدابهم أن يذكروا قول الله عز وجل: ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾[1] فكأنهم ينظرون إلى طوافهم، فإذا صلوا خَلْفَ المقام يعلمون أنه مقام عبدٍ قد وفى لله تعالى بعهده، فندب الله الأولين والآخرين إلى متابعة قدمه، واتخاذ صلواتهم خلْف مقامه، فإذا استلموا الحجَر وقبلوه علموا أنهم هو ذا يبايعون الله تعالى بأيْمانهم، فمن الأدب أن لا يمُدوا بعد ذلك أيمانهم إلى مراد وشهوة فإذا جاءوا إلى الصفا فمن الأدب أن لا يعترض بعد ذلك كدورة لصفاء قلوبهم، فإذا هَرْوَلوا بين الصفا والمروة وأسرعوا في مشيهم فمن الأدب أن يسرعوا بالفرار من عدوهم ويهربوا من متابعة نفوسهم وهواهم وشيطانهم، وإذا وافوا إلى مِنًى، فمن آدابهم في ذلك أن يتأهبوا للقاء، فلعلهم يصلوا إلى مُناهم، فإذا وافوا إلى عَرَفات، فأدبهم أن يتعرفوا إلى معروفهم ويذكروا نَشْرهم وحَشْرهم وبَعثهم من قبورهم، فإذا وقفوا فأدبُ الوقوف أن يكون وقوفهم بين يدى سيدهم، فإذا وقفوا لا يُعرضوا عنه بعد وقوفهم، فإذا دفعوا مع الإمام إلى المزدلفة فأدبهم أن يكون في قلوبهم العظمة والإجلال لله تعالى، فإذا دفعوا مع إمامهم جعلوا الدنيا والآخرة وراء

(١) الزمر: ٧٥.

ظهورهم، فإذا كسروا الحجارة للرَّمْى كسروا مع الحجارة إرادات بواطنهم وشهوات إسرارهم ومكمنات أهوائهم، فإذا ذكروا الله تعالى عند المشعر الحرام فالأدب عند ذلك أن يكون مصحوبهم تعظيم مشاعرهم وإعظام حرماتها، فإذا رموا الجمر رموا بحسن الأدب بملاحظة أعمالهم ومشاهدة أفعالهم، فإذا حلقوا رءوسهم فأدبُهم أن يحلقوا عن بواطنهم، حُب الثناء والمحمدة مع حلق رءوسهم، فإذا ذبحوا فأدبُهم فى الذبح أن يبدأوا بذبح نفوسهم فى نفوسهم قبل ذبح ذبيحتهم، فإذا رجعوا إلى طواف الزيارة وتعلقوا بأستار الكعبة فمن الأدب أن لا يتعلقوا بغيره ولا يلوذوا بأحد من خلقه بعد اللياذة والتعلق به، فإذا رجعوا إلى مِنًى وأقاموا بها أيام التشريق وحل لهم كل شىء فمن الأدب أن لا يحللوا ما حرموا على نفوسهم من مخالفة سيدهم ومتابعة حظوظهم، ولا يكدروا ما صفا من أوقاتهم، ولا يتكلوا إلا على سعة رحمة الله تعالى بعد قضاء مناسكه: لأنهم لم يتيقنوا بقبول حجتهم، ويستعينوا بالله على أمورهم، ويستغيثوا إلى الله بأسرارهم وعلانيتهم، فإنه قادر على كشف ضرهم وخلاصهم.

وحُكى عن إبراهيم الخوَّاص رحمه الله أنه قال: رأيْتُ شيخًا من أهل المعرفة فى البادية ممَّن كان يشير إلى التوكل عرَّج على سبب بعد سبعة عشر يومًا، فنهاه شيخ آخر، فلم يقبل، فهجروه ولم يعدوه منهم.

وسمعتُ الدُّقى يقول: دخلتُ مصر، فقصدت الزقاق، فسلمت عليه، فقال لى: من أين أقبلتَ؟ فقلت: من الحجاز، فقال لى: خُذْ حكاية فى الحجاز، تِهْتُ فى تيه بنى إسرائيل سبعة عشر يومًا لم آكل ولم أشرب، فرأيت من بعيد خيالاً، فطمعتْ نفسى، فلما دَنَوْت، فإذا أنا بعسكر مع أمير لهم مَارِّينَ إلى قلزم، فلما رأيت [أنهم] من الجند آيستُ نفسى منهم، فعرضوا

عليَّ الطعام فلم آكل، والماء فلم أشرب، فقال لى أميرهم: أنت فى حالٍ تحلُّ لك المَيْتَة فلِمَ تمتنع من طعامنا؟ فقلت: نحن إذا كنَّا بين الناس بشرط العلم لا نرضى لأنفسنا أن ننبسط إليكم، فكيف ننبسط إليكم فى [مثل] هذا الوقت والوقت كله حقيقة؟ أو كما قال.

وحُكى أنه سُئل عن عينه ـ وكانت إحدى عينيه قد ذهبت ـ فقال: كنت تهت فى التيه كذا، وكذا يومًا، فكان عليَّ مِسْحٌ، فهاجت عينى، فكنت أمسحه بالمسح، فسألتْ،وهو إن شاء الله فى هذه السَّفْرَة التى حكاها من أمير الجند، وهاتان الحكايتان، وحكاية إبراهيم الخوَّاص، وحكاية الدُّقى عن أبى بكر الزقاق.

باب فى ذكر آداب الفقراء بعضهم مع بعض وأحكامهم فى الحضر والسفر

قال الشيخ رحمه الله تعالى: [قال الجنيد رحمه الله] الفقر بحر البلاء وبلاؤه كله عزٌّ، وقال الجنيد رحمه الله تعالى: علم الفقير إذا قوى ضعفت محبَّته، وإذا ضعف قويَتْ محبَّته، وحُكْم الفقير أن يكون فوق محبَّته[1]، سمعت الدُّقى رحمه الله تعالى بدمشق، قال: سمعت أبا بكر الزقاق رحمه الله بمصر يقول: منذ أربعين سنةً أصحبُ هؤلاء الفقراء وأُعاشرهم فما رأيت قط رفْقًا لأصحابنا إلا لبعضهم من بعض أو ممَّن يحبهم، ومن لم يصحبه التقية والورع فى هذا الأمر أكل الحرام النص[2].

وحُكى عن أبى عبد الله بن الجلاء رحمه الله تعالى، أنه قال: من لم يصحبه الورع فى فقزه أكل الحرام النص وهو لا يدرى.

وحُكى عن سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى أنه قال: أدبُ الفقير الصادق [فى فقره] ثلاثة أشياء: لا يسأل إذا احتاج، ولا يرد إذا أُعطى، ولا يحبس لوقت ثانٍ إذا أخذ.

وقال غيره: أدبُ الفقير [الصادق] فى فقره ثلاثة: لا يسأل، ولا يعارض، وإن عورض سكت.

وحُكى عن سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى أنه قال: الفقير يلزمه ثلاثة أشياء: حفْظ سره، وأداء فرضه، وصيانة فقره.

(١) يرجح الأستاذ نيكلسون أن هذه الجملة هى «أى لا يكون علمه فوق محبته».

(٢) فى هامش إحدى النسخ «المحض».

وقال الجنَيْد رحمه الله تعالى: كل شيء يقدر الفقير أن يعمله إلا صَبْرَهُ على وقته إلى انقضاء مدَّته.

وحُكى عن إبراهيم الخوَّاص رحمه الله تعالى أنه قال: اثنا عشر خصلةً من خصال الفقراء ـ يعنى الصوفية ـ فى حضرهم وسفرهم: أولها: أن يكونوا بما وعدهم الله تعالى مطمئِنِّينَ، والثانية: أن يكونوا من الخلق آيسين، والثالثة: أن ينصبوا العداوة مع الشياطين، والرابعة: أن يكونوا لأمر الله مستمعين، والخامسة: أن يكونوا على جميع الخلق مُشْفقين، والسادسة: أن يكونوا لأذى الخلق محتملين، والسابعة: أن لا يَدَعوا النصيحة لجميع المسلمين، والثامنة: أن يكونوا فى مواطن الحق متواضعين، والتاسعة: أن يكونوا بمعرفة الله مشتغلين، والعاشرة: أن يكونوا الدَّهْرَ على الطهارة، والحادى عشر: أن يكون الفقر رأس مالهم، والثانى عشر: أن يكونوا راضين فيما قلَّ أو كثر وفيما أحبوا أو كرهوا عن الله تعالى شيئًا واحدًا [راضين عنه] شاكرين له واثقين به.

وقال بعضهم: من طلب الفقر لثواب الفقر مات فقيرًا، وقال بعض المتصوفة: الفقير إذا كثر عقله ذهبت طيبته.

قال الشيخ رحمه الله: من آداب الفقراء الصوفية أن لا يقولوا فيما يسوق الله إليهم، من غير سؤال ولا طمع: هذا لى وهذا لك، ولا يجرى فى حديثهم: كنت لك ولم تكن لى، وأفعلُ كذا عسى أن يكون كذا، ولا أفعلُ كذا، لعلَّ يكون كذا.

وحُكى عن إبراهيم بن شَيْبان رحمه الله تعالى أنه قال: كنَّا لا نصحب من يقول: نعلى وركْوَتى.

وقال أبو [عبد الله] أحمد القلانسى رحمه الله [وكان أستاذ الجنَيْد]: دخلتُ على قوم من الفقراء بالبصرة، فاكرمونى وبجَّلونى، فقلت لبعضهم [مرَّةً]: أين إزارى؟ فسقطتُ عن أعيُنهم.

وقال إبراهيم بن المولد الرَّقى: دخلتُ طَرَسوس، فقيل لى: إنَّ هاهنا جماعةً من إخوانك وهم مجتمعون فى دار، فدخلتُ عليهم، فرأيت سبعة عشر من الفقراء كلهم على قلب واحد.

وقيل لأبى عبد الله أحمد القلانسى رحمه الله: على أىِّ شىء بنيتَ أصل مذهبك؟ فقال: على ثلاث خصال: لا نطالب أحدًا [من الناس] بواجب حقنا، ونطالب أنفسنا بحقوق الناس، ونُلزم أنفسنا التقصير فى جميع ما نأتى به، وقال غيره: بَنَيْنا أصل مذهبنا على ثلاث: متابعة الأمر والنهى، ومعانقة الفقر، والشفقة على الخلق.

وقال بعضهم: إذا رأيت الفقير قد انحط من الحقيقة إلى العلم فاعلم أنه قد فسخ عزمه وحل عقده.

وقال إبراهيم الخوَّاص رحمه الله: ليس من آداب الفقراء - يعنى الصوفية - أن يكون له سبب يرجع إليه متى احتاج، أو يدان يعمل بهما إذا أراد، أو لسان يطلب به إذا جاع، أو همَّة يطرق بها عند الشدائد إلى الناس، فهذه لهؤلاء أسباب وذخيرة لشدائدهم وأرباب.

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: إذا لقيتَ الفقير فالْقَهُ بالرفق ولا تلقه بالعلم، فإن الرفق يؤنسه والعلم يوحشه.

باب ذكر آدابهم في الصحبة

قال الشيخ [أبو نصر] رحمه الله: حُكى عن جماعة من المشايخ عن إبراهيم بن شَيْبان رحمه الله تعالى أنه كان يقول: كنا لا نصحب من يقول نعلى [وركْوتى].

وقال رجلٌ لسهل بن عبد الله رحمه الله: إنى أريد أن أصحبك، فقال له سهل: إذا مات أحدنا فمن يصحب الآخَرُ؟[1] فليصحبه الآن، وقال رجل لذى النون المصرى رحمه الله تعالى: من أصحبُ؟ فقال: من إذا مرضتَ عادك، وإذا أذنبت تاب عليك، وقال بعضهم: كل صاحب تقول[2]؟ قم بنا، يقول: إلى أين؟ فليس ذاك بصاحب.

وعن ذى النون رحمه الله أنه قال: لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة [والمحاربة].

وقال أحمد بن يوسف الزجاجى رحمه الله: مثل المصطحبين مثل النورين إذا اجتمعا أبصرا باجتماعهما ما لم يكونا يبصرانه قبل ذلك.

والخلاف أصل كل فُرقة، وهى لطيفة الشيطان فى افتراق المتحابين فى الله تعالى، قال أبو سعيد الخراز رحمه الله: صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بينى وبينهم خلاف، فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: لأنى كنت معهم على نفسى.

---

(١) لعل هنا جملة سقطت، وربما كانت «فقال: الله، فقال سهل...».

(٢) لعل كلمة: «له» ساقطة من النص.

وقال الجنَيْد رحمه الله تعالى: لأن يصحبنى رجل فاسق حسنُ الخُلق أحبُّ إلى من أن يصحبنى قارئ سيِّئُ الخلق.

وقال الجُنَيْد رحمه الله: رأيت مع أبى حفص النيسابورى رحمه الله تعالى إنسانًا أصلع كثير الصمت لا يتكلم، فقلت لأصحابه: من هذا؟ فقيل لى: هذا إنسان يصحب أبا حفص، ويخدمنا، وقد أنفق عليه مائة ألف درهم كانت له، واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه، ما يسوِّغه أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة.

وقال أبو يزيد البسطامى رحمه الله تعالى: صحبت أبا على السندى، فكنت ألقنه ما يقيم به فَرْضه، وكان يعلمنى التوحيد والحقائق صَرْفًا.

وقال أبو عثمان: صحبتُ أبا حفص رحمه الله تعالى وأنا غلام حدث، فطردنى وقال: لا تجلس عندى، فلم أجعل مكافأتى له على كلامه أن أُولِّيَ ظهرى إليه، فانصرفتُ أمشى إلى خلف ووجهى مقابلٌ له، حتى غبت عنه، واعتقدت أن أحفر لنفسى بئرًا على بابه، وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا بإذنه، فلما رأى ذلك منى قربنى وقبلنى وصيرنى من خواص أصحابه إلى أن مات.

وسمعتُ ابن سالم يقول: صحبت سهل بن عبد الله، رحمه الله، ستين سنة، قال فقلت له، يومًا، قد خدمتك ستين سنة ولم ترنى يومًا واحدًا من هؤلاء الذين يقصدونك، يعنى البدلاء والأولياء فقال: [لى] ألستَ هو ذا تدخلهم علىَّ كل يوم؟ أما رأيتَ صاحب الفوطة والسواك الذى كان يكلمك بالأمس؟ كان منهم.

وقال إبراهيم بن شَيْبان رحمه الله تعالى كنا نصحب أبا عبد الله المغربى رحمه الله ونحن شباب ويسافر بنا فى البرارى والفلوات وكان معه شيخ اسمه حسنٌ،

و [كان] قد صحبه سبعين سنة، فكان إذا جرى من أحدنا خطأ وتغير عليه الشيخ نتشفع إليه بهذا الشيخ [الذى يسمى حسنًا] حتى يرجع [لنا] إلى ما كان.

وذكر عن سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى أنه كان يقول لبعض أصحابه يومًا إن كنت ممن يخاف السبع فلا تصحبنى.

قال يوسف بن الحسين [الرازى] قلت لذى النون رحمه الله تعالى: من أصحب؟ فقال: من لا تكتمه شيئًا يعلمه الله منك.

وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى إذا صحبه إنسان يشارطه على ثلاثة أشياء: أن يكون الخدمة، والأذان له، وأن يكون يده فى جميع ما يفتح الله عليهما من الدنيا كَيَدِه، فقال له رجل من أصحابه: أنا لا أقدر على ذلك، فقال: أعجبنى صِدْقك، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى ربما ينطر البساتين، ويعمل فى الحصاد، ويُنْفق على أصحابه.

وقال أبو بكر الكتانى رحمه الله: صحبنى رجل، وكان على قلبى ثقيلاً، فوهبت له يومًا شيئًا كساءً أو ثوبًا على أن يزول ما فى قلبى فلم يزل، فأخذت به يومًا إلى البيت أو إلى مكان فقلت له: ضع رجْلك على خدِّى، فأبى، فقلت له: لا بدَّ من ذلك، ففعل، فزال ما كنت أجده فى قلبى عليه. أو كما قال.

قال أبو نصر: حكى لى هذه الحكاية الدُّقى، وقال: قصدت من الشام إلى الحجاز حتى سألتُ [أبا بكر] الكتَّانى عن هذه الحكاية.

قال أبو على الرِّباطى رحمه الله تعالى: صحبت عبد الله المروْزى رحمه الله، وكان يدخل البادية قبل أن أصحبه بلا زادٍ، فلما صحبته قال لى: أيُّمَا أحبُّ إليك تكون أنت الأمير أو أنا؟ فقلت: لا، بل أنت الأمير، فقال: وعليك الطاعة، فقلت: نعم، فأخذ مِخْلاَةً ووضع فيها الزاد وجعل على

ظهره، فـإذا قلت له: أعطنى حـتى أحمله، يقـول: ألستُ أنا الأمير؟ فـعليك الطاعة، قال: فـأخذنا المطر ليلة فوقف على رأسى [ليلة] إلى الصباح وعليه كساء، وأنا جالسٌ يمنع عنى المطر، فكنت أقول مع نفسى: ليتنى متُّ ولم أقل له أنت الأمير، ثم قال لى: إذا صحبك إنسان فاصحبه كما رأيتنى صحبتك، أو كما قال.

وقال سهل بن عـبد الله رحمه الله تعالى: اجتنب صـحبة ثلاثة أصناف من الناس: الجبابرة الغافلين، والقرآء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين.

فهـذا صحـبة بعـضهم مع بـعض يكون على هذا المعنى الذى ذكـرت فى الحكايات، وفى القليل كفاية للعاقل، وبالله التوفيق.

باب ذكر آدابهم عند مجاراة العلم

قال الشيخ رحمه الله: سمعتُ أحمد بن على الوجيهى يقول: سمعت أبا محمد الجريرى رحمه الله يقول: الجلوس للمذاكرة غلق باب الفائدة، والجلوس للمناصحة فتح باب الفائدة.

وقال أبو يزيد رحمه الله: من لم ينتفع بسكوت المتكلم لم ينتفع بكلامه.

وقال الجنيد رحمه الله: كانوا يكرهون أن يتجاوز اللسان مُعتقَدَ القلب.

وحُكى عن أبى محمد الجريرى أنه قال: الإنصاف والأدب أن لا يتكلم الرفيع فى هذا العلم حتى يسأل.

وقال أبو جعفر بن الفَرَجى صاحب أبى تراب النخشبى رحمه الله مكثتُ عشرين سنة لا أسأل عن مسألة إلا كانت متازلتى فيها قَبْلَ قولى.

وقال أبو حفص رحمه الله تعالى: لا يصح الكلام إلا لرجل إذا سكت خاف العقوبة بسكوته، وقال: جاء رجل إلى أبى عبد الله أحمد بن يحيى الجلاَّء، رحمه الله تعالى، وسأله عن مسألة فى التوكل، وعنده جماعة، فلم يجبه ودخل البيت، وأخرج إليهم صرة فيها أربعة دوانيق، وقال: اشتروا بها شيئًا، ثم أجاب الرجل عن سؤاله، فقيل له فى ذلك فقال: استحييتُ من الله أن أتكلم فى التوكل وعندى أربعة دوانيق.

وحُكى عن أبى عبد الله الحُصْرى أنه قال: قلت لابن يزدانيار، عند مجاراة العلم، ما أرى مع الخلق كلهم إلا خبرًا عن الغيب فيمكنك أن تكون ذلك الغيب قال: فقال لى: أَعِدْ ما قلت، قلتُ: لا أفعل.

وقال إبراهيم الخواص رحمه الله تعالى: لا يحسن هذا العلم إلا لمن يعبر عن وجده وينطق به عن فعله.

وقال أبو جعفر الصيَّدلانى سأل رجل أبا سعيد الخراز رحمه الله، مسألةً، وكان يشير فى سؤاله، فقال له أبو سعيد: نحن نبلغ مكانك وموافقتك فيما تريد بلا هذه الإشارة، فإن أكثرَ الناسِ إشارةً إلى الله سبحانه أبعدُهم من الله تعالى.

وقال الجنَيْد رحمه الله تعالى: لو علمتُ أن علمًا [تحت أديم السماء] أشرفُ من علمنا هذا لسعيت إليه وإلى أهله حتى أسمع منهم ذلك، ولو علمت أن وقتًا أشرف من وقتنا هذا مع أصحابنا ومشايخنا ومسائلنا ومجاراتنا هذا العلم لنهضت إليه.

وقال الجنيد رحمه الله: ما عندى عصابةٌ ولا قومٌ اجتمعوا على علم من العلوم أشرفُ من هذه العصابة، ولا أشرف من علمهم، ولولا ذلك ما جالستُهم، ولكنهم كذا عندى [و] بهذه الصورة.

وقال أبو على الروذبارى رحمه الله تعالى: علمُنا هذا إشارة فإذا صار عبارةً [صار] خفًا.

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى: ذُكر لى أبو حاتم العطار وفَضْلُهُ، وكان بالبصرة، فرحلتُ إليه من مصر حتى وافيت البصرة، فدخلت جامع البصرة، فإذا به جالسًا وحوله جماعة من أصحابه وهو يتكلم عليهم، فأول شىء سمعته منه يقول، بعدما نظر إلىَّ أنه قال: إنما جلست لواحد، وأينَ ذلك الواحد؟ ومن لى بذلك الواحد ثم أشار إلىَّ إنه أنت، ثم قال: أظْهَرَهم إلى [ما] أهَّلَهم، وأعانهم على ما ألزمهم، وغيَّبهم عما أحضرهم، فهم به له عاملون، ومنه إليه راجعون.

وحُكى عن الجنَيْد رحمه الله تعالى أنه قال: [لو كان علمُنا هذا مطروحًا على مزبلة لم يأخذ كل واحد منه إلا حظه على مقداره].

وفيما حُكى عن الشبلى أنه قال لأهل مجلسه يومًا: أنتم عينُ القلادة، يُنْصَبُ لكم منابر من نور، تغبطكم الملائكة، فقال رجل على أى شىء تغبطهم الملائكة، قال: يتحدثون بهذا العلم.

سمعتُ جعفر الخلدى يقول: سمعت الجنيد رحمه الله يقول: قال سَرى

السَّقَطى رحمه الله تعالى، بلغنى أن جماعة يجلسون حولك فى الجامع، قلت: نعم، هم إخوانى نتذاكر العلم ونستفيد بعضنا من بعض، فقال: هيهات يا أبا القاسم صرتُ مُناخًا للبطالين، وعن الجنيد رحمه الله أنه قال: كان سَرِى، رحمه الله تعالى، إذا أراد أن يفيدنى شيئًا سألنى [مسألةً]، فقال لى يومًا: ما الشكر [يا غلام]؟ فقلت: أن لا تعصى الله بنعمٍ أنعم [الله] بها عليك، فاستحسن ذلك منى، وكان يستعيده منى ويقول: كيف قلتَ فى الشكر؟ أعدها علىَّ [فأعيدها عليه]، قال أبو نصر ووجدتُ هذه الحكاية بخط أبى على الروذبارى عن الجنيد.

وذُكر عن سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى: أنه كان يُسأل عن مسائل من العلم فلا يتكلم فيها، فلما كان بعد مدة تكلم فيها وأحَسَنَ الكلام، فسُئل عن امتناعه قبل ذلك، فقال: كان ذو النون فى الأحياء، ما أحببتُ أن تكلم فى العلم وهو فى الأحياء: إجلالا له [وحرمةً].

وقال أبو سليمان الدرانى رحمه الله تعالى: لو أعلم أن بمكة رجلا يفيدنى فى هذا العلم كلمة، يعنى فى علم المعرفة، لحضرنى فيه أن أمشى على رجلىَّ، ولو ألف فرسخ، حتى أسمعها منه.

وقال أبو بكر الزقاق: سمعت من الجنيد رحمه الله تعالى كلمة فى الفناء منذ أربعين سنة هيجتنى وأنا بعدُ فى غمارها[1]، سمعت الدقى يقول، سمعت الزقاق يقول هذه الحكاية.

سمعت الدقى يقول: قيل لأبى عبد الله بن الجلاء رحمه الله تعالى: لِمَ سُمى أبوك الجلاء؟ فقال: ما كان بجلاء يجلو الحديد، ولكن كان إذا تكلم على القلوب جلاها من صدأ الذنوب.

وكان حارث المحاسبى رحمه الله يقول: أعز الأشياء فى دار الدنيا عالم

(١) فى هامش إحدى النسخ «خمار».

يعمل بعلمه، وعارف ينطق عن حقيقته، وسمعت ابن علوان يقول: كان السائل إذا وقف على الجنيد رحمه الله تعالى وسأله عن المسألة فلم يكن من حاله ذلك، يقول الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا كرر عليه السؤال يقول: ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ﴾(١).

وحُكى عن أبى عمرو الزجاجى رحمه الله أنه قال: إذا جالستَ شيخًا وهو يتكلم فى علم من العلوم، واشتد بك البول، فلو بلتَ فى مكانك خير لك من أن تقوم من موضعك: لأن البول يُغسل بالماء، وما يفوتك من فائدتك فى كلامه عند قيامك، لا تدركه أبدًا.

وقال الجنيد رحمه الله، قلت لابن الكُرَّينى رحمه الله: الرجل يتكلم فى العلم الذى لا يبلغ استعماله علمه، فأحب إليك، إذا كان هذا وصفه، أن يسكت، أو يتكلم؟ فأطرق، ثم رفع رأسه فقال: [لى]: إن كنت هو فتكلم، وكان الشبلى رحمه الله يقول: ما ظنك بعلمٍ عِلْمُ العلماء فيه تهمة، وقال سرى السقطى رحمه الله تعالى: من تزين بعلمه كانت حسناته سيئات.

قال الشيخ رحمه الله: لكل حكاية من هذه الحكايات، شرح، واستنباط، وبيان، ولا يخفى على أهل الفهم إن شاء الله تعالى.

(١) آل عمران: ١٧٣.

باب ما ذكر من آدابهم فى وقت الطعام والاجتماعات والضيافات

قال الشيخ رحمه الله تعالى: حُكى عن أبى القاسم الجنيد رحمه الله أنه قال: تنزل الرحمة [من الله عز ذكره] على الفقراء، يعنى الصوفية، فى ثلاثة مواطن: عند أكلهم الطعام فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند مجاراة العلم، فإنهم لا يتكلمون إلا فى أحوال الصديقين والأولياء، وعند السماع، فإنهم لا يسمعون إلا من حق، ولا يقومون إلا بوجده.

وقال أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق الطوسى: قال لى محمد بن منصور الطوسى، وقد نزل علينا أبا العباس: أقم عندنا ثلاثا، فإن زدت على ثلاثة فهو صدقة منك علينا، وذُكر عن سرى السقطى رحمه الله يقول: آه على لقمة ليس لله علىَّ فيها تبعة، ولا لمخلوق علىَّ فيها منة.

وقال أبو على النَّوْرباطى: إذا دخل عليكم فقير فقدموا إليه شيئًا يأكل، وإذا دخل عليكم الفقهاء فسلوهم عن مسألة، وإذا دخل عليكم القراء فدلوهم على المحراب.

قال أبو بكر الكتَّانى: قال أبو حمزة: دخلت على سرى رحمه الله فجاءنى بفتيت فأخذ يجعل نصفه فى قدح، فقلت له: أَيْشَ هو ذا تعمل؟ أنا أشرب هذا كله فى مرة؟ فضحك، وقال: هذا أفضل لك من حَجَّة، وكان أبو على الروذبارى، رحمه الله، إذا رأى الفقراء مجتمعين فى مكان واحد، يستشهد بهذه الآية: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾[1].

(١) الشورى: ٢٩.

وكان أبو على يقول: إذا اجتمع الفقراء فى مكان واحد يكون أرفقَ بهم، ويفتح عليهم، ويستشهد بهذه الآية: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يفتح﴾ الآية[1].

قال جعفر الخلدِى رحمه الله: هذا الأكل بعد الأكل الذى ترون أصحابنا يقال له الجوع المفرط، وقال جعفر رحمه الله: إذا رأيت الفقير يأكل كثيرًا فاعلم أنه لا يخلو من إحدى ثلاث، إما لوقت قد مضى [عليه]، أو لوقت [يريد أن] يستقبله، أو لوقت هو فيه.

وقال الشِّبْلى رحمه الله تعالى: لو أن الدنيا لقمةٌ فى فم طفل لرحمتُ ذلك الطفل، وقال أيضًا: لو أن الدنيا بما فيها لقمة واحدة أكلتها، وأدعُ الخلق بلا واسطة مع الله تعالى، وقال بعضهم: أكلُ الطعام على ثلاثة، مع الإخوان بالانبساط، ومع أبناء الدنيا بالأدب، ومع الفقراء بالإيثار.

قال الشيخ رحمه الله: ليس هذا من آداب الفقراء، لأن من آداب الفقراء الصوفية أن لا يكونوا عند أكل الطعام مغتمين ولا مستوحشين ولا متكلفين، ولا يختارون الكثير الردئ على القليل النظيف الجيد، ولا يكون لأكلهم وقت معلوم، وإذا حضر الطعام فلا يلقمون بعضهم بعضا، وإن لقموهم فلا يردون، ويكرهون الطعام الكثير الجافى، وكلما كانوا أشد جوعًا فيكون أدبهم فى الأكل أحسن، سمعت شيخا من الأجلة رحمه الله تعالى يقول: جُعْتُ عشرة أيام لم آكل شيئًا، ثم قدِّم إلىَّ الطعام فكنت آكل بأصبعين، فقال لى صاحب الطعام: استعمل السنة وكل بثلاثة أصابع.

وحُكى عن إبراهيم بن شَيْبان رحمه الله تعالى أنه قال: منذ ثمانين سنة ما

(١) سبأ: ٢٦ وتكملة الآية ﴿بيننا بالحق وهو الفتاح العليم﴾.

أكلت شيئا بشهوتى، وكان أبو بكر الكتانى الدينورى ببغداد ولم يكن يأكل شيئا يكون سبب إظهاره السؤال والمعارضة.

وعن الجنيد رحمه الله تعالى أنه قال: من النذالة أن يأكل الرجل بدينه.

وقال أبو تُرَاب: عُرِض علىَّ طعام فامتنعتُ من أكله فعوقبت بالجوع أربعة عشر يومًا، فعلمت أنى عوقبت، فاستغثتُ إلى الله تعالى وتبت.

وكان الجنيد رحمه الله تعالى يقول: بصفاء المطعم والملبس والمسكن يصلح الأمر كله، وحُكى عن سرى السقطى رحمه الله أنه كان يقول: أكلهم أكل المرضى ونومهم نوم الغرقى، وقال أبو عبد الله الحصرى رحمه الله تعالى: مكثت سنين لا يصلح لى أن أقول لا أشتهى، ولا يصلح لى أن آكل.

وحُكى عن فَتْح المَوْصِلى رحمه الله تعالى، أنه دخل على بشر الحافى رحمه الله وجاءه زائرًا من المَوْصِل، فأخرج بشر درهما وأعطاه لأحمد الجلاء، وكان يخدمه، فقال: مُرَّ إلى السوق اشتر طعامًا جيدًا وأُدْمًا طيبًا، قال: فخرجت، فاشتريت خبزًا نظيفًا، وقلت: لم يقل النبىّ ﷺ [٢٢٧] لشىء من الطعام اللهم بارك لنا فيه وزدْنا منه إلا اللبن: فاشتريت اللبن واشتريت تمرًا جيدًا، وجئت، وقدمت إليه، فأكل ما أكل، وأخذ الباقى وخرج، فلما خرج قال بشرٌ لمن كان عنده: هذا فتح الموصلى جاءنى يزورنى تدرون لِمَ لم يقل لى: كلْ؟ قال: لأنه ليس للضيف أن يقول لصاحب الدار كل، تدرون لم قلتُ: اشتر طعامًا طيبًا؟ لأن الطعام الطيب يستخرج خالص الشكر، تدرون لم حمل ما بقى؟ لأنه إذا صح التوكل لم يضر الحَمْلُ.

وقيل لمعروف الكَرْخى رحمه الله تعالى: كلُّ مَن دعاك تَمُرُّ إليه! فقال: إنما أنا ضيف أَنْزلُ حيث أنزلونى.

وحُكى عن أبى بكر الكتانى رحمه الله تعالى أنه قال: اجتمع سنة من السنين هاهنا، يعنى بمكة، مقدار ثلاثمائة نفس من الفقراء والمشايخ، فكانوا كلهم فى موضع واحد، وكان لا يجرى فيما بينهم العلم والمذاكرة، ويكون أخلاق بينهم ومكارم وإيثار بعضهم مع بعض، وكان أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى يقول: إذا أردتَ حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فلا تأكل حتى تقضيها فإن الأكل يميت القلب، وحُكى عن رُوَيْم رحمه الله أنه قال: منذ عشرين سنة لم يخطر بقلبى ذكر الطعام حتى يحضر.

وسمعت أحمد بن عطاء أبا عبد الله الروذبارى يقول: كان أبو على الروذبارى رحمه الله، اشترى أحمالا من السكر الأبيض، ودعا جماعة من الحلاويين فاتخذوا من ذلك السكر جداراً عليه شُرُفات، وفى الجدار محاريب على أعمدة منقوشة كلها من السكر، ثم دعا الصوفية حتى هدموها وكسروها وانتهبوها، وسمعت أبا عبد الله الروذبارى أنه كان يقول: اتخذ رجل ضيافة، فأوقد ألف سراج، فقال له رجل: قد أسرفت، فقال له: ادخل الدار فكل سراج أوقدته لغير الله تعالى فأطفئها، فدخل الدار ليطفئها فما قدر أن يطفى منها سراجًا واحدًا وانقطع.

وحُكى عن أبى عبد الله الحصرى، رحمه الله، أنه قال: سمعت أحمد بن محمد السُّلمى يقول: كنت بمكة، وكان لى ثلاثة أيام لم آكل شيئًا، فوقع فى نفسى أن أجمع النساك ومن بالحرم من الفقراء وأهل الفضل، قال: فاكتريت أحد عشر مضربًا، وأقبلت الفتوح من كل جانب، فلم يزل على ذلك أحد عشر يومًا، وهو فى طول تلك الأيام لم يأكل شيئًا.

باب فى ذكر آدابهم فى وقت السماع والوجود

قال الشيخ رحمه الله، حُكى عن الجنيد رحمه الله تعالى: أنه كان يقول: السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فترْكهُ أولى: الإخوان، والزمان، والمكان، وحُكى عن الحارث المحاسبى رحمه الله تعالى أنه كان يقول: ثلاث إذا وُجدتْ مُتِعَ بهنّ، وقد فقدناهنَّ: حسن القول مع الديانة، وحسن الوجه مع الصيانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

وقال أحمد بن مقاتل رحمه الله تعالى: (لمّا) دخل ذو النون رحمه الله تعالى: بغداد اجتمع إليه جماعة من الصوفية، ومعهم قوّالٌ يقول: فاستأذنوه بأن يقول: شيئًا بين يديه، فأذن لهم، فابتدأ يقول:

صغيرَ هَواكَ عَذبنى ... فكيْفَ به إذا احْتنكَا
وأنْتَ جَمعْتَ منْ قَلبى ... هَوًى قد كانَ مُشْتركَا
أمَا تَرْثى لمُكْتَئبِ ... إذا ضحِكَ الخلىُّ بكَى

فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض، قال: ثم قام رجل من القوم يعنى يتواجد، فقال له ذو النون رحمه الله تعالى: ﴿الذِى يَرَاكَ حِينَ تَقومُ﴾[1] فجلس ذلك الرجل.

قال: وسئل إبراهيم المارستانى، رحمه الله، عن الحركة عندالسماع وتخريق الثياب، فقال: بلغنى أن موسى عليه السلام قصّ فى بنى إسرائيل، فمزّق واحدٌ قميصه، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام، قلْ له: مزّقْ لى قلبك ولا تمزّق ثيابك.

(١) الشعراء آية ٢١٨.

قال الشيخ رحمه الله تعالى: ويذكر فى باب وصف السماع، وبيان الوجد تمام هذا الباب إن شاء الله تعالى:

وقد حُكى عن الجنيد أنه قال: لا يضرّ نقصان الوجد مع فضل العلم، وإنّما يضرّ فضل الوجد مع نقصان العلم، والمعنى فى ذلك، والله أعلم، أن أفضل العلم يوجب ضبْط الجوارح، عن الحركات، عند السماع على قدر طاقة المستمع حتى يفيض على جوارحه بعد جهده، وليس من الأدب استدعاء الحال والتكلّف للقيام، والفقراء المجرَّدون يليق بهم القيام والمطايبة من غير تذاهب ولا تساكن إلى ذلك، وترْكهُ أولى بهم، وليس من الأدب المداخلة والمزاحمة فى السماع مع أهل السماع، والسكون مع حضور القلب والوقوف على مرامى المستمعين ومعانيهم أولى من المداخلة معهم بالتكلّف، وربّما يصير التكلّف عادةَ فيكون ذلك أغلظَها على القلوب وأظلمَها للوقت، وكلّ قلب ملوث بحُب الدنيا، فسماعه لَهْوٌ، وإن تلفت نفسه فيه وذهب روحه.

باب فى ذكر آدابهم فى اللباس

قال الشيخ رحمه الله: حُكى عن أبى سليمان الدارانى رحمه الله تعالى: أنه لبس قميصًا أبيض، يعنى غسيلاً، فقال له أحمد: لو لبستَ قميصًا أجودَ من هذا، أو كما قال، فقال له: يا أحمد، ليت قلبى فى القلوب مثل قميصى فى الثياب، وحُكى عن أبى سليمان الدارانى رحمه الله تعالى أنه قال: يلبس أحدكم عباءة بثلاثة دراهم، وشهوته فى قلبه خمسة دراهم، فما يستحى أن تُجاوز شهوتُه لباسه، وبلغنى عنه أنه كان يقول: فى قِصَر الثوب ثلاث خصال محمودة: استعمال السُّنة، والنظافة، وزيادة خِرَقه.

قال: ودخل جماعةٌ على بشْر بن الحارث رحمه الله تعالى، وعليهم المرقّعات، فقال لهم بشر: يا قوم، اتّقوا الله ولا تُظهروا هذا الزى، فانكم تُعْرَفون به وتُكْرَمون له، فسكتوا كلّهم، فقام شابٌّ من بينهم فقال: الحمد لله الذى جعلنا ممّن يعرف به ويكرم له، والله لنُظهرن هذا الزى حتى يكون الدين كلّه لله، فقال له بشر: أحسنتَ يا غلام! مثلك من يلبس المرقّعة.

وسمعت الوجيهى يقول: سمعت الجريرى يقول: كان فى جامع بغداد فقير لا تكاد تجده إلا فى ثوب واحد فى الشتاء والصيف، فسُئل عن ذلك، فقال: قد كنت ولعتُ بكثرة لبس الثياب، فرأيت ليلة، فيما يرى النائم، كأنّى دخلتُ الجنّة، فرأيت جماعةً من أصحابنا، من الفقراء، على مائدة، فأردت أن أجلس معهم، فإذا بجماعة من الملائكة أخذوا بيدى وأقامونى، وقالوا لى: هؤلاء أصحاب ثوب واحد وأنت فلك قميصان فلا تجلس معهم، فانتبهتُ، فنذرت أن لا ألبس إلا ثوبًا واحدًا إلى أن ألْقَى الله عزّ وجلّ.

وقال أبو حفص الحداد رحمه الله تعالى: إذا رأيتَ ضَوْءَ الفقير فى ثوبه فلا ترجُ خيره.

وحُكى عن يحيى بن مُعاذ الرازى أنه كان يلبس الصوف والخُلْقان فى ابتداء أمره، ثم كان فى آخر عمره يلبس الخزّ واللين، فقيل ذلك لأبى يزيد رحمه الله تعالى، فقال: مسكين يحيى؟ لم يصبر على الدون فكيف يصبر على البخْت[1].

وسمعت طَيْفور يقول: مات أبو يزيد ولم يترك إلا قميصه الذى مات فيه، وكانت[2] عاريّة عليه، فردوه إلى صاحبها، ومات ابن الكُرّينى، وكان أستاذ الجُنَيْد رحمه الله، وعليه مرقعته، فكان فرد كُمه وتخاريزه عند جعفر الخلْدى فيه ثلاثة عشر رطلا كما بلغنى.

ويقال إن أبا حفص النيسابورى، رحمه الله، كان يلبس قميصًا خزّا، وثيابًا فاخرةً، وكان له بيت فرش فيه الرمل.

قال الشيخ رحمه الله تعالى: وآداب الفقراء فى اللباس، أن يكونوا مع الوقت، إذا وجدوا الصوف أو اللبَد أو المرقعة لبسوا، وإذا وجدوا غير ذلك لبسوا، والفقير الصادق أَيْشَ ما لبس يحسن عليه، ويكون عليه فى جميع ما يلبس الجلالة والمهابة، ولا يتكلف ولا يختار، وإذا كان عليه فضلٌ يواسى من ليس معه، ويؤثر على نفسه إخوانه بإسقاط رؤية الإيثار، ويكون الخُلْقان أحب إليه من الجديد، ويتبرم بالثياب الكثيرة الجيّدة، ويضن بالخُرَيْقات الخلق القليلة، ويتكلف للنظافة والطهارة؛ وإن أخذتُ فى ذكر ما يجب فى هذا الباب يطول وفيما ذكرته كفاية.

(١) فى نسخة أخرى: البحت.

(٢) قوله: وكانت، الصواب أن يقال: وكان لأن القميص مذكر وليس بمؤنث.

باب في ذكر آدابهم في أسفارهم

قال الشيخ رحمه الله تعالى: حُكى عن أبى علىّ الروذبارى، رحمه الله تعالى، أنه جاء إليه رجل، وكان عزْمُهُ أن يسافر، فقال: يا أبا علىّ تقول شيئًا؟ فقال: يا فتى، كانوا لا يجتمعون عن مَوْعد، ولا يفترقون عن مشورة.

قيل: وسُئل رُوَيْم رحمه الله تعالى، عن أدب المسافر فى سفره إذا أراد أن يسافر، فقال: لا يجاوز همَّه قدَمُهُ، وحيث ما وقف قلبه يكون منزله.

سمعت هذه الحكاية عن عيسى القصّار الدينورى قال: سألتُ رُوَيْمًا.

وحُكى عن محمد بن إسماعيل أنه قال: كنّا نسافر منذ عشرين سنة، أنا وأبو بكر الزقّاق وأبو بكر الكتّانى رحمة الله عليهم، لا نختلط بأحد من الناس، ولا نعاشر أحدًا، فإذا قدمنا (إلى) البلد، إن كان فيه شيخ سلمنا عليه وجالسناه إلى الليل، فإذا جاء الليل رجعنا إلى مسجد، فيقدم الكتّانى فيصلّى من أول الليل إلى أن يصبح، ويختم القرآن، ويجلس الزقّاق مستقبل القِبْلة، وأنا متفكّر إلى أن نُصبح، ثم يصلى كلّنا صلاة الغداة بوضوء العتمة، فإذا وقع معنا إنسان ينام كنّا نرى أنه أفضلنا.

وقال أبو الحسن المزين رحمه الله تعالى: حكم الفقير أن يكون كل يوم فى منزل، ولا يموت إلا بين منزلين. وفيما حُكى عن المزين الكبير رحمه الله أنه قال: كنت يومًا مع إبراهيم الخواص رحمه الله، فى بعض أسفاره، فإذا عقربٌ يسعى على فخذه، فقمت لأقتلها، فمنعنى من ذلك وقال لى: دعها، كل شىء مفتقر إلينا، ولسنا مفتقرين إلى شىء.

وكان الشبلى، رحمه الله تعالى، إذا نظر إلى من يسافر من أصحابه، ويرى تقعُّطهم فى أسفارهم يقول: وَيلكم! أبدٌ مما ليس منه بد.

وحُكى عن أبى عبد الله النصيبى، رحمه الله تعالى، قال: سافرت ثلاثين سنة ما خِطْتُ قط خرقة على مرقعتى، ولا عدلت إلى موضع علمت أن فيها رفقًا، ولا تركت أحدًا يحمل معى شيئًا.

قال الشيخ رحمه الله تعالى: ليس من آدابهم أن يسافروا للدَّوران والنظر إلى البلدان وطلب الأرزاق، ولكن يسافرون إلى الحج والجهاد[1]، ولقاء الشيوخ، وصلة الرحم، ورد المظالم، وطلب العلم، ولقاء من يفيدون منهم شيئًا فى علوم أحوالهم أو إلى مكان له فضل وشرفٌ، ولا يتركون فى أسفارهم شيئًا من أخلاقهم وأورادهم التى كانوا يعملونها فى الحضر، ولا يغتنمون قصر الصلاة، وإفطار شهر رمضان، وإذا كان جماعة يمشون بِمَشْىِ أضعفهم، ويخدمهم الأشفقُ عليهم، وإذا جلس واحد لقضاء حاجة وقفوا لفراغه، وإن تخلف[2] واحدٌ انتظروه، وإن عجز أحدهم عن المشى أو اعتل أقاموا عليه، وإذا دخل وقت الصلاة لم يبرحوا من موضعهم حتى يصلوا، إلا أن يكون معهم ماء أو بقرْب منهم الماء، وهذا حال الضعفاء.

وأما حال الأقوياء، فكما قال إبراهيم الخواص رحمه الله تعالى: ما هابنى شىء قط إلا رَكِبتهُ.

وكما سُئل أبو عمران رحمه الله عن الجزع والعجز الذى يلحق المسافر فى

(١) يعتقد كثير من الناس أن الصوفية لاشأن لهم بالناحية العملية قط، ويسرنا هنا، أن نذكر هؤلاء، أن الصوفية كانت لهم جولات موفقة فى الحروب وكانوا يبيعون أنفسهم لله، مجاهدين صابرين وها هو المؤلف ينبه إلى أن من أغراض الصوفية فى أسفارهم: الجهاد.

(٢) قوله: وإن يخلف: الصواب، تخلف.

سفره فقـال: إذا خفتَ عليه فألقه فى اليم، يعنى: لا تبال أَيْـشَ ما لحقك بعد ما تكون متوجهًا إلى الله تعالى وهو أبو عمران الطبرستانى.

وقال أبو يعقوب السـوسى رحمه الله تعالى: يحتاج المسـافر فى سفره إلى أربعة أشـياء، وإلا فلا يسـافر: علِم يسوسـه، وورعٌ يحجزه، ووجـدٌ يحمله، وخُلقٌ يصونه.

وقال أبو بكر الكتـانى، رحمه الله: إذا سافـر الفقيـر إلى اليمن، ثم رجع إليه مرة أخرى، هجروه، وتآمروا بهجرانه.

ويقال: إنما سُمى «السفر» سفرًا، لأنه يُسفر عن أخلاق الرجال.

فهذا ما حضرنى من آدابهم فى أسفارهم. وبالله التوفيق.

باب فى ذكر آدابهم فى بذل الجاه والسؤال والحركة من أجْل الأصحاب

قال الشيخ رحمـه الله تعالى: سمعت جماعة من أصحـاب الشيخ أبى عبد الله الصُّبـيحى يقولون: لا يصح الفـقر للفقـير حتى يخرج من الأمـلاك، فإذا خرج من الأملاك يتـولد له جاهٌ من ذلك، فينبغى أن يبذل جـاهه حتى لا يبقى له جاه، فإذا بذل جاهه بقى عليه قوة نفسـه فيبذل ذلك، يعنى نفسه، لأصحابه بالخدمة لهـم والحركة فى أسبابهم، فـعند ذلك يصح له الفقر سمـعت أبا عبد الله الروذبارى يقول: دخل المظفر القِرْميسينى الرملـة ومعه السيد، وكان لهما جاه عظيم عند أغنياء البلد، فما زالوا يبذلون جاههم وينفقون على الفقراء حتى لم يبق لهم جـاه عند أحد، وكان لا يعطـيهم أحد شـيئًا بـسؤال ولا بدَين ولا برهن، فعند ذلك كان يطيب وقتهم. وقيل لإبراهيم بن شيبان رحمه الله: أَيْشَ حالُ مظفر القـرميسينى الخرقتـان والسؤال والخدمة لأصحابه، فـقال: قد رفع قدمًا فى الفتوة لله فلا يريد أن يتأخر عن قدم رفعها لله تعالى.

وكان بعض الصوفـية ببغداد لا يكاد أن يأكل شيئًا إلا بـذُلِّ السؤال، فسئل عن ذلك، فقال: اخترتُ ذلك لشـدة كراهية نفسى ذلك ودخل شيخ من أجلة الشـيوخ بلدًا، فـرأى فيـهـا مريدًا قـد أجابتـه نفـسه لكل شىء من الطاعـات والعبادات والفقـر والتقلل، وكان قد تولد له من ذلك قبول عند العـامة، فقال له هذا الشيخ: لا يصح لك جميع ما أنت فيه إلا أن تُكَدِّى الكِسرَ من الأبواب ولا تأكل شيئًا غيرها، فصعب ذلك على المريد وعجز عن ذلك، فلما كبر سنه اضطُرّ إلى السؤال والحاجة، فكان يرى أن ذلك عقـوبة لمخالفته لذلك الشيخ فى أيام إرادته.

قال أبو نصر رحـمه الله تعالى: كان هذا الشيخ أبو عبـد الله بن المقرى، والشيخ الذى أمره بالسؤال أبو عبد الله السجزى رحمه الله.

وبلغنى عن شيخ من الأئمة أنه كان يصوم ويطلب لإفطاره كِسرًا من الأبواب ولا يأكل غيرها شيئًا إلى وقت إفطاره من الليلة الثانية، ففطن به رجل، فوضع بين يديه طعامًا فلم يأكل منه، وفارق ذلك الموضع الذى عُرف به، ولم يرجع إليه بعد ذلك.

وحُكى عن مِمْشاذ الدينورى أنه كان ربما يقدم عليه جماعة من إخوانه من الفقراء، فكان يدخل السوق ويجمع فى حجره كِسرًا من الدكاكين، ويحمل إليهم.

وحُكى عن بنان الحمّال أنه قال ما علمتُ قط بأنى صَفْعانٌ إلا مرة واحدة، رأيت فقيرًا يصوم النهار، ويخرج بعد المغرب إلى السوق، ويأخذ من كل دكان لقمةً، فإذا سد رمقه رجع إلى موضعه، فأخذته معى ليلة، وكنت آخذ من الناس الخبز الكثير واللحم والحلواء والفواكه وأدفع إليه حتى اجتمع معه من ذلك شيء كثير، فلما أراد أن ينصرف، قال لى: يا شيخ، أنت صاحب شَرْطة؟ فقلت: لا، أنا بُنان الحمّال، فرمى جميع ما كان معه فى وجهى، وقال لى: ياصفْعان، هذا الذى تفعله أنت إنما يفعله عندنا صاحب الشرطة لا المشايخ، كل من تقول له: هات فيعطيك ما تريد.

وحُكى عن بعض المريدين، وطلب شيئًا لأصحابه وأكل معهم، فأنكر عليه جماعة من المشايخ أكله معهم، وقالوا: خدعتك نفسك وطلبت لنفسك، ولو كنت طلبت لأصحابك وبذلك جاهك لهم لم تأكل معهم.

قال الشيخ رحمه الله تعالى: وحكم من يفعل ذلك أن يترك ذلك إذا صارت عادته، وسكنت إلى ذلك نفسه، ومن سأل الضرورة لم يأخذ إلا ما لا بد له من ذلك فإن أعطوه الكثير فيأخذ منه حاجته ويُخرج الباقى.

والأكل بالسؤال أجملُ من الأكل بالتقـوى، والفقير إذا اضطر إلى السؤال فكفارته صـدْقه، ومر على بعض المشـايخ أيامٌ ولم يأكل شيئًـا، وكان فى بلد غُرْبة حتى كاد يتلف، ولم يسأل، فـقيل له فى ذلك، فقال: منعنى عن السؤال قول النبى ﷺ : لو صدق السائل مـا أفلح من ردَّه، وكرهت أن يردنى مسلم فلا يفلح لقول النبى ﷺ .

باب في ذكر آدابهم إذا فتح عليهم شيء من الدنيا

قال الشيخ رحمه الله: قال أبو يعقوب النَّهْرجوري رحمه الله تعالى: سمعت أبا يعقوب السوسي رحمه الله تعالى، يقول: جاءنا فقير، ونحن بأرَّجان، وسهل بن عبد الله رحمه الله تعالى يومئذ بها، فقال: إنكم أهل العناية، فقد نزلت بي محنةٌ، قال سهل بن عبد الله رحمه الله: في ديوان المحن، وقعت منذ تعرضت لهذا الأمر، فما هي؟ قال: فتح لي شيء من الدنيا، فاستأثرت بها في غير ذي مَحْرم، ففقدت إيماني وحالي، فقال سهل لأبي يعقوب رحمهما الله تعالى: أيْشَ تقول في هذا؟ قال: فقلت: محنته بحاله أعظم من محنته بإيمانه، فقال سهل: مثلك يقول هذا.

وحُكي عن خير النساج رحمه الله تعالى، قال: دخلت بعض المساجد وإذا فيه فقير من الفقراء، وكنت أعرفه، فلما رآني تعلق بي، وبكى، وقال لي: أيها الشيخ، تعطَّف عليَّ، فإن محنتي عظيمة، فقلت: يا هذا ومامحنتك؟ قال لي: أيها الشيخ، تعطَّف عليَّ، فإن محنتي عظيمة، فقلت: يا هذا وما محنتك؟ قال لي: فقدت البلاء وقورنت بالعافية، وأنت تعلم أن هذه محنة عظيمة، قال: وكان قد فتح عليه شيء من الدنيا.

وقال أبو تراب النَّخْشَبِيّ رحمه الله تعالى: إذا توافرت النعم على أحدكم فليَبْكِ على نفسه فإنه سلك به غير طريق الصالحين.

وسمعت الوجيهي رحمه الله تعالى يقول حمل إلى بنان الحمال ألف دينار، وصبوها بين يديه، فقال للذى صبه: ارجع وخذه، ووالله لولا ما عليه من كتابة اسم الله تعالى لبُلْتُ عليها، هو ذا يغرر بي ببريقه، قال: وفتح لابن بنان رحمه الله تعالى أربعمائة درهم، وهو نائم، فوضعوها عند رأسه، فرأى في المنام كأن قائلاً يقول: من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى الله تعالى قلبه، فانتبه فأخذ منها دانقين وترك الباقي.

وسمعت ابن علوان رحمه الله تعالى يقول حُمل إلى أبى الحسين النورى رحمه الله ثلاثمائة دينار، قد باعوا عقاراً له، فجلس على قنطرة الصَّراة وهو يحذف بواحد واحد منها إلى الماء، ويقول: سيدى تريد أن تخدعنى عنك بهذا.

وحكى جعفر الُخلْدى رحمه الله تعالى، قال: كان ابن زيرى من أصحاب الجنيد رحمهما الله تعالى، وكان قد فُتح عليه شىء من الدنيا، فانقطع من الفقراء، فاستقبلنا يومًا وفى كمه منديل فيه دراهم كثيرة، فلما رآنا من بعيد قال: يا أصحابنا، إذا كنتم أنتم متعززين بالفقر، ونحن متعززون بالغنى، فمتى نلتقى؟ قال: ثم رمى إلينا بجميع ما كان فى كمه.

وقال أبو سعيد بن الأعرابى: كان فتى يصحب أبا أحمد القلانسى رحمه الله، ثم غاب عنه مدة، ثم رجع من سفره وقد فُتح عليه شىء من الدنيا واجتمع عنده مال، فقلنا لأبى أحمد: تأذن لنا أن نزوره؟ فقال: لا، فإنه كان يصحبنا على الفقر، ولو بقى حاله، كان ينبغى لنا أن نزوره، فإذا رجع من سفره على هذه الحالة فيجب عليه أن يزورنا.

وحكى أبو عبد الله الحصرى رحمه الله تعالى، قال: مكث أبو حفص الحداد رحمه الله بالرَّمْلة، وعليه خرقتان، وفى وَسَطه ألف دينار، وهو يمكث اليومين والثلاثة والأربعة وأبى أن يأكل منها، وهو يواسى الفقراء منها إلى أن فنى عن أخرها.

وقال الحصرى رحمه الله تعالى، خرجت مع الشبلى فى أيام القحط نطلب شيئًا لصبيانه، فدخل على إنسان فأعطاه دراهم كثيرة، قال: فخرجنا من عنده وكُمِّى ملأى من الدراهم، فكلما لقينا إنسانًا من الفقراء أعطاه منه حتى لم يبق إلا القليل فقلت له: يا سيدى، الصبيان فى البيت جياعٌ، فقال لى: أيْشَ أعملُ؟ فبَعْدَ الجهد حتى اشتريت شيئًا من الكُسْب والجزر بما بقى من الدراهم، وحملته إلى صبيانه.

وحُكى عن أبى جعفـر الدرّاج رحمه الله تعالى، قال: خرج أسـتاذى يوما يتطهر، فأخذت كِنْفه ففتشته، فوجدت فيه شيئًا من الفضة مقدار أربعة دراهم، فتحيّرتُ فى أمره، وكان لنا أوقـات لـم نأكل شيئًا، فلما رجع قلت له: كان فى كنفك كذا ونحن جـياعٌ، قال: هـاه أخذتَه، رُدَّه، ثم قال لى بعـد ذلك: خذه واشتر به شيـئًا، فقلت بحق معبودك ما أمْرُ هذه الفـضة؟ فقال: لم يرزقنى الله تعالى شيئًا من الدنيا (لا) صفـراء ولا بيضاء غيرها، فأردت أن أوصى أن تدفن معى، فإذا كـان يوم القيامة أردّها إلى الله تعالى، أقـول: هذه الذى أعطيتنى[1] من الدنيا، أو كما قال.

قال ودفع وزير المُعتضد مـالا إلى أبى الحسين النورى، رحمه الله تعالى، حتى يفرقه على المتـصوفة، فصبه فى بيت، وجمع صوفـية بغداد فقال لهم: كل من يحتاج منكم إلى شىء فلـيدخل البيت وليأخذ حاجـته منه، فكان يأخذ الرجل مائة درهم، والآخر أكـثر والآخر أقل، ومنهم من لا يأخذ شيـئًا، فلما فنيت الدراهم، ولـم يـبق شىء قال لهـم: بُعْدُكم من الله تـعالى علـى مقـدار أخذكم من الدراهم، وقُرْبُكم من الله تعالى على مقدار ترككم لها.

(١) قوله: الذى الصواب أن يقال: التى.

باب ذكر فى آداب من اشتغل بالمكاسب والتصرف فى الأسباب

قال الشيخ رحمه الله تعالى: قال سهل بن عبد الله رحمه الله: من طعن على الاكتساب فقد طعن على السنّة، ومن طعن على التوكل فقد طعن على الإيمان.

وسُئل الُجنْيد رحمه الله عن الكسب، فقال: يستقى الماء ويلقط النوى.

وكتب إسحاق المغازلى رحمه الله تعالى، وكان من أحد المشايخ، إلى بِشْر بن الحارث رحمه الله تعالى، وكان بشر يعمل المغازل، فكان فى كتابه: بلغنى عنك أنك استغنيت عن أمر معاشك بعمل هذه المغازل، أرأيت إن أخذ الله تعالى سمعك وبصرك الملتجأ إلى من؟ قال، فترك بشرٌ ذلك العمل واشتغل بالعبادة.

وسأل رجل ابن سالم، بالبصرة، رحمه الله تعالى، وأنا حاضر فى مجلسه، وكان يتكلم فى فضل المكاسب، فقال له: أيها الشيخ، نحن مستعبدون بالكسب أم بالتوكل؟ فقال ابن سالم: التوكل حال الرسول، والكسب سنة الرسول الله ﷺ، وإنما استن لهم الكسب لعلمه بضعفهم، حتى إذا سقطوا[1] عن درجة التوكل التى هى حاله لا يسقطوا عن درجة طلب المعاش التى هى سنته، ولولا ذلك لهلكوا.

وحُكى عن عبد الله بن المبارك أنه كان يقول: لا خير فيمن لا يذوق ذل المكاسب.

وكان عبد الله بن المبارك يقول: مكاسبك لا تمنعك عن التفويض والتوكل إذا لم تضيعهما فى كسبك، ويقال: إن أبا سعيد الخراز، رحمه الله

(١) قوله: لا يسقطوا. الصواب: لا يسقطون.

خرج سنة من السنين من الشـام إلى مكة مع القافلة، فجلس ليلة إلى الـصباح يخرز نعال أصحابه من الفقراء والصوفية.

وقال أبو حـفص رحمـه الله تعالى: تركتُ الكسب مـرةً، ثم عاودْتُهُ، ثم تركنى الكسب، فلم أعاود إليه بعد ذلك.

وحُكى عن بعض الفقراء أنه كان بدمشق رجل أسـود ويصحب الصوفية، وكان يمـرّ كلّ يوم يدقّ الجصّ بثلاثة دراهم ولا يأكلهـا إلا فى ثلاثة أيام، فإذا أخذ الأجر، يـشترى به طعامًـا (ما) ويجىء إلى أصحابه، ويأكل مـعهم أكلةً، ويرجع إلى عمله.

وحُكى عن أبى القـاسم المنادى رحـمـه الله تعالى، أنـه كان يخـرج من منزله، فإذا كان وقع فى يده مقدار دانقَيْن يرجع من الطريق إلى منزله أى وقت كان.

وحُكى عن إبراهيم الخواص رحمه الله تعـالى، (أنه) كان يقول: إذا عَرّج المريد على الأسباب بعد ثلاثة أيام فـالعمل فى المكاسب ودخول السوق أولى به.

وحُكى عن إبراهيم بن أدهم أنه كان يقول: عليك بعمل الأبطال، الكسب من الحلال والنفقة على العيال.

قال أبو نصر رحمه الله تعالى: ومن اشـتغل بالمكاسب فأدَبُهُ أن لا يشتغل عن أداء الفرائض فى أوقـاتها، ولا يرى رزقه من ذلك، وينوى بذلك مـعاونة المسلمين، ويُنصفهم، فإذا فضل شىء من كـسبه ونفقة عياله، لا يجمع، ولا يمنع، ويُنفق على إخـوانه من الفـقراء الذين ليس لهم مـعاش ولا مـعلوم ولا

سؤال، لأنه وإن امتُحِن بذلك، فهو واحدٌ منهم، وكذلك هؤلاء الذين ليس لهم علاقة إذا فُتح عليهم شيء ساعدوه، ويهتمون بأسبابه أكثرَ من اهتمامهم بأنفسهم.

وحُكى عن أبى حفص الحداد رحمه الله تعالى، أنه كان أكثر من عشرين سنة يعمل فى كل يوم بدينار، ويُنفقه عليهم، يعنى الصوفية، ولا يسأل عن مسألة ويصوم، ثم يخرج بين العشاءين فيتصدق من الأبواب.

وقال الشبلى رحمه الله: أيْشَ حرِفْتك؟ فقال: خرّازٌ، فقال له: نسيت الله تعالى بين الخرز والخرز(١).

وقال ذو النون رحمه الله تعالى: إذا طلب العارف المعاش فهو لا شيء، والله تعالى أعلم.

(١) قوله: بين الخرز. الأظهر أن يقال: بين الخرزة والخرزة..

باب فى أداء الأخذ والعطاء، وإدخال الرفق على الفقراء

قال الشيخ رحمه الله تعالى: أخبرنى جعفر الخلدى، رحمه الله، قال: سمعت الجُنَيد، رحمه الله تعالى، يقول: سمعت سَرِىّ السَّقَطى، رحمه الله تعالى، يقول: أعرفُ طريقا مختصرًا إلى الجنة: لا تسأل أحدًا شيئًا، ولا تأخذ من أحد شيئًا، ولا يكون[1] معك شىء تعطى أحدًا.

وحُكى عن الجنيد، رحمه الله تعالى، أنه قال: لا يصح لأحد الأخذ حتى يكون الإخراج أحبَّ إليه من الأخذ.

وقال أبو بكر (أحمد) بن حمويه صاحب الصُّبَيْحى رحمه الله تعالى: من أخذ لله أخذ بعز، ومن ترك لله ترك بعز، ومن أخذ لغير الله أخذ بذل، ومن ترك لغير الله ترك بذل.

سمعت أحمد بن علىّ الوجيهى يقول: سمعت الزقاق يقول: استقبلنى يوسف الصايغ بمصر ومعه كيسٌ فيه دراهم، فأراد أن يناولنى، فرددتُ يده إلى صدره، فقال: خذها منى ولا تردها علىَّ، فلو علمتُ أنى أملك شيئًا أو أنى أعطيك شيئًا ما أعطيتك هذا.

سمعت أحمد بن على يقول: سمعت أبا على الروذبارى رحمه تعالى يقول: ما رأيت أحسن أدبًا من ابن رفيع الدمشقى فى إدخال الرفق على الفقراء، وذلك أنى بتُّ عنده ليلة، فحكيت عن سهل بن عبد الله، رحمه الله تعالى، أنه قال: علامة الفقير الصادق أن لا يسأل ولا يَرُدّ، ولا يحس، فلما أردتُ أن أفارقه، حمل معه شيئا من الدراهم، ووقف على الجانب الذى حملتُ ركْوتى، وقال لى: كيف حكيتَ عن سهل الحكاية؟ فلما حكيت له الحكاية، وقلت له: لا تسأل ولا ترد، فطرحها فى ركوتى، وانصرف.

---

(١) قوله: ولا يكون، سياق الكلام يقتضى أن يقال: ولا يكن بالجزم عطفا على ماقبله.

وقال أبو بكر الزقاق رحمه الله تعالى: ليس السخاء أن يعطى الواجدُ المُعْدِمَ، إنما السخاء أن يعطى المعدمُ الواجدَ.

وحُكى عن أبى محمد المُرْتَعِش، رحمه الله تعالى، أنه قال: لا يصح الأخذ عندى حتى تقصد من تأخذ منه فتأخذ له لا لك.

وحُكى عن جعفر الخلدى، عن الجنيد رحمه الله تعالى أنه قال: ذهبت يوما إلى ابن الكُرُيْنى ومعى دراهم أريدُ أن أدفعها إليه، وكان عندى أنه لا يعرفنى، وسألت أن يأخذ ذلك فقال: أنا عنه مستغن، وأبى أن يأخذ منى، فقلت له: إن كنت (أنت) عنها مستغنيا فأنا رجل من المسلمين أُسَرُّ بأخذك لها فتأخذها لإدخال السرور على، فأخذها منى.

وذُكر عن أبى القاسم المنادى، رحمه الله تعالى، أنه كان إذا رأى دخانًا يخرج من (بيت) بعض جيرانه، فيقول لبعض من يكون عنده: مُرَّ إلى هؤلاء فقل لهم: أعْطُونا من هذا الذى تطبخون، فقال له قائل: فعسى يسخّنون الماء، فقال: مُرَّ إليهم، لأىّ شىء يصلح هؤلاء الأغنياء غير أن يعطونا شيئًا ويشفعوا لنا فى الآخرة.

وقال الُجنَيْد رحمه الله تعالى: حملتُ دراهم إلى حسين بن المصْرى، وكانت امرأته قد ولدت، وهم فى الصحراء، وليس لهم جارٌ، فأبى أن يقبلها منّى، فأخذتُ الدراهم، ورميت فى الحجرة التى كانت فيها المرأة، وقلت: أيَّتها المرأة هذه لك، فلم يكن له حيلةٌ فيما فعلتُ.

وسُئل يوسف بن الحسين، رحمه الله تعالى، إذا واخيتُ رجلاً فى الله، فخرجت إليه بكلّ مالى، هل أكون قائمًا بحقّه فيما ملّكنى الله تعالى؟ قال: أنّى لك بما ألزمتَهُ من ذُلِّ الأخذ، واستدركتَ من عِزّ الإعطاء، إذا كان فى العطاء رفعة وفى الأخذ مذلة؟.

باب فى آداب المتأهلين ومن له ولد

قال الشيخ رحمه الله تعالى: قال أبو سعيد بن الأعرابى: كان سبب تزويج أبى أحمد القلانسى، واسمُه مُصعب بن أحمد، أن شابًّا من أصحابه خطب ابنةً لصديق لأبى أحمد، فلمّا حضر وقت عقد النكاح امتنع الشاب واستحيا من ذلك الرجل الذى كان يزوّجه بابنته، فلما رأى ذلك أبو أحمد قال: ياسبحان الله يزوّج رجل بكريمته فتمتنع عليه، فاعقدوا النكاح على أبى أحمد وقبّل رأس أبى أحمد، قال: ما علمتُ أن لى عند الله تعالى من المقدار أن يكون لى مثلك ختن، وما علمت أن لابنتى عند الله تعالى من المقدار أن يكون لها مثلك زوجٌ.

قال أبو سعيد: بقيتُ عنده ثلاثين سنة وهى بكرٌ، أو كما قال.

وحُكى عن محمد بن علىّ القصَّار، رحمه الله تعالى، أنه كان له أهل وولدٌ، وكانت له بُنية، وكان جماعة من أصدقائه عنده يومًا فصاحت الصبيّة يا رب السماء نريد العِنَب، فضحك محمد بن علىّ وقال: قد أدبتُهم بذلك حتى إذا احتاجوا إلى شىء يطلبون من الله تعالى ولا يطلبون منى.

وسمعت الوجيهى يقول: كان لِبُنان الحمَّال رحمه الله تعالى أولاد، فربما كان يجىء ابنُه ويقول: يا أبى، أريد خبزًا، وكان يصفعه ويقول: مُرَّ كدَّ مثل أبيك وقال: وجاء يومًا فقال: يا أبى، إنى أريد مِشمشًا، قال: فأخذ بيده وجاء به إلى من يبيع المشمش وقال له: ادفع إليه مشمشًا بقيراط حتى أصيح على مشمشك إلى أن تبيعه، فدفع إليه الرجل، ووقف بنان يصيح: يأيها الناس اشتروا من هذا الصغير الغذاء الذى يفنى ولا يبقى، فما لبث طويلاً حتى باع الرجل مشمشه كله.

وحُكى عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى أنه قال: إذا تزوج الفقير فمثُله مثل رجل قد ركب السفينة، فإذا وُلد له قد غرق، وهذه الحكاية تُعرف لسفيان الثوْرى رحمه الله تعالى.

وحُكى عن بشر بن الحارث، رحمه الله تعالى، أنه قال: لو دفعتُ إلى الاهتمام بمؤنة وحاجة ما أَمِنتُ على نفسى أن أُصبح شُرْطيًا، وكان لأبى شُعيب البراثى كوخٌ، فمرَّت به امرأة من أبناء الدنيا فقالت له: إنى أريد أن أتزوَّج بك وأخدمك، فخرجت من جميع ما كانت تملكه، وتزوَّج بها أبو شعيب، فلمَّا أرادت أن تدخل الكوخ نظرت إلى قطعة خُصّاف فقالت: ما أنا بداخلة حتى تُخْرجها، أليس سمعتُك تقول: تقول الأرض لابن آدم تجعل (اليوم) بينى وبينك شيئًا وأنت غدًا فى بطنى؟ فما كنتُ لأجعل بينى وبينك حجابًا، فأخذ الخصَّاف وأخرجها فرمى بها، ثم قال: ادخلى فدخلتْ، فمكثا يتعبدان فى ذلك المكان سنين كثيرة، حتى توفّيا وهما على تلك الهيئة.

قال الشيخ رحمه الله: وليس من آداب من تزوَّج، أو كان له ولدٌ، أن يَكِلَ أمْرَ عياله إلى الله تعالى، ويجب عليه أن يقوم بفرضهم، إلا أن يكونوا مثله فى الحال، وليس من آدابهم أن يتزوَّجوا ذوات اليسار، ويدخلوا فى رِفق نسائهم، ومن أدب الفقير أن يتزوَّج بفقيرة مُقِلّة، وأن يُنصفها، وإن رغبت فيه امرأة غنيّة أن لا يرتفق منها.

وحُكى عن فتح الموْصلى، رحمه الله تعالى، أنه أخذ يومًا صبيًا له فقبّله، قال فتح: سمعتُ هاتفًا يقول: يا فتح، ألا تستحى أن تحب معنا غيرنا؟ قال: فما قبّلت ولدًا لى بعد ذلك.

فإن قال قائل قد كان لرسول الله ﷺ أولاد وكان يقبّلهم ويعانقهم ويضمهم إلى صدره، وقال الأقرَع بن حابس لرسول الله ﷺ يا رسول الله،

لى عشرة من الولد ما قبّلتُ واحدًا منهم، فقال ﷺ : من لا يَرْحَم لا يُرْحَم، يقال لقائل هذا القول: قد أبعدت القياس، لأن النبى ﷺ إمام الخلق إلى يوم القيامة، ومصحوبه العصمة وقوة النبوَّة وأنوار الرسالة فى جميع الأشياء، لا تأخذ منه الأشياء، ولا يكون فى الأشياء بحظه: لأن جميع حركاته تأديبٌ للغيْر من أُمته، وهؤلاء ليس لهم تلك القوة ولا ذلك التخصيص، وإذا لاحظهم بعنايته يغار عليهم أن يَدَعَهم أن يلتفتوا بخواطرهم إلى من سواه.

باب فى ذكر آدابهم فى الجلوس والمجالسة

قال الشيخ رحمه الله تعالى: حُكى عن سَرِىّ السقَطى رحمه الله تعالى أنه كان يقول: الجلوس فى المساجد حوانيت ليس لها أبواب.

وسُئل سَرِىّ عن المروءة، فقال: صيانة النفس عن الأدناس، وإنصاف الناس فى المجالسة، فإن زاد كان متفضلا.

وقال بعض المشايخ: الفقير ينبغى له أن تكون سجَّادته على أَلْيتَيْه، يعنى من كثرة الجلوس.

وحُكى عن أبى يزيد رحمه الله أنه قال: قمت ليلةَ أصلّى، فعييت، فجلست ومددت رجلى، فسمعت هاتفًا يقول: من يجالس الملوك ينبغى له أن يُحسن الأدب.

وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى أنه قال: تربَّعتُ مرة فهتف بى هاتفٌ هكذا تجالس الملوك؟ فما تربَّعت بعد ذلك أبدًا.

وقال إبراهيم الخوَّاص رحمه الله تعالى: رأيت فقيرًا له جِلْسة حسنة، فتقدمت إليه ومعى دراهم، فصببتها فى حجْره، فقال: اشتريت هذه الجلسة بمائةِ ألف درهم، تريد أن أبيعها بهذا؟

وقال يحيى بن مُعاذ رحمه الله تعالى: مجالسة المخالفين تُعمى الروح، ورؤية الأضداد تمنع الذوق.

وسمعت الوجيهى يقول: رأيت ابن مملولة العطار الدينورى، وقد تبرّم بجليس له، فقلتُ: تجالس مثل هذا؟ فقال ابن مملولة: لا تمكن مفارقته:

ويقال: إذا أشكل عليك أمر أخيك فاعتبرْه بجليسه.

قالْ: وكــان حســن القزَّاز رحــمه الله تعــالى له أخَذٌ فكان يكثــر الجلوس بالليل، فسئل عن ذلك، فقال: بُنى هذا الأمر على ثلاثة أشياء: أن لا نأكل إلا عن فاقة، ولا نتكلم إلا عن ضرورة، ولا ننام إلا عن غلبة.

وقال جـعفـر: كان الجُنَيـد رحمه الله تعـالى يقول: لو علـمت أن صلاة ركعتَين أفضل من جلوسى عندكم ما جالستُكم.

باب فى ذكر آدابهم فى الجوع

قال الشيخ رحمه الله تعالى: قال يحيى بن مُعاذ رحمه الله تعالى: لو علمت أن الجوع يباع فى السوق ما كان ينبغى لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره.

وقال: الجوع على أربعة أوْجُه: للمريدين رياضةٌ، وللتائبين تجربةٌ، وللزهّاد سياسةٌ، وللعارفين مكرمةٌ.

قال: وكان سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى كلما جاع قوى، وإذا أكل شيئًا ضعف.

وقال سهل رحمه الله تعالى: إذا شبعتم فاطلبوا الجوع ممن ابتلاكم بالشبع، وإذا جعتم فاطلبوا الشبع ممن ابتلاكم بالجوع وإلا تماديتم وطغيتم.

وقال أبو سليمان رحمه الله: الجوع عنده فى خزائن مدّخرة لا يعطيه إلا لمن يحبه خاصة.

وسمعت ابن سالم يقول كلامًا فى معنى أدب الجوع: أن لا يَنقص من عادته إلا مثل أُذُنَى السِّنَّوْر، فقلت له: قد حكيتَ بالأمس، وقيل ذلك عن سهل بن عبد الله، رحمه الله تعالى، أنه كان لا يأكل الطعام نَيِّفًا وعشرين يومًا، فقال: كان سهل رحمه الله تعالى لا يترك الطعام، ولكن كان الطعام يتركه، إنه كان يَرِدُ على قلبه ما يأخذه ويشغله عن أكل الطعام.

وسمعت عيسى القصّار رحمه الله يقول: من أدبِ الجوع أن يكون الفقير معانقًا للجوع فى وقت الشبع، حتى إذا جاع يكون الجوع أنيسه.

وسمع شيخ من المشايخ رجلاً من الصوفية يقول: أنا جائع. فقال له: كذبت، فقيل له: لَمِ قلت ذلك؟ فقال: لأن الجوع سِرٌّ من سِرّ الله تعالى، موضوع فى خزائن من خزائن الله تعالى، لا يضعه عند من يُفشيه.

قال: ودخل (رجلٌ) من الصوفية على شيخ، فقدم إليه طعامًا، فأكله، فقال له: مذ كم لم تأكل الطعام؟ قال: مذ خمس، فقال: ليس بك جوع الفقر، جوعك جوع بخْل، عليك ثيابٌ وأنت تجوع؟ أو كما قال.

باب فى ذكر آداب المرضى فى مرضهم

قال الشيخ رحمه الله تعالى: سمعت بعض أصحاب ممشاذ الدينورى يحكى عن ممشاذ رحمه الله تعالى: أنه اعتلّ علةً شديدةً، فدخل عليه أصحابه عائدين له، فقالوا: كيف تَجِدك؟ قال: لا أدرى، ولكن سَلوا العلة كيف تَجدُنى، فقالوا له: كيف تجد قلبك؟ فقال: قد فقدتُ قلبى منذ ثلاثين سنة.

وسمعت محمّد بن معبد البانياسى يقول: رأيت الكرْدى الصوفى رحمه الله تعالى، وقد اعتل، فعيدَ ستّة أشهر، وكان قد وقع الدود فى موضع من بدنه، فإذا وقع منها دودةٌ ردّها إلى موضعها.

ودخل ذو النون على مريض من أصحابه يعوده فقال (له): ليس بصادق فى حُبّه من لم يصبر على ضرْبه، فقال المريض: ليس بصادق فى حبّه من لم يتلذّذ بضر به.

وكان سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى، إذا مرض أحد من أصحابه يقول له: إذا أردتَ أن تشتكى فقلْ: أوه، فإنه اسم من أسماء الله تعالى، يستَرْوح إليه المريضُ، ولا تقلْ له: أوخ، فإنه اسم من أسماء الشيطان.

وسمعت أبا بكر أحمد بن جعفر الطوسى بدمشْق يقول كان بأبى يعقوب النَّهرُجورى رحمه الله تعالى: وجعٌ فى بطنه سنين، وكانت نخسه فى جوفه، وكان يقول: أعرف دواءه بقيراط فضة يذهب بهذه العلة، ولكن لا يداويه، إلى أن خرج من الدنيا، فسألتُ عن ذلك بعض المشايخ فقال: كان الكَىَّ، فكان لا يداويه من أجْل النَّهْى.

ومرض الثَّوْرى رحمه الله تعالى، مرضه، فتخلف عن عيادته رجل من أصحابه، ثم أتاه فجعل يعتذر إليه، فقال له: لا تعتذر، فقلّ من اعتذر إلا كذب.

وكان بسهل بن عبد الله رحمه الله تعالى: البواسير الظاهرة، فكان يحتاج أن يتوضأ لكل صلاة، وكان يقول: أعرف له دواء بقيراط، ولم يداوه إلى أن خرج من الدنيا، فسألتُ عن ذلك فقالوا: كان لا يداويها حتى لا تنكشف عورته ولا ينظر إلى عورته أحد.

ويقال: إن بَشْرًا الحافى رحمه الله تعالى: مرض مرضه، فدخل عليه الطبيب، فأخذ بشر يصف للطبيب ما به، فقيل له: يا أبا نصر، أما تخشى أن تكون هذه شكايةً، فقال: لا، إنّما أخبره بقدرة القادر (عليّ).

ووجدتُ فى كتاب أظنُّه بخط جعفر الخُلْدى رحمه الله قال: اعتل الجُنَيْد رحمه الله تعالى: علة شديدةً، فكان يقول: ليس إلا ما قال ذو النون رحمه الله تعالى: يا من يشكر ما يَهَبُ هبْ لنا ما نشكر، وربمّا كان يقول: هذا غذاؤهم من كل شىء يُحضره.

باب فى آداب المشايخ ورفقهم بالأصحاب وعطفهم عليهم

قال الشيخ رحمه الله تعالى: حُكى على الجُنْيد، رحمه الله تعالى، أنه كان يقول لأصحابه: لو علمتُ أن صلاة ركعتين أفضل من جلوسى معكم ما جلست عندكم.

وحُكى عن بشْر الحافى، رحمه الله تعالى، أنه قد كان تعرّى فى يوم شديد البرد وهو ينتفض، قلنا له: يا أبا نصر ما هذا؟ فقال: ذكرتُ الفقراء وأن ليس لهم شىء، ولم يكن لى ما أواسيهم به، فأحببتُ أن أواسيهم بنفسى.

وسمعت الدُّقى يقول: وكنا فى المسجد جماعة من الفقراء جُلوس، فدخل الزقاق، فقام عند أسطوانة يركع، فقلنا: يفرغ الشيخ من صلاته ونقوم ونسلم عليه، فقام وجاء إلينا، وسلم علينا، فقلنا: نحن كنا أولى بهذا من الشيخ، فقال: ما عذب الله تعالى قلبى بهذا قط.

وسمعت الوجيهى يقول: سمعت الجريرى يقول: وافيتُ من الحج، فابتدأتُ بالجنيد رحمه الله تعالى وسلمت عليه، وقلت: حتى لا يتعنّى، ثم أتيتُ منزلى، فلما صليت الغداة التفتُّ فإذا بالجنيد رحمه الله تعالى: خَلفى، فقلت: يا سيدى، إنما ابتدأت بالسلام عليك لكى لا تتعنى إلى هاهنا، فقال لى: يا أبا محمد، هذا حقك، وذاك فضل لك.

وقال أبو سعيد بن الأعرابى: كان شاب يعرف بإبراهيم الصايغ، وكان لأبيه نعمة، فانقطع إلى الصوفية، وصحب أبا أحمد القلانسى، فربما كان يقع بيد أبى أحمد شىء من الدراهم فكان يشترى له الدُّقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه.

وعن جعفر الخلدى قال: (دخل) رجل إلى الجُنَيْد رحمه الله تعالى، فأراد أن يخرج من مِلْكه كلّه ويجلس معهم على الفقر، قال: فسمعت الجنيد رحمه الله تعالى يقول له: لا تُخْرج كل ما معك، احبسْ مقدار ما يكفيك، وأخرج الفضل، وتقوَّتْ بما حبست، واجتهدْ فى طلب الحلال، لا تُخْرج كلما عندك، فلستُ آمَنُ عليك أن تطالبك نفسك والنبىّ ﷺ كان إذا أراد أن يعمل عملا أثبته.

سمعت الوجيهى يقول: سمعت أبا على الروذبارى رحمه الله تعالى يقول: كنّا فى البادية جماعة، ومعنا أبو الحسن العطوفى، فربما كانت تلحقنا الفاقة وتُظلم علينا الطريق فكان أبو الحسن يصعد تلا ويصيح صياح الذئاب حتى يسمع كلاب الحى فينبحون، فيمر على صوتهم، ويحمل إلينا من عندهم معونة.

وقال أبو سعيد الخرّاز رحمه الله تعالى: دخلتُ الرَّمْلة، فذهبت إلى أبى جعفر القصاب، فبتُّ عنده، ثم خرجت من الرملة إلى بيت المقدس، فجاء إلى بيت المقدس خلفى وقد حمل معه كُسيْرات وقال: اجعلنى فى حِلّ كانت هذه فى البيت ولم أدْرِ.

باب فى ذكر آداب المريدين والمبتدئين

قال الشيخ رحمه الله تعالى: وجدت فى كتاب أبى تراب النَّخْشى، رحمه الله، الحكمة جندٌ من جنود الله تعالى يُقوى بها آداب المريدين.

وحُكى عن الجُنَيْد، رحمه الله تعالى، أنه قد سأله بعض الفقراء أو بعض الشيوخ، فقال له: ياسيدى، ما للمريدين فى مجاراة الحكايات؟ فقال: الحكايات جندٌ من جنود الله تعالى، يُقوى بها قلوب المريدين، قال: فقلت: هل فى ذلك شاهد من كتاب الله تعالى؟ فقال: نعم، قال: ﴿وكلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أنْبَاء الرسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فؤادَكَ﴾[1] وقال يحيى: الحكمة مِرْوَحة قلوب المريدين تروّح عنها وهج الدنيا.

وحُكى عن مِمْشاذ الدينورى، رحمه الله تعالى، أنه كان يقول: إن عينى لتقر بالفقير، (الصادق) وإن قلبى ليفرح بالمريد المتحقق. وقال أبو تراب رحمه الله تعالى: رياء العارفين إخلاص المريدين.

وقال أبو على ابن الكاتب رحمه الله تعالى: إذا انقطع المريد إلى الله تعالى: بكليّته، أول ما يُفيده الله تعالى الاستغناء به عمن سواه.

وسُئل الشبلى رحمه الله عن المريد إذا وقعت به الحَيرة، فقال: الحيرة من وجهين، حيرةٌ تقع من شدة خوف اقتراف الذنوب، وحيرةٌ (تقع من) كشف التعظيم للقلوب.

وقال الشبْلى رحمه الله تعالى: كنتُ فى أول بدايتى إذا غلبنى النوم أكتحلُ بالملح، فإذا زاد علىَّ الأمرُ أحْمَيْتُ الميل فأكتحلُ به.

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى: من أدب المريد، وعلامة صِدْق

(١) هود: ١٢٠.

إرادته، أن يكون الغالب عليه الرقة والشفقة والتلطف والبذل، واحتمال المكاره كلها عن عبيده وعن خلقه حتى يكون لعبيده أرضًا يَسْعَوْنَ عليها، ويكون للشيخ كالابن البار، وللصبى كالأب الشفيق، ويكون مع جميع الخلق على هذا، يتشكى بشكواهم ويغتم لمصائبهم، ويصبر على أذاهم، فإن هذا مراد الله تعالى من المريدين الصادقين: أن يعطفوا على الخلق من حيث عطف الله تعالى عليهم ويتأدبوا بآداب الأنبياء والصدّيقين، وآداب أوليائه وأحبابه حتى تُرْفع الحُجُب التى بينه وبين الله تعالى، فما دام هو متمسكا بهذه الآداب، ومتخلقًا بهذه الأخلاق، ويكون مستعينًا فى ذلك بالله: متوكلاً على الله عز وجل راضيًا عنه.

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى: شُغلُ المريد فى قلبه، إقامة الفرض، والاستغفار من الذنب، وطلب السلامة من الخلق.

وسُئل يوسف بن الحسين رحمه الله تعالى: ما علامة المريد؟ فقال: تركُ كل خليط لا يريد مثل ما يريد، وأن يَسْلم منه عدوه كما يسلم منه صديقه، وعلامة المريد وجدانُهُ فى القرآن كل ما يريد، واستعمال ما يعلم، وتعلم مالا يعلم وترك الخوض فيما لا يعنيه، وشدة الحرص على إرادة النجاة من الوعيد مع الرغبة فى الوعد، والتشاغل بنفسه عن غيره.

وقال أبو بكر البارزى رحمه الله تعالى: إذا سلك المريد الهوْلَ فى أول قدم فلا يبالى، فإنه لن يلقاه بعد ذلك إلا راحة.

باب فى ذكر آداب من يتفرد ويختار الخلوة

قال الشيخ رحمه الله تعالى: حُكى عن بشر الحافى، رحمه الله تعالى، أنه كان يقـول: ليتّقِ الله تعالى عند (خلواته)، وليَلْزم بيـته، وليكن أنيسَـهُ الله عزّ وجلّ وكلامُهُ.

سمعت الدقى يقول: سمعت الدراج يقول: كان أبو المسيب رجلاً كبيرًا، وكان يتفرد فى المساجد الشعثـة، فصادفتُهُ ليلة فى مسجد، فقلت له: من أين أنت؟ فـقـال لى: أنا مـن كل مكان، فـقلت: من كـان من كـل مكان فـأيشَ علامته؟ قال: لا يستـوحش من شىء، ولا يستوحش منه شىء، قال: فحملتُ إليه الشبلى رحمـه الله تعالى، فنظر إليه، وقال: ليس هذا من دواب الإصطبل والا فأَيْنَ سِمَـتُهُ؟ قال: فصـاح الشبلى رحمه الله تعالـى، ولطم وجهه، وهام وهو يقول: صدق والله، إن كان من دواب الاصطبل فأين سمته؟

وسُل الجُنَيْد رحـمه الله تعالى عن الخلـوة، فقال: إن السلامـة مصاحـبة لمن[1] طلب السـلامـة فَـتـرْكَ المـخالفـة وترك التـطلع إلى مـا أوجب العلم مفارقتـه.

وحكى عن أبى يعقـوب السوسى، رحمه الله تعالـى، أنه قال: الانفراد لا يقـوى عليهـا إلا الأقوياء من الرجـال، ولأمثـالنا الاجتـماع أنفع، يعـملون[2] بعضهم برؤية بعض.

وسمعت أبـا حفص عمر الخيـاط رحمه الله تعالى يقـول يقول: رأيت أبا بكر بن المعلم رحمـه الله تعالى بأنطاكية (يقـول): طولبتُ شهادة أن لا إله إلا الله بعد ستين سنة، فَسُئِلَ عن ذلك فقال: كنت ستين سنة أدعو الخلق إلى الله تعالى، فلمـا انفردتُ ودخلتُ اللُّكامَ إذا أردتُ أن أقـوم إلى أورادى التى كانت عادتـى بين الناس لم يتهـيأ لى، فـوقع فى قلبى أنى مـا آمنت بالله تعالى بعـدُ

(١) قوله: لمن، الأصح أن يقال: من.

(٢) قوله يعملون. لعل الصواب: يعلمون.

فجددت إيمانى، وأقمتُ هناك عشر سنين حتى صفا لى فى الخلوة أورادى كما كانت تصفو لى فى الأوقات التى كنت بين المعارف.

وحُكى عن إبراهيم الخواص، رحمه الله تعالى، أنه رأى رجلا فى البادية حسن الأدب حاضر القلب، فسأله، فقال: كنت أعمل بين الناس والمعارف فى التوكل والرضا والتفويض، فلما فارقتُ المعارف لم يبق معى من ذلك ذرّة، فجئت حتى أطالب نفسى ها هنا بدعاويها إذا انفردت عن المعلومات والمعارف.

باب فى ذكر آدابهم فى الصداقة والمودّة

قال الشيخ رحمه الله تعالى: قال ذو النون رحمه الله تعالى: ما بَعُدَ الطريق إلى صديق، ولا ضاق مكان من حبيب. وسمعت أبا عمرو إسماعيل بن نُجَيْد يقول: سمعت أبا عثمان يقول: لاتثقْ بمودة من لا يحبك إلا معصومًا.

وفيما حكى جعفر الخُلْدى عن ابن السماك رحمه الله تعالى، أنه قال له صديقٌ: الميعاد بينى وبينك غداً نتعاتب، فقال له ابن السماك رحمه الله تعالى: (بل) بينى وبينك غدًا نتغافر، ويقال: إن كل مودة يزداد فيها باللقاء فهى مدخولة فى المودات.

وسئل عن حقيقة المودة فقال: هى التى لا تزداد بالبر ولا تنقص بالجفاء. وهذه الحكاية عن يحيى بن مُعاذ الرازى رحمه الله تعالى. وقال بعضهم: الإعراض عن الصديق إبقاء على المودة.

قال أبو العباس بن مسروق رحمه الله تعالى، فيما بلغنى: وفى هذا سنة عن الرسول ﷺ قوله لأبى هُرَيرة ﷺ: زُرْ غبًا تزدد حبا وقيل ليحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: كيف حالك؟ فقال: كيف حالُ من يكون عدوه دآؤه وصديقه بلاؤه؟

وقال الجنَيد رحمه الله تعالى: لقد كنت أرى أقوامًا تجزينى منهم النظرةُ فهى زادى من الجمعة إلى الجمعة.

وقال بعض المشايخ: إذا صح لى مودة أخ فلا أبالى متى لقيتُهُ.

وعن النورى، رحمه الله تعالى، أنه قال: الصديق لا يحاسَبُ بشىء، والعدو لا يُحْسَب له شىء.

وقال الجُنَيْد رحمه الله تعالى: إذا كان لك صديق فلا تسؤْهُ فيك بما يكرهه.

وعن جعفر الخُلْدى قال: سمعت أبا محمد المغازلى رحمه الله تعالى يقول: من أراد أن تدوم له المودَّة فليحفظ مودة إخوانه القدماء.

باب فى ذكر آدابهم عند الموت

قال الشيخ رحمه الله تعالى: بلغنى عن أبى محمد الهروى، رحمه الله تعالى أنه قال: مكثتُ عند الشبْلى، رحمه الله تعالى، ليلة غداة التى مات فيها، فكان يقول طول الليل هاتين البيتين:

كُلّ بَيْت أَنْتَ سَاكِنُهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إلَى السُّرُجِ
وَجْهُكَ المَأْمُولُ حُجَّتُنَا يَوْمَ يَأْتِى النَّاسُ بِالحُجَجِ

وحُكى عن ابن الفَرَجى، رحمه الله تعالى، أنه قال: رأيت حول أبى تُراب النخشبى رحمه الله تعالى، أصحاب مائة وعشرين ركوة، فما مات منهم على الفقر إلا نفسان. قال بعضهم: أحدهما ابن الجلاء، والآخر أبو عُبَيْد البُسْرى.

وورد على قلب ابن بُنان المصرى، رحمه الله شيء، فهام على وجهه، فلحقوه فى وسط متاهة بنى إسرائيل فى الرمل، ففتح عينيه، ونظر إلى أصحابه، وقال: ارتعْ فهذا مَرْتَعُ الأحباب، وخرجتْ روحه. هذه الحكاية عن الوجيهى.

وسمعت الوجيهى، رحمه الله تعالى، يقول: سمعت أبا علىّ الروذبارى، رحمه الله تعالى يقول: دخلتُ مصر، فرأيت الناس مجتمعين، فقالوا: كنَّا فى جنازة فتًى سمع قائلا يقول:

كَبُرتْ هِمَّةُ عَبْدٍ طَمِعَتْ فى أن يراكا

فشهق شهقةً فمات.

وسمعت بعض أصحابنا يقول: قال أبو زيد رحمه الله عند موته: ما ذكرتُك إلا عن غفلة، ولا قبضتَنى إلا عن فترة.

وحُكى عن الجنيد، رحمه الله تعالى، أنه قال: جلست عند أستاذى،

ابن الكُرِّينى، رحـمه الله تعالى، عند مـوته، فنظر إلى السمـاء، فقـال: بَعُدَ، فطأطأتُ رأسى إلى الأرض، فقال: بَعُـدَ: يعنى إنه أقربُ إليك من أن تنظر إلى السماء، أو إلى الأرض، وتشير إليه بذلك.

وقال الجَريـرى رحمه الله تعالى: حضـرتُ وفاة أبى القاسم الجُنَيْـد رحمه الله تعالى، فلم يزل ساجدًا، فقلت له: يا أبا القاسم، أليس بلغتَ هذا المكان وبلغ منك ما أرى من الجهـد لو استرحتَ؟ فقال لى: يا أبا محـمد، أَحْوجُ ما كنتُ إليه هذه الساعة، فلم يزل ساجدًا، حتى فارق الدنيا، وأنا حاضره.

وقال بكران الدينورى، رحمه الله تعالى: حضرتُ وفاة الشبلى: رحمه الله تعالى، فقال لى: على قلبى درهمٌ مظْلِمة، تصدّقـتُ عن صاحبه بالسوق، فما علىَّ شغلٌ أعظم من ذلك، ثم قـال: وضئنى للصلاة، ففـعلتُ ذلك، فنسيت تخليل لحيته، وقد أُمْسِكَ لسانهُ، فقبض على يدى فأدخلتها فى لحيته، ومات.

وكان سبب وفاة أبى الحسين النورى، أنه سمع بهذا البيت:

لا زِلْـتُ أَنْزِلُ مِـنْ وِدادِكَ مَنْـزِلا ... تَتَـحَـيَّـرُ الألـبَـابُ عِنْـدَ نُزُولِهِ

فتواجـد، وهام فى الصحراء، فـوقع فى أَجَمة قَصَب قـد قطعت، وبقيت أصولها مثل السيوف، فكان يمشى عليها، ويعيد البيت إلى الغداة، والدم يسيل من رجلَيْه، ثم وقع مـثل السكران، فوزمت قدمـاه، ومات رحمـه الله تعالى، وسمعت الدقى يقـول: كنا عند أبى بكر الزقاق، رحمه الله تـعالى غداة، فكان يقول: اللهم كم تُبقينى هاهنا؟ فما بلغ الأولَى حتى مات.

وكـان سبب مـوت ابن عطاء، رحمـه الله تعـالى، أنه أدخل على الوزير، فكلّمه الوزير بكلام غليظ، فـقال ابن عطاء: ارفقْ يا رجل، فأمر بضـرب خُفِّه على رأسه، فمات فيه.

ومات إبراهيم الخوّاص رحمــه الله تعالى، فى جامع الرىّ، وكانت به علّة الجوف، فكان إذا قــام مجلسًا يدخــل الماء، ويغسل نفــسه، فدخل المــاء مرةً فخرج روحه، وهو فى وسط الماء.

وقال أبو عمران الإصْطخْرى، رحــمه الله تعالى: رأيت أبا تُراب النَّخْشَى، رحمه الله تعالى فى البادية، قائمًا ميّتًا لا يمسكه شىء.

وسمعت أبا عبــد الله أحمد بن عطاء يقول: سمعت بعــض الفقراء يقول: لمّا مــات يحيى الإصْطخْرى، رحمــه الله تعالى، جلسنا حوله، فــقال له رجل منّا: قل أشهدُ أن لا إله إلا الله، فجلس جالسًــا، ثم أخذ يد واحدٍ، فقال: قل أشهــد أن لا إله إلا الله وخلى يده، وأخذ بيــد الآخر الذى بجنبــه، وقال: قل أشهد أن لا إله إلا الله وخلّــى يده، وأخذ بيد الآخر الذى بجنبــه، حتى عرض الشهادة على كل واحد منّا، ثم استلقى على قفاه، وخرج روحه.

وقيل للجنيــد: كان أبو سعيد الخــراز، رحمهمــا الله تعالى، كثيــرًا ما كان يتواجــد عند الموت، فقال الجنيــد رحمه الله: لم يكن بعــجب أن تكون تطير روحه إليه اشتياقًا.

فــهذا مــا حضــرنى فى الوقت من آدابهم، والذى لم نذكــره أكثــر وبالله، التوفيق.

كتاب المسائل واختلاف أقاويلهم فى الأجوبة

قال الشيخ رحمه الله تعالى: أذكرُ طرفًا من اختلافهم فى مسائل، تفرّدوا بها، بأجْوبة شتّى، ببيان ما يُشكل من ذلك على العلماء والفقهاء، وسائر الناس من أهل الظاهر، الذين ليس هذا من شأنهم.

مسألة فى الجمع والتفرقة.

قال الشيخ رحمه الله تعالى: الجمع والتفرقة اسمان، فالجمع جَمعُ المتفرقات، والتفرقة تفرقة المجموعات، فإذا جمعتَ قلت: الله ولا سواه، وإذا فرّقت قلت: الدنيا والآخرة والكون، وهو قوله ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلا هُوَ﴾[1] فقد جَمع ثم فرق فقال: ﴿وَالْمَلائكةُ وأولُواْ الْعلم قَائمًا بِالْقِسْطِ﴾ كذلك قوله ﴿قولوا آمنَّا بالله﴾[2] وقد جمع ثم فرق فقال: ﴿وما أُنْزِلَ إلِيْنا وما أُنزلَ إلَى إبراهيم﴾ الآية، فالجمع أصلٌ والتفرقة فرعٌ، فلا تُعْرف الأصول إلا بالفروع، ولا تثبت الفروع إلا بالأصول، وكلّ جمع بلا تفرقة فهو زندقة، وكلّ تفرقة بلا جمع فهو تعطيل.

وقد تكلّم فى معنى الجمع والتفرقة، المشايخ المتقدّمون فقال أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهَرَى، رحمه الله تعالى، وسئل عن ذلك فقيل له: إلى ماذا أشار القوم إلى معنى الجمع والتفرقة؟ فقال: «أشار قوم إلى أن جَمْعهم فى آدم عليه السلام، وفَرْقهم فى ذريته» وأشار قوم إلى أن جمعهم فى المعرفة، وفرقهم فى الأحوال.

وللجُنَيْد فى معرفة الجمع والتفرقة:

فَتَحققْتُكَ فى سرى فناجاكَ لسانى ... فاجْتَمعْنا لمَعانٍ وافتَرَقْنا لمَعانى
إنْ يكنْ غَيّبكَ التَّعْظيمُ عن لَحظِ عيانى ... فَلَقَدْ صَيَّرَكَ الوَجْدُ من الأحْشاءِدانى

(١) آل عمران: ١٨.
(٢) البقرة: ١٣٦.

وقال، أظنه النورى، : الجمع بالحق تفرقةٌ عن غيره، والتفرقة عن غيره جمعٌ به، وقال غيره: الجمع اتصال، لا يشهد الإنابة متى يشهد الإنابة، فما وصل والتفرقة شهود؟ لمن شاهد المباينة وقال قوم: لا مجموع بحق إلا مفرقا عن نعت، ولا مجموع بنعت إلا مفرقا عن حق، وهم متنافيان، لأن الجمع بالحق خروج عن حُجته! وتفرقتها، والجمع بالحق حجْبٌ بالحق وتفرقةٌ عنه، وقال قوم: «الجمع ما جمع البشرية فى شهود البشرية، والتفرقة ما فرَّقها عن تقسيم الرسوم».

وقد ذهب الجُنَيْدُ، رحمه الله تعالى ، إلى أن قرْبه بالوجد جمعٌ، وغيبته فى البشرية تفرقةٌ.

وقال أبو بكر الواسطى، رحمه الله: «إذا نظرتَ إلى نفسك فرقت، وإذا نظرت إلى ربِّك جمعت، وإذا كنت قائمًا بغيرك فأنت ميت» وهذه أحْرف مختصرة فى معنى الجمع والتفرقة ولمن يتدبر فى فهمه إن شاء الله تعالى.

مسألة فى الفناء والبقاء، قال الشيخ، رحمه الله تعالى، سئل أبو يعقوب النهرجورى، عن صحة الفناء والبقاء، فقال: هو فناء رؤية قيام العبد لله عز وجل، وبقاء رؤية قيام الله تعالى فى أحكام العبودية.

وسئل أبو يعقوب، رحمه الله تعالى، عن صحة علم الفناء والبقاء، قال: تصحبه العبودية فى الفناء والبقاء، واستعمال علم الرضا، ومن لم تصحبه العبودية فى الفناء والبقاء، فهو مدعٍ.

قال الشيخ رحمه الله تعالى، الفناء والبقاء اسمان، وهما نعتان لعبد موحِّد، يتعرض الارتقاء فى توحيده من درجة العموم، إلى درجة الخصوص، ومعنى الفناء والبقاء فى أوائله، فناء الجهل ببقاء العلم، وفناء المعصية ببقاء الطاعة، وفناء الغفلة ببقاء الذكر، وفناء رؤيا حركات العبد لبقاء رؤيا عناية الله تعالى فى سابق العلم.

وقد تكلم فى ذلك المشايخ المتقدمون، فقال سُمنون رحمه الله تعالى: العبد فى حال الفناء محمول وفى حال الحمل مورود، وهى نعوت تؤدى إلى نعوت، وقال: أول مقامات الفناء الوجود والمشاهدات للبقاء.

وقال أبو سعيد الخراز، رحمه الله تعالى، فى معنى قوله ﴿وما بِكُمْ من نعْمةٍ فَمِنَ الله﴾[1] قال: «أَخْلاهم فى أفعالهم من أفعالهم، وهو أول حال الفناء».

وعن جعفر الخلْدى، قال: سمعت الجنَيْد رحمه الله تعالى، يقول، وسئل عن الفناء فقال: «إذا فنى الفناءَ عن أوصافه، أدرك البقاء بتمامه» قال: وسمعت الجنيد رحمه الله تعالى يقول، وقد سئل عن الفناء، فقال: «استعجام كلك عن أوصافك، واستعمال الكل منك بكليتك».

وقال ابن عطاء: «من لم يفن عن شاهد نفسه بشاهد الحق، ولم يفن عن الحق بالحق، ولم يغِبْ فى حضوره عن حضوره ،لم يقع بشاهد الحق».

وقال الشبلى رحمه الله تعالى: «من فنى عن الحق بالحق، لقيام الحق بالحق، فنى عن الربوبية، فضلاً عن العبودية» وقال، أظنه رُوَيْم، رحمه الله تعالى، وقد سئل عن الفناء والبقاء، فقال: «أول علم الفناء، هو النزول فى حقائق البقاء،وهو الأثرة لله تعالى على جميع ما دونه، وتفقدُ كل حال معه حتى يكون هو الحظ، وسقوط ما سواه حتى تفنى عبادتهم لله تعالى بأنفسهم، ببقاء عبادتهم لله بالله، وما بعد ذلك، لا يُدركه المعقول بالعقول، ولا تنطق به الألسُن».

وقد قال الله تعالى: ﴿كل من عَليها فَانٍ﴾[2] فأول علامة الفانى: ذهاب حظه من الدنيا والآخرة، بورود ذكر الله تعالى، ثم ذهاب حظه من ذكر الله

(١) النحل: ٥٣.
(٢) الرحمن: ٢٩.

تعالى: عند حظه بذكر الله تعالى له، ثم تفنى رؤية ذكر الله تعالى له، حتى يبقى حظه بالله، ثم ذهاب حظه من الله تعالى برؤية حظه، ثم ذهاب حظه برؤية حظه بفناء الفناء وبقاء البقاء.

والكلام فى هذا طويل، وفيما ذكرناه كفاية إن شاء الله تعالى.

مسألة فى الحقائق:

قال الشيخ رحمه الله تعالى: أخبرنى جعفر قال: سمعت الْجُنَيد رحمه الله تعالى قال: سمعت سَريا يقول، وقد وصف أهل الحقائق، فقال: أكلُهم أكل المرضى ونومهم نوم الغرْقى، وسُئل الْجنَيْد رحمه الله تعالى عن الحقيقة، فقال: «أذكرُهُ ثم أدَعُ هذا وهذا» وقال أبو تراب رحمه الله تعالى: «علامة الحقيقة البلوى»[1] وقال غيره: «علامة الحقيقة رفع البلوى»[2].

حُكى عن رُويم رحمه الله تعالى أنه قال: «أتم الحقائق ما قارن العلم»، سمعت الوجيهى يقول: سمعت أبا جعفر الصَّيْدلانى رحمه الله تعالى يقول: «الحقائق ثلاث، حقيقة مع العلم، وحقيقة معها العلم، وحقيقة تشطح عن العلم» وقال أبو بكر الزقاق رحمه الله تعالى: كنت فى تيه بنى إسرائيل، فوقع فى قلبى أن علم الحقيقة، يخالف علم الشريعة، فإذا بشخص تحت شجرة أم غيلان صاح: يا أبا بكر كل حقيقة تخالف الشريعة فهى كفر».

وقيل لبعضهم، وأظنه رُوَيم، رحمه الله تعالى: والله تعالى أعلم، متى يتحقق العبد بالعبودية؟ قال: إذا سلم القياد من نفسه إلى ربه، وتبرأ من حوله وقوته، وعلم أن الكل له وبه.

(١) فى بعض النسخ: التلوين.

(٢) فى بعض النسخ: التلوين.

وقال رُوَيم رحمه الله تعالى: أصح الحقائق، ما قارن العلم، وقال الُجنَيْد رحمه الله: أبت الحقائق أن تدع فى القلوب مقالة للتأويلات.

وقال المزين الكبير رحمه الله تعالى: «الذى حصل عليه أهل الحقائق فى حقائقهم، أن الله تعالى غير مفقود فيُطلِبَ، ولا ذو غاية فيدْرَكَ، فمن أدرك موجودًا فهو بالموجود مغرور، وإنما الموجود عندنا معرفة حال، وكشف علم بلا حال».

وسمعت الحسين بن عبد الله الرازى، رحمه الله تعالى، يقول: سُئل عبد الله بن طاهر الأبهرى، رحمه الله تعالى، عن الحقيقة، فقال: «الحقيقة كلها علم، فسئل عن العلم فقال: العلم كله حقيقة»، وعن الشبلى رحمه الله تعالى، أنه قال: «الألسنة ثلاثة: لسان علم، ولسان حقيقة، ولسان حق، فلسان العلم ما تأدَّى إلينا بالوسائط، ولسان الحقيقة ما أوصل الله تعالى إلى الأسرار بلا واسطة، ولسان الحق فليس له طريق».

وحُكى عن أبى جعفر القروى، رحمه الله تعالى، أنه قال: حقيقة الإنسانية أن لا يتأذى منك إنسان، لأن حقيقة الاسم فى نفسه: أن يكون كل شىء بك مستأنسًا.

وسُئل بعض الصوفية عن حقيقة الوصول، فقال: ذهاب العقول.

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: إن الحقائق اللازمة والقصود القوية المُحْكمة، لم تُبق على أهلها سببًا إلا قطعته، ولا معتَرضًا إلا منعته، ولا تأويلا مُوهما لصحة المراد إلا كشفته، فالحق عندهم لصحة الحال مجرد، والجد فى دوام السَّير محدد، على براهين من العلم واضحة، ودلائل من الحق بينة، وقال الواسطى رحمه الله تعالى: «الحقائق المختزنة إذا بدت حجبت الحقائق المستترة».

مسألة فى الصدق.

قال الشيخ رحمه الله تعالى: أخبرنى جعفر الخلدى، رحمه الله تعالى،

قال: سمعت الجنيد، رحمه الله تعالى، يقول: ما من أحد طلب أمرًا بصدق، وجدّ إلا أدركه، وإن لم يدرك الكل أدرك البعض.

قال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى: «رأيت كأن مَلَكين نزلا عليّ من السماء، فقالا لى: ما الصدق؟ قلت: الوفاء بالعهد، فقالا لى: صدقت، فعرجا إلى السماء، وأنا أنظرُ إليهما، يعنى فى النوم».

وقال يوسف بن الحسين رحمه الله تعالى: «الصدق عندى حُب الانفراد، ومناجاة الرب جل وعلا، وموافقة السر والعلانية مع صدق اللهجة، والتشاغل بالنفس دون رؤية الخلق بعد همة النفس، وتعلم العلم والاتباع مع تصحيح المطعم والملبس، وأخذ القوت».

وسئل حكيمٌ: ما علامة الصادق؟ قال: «كتمان الطاعة، قيل: ما أرْوَحُ الأشياء على قلوب الصادقين؟ قال: استنشاق عفو الله تعالى، وحسن الظن بالله تعالى»، وقال ذو النون، رحمه الله تعالى: «الصدق سيف الله تعالى فى أرضه، ما وُضع على شيء إلا قطعه».

وسُئل حارث، رحمه الله تعالى، عن الصدق، فقال: «مصحوب على جميع الأحوال»، وقال الجنَيْد رحمه الله تعالى: «حقيقة الصدق تجرى بموافقة الله تعالى فى كل حال».

وقال أبو يعقوب رحمه الله: «الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية، وحقيقة الصدق القول بالحق فى مواطن الهلكة».

وسُئل آخر عن الصدق، فقال: «صحة التوجه فى القصد».

مسألة فى الأصول، يعنى أصول مذهب القوم.

حُكى عن الجنَيْد رحمه الله تعالى، أنه قال: أتفق أهل العلم، على أن أصولهم خمس خلال: صيام النهار، وقيام الليل، وإخلاص العمل، والإشراف على الأعمال بطول الرعاية، والتوكل على الله فى كل حال.

وحُكى عن أبى عثمان رحمه الله تعالى، أنه قال: أصلنا السكوت والاكتفاء بعلم الله عز وجل، وقال الجنيد رحمه الله تعالى: «النقصان فى الأحوال، هى فروع لا تضر، وإنما يضر التخلف مثقال ذرة فى حال الأصول، فإذا أحكمت الأصول، لم يضر نقصٌ فى الفروع».

وقال أبو أحمد القلانسى، رحمه الله تعالى: «بُنيتْ أصول مذهبنا على ثلاث خصال: لا نطالب أحدًا من الناس بواجب حقنا، ونطالب أنفسنا بحقوق الناس، ونلزم أنفسنا التقصير فى جميع ما نأتيه» وقال سهل بن عبد الله رحمه الله: أصولنا سبعة أشياء التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء برسول الله ﷺ، وأكل الحلال، وكفُّ الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق».

وسمعت الحصرى رحمه الله تعالى يقول: «أصولنا ستة أشياء: رفع الحدث، وإفراد القِدَم، وهجر الإخوان، ومفارقة الأوطان، ونسيان ما علم، وما جُهل» وقال بعض الفقراء: «أصولنا سبعة أشياء: أداء الفرائض، واجتناب المحارم، وقطع العلائق، ومعانقة الفقر، وترك الطلب، وترك الادخار لوقتٍ ثانٍ، والانقطاع إلى الله تعالى، فى جميع الأوقات».

مسألة فى الإخلاص.

سُئل الجنيد رحمه الله، عن الإخلاص فقال: «ارتفاع رؤيتك، وفناؤك عن الفعل» وقال ابن عطاء: الإخلاص ما تخلص من الآفات.

وقال الحارث المحاسبى رحمه الله تعالى: «الإخلاص إخراج اَلْخلق من معاملة الله تعالى، والنفسُ أول الخلق».

وقال ذو النون رحمه الله تعالى «الإخلاص ما خلص من العدو أن يُفسده».

قال أبو يعقوب السوسى رحمه الله: «الإخلاص ما لم يعلم به مَلَك

فيكتبه، ولا عدو فيفسده، ولا تُعْجَب النفس به»، وحُكى عن سهل بن عبد الله، رحمه الله تعالى، أنه قال: «أهلُ لا إله إلا الله كثير، والمخلصون منهم قليل».

وقال سهل بن عبد الله، رحمه الله تعالى: «لا يعرف الرياء إلا المخلص».

وسئل الجنيد، رحمه الله تعالى مرة أخرى عن الإخلاص، فقال: «إخراج الخلق من معاملة الله تعالى، والنفس أول الخلق».

وعن بعض المشايخ قال: إذا قال لك قائل، ما الإخلاص؟ فقل: إفراد القصد إلى الله تعالى، وإخراج الخلق من معاملة الله عز وجل، بترك الحول والقوة مع الله عز وجل.

وعلامة المخلص، محبة الخلوات لمناجاة الله تعالى، وقلة التعرف إلى الخلق بعبودية الله عز وجل، وكراهية علم الخلق فى معاملة الله تعالى.

وسُئل اظنُّهُ، أبا الحسين النورى رحمه الله تعالى، عن الإخلاص، فقال: «ترك الموافقة للخلق».

مسألة فى الذكر.

قال الشيخ رحمه الله تعالى: سمعت ابن سالم يقول، وسئل عن الذكر، فقال: «الذكر على ثلاث فذكرٌ باللسان، فذاك الحسنة بعشرة، وذكر بالقلب فذاك الحسنة بسبعمائة، وذكر لا يوزن ثوابه، ولا يُعَدُّ، وهو الامتلاء من المحبة، والحياء من قربه»، قيل لابن عطاء رحمه الله تعالى، ما يفعل الذكر بالسرائر؟ فقال: ذكر الله تعالى، إذا ورد على السرائر بإشراقه أزال البشرية فى الحقيقة برعوناتها، وقال سهل بن عبد الله، رحمه الله تعالى: «ليس كل من ادعى الذكر، فهو ذاكر»، وسُئل سهل بن عبد الله، رحمه الله تعالى، عن الذكر، فقال: تحقيق العلم بأن الله تعالى مشاهدك، فتراه بقلبك قريبًا منك، وتستحى منه، ثم تؤثره على نفسك وعلى أحوالك كلها.

قال الشيخ رحمه الله تعالى: قال الله عز وجل ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ

آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[1]، ثم قال فى آية أخرى: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[2]، فهو أخصر من الأول، ثم قال فى اية أخرى: ﴿فاذْكُرُونى أذْكُرْكُمْ﴾[3]، فصار الذاكرون لله متفاوتين فى ذكرهم، كتفاوتهم فى المخاطبة لهم فى الذكر، قال وسئل بعض المشايخ عن الذكر، فقال: «المذكور واحد، والذكر مختلف، ومحل قلوب الذاكرين متفاوت».

وأصل الذكر إجابة الحق من حيث اللوازم.

والذكر على وجهين: فوجهٌ منه: التهليل، والتسبيح، وتلاوة القرآن، ووجهٌ منه: تنبيه القلوب على شرائط التذكير على إفراد الله تعالى، وأسمائه، وصفاته، ونشر إحسانه، ونفاذ تقديره، على جميع خلقه، فذكر الراجين على وعده، وذكر الخائفين على وعيده وذكر المتوكلين على ما كشف لهم من كفايته وذكر المراقبين على مقدار ما طلع عليهم باطلاع الله تعالى عليهم، وذكر المحبين على قدر تصفح النَّعْماء.

وسُئل الشبلى رحمه الله تعالى، عن حقيقة الذكر، فقال: نسيان الذكر، يعنى نسيان ذكرك لله تعالى، ونسيان كل شىء سوى الله عز وجل.

مسألة فى الغناء.

سُئل الجنيد رحمه الله تعالى: أيما أتم؟الاستغناء بالله تعالى، أم الافتقار إلى الله عز وجل؟ فقال: الافتقار إلى الله عزَّ وجل موجب للغنا بالله عز وجل، فاذا صح الافتقار إلى الله عز وجل، كمل الغنا بالله تعالى، فلا يقال: أيهما أتم؟ لأنهما حالان لا يتم أحداهما إلا بتمام الآخر، ومن صحح الافتقار صحح الغناء، قال: وسُئل يوسف بن الحسين رحمه الله تعالى: ما علامة الغنا؟ قال: «الذى يكون غناه للدين لا للدنيا» قيل: ومتى يكون الغنىُّ محمودًا فى غناه غير مذموم؟ قال: إذا كان هذا الغنى آخذَ الشىء من جهته، غير مانع

(١) البقرة: ٢٠٠. (٢) الأحزاب: ٤١.

(٣) البقرة: ١٥٢.

عن حقه، متعاونًا فى كسبه، على البر والتقوى، لا متعاونًا فى تجارته على الإثم والعدوان، ولم يتعلق قلبه بماله دون الله عز وجل، ولا استوحش لفقده، ولا استأنس بملكه، وكان فى غناه مفتقرًا إلى الله عز وجل، وفى فقره مستغنيًا بالله تعالى، ويكون خازنًا من خُزان الله تعالى، فكان غناه له لا عليه، فاذا كان بهذه الصفة كان من أهل الفوز والنجاة، ودخل الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام بخبر رسول الله ﷺ، [١٤٢] «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام».

وسُئل عمرو بن عثمان المكى، رحمه الله عن الغنا الذى هو جامعٌ للغنا، فقال: «الغنا عن الغنا، لأنك إذا استغنيت بالغنا، كنت محتاجا إليه من أجل استغنائك وإذا كنت غنيا بالله عز وجل لا بالغنا، تكون مستغنيًا عن الغنا، وغير الغنا».

وقال الُجنيد، رحمه الله تعالى: «النفس التى قد أعزها الحق بحقيقة الغنا تزول عنها موافقات الفاقات».

مسألة فى الفقر.

قال الُجنيد رحمه الله تعالى: «الفقر بحر البلاء، وبلاؤه كله عز».

وسئل عن الفقير الصادق، متى يكون مستوجبًا لدخول الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام؟ فقال: «إذا كان هذا الفقير، معاملاً لله عز وجل بقلبه، موافقًا لله فيما مُنع، حتى يُعَدَّ الفقر من الله نعمة عليه، يخاف على زوالها كما يخاف على زوال غناه، وكان صابرًا محتسبًا مسرورًا باختيار الله له الفقر، صائنًا لدينه، كاتمًا للفقر، مظهرًا للإياس من الناس، مستغنًا بربه فى فقره، كما قال الله عز وجل: ﴿للفقراء الذين أُحْصِرُوا فى سبيل الله﴾[1] الآية، فإذا كان الفقير بهذه الصفة يدخل الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام، ويكفى يوم القيامة مئونة الوقوف والحساب، إن شاء الله تعالى.

(١) البقرة: ٢٧٣.

وقال ابن الجلاء، رحمه الله تعالى: «من لم يصحبه الورع فى فقره أكل الحرام النص وهو لا يدرى».

وسُئل الجنيد، رحمه الله تعالى، عن أعز الناس، فقال «الفقير الراضى».

وقال المزين رحمه الله: حد الفقر، أن لا ينفك الفقير من الحاجة، وقال المزين رحمه الله تعالى: إذا رجع الفقير إلى الله عز وجل، كان موصوفًا مع العلوم فيتحير فى وجوده، وقال الجنيد رحمه الله تعالى: «لا يتحقق الإنسان بالفقر حتى يتقرر عنده أنه لا يرِدُ القيامة أفقرُ منه».

مسألة فى الروح، وما قالوا فيه.

قال الشبلى رحمه الله تعالى: «بالله قامت الأرواح، والأجساد، والخطرات لا بذواتها»، وقال الشبلى، رحمه الله تعالى: «الأرواح تلطفت، فتعلقت عند لدغات الحقيقة، فلم تر معبودًا يستحق العبادة، عن أن تتقرب إلى ذلك الشاهد بغير ذلك المشاهِد، وأيقنت أن الحدث لا يدرك القديم بصفته المعلولة».

قال الشيخ رحمه الله تعالى: ورأيت فى كلام الواسطى، رحمه الله تعالى، فى الروح، فقال: «الروح روحان: روح به حياة الخلق، وروح به ضياء القلب، وهو الروح الذى قال الله عز وجل: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**﴾[1]، وسُمى الروح روحًا للطافته، وإذا أساءت الجوارح فى أوقاتها الأدب حُجِبَ الروح عن ملادغات السبب، قال: وكلما وقع للروح من الملاحظات رقت[2] على الأيام والأوقات [و] عرفت المخاطبات، وأشارت إلى المعاينات[3]، وقال الواسطى، رحمه الله تعالى: «إنما هما شيئان: الروح والعقل، فالروح لا تُسْدى إلى الروح محبوبًا، ولا العقل يتهيأ له أن يدفع عن العقل مكروهًا».

---

(١) الشورى: ٥٢.

(٢) فى نسخة: ذنب.

(٣) فى نسخة: المعلاملات.

وحُكى عن أبى عبد الله النِّباجى، رحمه الله تعالى، أنه قال: إن العارف إذا وصل فكان فيه روحان: روح لا يجرى عليه التغيير والاختلاف، وروح يجرى عليه التغيير والتلوين.

وقال بعضهم: الروح روحان، الروح القديمة، والروح البشرية، واحتج بقول النبى ﷺ: [١٤٣] «تنام عيناى ولا ينام قلبى، قال: فظاهره ينام بروح البشرية، وباطنه يقظان لا يجرى عليه التغيير» وكذلك قوله: [١٤٤] «إنما أُنَسَّى لأسُنَّ، وقد أخبر أنه لا يُنَسَّى، وإنما هو خبرٌ عما هو فيه من الروح القديمة»، وكذلك قوله: [١٤٥] «لستُ كأحدكم، إنى أظل عند ربى، وهو صفة الروح القديمة، لأنه أخبر عنها بما ليس من وصف الأرواح».

قال الشيخ رحمه الله تعالى: وهذا الذى قال القائل فى الروح لا يصح، لأن القديم لا ينفصل من القديم، والمخلوق غير متصل بالقديم، وبالله التوفيق.

سمعت ابن سالم، وقد سُئل عن الثواب والعقاب، يكون للروح وللجسد، أو للجسد وَحْده؟ فقال: الطاعة والمعصية، لم تظهر من الجسد دون الروح، ولا من الروح دون الجسد، حتى يكون الثواب، والعقاب، على الجسد دون الروح، أو على الروح دون الجسد، ومن قال فى الأرواح بالتناسخ، والتنقل، والقِدَم، فقد ضل ضلالا بعيدًا وخسر خسرانًا مبينًا.

مسألة فى الإشارة:

قال الشيخ رحمه الله تعالى: إن سأل سائلٌ، ما معنى الإشارة؟ فيقال له: قول الله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الذى﴾[1] و«الذى» كالكناية، والكناية كالإشارة فى لطافتها، والإشارة لا يدركها إلا الأكابر من أهل العلم، وقال الشبلى رحمه الله

(١) الفرقان: ١.

تعالى: كل إشارة أشار الخلق بها إلى الحق، فهى مردودة عليهم، حتى يشيروا إلى الحق بالحق، ليس لهم إلى ذلك طريق.

وقال أبو يزيد رحمه الله تعالى: «أبْعَدُهم من الله تعالى، أكثرهم إشارة إليه» قال: ودخل رجل على الجنيد، رحمه الله تعالى: فسأله عن مسألة، فأشار الجنيد بعينه إلى السماء، فقال له الرجل: «يا أبا القاسم، لا تُشِرْ إليه، فإنه أقرَبُ إليك من ذلك فقال الجنيد رحمه الله تعالى: صدقت وضحك.

حُكِيَ عن عمرو بن عثمان المكى أنه قال: «أصحابنا حقيقتهم توحيد، وإشارتهم شِرْك»، وقال بعضهم: كلٌّ يريد أن يشير إليه، ولكن لم يجعل لأحد إليه سبيلاً.

وحُكى عن الجنيد رحمه الله تعالى، أنه قال لرجل: «هو ذا تُشير يا هذا؟ فكم تشير إليه؟ دَعْهُ يُشِرْ إليك».

وقال أبو يزيد رحمه الله تعالى: «من أشار إليه بعلم فقد كفر، لأن الإشارة بعلم لا تقع إلا على معلوم، ومن أشار إليه بمعرفة فقد ألحد، لأن الإشارة بالمعرفة لا تقع إلا على محدود».

سمعت الدَّقى يقول: سُئل الزقاق، رحمه الله عن المريد، فقال: «حقيقة المريد أن يشير إلى الله تعالى، فَيَجِدَ الله مع نفس الإشارة» وقيل له: فالذى يَسْتَوْعِب حَالَهُ؟ قال: «هو أن يجد الله تعالى بإسقاط الإشارة» وهذه المسألة تُعْرَف للجُنَيْد رحمه الله تعالى.

وقال النورى رحمه الله تعالى: قُرْب القُرْب، فيما أَشَرْنا إليه، بُعْد البُعْد.

وقال يحيى بن مُعاذ رحمه الله تعالى: «إذا رأيْتَ الرجل يشير إلى العمل، فطريقه طريق الورع، وإذا رأيته يشير إلى العلم، فطريقه طريق العبادة، وإذا رأيته يشير إلى الأمْن فى الرزق، فطريقه طريق الزهد، وإذا رأيته يشير إلى الآيات، فطريقه طريق الأبْدَال، وإذا رأيته يشير إلى الآلاء، فطريقه طريق العارفين».

وقال أبو على الروذبارى رحمه الله تعالى: «عِلْمُنا هذا إشارةٌ، فإذا صار عبارةً خَفِيَ».

وسأل رجل أبا يعقوب السوسى، رحمه الله تعالى، مسألة، وكان يشير فى سؤاله، فقال له: «يا هذا نحن نبْلغُ مجابك، من غير هذه الإشارة، كأنه يكره ذلك منه.

مسائل شتى:

مسألة فى الظرف: سئل الجُنَيْد رحمه الله تعالى، عن الظرف ما هو؟ فقال: «اجتناب كل خُلق دَنِي، واستعمال كل خُلق سَنِي، وأن تعمل لله، ثم لا ترى أنك عملت.

مسألة فى المروءة: سئل أحمد بن عطاء رحمه الله تعالى عن المروَّة فقال: «أن لا تستكثر لله عملا عملته، وكلما عملتَ عملا كأنك لم تعمل شيئًا، وتريد أكثر من ذلك.

مسألة، لم سميت هذه الطائفة بهذا الاسم؟ يعنى الصوفية، قال ابن عطاء: رحمه الله تعالى، لصفائها من كدر الأغيار، وخروجها من مراتب الأشرار.

وقال النورى رحمه الله تعالى: سميت بهذا الاسم، لاشتمالها عن الخلق بظاهر العابدين، وانقطاعها إلى الحق بمراتب الواجدين.

وقال الشبلى رحمه الله تعالى: سميت بهذا الاسم، لبقية بقيت عليهم من نفوسهم، ولولا ذلك لما لاقت بهم الأسماء.

وقال بعضهم: سميت بهذا الاسم، لتنسمها بروح الكفاية، وتظاهرها بوصف الإنابة.

مسألة فى الرزق: قال يحيى بن مُعاذ رحمه الله تعالى: فى وجود العبد الرزقَ من غير طلب، ودلالة على أن الرزق مأمور بطلب صاحبه.

وقال بعضهم: إن طلبتُ الرزق قبل وقته لم أَجِدْه، وإن طلبت الرزق بعد وقته لم أجده وإن طلبته فى وقته كُفِيتُه.

وحكى عن أبى يعقوب، رحمه الله تعالى، أنه قال: اختلف الناس فى سبب الرزق، فقال قوم: سبب الرزق التكلف والعناية، وهو قول القدرية، وقال قوم: سبب الرزق التقوى، وذهبوا إلى ظاهر القرآن ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾(1) وغلطوا فى ذلك.

والعلم عند الله تعالى، أن سبب الرزق الخلقة، لقوله عز وجل: ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾(2): فلم يخص مؤمنًا دون كافر، وقال أبو يزيد رحمه الله: أثنيتُ على رجل من المريدين عند بعض العلماء خيرًا، فقال العالم: من أين معاشه؟ فقلت: لم أشك فى خالقه حتى أسأله عن رازقه، فخجل العالم وانقطع.

مسألة: سُئِلَ الجنَيْد رحمه الله تعالى، إذا ذهب اسم العبد؛ وثبت حُكْم الله تعالى؟ قال: اعلم رحمك الله تعالى، أنه إذا عظمت المعرفة بالله ذهبت آثار العبد، وامَّحت رسومه، فعند ذلك يبدو علم الحق، وثبت اسم حكم الله تعالى.

مسألة: سئل الجنيْد رحمه الله تعالى، متى يستوى عند العبد حامده وذامُّه؟ فقال: إذا علم أنه مخلوق، ويكون نمّاً.

مسألة: سئل ابن عطاء رحمه الله تعالى، متى ينال سلامة الصدر؟ أو بم ينال سلامة الصدر؟ قال: بالوقوف على حق اليقين وهو القرآن، ثم يُعطى علم اليقين، ثم يطالع بعده عينَ اليقين فيسْلم صدره عند ذلك، وعلامة ذلك أن يرضى بقضائه وقدره، هيبة ومحبة، ويراه حنيظًا ووكيلا، من غير تهمة اعترضت.

مسألة، سئل أبو عثمان رحمه الله تعالى، عن الغم الذى يجده الإنسان، ولا يدرى من أَيْشَ هو، فقال أبو عثمان رحمه الله تعالى، إن الروح تتحفظ

(1) الطلاق: ٢، ٣.

(2) الروم: ٤٠ نص الآية ﴿الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

الذنوب، والجنايات على النفس، وتنساها النفس، فإذا وجدت الروح صحواً من النفس، عُرِضَ عليها جناياتها فيغشاها الانكسار والذوبان، وهو الغم الذى يجده، ولا يدرى من أين دخل عليه.

مسألة فى الفراسة: سئل يوسف بن الحسين، رحمه الله تعالى، عن حديث النبى ﷺ: [١٤٦] «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى، فقال: هذا من رسول الله ﷺ حق، وخصوصية لأهل الإيمان، وزيادة كرامة لمن نوَّر الله تعالى قلْبه، وشرح صدره، وليس لأحد أن يحكم لنفسه بذلك، وإن كثر صوابُهُ، وقلَّ خطؤه، ومن لم يحكم لنفسه بحقيقة الإيمان والولاية والسعادة، فكيف يحكم لنفسه بفضل الكرامة؟ وإنما ذلك فضله لأهل الإيمان، من غير إشارة إلى أحد بعينه.

مسألة لإبراهيم الخواص رحمه الله تعالى فى الوهم: سئل إبراهيم الخواص رحمه الله تعالى، عن الوهم، فقال: الوهم هو قيام بين العقل والفهم، لا منسوب إلى العقل، فيكون شيئًا من صفاته ولا منسوب إلى الفهم فيكون شيئًا من صفاته، وهو قيام، وهو شبيه بضوء بين شمس وماء، فلا ينسب إلى الشمس، ولا ينسب إلى الماء، وشبيه بوَسَن بين النوم واليقظة، فلا نائم ولا يقظان، فهذه صحوُه[1] وهو نفاذ العقل إلى الفهم، أو الفهم إلى العقل، حتى لا يكون بينهما قيام، والفهم صفوة العقل، كما أن خالص الشىء لبُّه.

مسألة: سُئل أبو يزيد رحمه الله تعالى عن معنى قوله تعالى: ﴿ثمَّ أوْرَثنا الكتابَ الذينَ اصطفَيْنا منْ عبادِنا﴾[2] الآية.

(١) فى رواية أخرى: محوه.

(٢) فاطر: ٣٢ وتكملة الآية: ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾.

قال أبو يزيد رحمه الله تعالى: «السابق مضروب بسوط المحبة، مقتول بسيف الشوق، مضطجع على باب الهيبة، والمقتصد مضروب بسوط الحسرة، مقتول بسيف الندامة، مضطجع على باب الكرم، والظالم مضروب بسوط الأمل، مقتول بسيف الحرص، مضطجع على باب العقوبة».

وقال غيره: الظالم لنفسه معاقب بالحجاب، والمقتصد والجٌ داخل الباب، والسابق بالخيرات ساجد على البساط للملك الوهاب.

وقال غيره: الظالم معاقب بالندامة على الإفراط، والمقتصد مُشْتَمِلٌ بالكلاءة والاحتياط، والسابق بالخيرات ساجد بقلبه للحق على البساط، الظالم لنفسه بتلويح الإشارة محجوب، والمقتصد بتصريح الإشارة مكنوف، والسابق بالخيرات بتصحيح الإشارة محبوب.

وقال غيره: الظالم لنفسه د والمقتصد ب والسابق بالخيرات م.

مسألة فى التمنى:

سُئل رُوَيم بن أحمد رحمه الله تعالى، هل للمريد أن يتمنى؟ فقال: ليس له أن يتمنى، وله أن يأمل، لأن فى التمنى رؤية النفس، وفى الآمال رؤية السبق، والتمنى من صفات النفس، والتأمل صفة القلب، والله أعلم.

مسألة فى سر النفس:

قال سهل بن عبد الله رحمه الله، وسئل عن سر النفس، فقال: «النفس سرٌ ما ظهر ذلك السر على أحد من خلقه إلا على فرعون، فقال: أنا ربَكم الأعلى، ولها سبع حُجُب سماوية، وسبع حجب أرضية، فكلما يدفن العبد نفسه أرضًا أرضًا، سما قلبه سماءً سماءً، فإذا دفنتَ النفس تحت الثرى، وصلت بالقلب إلى العرش.

مسألة: سُئل الشبلى رحمه الله تعالى عن الغيرة فقال: الغيرة غيرتان: غيرة البشرية، وغيرة الإلهية، فغيرة البشرية على الأشخاص، وغيرة الإلهية على الوقت أن يضيع فيما سوى الله تعالى.

مسألة: قال فتح بن شَخْرَف رحمه الله تعالى، سألت إسرافيل أستاذ ذى النون رحمهما الله تعالى، فقلت له: أيها الشيخ هل تُعَذبُ الأسرار[1] قبل الزلل؟ فلم يجبنى أيَّامًا، ثم قال: يا فتح إن نويت قبل العمل فتعذب الأسرار قبل الزلل، قال ثم صرخ صرخة عاش ثلاثة أيام ثم مات.

مسألة: سُئل أبو بكر محمد بن موسى الفرْغانى، المعروف بالواسطى رحمه الله تعالى عن صفة القلوب فقال: القلوب على ثلاثة أحوال: قلوب ممتحنة، وأخرى مصطلمة وأخرى منتسفة وأوائل أحوالها الانتساف، وهو المتحقق بأوائله أنه لم يكن قبل شيئًا مذكورًا فإذا حضرتَ وقعتَ إلى الاصطلام، وهو الموت، ثم الطمس وهو: ذهابٌ، فهذا أولُك وآخرك، كى لا تقول: أنا أقبلتُ وأدبرتُ، وهذه الثلاثة أخرست الألسن عن النطق.

مسألة: سُئل الجريرى رحمه الله تعالى عن البلاء، فقال البلاء على ثلاثة أوجه: على المخلصين نقم وعقوبات، وعلى السابقين تمحيص وكفّارات، وعلى الأنبياء والصديقين، من صدق الاختبارات.

مسألة: فى الفرق بين الحب والود، الحب فيه بُعد وفيه قرب، والود لا فيه قطع ولا بُعد ولا قرب، إن شاهدَ الحب حقُّ اليقين، وشاهد الود عين اليقين، وشاهد الصيانة علم اليقين، والود وَصل بلا مواصلة، لأن الوصل ثابت والمواصلة تصرُّف الأوقات.

مسألة فى البكاء:

سُئل أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى عن البكاء، فقال: «البكاء من الله

(١) الأسرار جمع سر، السر قوة روحانية عذابها الحجاب، يقول أحد الصوفية اللهم مهما عذبتنى بشىء فلا تعذبنى بذل الحجاب.

وإلى الله وعلى الله، فـالبكاء من الله لطول تعـذيبه بالحنين عنه إذا ذكـر طول المدة إلى لقائه، والبكاء من خوف الانقطاع، والبكاء من الْفَرَق لما تواعده من المكافأة لمن قصّر، والبكاء من الفزع إذا قـام الإشفاق من الحادثات التى تحرم الوصـول إليه والبكاء إليـه، وهو أن يتكلف سـرُّهُ الهيـجانَ إليـه، والبكاء من طيران الأرواح بالحنين إليـه، والبكاء من وَله العقل إليـه، والبكاء من التأوّه، والبكاء من الوقوف بين يديه، والبكاء برقة الشكوى إليـه، والبكاء بالتمرغ على بساط الذل طَلَبَ الزُّلفى لديه، والبكاء عند المنافسة إذا توهم أنه بُطِّئ به عنه، والبكاء خـوفًا أن ينقطع الطريـق، فلا يصل إليـه، والبكاء خوفًـا أن لا يصلح للقـائه والبكاء من الحيـاء منه بأى عين ينـظر إليه، ثم البكاء عليـه إذا بُطِّئ به عنه، فى بعض الأوقات مما عودّه والبكاء من الفرح فى نفس وصوله إليه، إذا اكتنفـه ببره، كالصبى الـرضيع يرتضع ثدى أمه وهو يبكى، فـهذا ثمانية عـشر وجهًا».

مسألة فى الشاهد:

سُئل الجنيـد رحمه الله تعـالى، لِمَ سُمى الشـاهد شاهدًا؟ فقـال: الشاهد الحق شاهد فـى ضميـرك وأسرارك مطلعًا عـليها، وشـاهدًا لجمالـه فى خلقه وعباده، فـإذا نظر الناظر إليه شهد علـمَهُ بنظره إليه، وشاهدُ الصـوفية هو: أن يقطع منزلَ المريدين، فيشهد عمومَ العارفين، وحَمَلَة اسم الشاهد الحاضر فى الغيب، لا يحرج ولا يفتر ولا يتغافل فإن غفل غفلة مريد فليس بشاهد، وكلما يجرى فيه غير هذا فى ظاهر الخليقة فهو باطل، فليس هو طريق الصوفية.

مسألة فى صفاء المعاملة والعبادة:

قال: اجتمع مشايخ حرم الله تعالى، على أبى الحسين على بن هند القرَشى الفارسى رحمه الله تعالى، فسألوه عن صـفاء العبادة والمعاملة، فقال: إن للعقل دلالة وللحكمة إشارة، وللمعرفة شهادة، فالعقل يدل، والحكمة تشير، والمعرفة

تشهد أن صفاء العبادات لا يُنال إلا بصفاء معرفة أربعة: فأول ذلك معرفة الله تعالى، والثانى معرفة النفس، والثالث معرفة الموت، والرابع معرفة ما بعد الموت، من وعد الله ووعيده، فمن عرف الله تعالى قام بحقه، ومن عرف النفس استعد لمخالفتها ومجاهدتها ومن عرف الموت استعد لوروده، ومن شهد وعيد الله تعالى، ينزجر عن نهيه، وينتدب لأمره، فمراعاة حق الله تعالى على ثلاثة أوجه: على الوفاء، والأدب، والمروءة، فأما الوفاء فانفراد القلب بفردانيته، والثبات على مشاهدة وحدانيته بنور أزليته، والعيش معه، وأما الأدب فمراعاة الأسرار من الخطرات، وحفظ الأوقات، والانقطاع عن الحسد والعداوات، وأما المروءة فالثبات على الذكر نطقًا وفعلا، وصيانة اللسان، وحفظ النظر، وحفظ المطعم والملبس، وينال ذلك بالأدب، لأن أصل كل خير فى الدنيا والآخرة الأدب، وبالله التوفيق.

مسألة: ما الكريم؟

قال حارث رحمه الله تعالى: «الكريم الذى لا يبالى لمن أعطى».

وقال الجنيد رحمه الله: الكريم من لا يُحوجك إلى وسيلة.

مسألة فى الكرامة:

قال قوم: الكرامة أن يبلغ المراد قبلَ ظهور الإرادة.

وقال قوم: الإعطاء فوق المأمول.

مسألة فى الفكر:

سُئل الحارث المحاسبى رحمه الله تعالى عن الفكر فقال: الفكر فى قيام الأشياء بالحق.

وقال قوم: التفكر صحة الاعتبار.

وقال آخرون: الفكر ما ملأ القلوب من حال التعظيم لله عز وجل.

والفـرق بين الفكر والتـفكر، أن التـفكر جـولان القلب، والفكر وقـوف القلب على ما عرف.

مسألة فى الاعتبار: قال الحارث المحاسبـى أبو عبد الله بن أسد رحمه الله تعالى: الاعـتبار استدلال الشىء عـلى الشىء، وقال قوم: الاعتـبار، ما وضح فيه الإيمان، واستوفته العقول.

وقال قوم: الاعتبار، ما نفذ فى الغيب ولم يردّه مانع.

مسألة: ما النية؟ قال قوم: النية العزم على الفـعل، وقال قوم: النية معرفة اسم العمل.

وقال الـجنيد رحـمه الله تعالـى: النية تصـوير الأفعـال، وقال آخر: نـية المؤمن، الله عز وعلا.

مسألة: ما الصواب؟ قال قوم: الصواب التوحيد فقط.

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: الصواب كل نطق عن إذن.

مسـألة: سُئل الجنيـد عن الشفقـة على الخلق ما هو؟ قال: تـعطيهم من نفسك ما يطلبون، ولا تُحملهم ما لا يطيقون، ولا تخاطبهم بما لا يعلمون.

مسألة فى التـقية: قـال قوم: اسـتعـمال الأمـر والنهى، وقال قـوم: ترك الشبهـات، وقال قوم: التقـية: حرَمُ المؤمن كـما أن الكعبة حـرَمُ مكة، وقال قوم: التقية: نور فى القلب يفرق بها بين الحق والباطل.

وقال سهل والجنيد والحارث وأبو سعيد رحـمة الله تعالى عليهم أجمعين: التقية: استواء السر والعلانية.

مسألة فى السر: قال بعضهم السر: مـا لا يحسّ به هاجسُ النفس، السر ما غيبه الحق، وأشرف عليه به، وقال قوم: السر سرّان، سرٌّ للحق، وهو ما أشرف عليه بلا واسطة، وسر للخلق، وهو ما أشرف عليه الحق بواسطة، ويقال: سر من السّر للسرّ، وهو حق لا يظهر إلا بحق، وما ظهر بخلق فليس بسر.

وحكى عن الحسين بن منصور الحلاج رحمه الله تعالى، أنه قال: أسرارنا بِكْرٌ لا يفتضها وَهْم واهم.

وقال يوسف بن الحسين، رحمه الله تعالى: قلوب الرجال قُبور الأسرار(١).

وعنه أيضًا أنه قال: لو اطلع زرى على سِرِّى قلعتُهُ.

[وقال بعضهم] شعر:

حاسٌّ بسِرٍّ قد أَسَرَّ جَميعَهَا وكِلاهُما فى سِرِّها مَسْرُورُ
ما سِرُّ مَسْرُورٍ يُشِيرُ بَسِرِّهِ مِنْهُ إِلَيْهِ مُسَاوِيًا مَغْرُورُ

وقال آخر:

يا سِرَّ سِرٍّ يَدِقُّ حَتَّى يَخْفَى عَلَى وَهْمِ كلِّ حَيٍّ
وظاهِرٌ باطِنٌ تَجَلَّى مِنْ كلِّ شىءٍ لِكلِّ شىءِ

وقال النورى رحمه الله تعالى:

لَعَمْرِىَ ما استُودِعْتُ سِرِّى وسِرَّها سِوانا حَذارًا أنْ تَشِيعَ السَّرَائِرُ
ولا لاَحَظَتْهُ مُقْلَتَاىَ بِلَحْظةٍ فَتَشْهَدَ نَجْوَانا العُيُون النَّوَاظِرُ
وَلكِنْ جَعَلْتُ الوَهْمَ بينى وبَيْنَهُ رَسُولاً فأَدَّى ما تُكِنُّ الضَّمَائِرُ

فهذا ما حضرنى فى الوقت من مسائلهم، ومسائل هؤلاء أكثرُ من أن يتهيأ ذِكْرها.

وقد حُكى عن عمرو بن عثمان المكى، رحمه الله تعالى، أنه قال: العلم كلّه نِصْفان: نصفُهُ سؤال، ونصفُهُ جواب، وبالله التوفيق.

(١) وفى رواية: صدور الأحرار قبور الأسرار.

كتاب المكاتبات والصدور والأشعار والدعوات والرسائل

باب فى مكاتبات بعضهم إلى بعض

سمعت أحمد بن علىّ الْكَرَجى رحمه الله تعالى يقول: كتب الجنيْد إلى ممْشاذ الدينورى رحمه الله تعالى كتابًا: فلما وصل الكتاب إليه، قلبه وكتب على ظهره، ما كتب صحيح إلى صحيح قط، ولا افترقا فى الحقيقة، وكتب أبو سعيد الخراز إلى أبى العباس أحمد بن عطاء رحمهما الله: يا أبا العباس تعرفُ لى رجلا قد كملتْ طهارته، وبرئ من آثار نفسه عنه به له، موقوف مع الحق بالحق للحق، من حيث أوْقَفه الحق، حيث لا له ولا عليه، فالحق يعلله امتحان له، وامتحان للخلق به؟ فإن عرفتَ لى هذا، فدُلنى عليه حتى إن قبلنى كنت له خادمًا.

وكتب عمرو بن عثمان المكى رحمه الله كتابًا إلى بغداد، إلى جماعة للصوفية بها فكان فى كتابه: وإنكم لن تصلوا إلى حقيقة الحق، حتى تجاوزوا تلك الطُرقات المنطمسة، وتسلكوا تلك المفاوز المهلكة، فحضر عند قراءته الجنيد والشبلى وأبو محمد الجريرى رحمهم الله، فقال الجنيد رحمه الله: ليت شعرى من الداخل فيها؟ وقال الجريرى: ليت شعرى من الخارج منها؟ وقال الشبلى: يا ليتنى لم يكن لى منها مشامُّ الريح.

وفيما ذكر عن الشبلى رحمه الله، أنه كتب إلى الجنيد رحمه الله كتابًا، فكتب فيه: يا أبا القاسم، ما تقول فى حال علا فظهر، وظهر فقهر، وقهر فبهر، فاستناخ واستقر؟ فالشواهد منطمسة، والأوهام خنسة، والألسن خرِسة، والعلوم مندرسة، ولو تكاثفت الخليقة على من هذا حاله، لم يزدْه ذلك إلا توحشًا، ولو أقبلت الخليقة إليه تعطفًا، لم يزده ذلك إلا تبعدًا، فالحاصل فى

هذا الحال قد صُفد بالأغلال والأنكال، وغلبه على عقله فحال وحاد الحق بالحق، وصار الخلق عقالا، وكتب تحتها هذين البيتين:

يا هلالَ السَّما لطَرْف[1] كليل ... فَإذا ما بَدا أضا طَرَفَيْه

كُنْتُ أبْكى عَلَيَّ مِنْهُ فَلما ... أنْ تَوَلى بكَيْتُ منهُ عليه

قال: فترك الرقعة عنده من الأربعاء إلى الأربعاء، وكتب تحتها: يا أبا بكر: الله الله فى الخلق، كنا نأخذ الكلمة فننشقها، ونقرظها، ونتكلم بها فى السراديب وقد جئتَ أنت فخلعت العذار، بينك وبين أكابر الخلق ألفُ طبقة، فى أول طبقة يذهب ما وصفتَ.

قال الشيخ رحمه الله، وكنتُ بالرَّملة، وكان بها إنسان هاشمىٌّ، وله جارية مشهورة بحسن الصوت، والحذاقة فى القول، فسألنا أبا على الروذبارى، أن يكتب إليه رقعةً، يستأذن لنا بالدخول عليها، حتى نسمع منها شيئًا، فكتب إليه على البديهة بحضرتى:

بسم الله الرحمن الرحيم بلغنى ـ بلغك الله سؤالك، وأعطاك مأمولك ـ أن عندك من مناهل الوُرود، منهلا يردُ عليه قلوب أهل الوجود، فيشربون منه بعقد الوفاء، شرابًا يورثهم حقائق الصفاء، فإن أُذن لنا بالدخول عليه، فلنا على رَبّ المنهل أن يزّين المجلس بفقد الأغيار، ويحجبه عن نواظر الأبصار، ومجيئُنا مقرون بإذنك والسلام.

وسمعت أبا على بن أبى خالد الصورى بصورَ يقول: كتبتُ إلى أبى على الروذبارى رحمه الله كتابًا، وكتبت فيه هذين البيتين:

إنَّ كَتمى أبا عَلىٍّ لِحُبـ ... ـك فِرارًا مِنَ التشارُك فيه

حَبَّذا رُوذَبارُ ماذَا علينا ... لكَ حَقًا وذاكَ منهُ بتيه

(١) فى رواية أخرى: كطوف.

قال ثم استقبلنى بعد ذلك بأيام، وكان فى يدى جزءٌ، وأخذه من يدى وكتب على ظهره:

أغراكَ بالحبِّ حُبٌّ فى تخيبه ... لُطفُ الجنانِ وعطفٌ فى تعتُّبه

يا بنَ الصَّبَابات عنْ وِرْدٍ بلا صَدَر ... نجَّعْتَ صفوَ الهوى فى غيرِ مَطلبِه

قِفْ تحْتَ صُفتِّه بالودِّ منكَ له ... مُستهتَرًا بتباريح الشجونِ به

قال ومرض رجل من أصحاب ذى النون، فكتب إليه: أن ادعُ الله لى، فكتب إليه ذو النون رحمه الله: يا أخى سألتنى أن أدعو الله لك، أن يزيل عنك النعم؟ واعلم يا أخى أن المرض والعلة يأنس بها أهل الصفاء، وأصحاب الهمم والضناء لأنها فى حياتهم دركٌ للشفاء، ومن لم يعد البلاء نعمة فليس من الحكماء، ومن لم يأمن الشفيق على نفسه فقد أمِنَ أهل التهمة على أمره فليكن معك يا أخى من الله حياء يمنعك من الشكوى والسلام.

وكتب رجل إلى ذى النون رحمه الله: آنسك الله تعالى بقربه، فكتب إليه ذو النون رحمه الله: أوحشك الله من قربه فإنه إذا آنسك بقربه فهو قدرك، وإذا أوحشك من قربه فهو قدَرُه، ولا نهاية لقدره حتى يتركك ملهوفًا إليه.

وسمعت جعفر الخُلدى رحمه الله يقول: سمعت الجُنيد رحمه الله تعالى يقول: دفع إلىَّ سرى السقَطى رقعةً، قال: هذا مكان قضائك لحاجتى، ففتحتُ الرقعة فإذا فيها مكتوب: سمعتُ حاديًا فى البادية يحدو ويقول:

* أبْكى وَهَلْ تَدْرِينَ ما يُبْكِينى *

* أبْكى حِذارًا أنْ تُفَارِقِينى *

* وتَقْطَعى وَصْلى وتَهْجُرينى *

وقال الروذبارى رحمه الله، كتب إلىَّ بعض أصدقائى: كتابى إليك كمودتى لك، نورٌ منك دل عينى عليك، وحجبها عن النظر إلا إليك، والسلام.

وكتب أبو عبد الله أيضا فى كتاب إلى بعض أصدقائه: ما الذى أدّاك إلى الصبوة، بعد تمكنك من الحظوة؟ وما الذى حداك على قطع حَبْل الوصال، بعد المحافظة على الاتصال؟ أوَما علمتَ أن لورود الكُتُب فرحة تعْدل فرحة القُرْب؟.

وكتب شيخ من الأجلة إلى بعض المشايخ: وجدى بك حمانى عن الإشارة إليك، وما بدا من قُرْبك غيب عنى مؤنة الذكْر لك، فحقيقتك ظاهرة، وأعلامك زاهرة، وسطوتك قاهرة، ظهرت سطوتك فخنست معرفتى عند ظهورها، وذهل عقلى عند ورودها، وقصّر علمى عند شرح بيان ظهورها، وقصرت عبارتى عند استيلاء حقيقتك والسلام.

سمعت أبا الطيب أحمد بن مقاتل العكىّ يقول: كتب أبو الخيْر التيناتى إلى جعفر الخلْدى رحمه الله كتابًا، فكان فيه: وِزْرُ جهلِ الفقراء عليكم، لأنكم ركنتم إلى أبناء الدنيا، واشتغلتم بأموركم فبقوا جَهَلة.

وقال يوسف بن الحسين رحمه الله: كتبت إلى بعض الحكماء، وشكوتُ ركونى إلى الدنيا، وما أجِدُ فى طبعى من الأخلاق التى لستُ أرضاها من نفسى لنفسى، فكتب إلىَّ: بسم الله الرحمن الرحيم، وصل كتابك، وفهمتُ ما ذكرتَ ومُخاطبك - أكرمك الله - شريكك فى شكواك، ونظيرك فى بلواك، إن رأيتَ أن تديم الدعاء وقَرْعَ الباب، فإنه من قرع الباب، ولم يعجز عن القرع دخل، وإن تهيأ لك ما تريد من الصفاء، والطهارة، فدَعْ ما أنت فيه من البلاء، من اقتراف مَساوئ لا تُجْدى عليك منفعةً فى دينك، ولا دنياك، وتجنبْ قُرْبَ من

لا تأمن على نفسك فى مواصلته الغفلة، والبطالة، واستعنْ على ذلك كلّه بالقناعة والتجزى، وسَلْه أن يمنّ عليك بتوبة طهرى لا عملى، والسلام.

وقال يوسف بن الحسين رحمه الله، كتب حكيم إلى حكيم، يسأله عمّا يؤديه إلى صلاح نفسه، فكتب إليه: إن فساد نفسى قد شغلنى عن صلاحك، ولست أجد فى نفسى فضلةً لغيرها، والسلام.

وقال: كتب أبو العباس أحمد بن عطاء رحمه الله إلى أبى سعيد الخرّاز رحمه الله كتابًا فقال فيه: وأعْلمك أن الفقراء وأصحابنا بعدك، صاروا يناقرون بعضهم لبعض فكتب إليه أبو سعيد رحمه الله: وأمّا ما ذكرتَ أن أصحابنا بعدى، صاروا يناقرون بعضهم لبعض، فاعلمْ أن ذلك غيرةً من الحق عليهم، حتى لا يسكن بعضهم إلى بعض.

وقال الروذبارى: كتب بعض المحبين إلى حبيبه يعاتبه: إن المودّة لم تزل موصولةً، فزُرْ بلادى، وأكثر ودادى، واحذرْ عُداة الحيِّ أن يلقوك، ولْيَظُنَّ العُدَاة أنك جافٍ.

وكتب بعض المشايخ كتابًا، فكان فيه هذا الفصل، وأنا وجدته بخط جعفر الخُلْدى: تفكّرى فى مرارة البين يمنعنى من التمتع بحلاوة الوصل، وتكره عينى أن تقرَّ بقُرْبك، مخافةَ أن تسخن ببُعْدك، فلى عند الاجتماع كبد ترجف، وعند التنائى مقلةٌ تَكِفُ، وأقول كما قال الشاعر:

وَما فى الدَّهْرِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍ ... وإنْ وَجَدَ الهوى حُلْوَ المَذَاقِ
تَراهُ باكيًا فى كلِ حينٍ ... مَخَافَةَ فُرْقَةٍ، أوْ لاشْتِيَاقِ
فَيَبْكى إنْ نَأَوْا شَوْقًا إِلَيْهِمْ ... وَيَبْكى إنْ دَنَوْا خَوفَ الفِرَاقِ
فَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّنائى ... وَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّلاقى

وحُكى عن حسين بن جبريل المَرَندى رحمه الله، وكان من المشايخ الأجلة، أنه قال: ورد علىَّ كتاب من مكة، فقرأت على جماعة من أصحابنا،

وكان من بعض تلامذته، فكان في الكتاب: أُعْلمك يا شيخي أن أصحابك كلهم ترافقوا بعضهم مع بعض، فبقيتُ بلا رفيق، فرأيتُ يومًا في الطواف غزالا يطوف فأعجبني ذلك، فرافقته وكان لي قرصان شعيرٌ في كل ليلة، قرصٌ لي وقرصٌ له، فبقي معي أشهُرًا ليلها ونهارها، فليلةً من الليالي لم أتفرغ للإفطار وتأخر ذلك، فلما أردت أن أفطر، فإذا به قد أكل القرصين، فقلت: وَيْحك قد ظهرت منك الخيانة، فرأيت دموعه تسيل على خده، ، فذهب حيَاءً مني، فأسألكُ أن تدعو الله تعالى أنت وأصحابك، أن يردّه عليَّ.

قال: وكتب شاه الكِرْماني رحمه الله، إلى أبي حفص رحمه الله: إذا رأيتُ أمْري كله مصيبةً، فكيف أكون في مصائبي؟ فكتب إليه أبو حفص رحمه الله: ألِفْ مصائبك، ولا تكن مع إلْفك لمصائبك.

وفيما حُكي عن ابن مسروق عن سَرِيّ السَّقَطي رحمه الله، أنه قال: كتب إليَّ بعض إخواني، فكتبت إليه: يا أخي أُوصيك بتقوى الله الذي يُسْعِد بطاعته من أطاعه، وينتقم بمعصيته ممن عصاه، فلا تدعونَّك طاعته إلى الأمْن من عذابه، ولا تدعونَّك معصيته إلى اليأس من رحمته، جعلنا الله وإياكم حَذِرين من غير قنوط، وله راجين من غير اغترار والسلام.

وكتب الجُنيد رحمه الله كتابًا إلى علي بن سهل الأصبهاني، وكان فيه: واعلم يا أخي، أن الحقائق اللازمة، والقصود القوية المحكمة، والعزائم الصحيحة المؤكدة، لم تُبق على أهلها سببًا إلا قطعته، ولا معترضًا إلا منعته ولا أثرًا في خفيّ السرائر إلا أخرجته، ولا تأويلا مُوهِمًا لصحة المراد إلا كشفته، فالحقُّ عندهم بصحة الحال مجرَّدًا، والجد في دوام السَّيْر محدَّدًا على براهين من العلم واضحة، ودلائل من الحق بينّة.

قال الشيخ رحمه الله: فأما مكاتباتهم، ومراسلاتهم فأكثرُ من أن يتهيأ جمعها في الأجزاء الكثيرة، وإنما ذكرنا هذا طرفًا على حسب ما أمكن في

الوقت، لأن المراسلات الطوال نحوَ رسالة النورى إلى الجنيد رحمهما الله فى مسألة البلاء، ورسالة أبى سعيد الخراز إلى النورى، ورسالة الجنيد الى يحيى ابن مُعاذ، وإلى يوسف بن الحسين، ومجاوبَتَيْهِمَا، ورسالة عمرو المكى إلى ابن عطاء، وغير ذلك، لم يتهيأ لنا ذكْره، ولكن نذكر رسالة واحدة للجنيد إلى أبى بكر الكسائى الدينورى رحمهما الله، وهى مختصرة إن شاء الله تعالى.

رسالة الجنيد إلى أبى بكر الكسائى رحمهما الله تعالى: أخى أين محلك عند تعطيل العشار[1]؟ وأين دارك وقد خربت الديار؟ وأين مَنزلك والمنازل قاعٌ صفصفٌ قفار؟ وأين مكانك والأماكن عواف دوارسُ الآثار؟ وماذا خبرُك عند ذهاب جوامع الأخبار؟ فيم نظرك عند اصطلام محاضر النظار؟ فيم فكرْك وليس بحين نظر ولا افتكار؟ وكيف هدوؤك على ممر الليل والنهار؟ وكيف حذَرُك عند وقوع فواجع الأقدار؟ وكيف صبرك ولا سبيل إلى عزاء ولا اصطبار؟ فابكِ الآن إن وجدت سبيلا إلى البكاء، بكاء الوالهة الحزينة الموجعة الثكلى، بفقد أعزة الألآف وفناء أجلة الأخلاف، وإبادة ما مضى من الاكتناف، وذهاب مشايخ الاعتطاف وورود بداية الاختطاف، وروادف عواصف الارتجاف، وتتابع قواصف الانتساف، وبواهر قواهر الاعتكاف، وثواقب ملامح الاعتراف، فإلى أين موئلك، وإلامَ يبلغ مصدرك، والأحلام متمزقة، والقلوب متصدعة، والعقول منخلعة، والأنباء كلها مرتفعة، وأنت فى أوابد مندمسة، ونجوم منطمسة، وسبل ملتبسة، قد أضلك فى اختلاف مناهجها ظلماؤها، وانطبقت عليك أرضها وسماؤها، ثم أفضى بك ذلك إلى لجة اللجج، والبحر الزاخر الغامر المختلج، الذى كل بحر دونه أو لجة، فهو فيه كتفلة أو مجة، فقد قذف بك فى كثيف أمواجه، وتلاطم عليك بعظيم هوله وارتجاجه، فمن مستنقذك من متلفات المهالك أو مخرجك مما هنالك؟ كتابى

(١) يشير إلى الآية القرآنية التى جاءت ـ مع آيات أخر ـ فى وصف هول يوم القيامة وهى: ﴿وإذا العشار عطلت﴾.

إليك أبا بكر، وأنا أحمد الله حمداً كثيرًا، وأسأله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة، وصل إلىَّ منك كتبٌ فهمتُ ما ذكرت فيها؛ ولم يمنعنى من إجابتك عليها ما وقع فى وهمك، وشق على ما ذكرت من غمك، وليس حالك عندى حال معتوب عليه، بل حالك عندى حال معطوف عليه، وبحسبك من بلائك أن أكون سببًا للزيادة فى البلاء عليك، وإنى عليك لمشفق، وإنما منعنى من مكاتبتك، لأنى حذرت أن يخرج ما فى كتابى إليك إلى غيرك بغير علمك، وذلك أنى كتبت منذ مدة كتابًا إلى أقوام من أهل إصبهان، ففتح كتابى، وأخذت نسخته، استعجم بعض ما فيه على قوم، فأتعبنى تخلصهم، ولزمنى من ذلك مؤنة عليهم، وبالخلق حاجة إلى الرفق، وليس من الرفق بالخلق ملاقاتهم بما لا يعرفون، ولا مخاطبتهم بما لا يفهمون، وربما وقع ذلك من غير قصد إليه، ولا تعمد له، جعل الله عليك واقية وجنة وسلمنا وإياك فعليك، رحمك الله، بضبط لسانك، ومعرفة أهل زمانك، وخاطب الناسَ بما يعرفون، ودعهم مما لا يعرفون، فقلَّ من جهل شيئًا إلا عاداه، وإنما الناس كالإبل المائة[1]: ليس فيها راحلة، وقد جعل الله تعالى، العلماء والحكماء رحمة من رحمته، وبسطها على عباده، فاعمل على أن تكون رحمة على غيرك، إن كان من رحمته، وبسطها على عبادة، فاعمل على أن تكون رحمة على غيرك، إن كان الله قد جعلك بلاء على نفسك، واخرج إلى الخلق من حالك بأحوالهم، وخاطبهم من قلبك على حسب مواضعهم، فذلك أبلغ لك ولهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وقال الشيخ رحمه الله: وإنما وضعتُ فى هذا الكتاب هذه الحكاية والرسالة حتى يتأمل من ينظر فيه، ويستفيد منها بما فيها من الإشارات الصحيحة، والعبارات الفصيحة، ويقف على مقاصد القوم فى مكاتباتهم، لأن بين كل طائفة من الناس مكاتبات ومراسلات، على حسب ما يليق بهم، وبالله التوفيق.

(١) قوله: المائة. لعلها: الهائمة.

باب فى صدور الكتب والرسائل

صدرٌ للجنَيْد، رحمه الله: آثرك الله يا أخى بالاصطفاء، وجمعك بالاحتواء، وخصّك بعلم أهل النُّهى، وأطلعك من المعرفة على ما هو أولَى، وتمّم لك ما تريد منك له، ثم أخْلاك منك له، ومنه له به ليُفردك فى تقلّبه لك، بما يُشهدك، من حيث لا يلحقك شاهدٌ من الشواهد يخرجك، فذلك: أول الأول الذى محابه رسوم ما ترادف مما غيّبه به عنك بعلوّ ما استأثر به منه له، ثم أفردك منك لك، فى أول تفريد التجريد، وحقيقة كائن التفريد؛ فكذلك إذا انفرد بذلك أباد وأفنَى الإبادة ما سلف من الحقّ من الشاهد بعد إفناء محاضر الخلق، فعند ذلك يقع حقيقة الحقيقة من الحق للحق، ومن ذلك: ما جرى بحقيقة علم الانتهاء إلى علم التوحيد على علم تفريد التجريد، فقد عزه الله وحجبه عن كثير ممن ينتحله ويدعيه، ويتحقّقه ويصطفيه.

صدر آخر: موّتك حقيقة الاختصاص عن لوائح الانتقاص، وآواك الحقّ فى خفىّ من الملاحظة لحظّك شغلا بالإجلال له عن ذِكر نفسك وحالك فى أوان ذكره، ثم أذكرَك أنه ذَكرك فى قديم الأزل قبل حين البلوى، وقبل حال البلوى، إنه فعالٌ لما يشاء، وهو قدير.

صدر آخر: أكرمك بطاعته، وخصك بولايته، وجللك بستره، ووفّقك لسنة نبيّه ﷺ، وأطلعك على فهم كتابه، وأنطقك بالحكمة، وآنسك بالقرب، وخصّك بالفوائد، ومنحك الزيادات، وألزمك بابه، وكلفك خدمته، حتى تكون له موافقًا، ولكأس محبّته ذائقًا، فيتصل العيش بالعيش، والحياة بالحياة، والروح بالروح، فتتمّ النعمة، وتسلم من المعتبة، فتصح العافية، وتكمل السلامة.

صدر آخر: بدت لك عجائب مـافى الغيوب من أنبائهـا؛ وكشفت لك عن حقائق ما تكن من أكنانها، وأوضحت لك عن سـرّ غرائب إخفائها، وخاطبتك بكل ما كمن من عطائها، بلسانه الذى ينطق به عن خفىّ مكانه، فأوضحُ مَنطق يوضح عن حُكم بيـانه، ليس بمـا صرّح بـه من الفَصْح من لسـانه، لكن بمـا أوقفه الحقّ من مراد إعلانه، وذلك: غير كائن قبل حينه وأوانه، والمراد بفهم ذلك: هو المفْرَد الموجود من أهل دهره وزمانه.

صدر آخر: حاطك الله بحياطته التى يحوط بهـا المستخلصين من أحبابه، وثبّتـك وإيانا على سُبل مـرضاته، وأولج بك قـبابَ أنسه، وأرقـاك فى رياض فنون كرامته، وكلأك فى الأحوال كلها كلاءة الجنين فى بطن أمّه، ثم أدام لك الحياة المستخلصة من قيموميّة الحياة على دوام ديمومية أبديته وأفردك عمّا لك به وعمّا له بك حتى تكون فـردًا به فى دوامها لا أنت ولا مالك ولا العلم به، ويكون الله وحْدهُ.

هذه الصـدور كلها للجُنَيْـد، رحمـه الله، وفيـها إشـارات لطيفـة، ورموز خفية، تعبر عن الحقائق المشكلة وتُنبئ عن السرائر والخصوصية التى تنفرد بها هذه العصابة فى تجريد التوحيد، وحقيقـة التفريد، فمن نظر فيه فليتأمل، فإن فـيه لأهل الفـهم فوائـد، ولأهل العناية بهذا العـلم زوائد، وعلى القلوب من المعرفة بذلك جميل عوائد، والله الموفق للصواب.

ولغير الجنيد صدور حسنة، أذكر من ذلك طرفًا إن شاء الله.

صـدر لأبى علىّ الروذبارى، رحمـه الله: آنسك الله فى كـمال الأحـوال وتمامها، وبلوغ الغايات ونظامهـا، وآنس بك قلوب أهل مصافاتك وموالاتك، فى دوام فضلك ومعافاتك، وجعل لك ما اتّضح لك موصولاً بك فى حياتك، وبعد وفاتك، ومنّ عـلينا بما يقصر عنه بلوغ الآمـال ونهاية الأحوال، وزادك من فضله الذى عـوّدك من برّه وألطافه وإحسانـه، والله يمن علينا فى ذلك بما نرجوه.

صدر لأبى سعيد بن الأعرابى: كلأكم الله كلاءة الوليد، وألحقنا وإيّاكم بصالح العبيد، الذين كشف عن قناع قلوبهم، فشاهدوا الوَعْد والوعيد؛ فمن كان منهم خائفًا فالرجاء منهم غير بعيد، ومن كان منهم راجيًا فالخوف فى قلبه عتيد، فهم بمحبّته صائلون، ولهيبته خاضعون، بسطتْهم المحبة والرجاء أن يكونوا قانطين، وقبضهم الخوف أن يكونوا مخدوعين أو آمنين، فهم بين الخوف والرجاء واقفون، فقد أقلقهم الشوق، وأزعجهم الذوق، فحسْن الظنّ قائدُهم، وخوف الفَوْت سائقُهم، والتوفيق رائدُهم، والحبّ مطيتهم، طالبين مطلوبين، منوَّرة لهم أعْلام الطريق، معمورة لهم المناهل تُلوِّحُ لهم بالعوائد، منقلبين بالطُّرَف والفوائد.

صدر آخر له: أماتك الله عنك، وأحياك به وأيَّدك بالفهم، وفرغ قلبك من كل وهم، وآفناك بالقرْب عن المسافة، وبالأنس عن الوحشة.

صدر آخر له: كلأك الله الوليد المرحوم، وحفظك حِفظ الولى المعصوم، ووهب لك معرفة ما أنعم به عليك، واستخرج منك ما جبلك عليه، وحجبك عن نفسك القاطعة دونه، وكفاك عوائقها وبوائقها ورؤية عملك؛ وآثار سعيك، وتزكية نفسك، وأعتقك من رقها، وكفاك عوارض تحيرها، وفضول تكلفها؛ واستخلصك لنفسه منها، ليحقق فيك العبودية، فيزكو عملك وإن خف، وينمو سعيك وإن قل، وتطيب حياتك وإن متَّ، حتى يوصلك بالحياة التى لاموت فيها، والبقاء الذى لا فناء بعده؛ وتولى أمْرَك بالحسنى فى عواقبها، كما كفاك التحير فى أوائلها؛ إنه ولى التمام لما ابتدأه.

صدر لأبى سعيد الخراز: عصمك الله بذِكْره عن نفسك، وكاشفك بشكْره عن وصفك، وقسم لك من العلم به فى فعلك، حتى تكون ممن جمع له حبل الرشاد وأعلى فى ذلك مكانك، وكوشفت فى ذلك بالبيان؛ وأنا أسأل الله تعالى: أن يجمع لك من نفسك ما فرق، ويبين عنك منها ما جمع، إنه الولى لذلك والقادر عليه.

صدر آخر لـه: حماك الله عن نفسك بذكـره، وصدقك فى ذلك بشكره، ولا أخلاك فى ذلك بإقبـاله، وقسم لك من جزيل نواله، وأعـاذك من شديد مِحَاله، إنه ولىّ ذلك والقادر عليه.

صدر آخر له، وأظنه للخراز: قسم الله لك من العلم الرفيع، وأفردك فى الذكر المنيع ولا أخلاك من رعـايته، وأفردك بولايته، وتولاك فيمـا استرعاك، وكـان لك فى ذلك وكـفـاك، وأقبل عليك وشـفـاك، وقسم لك من ذكـره ووالاك، وآنسك بطاعته وأعلاك، ولا وكلك إلى نفسك وهواك.

صدر للكردى الصـوفى الأرموى: منحك الله بما به منحك، وحـماك عن طويات الصـفات بالإنابة لمن رتـب الرويات، وحمـاك عنك، بشاهد مـا فيـه بدأك، وعظيم ما به ابتـدأك، وأحلك فى محل التجلية لمـا أراد ولما به أريد، وأظلهم واقـع براءة التـسليم [التى] تحـوى أسرارهم لمن يـفانى، فـتسـرى همومـهم لمن يعانى، قـد باشروا منه ما له اسـتبشـروا، وفى ميـادين محبـته انتشروا، ألمـأ بهم سواطع أنوار التوحيد، ولوامع التجـريد، باينين عما له وبه بانوا، فهُمْ كالذى كانوا.

صـدر كتـاب للدُّقى، رحمـه الله: هنَّأك الله كـرامتـه، فأنت غـيثٌ لأهل مودته، وكهفٌ لأهل مـوافقته، ودالٌّ على معـرفته، ومنتسبٌ إلى وحـدانيته، ومُخْبِرٌ عنه به، ومن اصطنعه لنفسه فى قديم أزليته، وأطْلعه على مكنون سره، وأشهـده مجارى قـدرته، وأنطق لسانك بحكمـته، وأقامك لدلالتـه، وجعلك معيارًا على المريدين، والمحققين البالغين، المتأهّبين بحسن استبانته؛ إنه ولىُّ ذلك، ولا سبيل إليه إلا به، والسلام.

صدر آخر للدُّقى: أكرمك الله وأعلاك، وقربك بعطائه وأدناك، وقسم لك من نواله وأرضاك، وأعاذك من بلائه وشفاك، وتولاك فيما ألزمك وكفاك؛ إنه ولىٌّ قديرٌ، ذو رأفة لمن التجأ إليه، ومُهَيمن على من استند إليه، نعوذ بالله لنا ولك من كل بلية، ونستعيذه ونستغفره من كل خطية.

صدر آخر، تودّد الله إليك بعطفه، ولا أخلاك من نائله ولطفه، وأعاذك من بلائه وعنفه، ولا حجبك بفعلك عن ذِكْره، ولا سترك بعملك عن شُكْره، إنه وليٌّ قديرٌ.

صدر آخر، عصمك الله بما عصم به المتقين، وأودعك من العشق السليم، وكاشفك بذكره الرفيع، وآنسك بدوام إقباله عليك، إنه ولى قدير.

قال الشيخ، رحمه الله: والذى حملنا على جمع هذه الرسائل والصدور والمكاتبات فى هذا الكتاب: ما أودع فيها من المعانى والإشارات، لينظر الناظر فيه، ويستدل بذلك على مراتب القوم، ولطائف إشاراتهم، وطهارة أسرارهم، وخصوصيتهم بالفهم، والعلم، والعقل، والأدب؛ لأن من عادة أهل المعرفة والأدب أن يعرفوا أشكالهم بمخاطباتهم، وأشعارهم، ومكاتباتهم، إذا فاتهم المجالسة والمخالطة وبالله التوفيق.

باب فى أشعارهم فى معانى أحوالهم وإشاراتهم

حكى عن يوسف بن الحسين أنه قال: سمعت بعض الثقات يحكى عن ذى النون المصرى، رحمه الله، أنه قال:

إذا ارْتحلَ الكرامُ إليكَ يومًا ... ليلتمسوك حالا بعد حالِ
فإنَّ رحالنا حُطَّتْ رضاءً ... بحكمكَ عن حُلول وارتحالَ
أنخْنا فى فناءكَ يا إلهى ... إليك مُفوِّضينَ بلا اعتلال
فَسُنا كيف شئتَ ولا تَكلنا ... إلى تدبيرنا يا ذا المعالىَ

ولذى النون، رحمه الله أيضًا:

مَنْ لاذ بالله نجا بالله ... وَسَرَّهُ مَرُّ قضاء الله
إن لم تكنْ نفسى بكف اللهَ ... فكيف أنقادُ لحكمَ اللهَ
لله أنفاسٌ جرتْ للهِ ... لا حوْل لى فيها بغير اللهَ

أنشدنى أبو عمرو بن علوان للجنيد، رحمه الله، هذه الأبيات:

تغرَّب أمرى عند كلّ غريب ... فصرْتُ عجيبًا عند كل عجيب
وذاك لأنَّ العارفين رأيتهمُ ... على طبقات فى الهواء رُتوب
فأصبحَ أمرى ليسَ يُدركُ غوره ... سوَى أننى للعارفينَ خطيبُ

وللجنيد، رحمه الله، فى الاحتراق والتعذيب:

يا مُوقدَ النارِ فى قلبى بقدرتَه ... لو شئت أطفأت عن قلبى بك النار
لا عارَ إن متُ من خوف ومن حذرٍ ... على فعالك بى لا عارَ لا عارا

وله أيضًا:

يا مُسْعرى أسفًا يا مُتلفى شغفًا ... لو شئتَ أنزلْتَ تعذيبى بمقدار
حاشاكَ من استغاثاتى فكيف وقد ... أوليتنى نعمًا طاحتْ بأذكارِ

سمعت أحمد بن على الوجيهى بالرملة يقول: كتب أبو الحسين النورى كتابًا إلى أبى سعيد الخراز، رحمه الله، فكتب فيه هذه الأبيات:

لعَمْرى ما استودعتُ سرى وسرَّه ... سوانا حذارًا أن تشيعَ السرائر
ولا لاحظتهُ مُقلتاىَ بنظرة ... فتشهدَ نجوانا القلوبُ النواظرُ
ولكن جعلتُ الوَهمَ بينى وبَينهُ ... رسولا فأدى ما تكنُّ الضمائرُ

وأنشد القنّاد لأبى الحسين النورى، رحمه الله، يصف فقْدَ حاله وينعاه:

أنعى إليكَ إشارات القلوب معًا ... لم يبقَ منهن إلا دارسُ العلَم
أنعى إليكَ قلوبًا طال ما هطلَتْ ... سحائبُ الجود منها أبحُرَ الحكَم
أنعى إليكَ نفوسًا طاحَ شاهدُها ... فيما ورَا الحيث بل فى شاهد القدم
أنعى إليكَ لسانَ الحق مُذْ زمن ... أوْدى وأذكارُهُ فى الوهم كالعَدَمِ
أنعى إليكَ بيانًا تستكينُ لهُ ... أسماعُ كلِّ فصيحٍ مقول فهم
أنعى وحقك أخلاقًا لطائفةٍ ... كانت مطاياهُم فى مكمنِ الكظَم

قال الشيخ، رحمه الله: أنشدنى جعفر الخُلدى للجنيد، رحمهما الله، هذين البيتين:

مالى جُفيتُ وكنت لا أُجفى ... ودلائل الهجران لا تخفى؟!
وأراكَ تسقينى وتمزُجُنى ... ولقدْ عهدْتكَ شاربى صرفا!

وفيما ذكر عبد الله بن الحسين، قال: سمعت أحمد بن الحسين البصرى يقول: حضرتُ مجلس الجنيد، رحمه الله، فسأله رجل مسألة، فأنشد:

نمَّ على سر وَجْده النفسُ ... والدمع من مُقلتيه يَنْبَجسُ
مُدلهٌ هائمٌ لهُ حَرَقٌ ... أنفاسهُ بالحنين تختلسُ
مُهذبٌ عارفٌ لهُ فطَنٌ ... من نور أُنسِ الحبيب يُقتبسُ
يا، بأبى الأشعث الغريبُ فتى ... ليسَ لهَ دونَ سؤْله أنسُ
يا، بأبى جسمهُ الزَكىُّ وإن ... كان عليهِ خُلَيِّقٌ دنسُ

قال: وأنشدني أبو بكر الدقي بدمشق قال: أنشدني أبو علي، أحمد بن محمد الروذباري، رحمه الله، لنفسه:

حدُّ القناعة مَحْوُ الكل منكَ إذا لاحَ المزيدُ بجدٍّ عنه مُطَّلع
فإنْ تحقق وصفُ الوجدِ مُشتملاً على الإشارات لم يَلوِ على الطمع

قال: وأنشدني الوجيهي قال: أنشدني أبو عليّ الروذباري لنفسه:

كتبتُ إليكم بماء الجفون وقلبي بماء الهوى مُشرَبُ!
وكفِّي تخطُّ وقلبي يملُّ وعيناىَ تمحو الذي تكتبُ!

قال: وأنشدني أبو عبد الله، أحمد بن عطاء الروذباري لخاله أبي علي، رحمه الله:

تأمَّلَ من بعد تأميله حُلول فنائك صَفْوُ الوصالِ
موانعَ عنْ احتواء الوصالَ إليك عن الوصل في كل حالَ
على أن يردَّ عليك الصفات بنعت التمكن عندَ الكمالِ
فاقنع بقنعته أنْ تراهُ فَفُتَّ مدى لحظه في النوالِ

وله:

إني أُجلُّكَ عن رُوحي وأبذلُها فداءُ عبدِكَ رُوحٌ أنتَ واهبُها
وكيفَ تفديكَ روحٌ أنت واهبها وقد مَنَنْتَ على من يفتديك بها؟!

قال: وأنشدني أبو بكر: أحمد بن إبراهيم المؤدّب البيروتي بمصر للخواص رحمه الله:

صبرْتُ على بعضِ الأذى خوف كله ودافعتُ عنْ نفسي لنفسي فعزَّتِ
وجرَّعْتها المكروه حتى تدرَّبتْ ولوْ جرعتُهُ جملةً لا شمأزَّتِ
ألا رُبَّ ذُلٍّ ساق للنفسِ عِزةً ويا رُبَّ نفس بالتعزُّز ذَلتِ

إذا ما مَدَدتُ الكَفَّ أَلْتَمسُ الغنى ... إلى غيرِ مَنْ قال اسألونى فشَلَّت
سأصبرُ نفسى إنَّ فى الصبرِ عِزَّةً ... وأَرْضَى بدُنيائى وإنْ هىَ قَلَّتِ

وأنشدنى أبو حفص عمر الشِّمْشاطى بالرَّمْلة للخوَّاص، رحمه الله:

لقد وَضَح الطريقُ إليكَ قصدًا ... فما أحدٌ أرادكَ يَسْتَدلُّ
فإنْ وَرَدَ الشتاء فأنت صَيفٌ ... وإن وَرَدَ المصيفُ فأنت ظَلُّ

قال عمر: معناه من كتاب الله تعالى قال: ﴿**كلا إن مَعِىَ ربِّى سَيَهْدِينِى**﴾
ولسُمْنون، وكان يقال له: سمنون المُحِب يَصِفُ، الوجد:

هَبْنى وجدتُكَ بالعلوم ووَجدها ... مَنْ ذا يجدْكَ بلا وُجُود يَظْهَرُ
أيقَظتَنى بالعِلْم ثم تركتَنى ... حَيْرانَ فيكَ مُلَدَّدًا لا أُبصرُ
يا غائبًا والدَّهرُ يبرزُ عزَّهُ ... ما لاحَ منك صغيرُهُ قد يُبهرُ
قد كنتُ أطرَبُ للوُجُودِ مُرَوَّعًا ... طورًا يُغَيِّبُنى وطَوْرًا أُحضَرُ
أفنَى الوُجودَ بشاهد مَشهودُهُ ... يُفنى الوُجُودَ وكلَّ معنى يحضُرُ
وطرَحْتنى فى بَحْرِ قُدْسكَ سابحًا ... أبغيكَ منكَ بلا وُجُود يَظْهرُ

وله:

شَغَلْتُ قلبى عَنِ الدُّنيا ولَذَّتها ... فأنتَ فى القلب شىءٌ غيرُ مُفترقِ
وما تطابقتِ الأجفانُ عن سِنةٍ ... إلا وجدتُكَ بين الجفنِ والحدقِ

أخبرنى جعفر الخلدى، رحمه الله، فيما قرأتُ عليه، قال: سمعت الجنَيْد، رحمه الله، يقول: كان أبو الحسن سَرى السَّقَطى، رحمه الله، كثيراً يُنشد هذه الأبيات:

ولمَّا أدَّعَيْتُ الحُبَّ قالتْ: كذَبْتَنى ... فما لى أرَى الأعضاءَ منك كَواسيا
فما الحُب حتى يَلْصَقَ الجلدُ بالحشا ... وتَذْبُلَ حتى لا تُجيبَ المُناديا
وتَنْحَلَ حتى لا يُبَقِّى لكَ الهوَى ... سوَى مُقلةٍ تبكى بها أو تُناجيا

قال الجنيد، رحمه الله: دخلتُ غُرْفته وهو يكنس بيته بخرقة ويقول:

وما رُمْتُ الدخُولَ عليه حتى حَلَلْتُ مَحَلةَ العَبْدِ الذليلِ
وأغْضَيْتُ الجفُونَ عَلَى قَذاها وصُنْتُ النفسَ عَنْ قال وقِيلِ

قال: وكان يقول كثيرًا هذا البيت:

ما فى النهار ولا فى الليل لى فَرَجٌ فما أبالِى أطالَ الليلُ أمْ قَصُرا

أنشدنى أبو عمرو الزَّنجانى، بتبريز قال: كان الشبلْى، رحمه الله يقول: عند موته:

قالَ سلطانُ حُبِّه: أنا لا أقْبَلُ الرِّشا
فَسلُوه فَديْتُهُ لَمِ قَتْلِى تَحَرُّشا

وله:

أظلتْ عَلَيْنا منكَ يَوْمًا غمامةٌ أضاءَتْ لَنا بَرْقًا، وأبطَى رشاشْها
فلا غَيْمُها يَجْلُو فيأيَسَ طامِعٌ ولا غَيْثُها يأتى فيروَى عِطاشُها

ثم قال للنسَّاج: أين موضعك من هذا؟ قال: بحيث الذل، فقال: آه تذكر الذلّ بحضرتى، غيرةً منه على المكان! ثم أنشأ يقول:

لقد فُضِّلَتْ لَيْلَى على النَّاسِ كالتى على ألْف شهر فُضِّلَتْ ليْلَة القدر
فيا حُبَّهاَ زدْنى جَوًى كلَّ ليلةٍ ويا سَلوَةَ الأيامِ مَوْ عِدُكِ الحشرُ

وقال الشبلى، رحمه الله، فى مجلسه يومًا:

وعَينانِ قال الله: كونا فكانَتا فَعُولانِ بالألباب ما تفعل الخمرُ

ثم قال: لستُ أعنى العيون النُّجْلَ ولكنى أعنى عيون القلوب ذوات الصدور! فَطوبى لمن له عينٌ فى قلبه، وأُذنٌ واعيةٌ، وألفاظ مرضية.

فقال أبو الفرج العُكبَرِيُّ: سألته عن الغَيرَة، فقال: غيرة البشرية للأشخاص، وغيرة الإلهية على الوقت أن يضيع فيما سوى الله، ثم أنشأ وهو يقول:

ذابَ مما فى فؤادى بَدَنى ... وفؤادى ذابَ مما فى البَدَنْ

فاقطَعوا حَبْلى وإن شئتم صِلوا ... كل شيءٍ منك عندىَ حسَنْ

صحَّ عند الناسِ أنى عاشقٌ ... غيرَ أنْ لَمْ يعلَموا عِشقى لمنْ!

وجرى شيء من العلم فأنشأ يقول:

وشُغِلْتُ عنْ فَهْمِ الحديثِ سوَى ... ما كان منكَ وحُبُّكُم شُغْلى

وأُديمُ نحوَ مُحَدِّثى نظَرى ... أنْ قد فهِمْتُ وعندكم عَقلى

وكان يُنشد هذين البيتين كثيرًا فى مجلسه:

رآنى فأوْرانى عجائبَ لُطفه ... فهِمْتُ وقلبى بالفراقِ يَذوبُ

فلا غائبٌ عنى فأسلوا بِذِكْرِه ... ولا هُوَ عنى معرِضٌ فأغِيبُ

وله:

جرَى السيلُ فاستبكانىَ السيلُ إذ جرَى ... وفاضتْ له مِنْ مُقلتىَّ غُرُوبُ

يكونُ أُجاجًا دُونكم فإذا انتهَى ... إليكم تلقَّى طِيبَكم فيطيبُ

ويقال: إن هذه الأبيات لسهل بن عبد الله رحمه الله فى الصبر على المكاره:

أتذكرُ ساعةً أُلْعِقتَ فيها ... وأنت وليدُها عسلا وصبرا

لتَعلَم أنَّ هذا الدهر يُمسى ... ويُصْبِحُ طعمُهُ حُلوًا ومُرا

فلا يَمَلأْك محبوبٌ سُرُورًا ... وإنْ وافاك مكروهٌ فصبرا

وإنْ قارَفْتَ فى دُنياكَ ذنبًا ... فَقلْ فى إثرِه ياربِّ غفرا

وليحيى بن مُعاذ الرازى، رحمة الله عليه:

أموتُ بداءٍ لا يُصاب دوائيا ... ولا فرجٌ مِما أرَى فى بَلائيا

يقولونَ: يحيى جُنَّ مِنْ بعد صحةٍ ... ولا يَعْلَمُ العذالُ مـا فى حشـائيا
إذا كـانَ داءَ المـرْءِ حُـبُّ مليكهِ ... فمـنْ غيرهُ يـرْجُو طبـيبًا مـداويا
مع اللهِ يقــضى دَهْـرَهُ مُـستلذًّا ... تراهُ، مُطيعًـا كان أو كان عاصـيا
ذرونى وشأنى لا تزيـدُون كربَتى ... وخلوا عنانى نحوَ مـوْلَى المَواليا
ألا فاهجُرُونى وأرغبوا فى قطيعتى ... ولا تكْشـفـو عَـمَّـا يَجُنُّ فـؤاديا
كِلونى إلى المَوْلى، وكفوا مَلاَمتى ... لآنَسَ بالمـوْلى على كل مـا بِيـا

لأبى العباس بن عطاء فى الشكر:

وكم يَدٍ لكَ عندى ما شكرْتُ لها ... حَـملْتـهـا أنت عنـى مَعْ بَوادِيكا
ضَعفْتُ عن حملها عَجْزًا لتحمِلَها ... لكن أيادِيـك تحـمِـلْهـا أيـادِيكا

ولـــــــه:

كيفَ شكرى لمنْ به يَحْسُنُ الشكرُ ... ومـنــه شـكرى لـه فـى الـودادِ
إنمـا يشكـرُ المـحُـبِـون وَجْـدًا ... وصـفـاءً مِنْ خـاصَّـةِ الانفـرادِ

ولـــــــه:

حقًـا، أقولُ لقدْ كلفْـتنى شَطَطًا ... حَملى هواك وصبرى إنَّ ذا لَعجيبُ
جمعْتَ شـيئين فى قلبى له خطرٌ ... نوْعَـين ضِدَّين: تَبـريدٌ وتلهـيبُ
نارٌ تُقَلِّقُـنى والشَّـوْقُ يُضـرمُـهـا ... فكيفَ يَجْـتمـعا: رَوْحٌ وتعـذيبُ
لا كنتُ إن كنتُ أدرى كيف يُسْلمنى ... صبرى عليك وصبرى: صبرُ أيوبِ
لمَّـا تحققَ بالبَـلوَى أقْشَـعَرَّ لهـا ... فظلَّ مِنْ ثِـقلهـا عُـرْيـان مكْروبا
قد مسَّنى الضرُّ والشيطانُ يَنْصبُ لى ... وأنت ذُو قـوَّة والعـبـدُ منكوبُ
فلا تَكلْـنى إلى نفسى فيـظفرَ بى ... مَنْ كان يَقربُنى إذ كنتُ مـحجوبا

ولأبى حمـزة الصوفى، رحمه الله، يقـال: إنه وقع فى بئر فطموا رأسـها

فجاء سبعٌ، ففتح رأس البئر ونزل، فتعلق أبو حمزة برجله، فأخرجه من البئر، فسمع هاتفًا يقول: هذا حَسَنٌ يأبا حمزة: نجيناك من التلف بالتلف: من البئر بالسبع، فقال عند ذلك:

نهانى حَيائى منك أن أكْتُمَ الهوَى ... وأغْنَيْتنى بالفَهم عنك منَ الكشفِ
تَلطفْت فى أمْرِى فأبديتُ شاهدى ... إلى غائبى واللطفُ يُدْرَك باللطفِ
تراءيتَ لى بالغَيْبِ حتى كأنما ... تُبَشِّرُنى بالغَيبِ أنك فى الكَفِّ
أراكَ وبى منْ هيْبتى لكَ وحْشةٌ ... فُتؤْنسُنى باللطفِ منك وبالعطفِ
وتُحْيى مُحبًا أنت فى الُحبِّ حتفُه ... وذا عجبٌ كوْنُ الحياةِ مع الحتْفِ

ولأبى نصر بشر بن الحارث، رحمة الله عليه:

لا تَعْجَبَنَّ لوَحدتى وتفرُّدى ... ومنَ التفرُّدِ فى زمانكَ فازددِ
ذهبَ الإخاءُ فليسَ ثَمَّ أُخوَّةٌ ... إلا التملُّق باللسانِ وباليدِ
فإذَا تكشَّفَ لى بما فى قلبه ... عاينتُ ثَمَّ نَقيعَ سُمٍّ الأسودِ

وليوسف بن الحسين الرازى، رحمة الله عليه:

أُحبُّ منَ الإخوان كلَّ مُؤاتى ... وكل غضيض الطرْفِ عن عثراتى
يُوافقنى فى كلِّ أمرٍ أُحبُّهُ ... ويحفظنى حيًّا وبعد وفاتى
فمن لى بهذا ليتنى قد وجدتُهُ ... فقاسمتهُ مالى ومنْ حسناتى

ولأبى عبد الله القرشى، رحمة الله عليه:

وأنتَ خليطُ النفس فى كل شأنها ... ولكنَّ نفسَ الذاتِ منك مُباينهْ
تُخامِرُها حتى كأنك أنها ... وتَفنَى قواها فالقُوَى بكَ فانيَهْ
يُعارضُها الواشُون فيك بكلِّ ما ... يُقلِّقُها فى سرِّها والعلانيهْ
وبَلغْتَها ما كنْتَ أنت لها به ... فتَعذِرُهم فى كلِّ ما كان كائنهْ

لقدْ قَرِحتْ آماقُها فيكَ مرةً وقد قرحَتْ منها السُّويداءُ ثانيهْ

وكتب أبو عبد الله الهيكلى إلى أبى عبد الله القُرشى، رحمه الله تعالى:

ذاتٌ هُوِيَّتُهُ تكونُ مذكرَهْ معروفةً تحتَ الخواطرِ مُنكَرَهْ
لا تجتلى عينُ العقولِ ضياءَها فلها بها الأبصارُ عنها مُبصرَهْ
وأعزُّ ممتنعٍ مكانُ تناولٍ منها عَلَى مَنْ لا يراها مُخبِرَهْ
سُبلُ المعارفِ كلهُّا إلا بها مسدودةٌ عنها المذاهبُ مُقفِرَهْ
فإذا عَلِقْتَ بها وغبتَ بعينها عنها تجلتْ للعقولِ مُخبِّرَهْ

ولأبى سعيد الخراز، رحمة الله عليه:

قلبٌ يُحبُّك لا يُومى إلى أحدٍ تكادُ هَمَّتُهُ تلقاكَ بالخبرِ
فؤادُهُ بكَ مشْغُوفٌ ومُهجتُهُ تذوبُ منْ قلَقِ التقريبِ والنظر
قلبٌ بها تجتنى الأذهانُ فطْنَتَهُ إذا سَمَت بك يا عِزى ومُفتخرِى
مُرَيَّخاتٍ منَ الشجوِ الدَّفينِ لها كوامِنٌ جُمِعَتْ فى السَّمعِ والبصر
سُبحانَ مَنْ لو يشا أبْدَى عجائبها حتى ترى سرَّها فى الوجه كالقمر

جواب أبى عبد الله القرشى للهيكلى، وهو فيما قيل: قول أبى سعيد الخراز:

إذا ألبسَ الحقُّ المحق حقيقةً منَ الوَجدِ بانت عَنْ نعوت السرائر
وليسَ لأنَّ السرَّ سُمِّى بما يَلى عليه به لكنَّ أوصافَ قادرِ
ولاتأبَ عَنْ مكْنُونها لفظَ عارفٍ ولكن بتمثيلِ اللطيفِ المآثرِ
إذا طلعتْ شمسٌ عليها بنورها فأنتَ خليط للشُّعاعِ المباشرِ
بَعيد منْ الذاتِ العزيز مكانها ولم تَعرَ منْ نعْتٍ لنعتِكَ قاهرِ

ولأبى الحديد كتبها إلى القرَشى:

أهابُكَ أنْ أقولَ هلكْتُ وَجْداً عليك، وقدْ هلَكْتُ عليك وجدا
ولو أنَّ الرُّقادَ دنا لِطَرْفى جلدْتُ جُفونَها بالدَّمع جلْدا

جواب أبى عبد الله:

ولكنى أَقُولُ حَيِيتُ حَقًّا إذا الوَجْدُ الْمُبَرِّحُ مِنْكَ يَهْدَا
وإنْ حَلَّ الرُّقَادُ بِجَفْنِ عَينى رَقَدْتُ إجابةً لَكَ لا لأهْدَا

قال الشيخ، رحمه الله: وهذه الأشعار فيها ما هى مشكلة، وفيها ما هى جلية، ولهم فيها إشارات لطيفة، ومعان دقيقة؛ فمن نظر فيها فليتدبرها حتى يقف على مقاصدهم، ورموزهم، حتى لا ينسب قائلها إلى ما لا يليق بهم، وإذا أشكل عليه ولم يفهم فليبحث بالسؤال عن من يفهم لأن لكل مقام مقالا، ولكل علم أهلا، ولو اشتغلنا بشرحه لطال الكتاب.

باب الدعوات التى كان يدعو بها المشايخ المتقدمون من أهل الصفوة

دعاء كان يدعو به ذو النون، رحمه الله: اللهم الحوْل حَولُك، والطَوْل طوْلُك، ولك فى كل خلقك مدد قوةٍ وحول، وأنت الفعال لما يشاء لا العجز ولا الجهل يعارضانك، ولا النقصان والزيادة يُحيلانك، وأَنى يعارضانك، وهما ما أحدثتَ؟ أو يرومان إحالتك، وهما ما خلقتَ؟ وكيف لا يكونان مما أحدثتَ وما خلقتَ، وأنت الموجود بالدلائل عليك؟ فلن يخلق خلقك غيرك أنت؟ فتباركتَ يا من كلُّ مدروك فمن خلقِه، وكلُّ محدود المدروكات فمن صنعِه، أنت الذى لا يُدركك فى الدنيا العيان، ولا يستغنى عنك مكان، ولا يعرفك غيرُك إلا بإقراره لك بالوحدانية، ولا يجهلك من خلقك إلا ناقصُ المعرفة، ولا يُسهيك شيء عن شيء، ولا يحُدُّ قدرتك أحدٌ، ولا يخلو منك مكانٌ، ولا يشغلك شأنٌ عن شأن.

دعاء آخر لذى النون، رحمه الله: اللهم اجعل العيون منا فوارات بالعَبرات، والصدور منا محشوةً بالعِبر والحُرُقَاتِ، واجعل قلوبنا غواصةً فى موج قَرْع أبواب السموات، تائهةً من خوفك فى البوادى والفلوات افتحْ لأبصارنا بابًا إلى معرفتك، ولمعرفتنا أفهامًا إلى النظر فى نور حكمتك، يا حبيب قلوب الوالهين، ومنتهى رغبة الراغبين، ولذى النون رحمه الله: اللهم أنت آنسُ المؤنسين لأوليائك، وأقربُهم بالكفاية من المتوكلين عليك لمشاهدهم فضمايرُهمْ تَطَّلعُ على أسرارهم، إلهى، سرى إليك مكشوف، وأنا إليك ملهوف، إذا أوحشنى الذنبُ آنسنى ذِكرُك عالمًا بأن أزمة الأمور بيدك وأن مصدرها عن قِضائك، إلهى، من أولَى بالذل والتقصير منى وقد خلقتنى ضعيفًا؟ ومن أولَى بالعفو منك وعلمُك بى سابقٌ وأمْرك بى مُحيطٌ؟ أطعتُك بإذنك والمنةُ لك علىَّ، وعصيتُك بعلمك والحُجةُ

لك علىَّ، أسْألك بوجوب رحْمتك وانقطاع حُجتى وتفقرى إليك وغناك عنى، أن تغفر لى خطيَّتى الظاهرة والباطنة.

دعاء ليوسف بن الحسين رحمه الله: اللهم إنا نباتُ نعمك فلا تجعلنا حصائدَ نقَمك، اللهم أعْطنا ما تريده منا، يامن أعطانا الإيمان به من غير سؤال لا تمنعنا عفوك مع السؤال فإنا إليك آيبون ومن الإصرار على معصيتك تائبون، فإنا إليك ذاعنون تائبون، اللهم تقبلْ ما مننتَ به علينا من الإسلام والإيمان الذى به هَدَيْتنا، وأعفُ عنا، إلهى نِعمك محيطة بنا، وأنت المذخور لشكرها، وعِزتك ما شكرك أحدٌ إلاَّ بك.

وقال يوسف رحمه الله: سمعت حكيمًا يقول فى دعائه: الحمد لله الذى شكر على ما به أنعَمَ، وذم على ما لو شاء منه عَصمَ، شكرَ نفسهُ بنفسه عن خَلقه، لأنه الله الذى لا إله إلا هو.

قال: سمعت بعض المشايخ يقول فى مناجاته:

أيا جُودَ رَبى ناجِ رَبى بحاجَتى   فما لى إلَى ربى سِواكَ شَفيعُ

دعاء للجُنَيْد، رحمة الله عليه، مستخرج من كتاب المناجاة، اللهم إنى أسألك يا خير السامعين، وبجوُدك ومجْدك يا أكرَمَ الأكرمين، وبكرمك وفضلك يا أسْمحَ السامحين، وبإحسانك ورأفتك يا خير المعطين أسألك سؤال خاضع خاشع متذلل متواصع ضارع اشتدت إليك فاقتُهُ، وأنزلَ بك على قدر الضرورة حاجتَهُ، وعظمتْ فيما عندك رغبتُهُ، وعَلم أن لا يكون شىء إلا بمشيئتك، ولا يشفع شافع إليك إلا من بعد إذنك، فكم من قبيح قد سترتَهُ، وكم من بلاء قد صرفتهُ، وكم من عثرة قد أقَلتها، وكم من زلة قد سهلتَ بها، وكم من مكروه قد رفعتَه، وكم من ثناء قد نشرتَه، أسألك يا سامع أصوات المستغيثين، وعالم خفىِّ إضمار الصامتين، ومطَّلع فى الخلوات على أفعال المتحركين وناظر إلى مادق وجل من آثار الساعين،

أسألك أن لا تحـجب ـ بسوء فعلى ـ عنك صـوتى، ولا تفضحنى ـ بخـفى ما اطَّلعتَ عليه من سرى، ولا تعاجلنى العقوبة على ما علمتَه من خلواتى، وكن بى فى كل الأحـوال رافـقًا، وعلى فى كل الأحـوال عـاطفًـا، إلهى وسيـدى وسَنَدى أنا بك عائذ لائذ مستغيث مسـتجير من تكاثف مَحاوفِ عِلل سرى ومن لزوم ذلك ضـميـرى وقلبى، حتى يـكاد ذلك أن يملأ صـدرى، ويُوقف على الانبساط إلى ذِكرك عقلى ولسانى، ويمنع من الحـركة فى الخدمة جسمى، فأنا فى حبس ما يعارضنى من ذلك من النقص والتقصير أسألك أن تخرج ذلك عن ذكرى، وتـمنعه من قلبى، واجـعل أوقاتى من الليل والـنهار بذكـر معـمورةً، وبخدمتك وعـبادتك موصولةً، حتى يكون الورود وروداً واحـداً والحال حالاً واحداً لا سآمة فيه ولا فتور ولا مَلَل ولا تقصير، حتى أسرع به إليك فى حين المـبادرة، وأسـرح بذلك إليك فى ميـادين المـسابقـة وأرزقنى من طعم ذلك اللذائذ السابغة يا أكرَمَ الأكرمين.

سمعتُ أبا سـعيد الدينورى بطرابلس يدعو بهذا الدعـاء فى مجلسه: اللهم إنى أسـألك بحقك علـيك فلا حق أحق من حـقك، عليك بحـقك على أهل الحق، وبحق أهل الحق علـيك، وبحق كل ذى حق بأن لك بقـدَمك بعلمك بكل شىء وملكك لكل شىء وقدرتك على كل شىء، صل على مـحمد وعلى آله وأن تفعل بى كذا وكذا.

وحُكى عن عمر بن بحـرْ قال: هذا دعاء حفظتُهُ عن الشبلى أنه كـان يدعو به، اللهم لك الحمد يا ضياء السموات والأرض، ويا بهاء السموات والأرض، ويا قيوم السموات والأرض، ويا نور السموات والأرض، بحق أسمائك عليك، وبحقك عليك فلا حـق أجل منك عليك، وبحق ما أنزلتَ وبحق من جـعلتَ له فهـمًا فيما أنزلتَ يا الله ويا من لا سِـواك الله، ويا من أنت الله: صلى على محمد، وعلى آل محمد، واجمعهم ولا تشتتهم، وارحم ظواهرهم، واعْمرْ بواطنهم، وقم

لهم بالكلاءة والكفاية، وكن لهم عِوضًا من كل عِوض، وارحمهم، ولا تردهم إليهم طرْفة عَين ولا أقل من ذلك، بحق كل حق أنت ذلك الحق، واجعلهم أتقياء وأجلاءَ فى معانيك اللدُنية، واجعلهم ممن إذا قال، قال على التحقيق، وإذا سكت فلا سِواكَ.

ومن دعوات يحيى بن مُعاذ الرازى رحمة الله عليه: إلهى وسيدى وأمَلى ومن به يتم عملى، وكان يقول: إلهى أدعوك بلسان أملى حين كَلَّ لسانُ عملى، وإلهى ما أطيَبَ واقعات الإلهام منك على خطرات القلوب، وما ألذَّ مناجاة الإسرار إليك فى وطنات الغيوب، إلهى، إذا قلت لى فى القيامة: عَبدى ما غرك بى؟ فأقول: سيدى، برُّك بى وإن أدخلتنى النار بين أعدائك لأخبرتُهم بأنى كنت فى الدنيا أحبك لأنك مولاى ومن جميع الأشياء مغناى، وكان يقول: اللهم إن نجيتنى نجيتنى بعفوك وإن عذبتنى عذبتنى بعدلك رضيتُ ما بى لأنك ربى وأنا عبدك، إلهى أنت تعلمَ أنى لا أقوى على النار وأنا أعلم أنى لا أصلح للجنة فما الحيلة إلا عفوك، وقال: إلهى وسيدى وسرورى تكرُّمك شغلنى عن قبيح عملى وإن كان فيه شقائى، وسرورى بنعمتك شغلنى عن حسن عملى وإن كان فيه نجاتى، وسرورى بك أنسانى السرور بنفسى، وكان يقول: اللهم إنى أتقرب إليك، وبك أُدَلُّ عليك، وحُجتى نِعمك لا عملى، وما أظنك تحاسب غداً بعدلك من غشيتَه اليوم بفضلك، وعفوك يستغرق الذنوب، ورضوانك يستغرق الآمال، ولولا أنك بالعفو تجود ما كان عبدك بالذنب يعود.

وكان يقول، إلهى وسيدى ومولاى ومن جميع الأشياء مغناى، ضيعتُ نفسى بالذنوب فردَّها على بالتوبة، أنت تعلم أن الكريم من عبادك يعفو عمن ظلمه وقد ظلمتُ نفسى وأنت أكرم الأكرمين فاعفُ عنى، إلهى، أنت تعلم أن إبليس عدوٌّ لك ولى، وليس شىء أنكَى لكمده وأقطعُ لكيده من غفرانك لى

فاغفر لى يا أرحم الراحمين، سمعتُ عمر الملطى بأنْطاكيه يقول: قلتُ لبعض المشايخ ينبغى أن تدعو لى، فقال يا فتى، أنا أدعو لك، ولكن ينبغى لك أيضًا أن تكون بالحضرة، فإذا دعوتُ لك ولم تكن بالحضرة لم ينفع دعائى.

وحُكى عن إبراهيم بن أدهم، رحمه الله، أنه كان فى سفينة، فماج البحر، وأمروا الناس أن يرموا بأمتعتهم إلى البحر، فقيل له: يا أبا إسحاق، ادع الله لنا فقال: ليس هذا وقت الدعاء، هذا وقت التسليم.

وقال بعضهم: صِدْق الإجابة من ربك فى صدق الدعاء من قلبك، قال: وسمعت جعفرًا قال: سمعت الجُنَيْد رحمه الله قال: كان سَرى السقطى، رحمه الله، إذا دعا، يقول: اللهم مهما عذبتنى بشىء فلا تعذبنى بذل الحجاب، وعن أبى حمزة، رحمه الله، قال: قلت لسرى السقطى رحمه الله: ادعُ لى، فقال: جمع الله بينى وبينك تحت شجرة طوبى، فإنه بلغنى أنه أول ما يدخل الأولياء الجنة يستريحون تحت شجرة طوبى.

وفيما حُكى عن أبى محمد الجريرى قال: سمعت إبراهيم المارستانى رحمه الله تعالى يقول: رأيت الخضر، رحمه الله، فى المنام، فعلمنى عشر كلمات وأحصاها على بيده: اللهم إنى أسألك حسن الإقبال عليك، والإصغاء إليك، والفهم عنك، والبصيرة فى أمرك، والنفاذ فى طاعتك، والمواظبة على إرادتك، والمبادرة فى خدمتك، وحسن الأدب فى معاملتك، وبرد التسليم إليك، والنظر إلى وجهك.

وحكى عن أبى عبيد البُسرى، رحمه الله تعالى، قال: رأيت عائشة، رضي الله عنها، فى المنام، فقلت لها: يا أمى، علمينى دعاء، قال قالت: يا أبا عبيد، قل: اللهم أقلل مؤنتى، وأَحْسِنْ معونتى، وأعنى على أمر دنياى وآخرتى، قال قلت: يا أمى، زيدينى، قالت: يكفيك يا أبا عبيد.

وكان بعض المشايخ إذا دعا، يقول فى دعائه: إلهى أدعوك فى الملأ كما تُدعَى الأرباب، وأدعوك فى الخلاء كما تدْعَى الأحباب.

قال الشيخ، رحمه الله: وسألتُ بعض المشايخ عن الدعاء، ما وَجْهه لأهل التسليم والتفويض؟ فقال: يدعو الله، عز وجل، على وجهين: أحدهما يزيد بذلك تزيين الجوارح الظاهرة بالدعاء لأن الدعاء ضرب من الخدمة يريد أن يزين جوارحه بهذه الخدمة والوجه الثانى أن يدعو ائتمارًا لما أمره الله تعالى بالدعاء.

دعاء للجنيد، رحمه الله تعالى، إلهى، وسيدى، ومولاى، من أحسنُ منك حُكما لمن ايقن بك؟ ومن أوسع منك رحمة لمن اتقاك وقصدك؟ ومن أسرع منك عطفًا ورأفة لمن أرادك وأقبل على طاعتك؟ فكلهم فى نعمائك يتقلبون، ولك بفضلك عليهم يعبدون، سرت همومهم بك إليك، وانفردت إرادتهم لديك، وأقبلت قلوبهم بك عليك، وفنيت حظوظهم من دونك واجتمعت لك وَحْدَك، فهم إليك فى الليل والنهار متوجهون، وعليك فى كل الأحوال مقبلون، ولك على الأحوال مؤثرون، فأنا أسألك إلهى وسيدى ومولاى أن تكون لى بفضلك كالئًا كافيًا عاصمًا راحمًا، فإنى إليك لاحٍ، وبك مستغيث، وإليك راغب، ومنك راهب وعليك فى أمور الدنيا والآخرة متوكل، لا إله أن إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين.

فهذه طرف من دعواتهم فى معانى مقاصدهم وأحوالهم، مختصرٌ لمن أراد أن ينظر فيها، ويتبرك بذلك، وبالله التوفيق.

باب فى وصاياهم التى أوصى بها بعض لبعض

قال بعض المشايخ: قلتُ لرُوَيم، رحمه الله: أَوصِنى بوصية، فقال لى: يا بنىَّ ليس غير بذل الروح، فإن قدرت على ذلك وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية.

واجتمع أصحاب يوسف بن الحسين عند يوسف، رحمه الله، فقالوا له: أوصنا، فقال: اقتدوا بجميع ما رأيتم منى إلا اشيئين: لا تستدينوا على الله تعالى، ولا تصحبوا المردان.

وقيل لسرى السقطى رحمه الله: أوصنا بشىء، فقال: لا تستدينوا على الله تعالى ولا تنظروا فى وجوه الْمُرْد.

وقال رجل لأبى بكر البارزى: أوصنى، فقال: احذر أُلفتك، وعادتك، والسكون إلى راحتك.

وقال أبو العباس بن عطاء، رحمه الله، فى بعض وصاياه لإخوانه: احذروا أن تكون غمومكم من أجل ما يظهر لكم، وعليكم بما شاء الله دون ما تشاءون.

وعن جعفر الخلدى، رحمه الله، أنه قال: كان الجنيد رحمه الله يوصى لرجل، ويقول: قدمْ نفسك وأَخِّرْ عَزْمَكَ، ولا تقدم عزمك وتؤخر نفسك فيكون فيها إبطاء كثير.

ووجدت فى كتاب لأبى سعيد الخراز، رحمه الله، يوصى مريدًا أو صديقًا له فيقول: يا أخى، خالص أصحابك مخالصة، وخالط أهل الدنيا مخالطة، شاهدهم بظاهرك، وخالفهم بفعلك، ودينك لا تثلب، إن ضحكوا فَابْكِ، وإن فرحوا فاحزن، وإن استراحوا فَجِد، وإن شبعوا فتجوَّعْ، وإن ذكروا الدنيا فاذكر الآخرة واصبر على قلة الكلام والنظر والحركة والطعام والشراب واللباس حتى يسكنك الله من الفردوس حيث يشاء برحمته؟

وقال أبو سعيد الخراز، يوصى بوصية لبعض أصحابه: احفظ وصيتى أيها المريد وارغب فى ثواب الله تعالى، وإنما هو أن ترجع إلى نفسك الخبيثة

فتذيبها بالطاعة، وتفارقها وتميتها بالمخالفة، وتذبحها بالإياس فيما سوى الله، وتقتلها بالحياء من الله عز وجل، ويكون الله حسبك، وتسارع فى جميع الخيرات، وتعمل فى جميع المقامات وقلبك وجلٌ أن لا يُقْبَلَ منك، فهذا حقائق القبول والإخلاص والصدق، حتى تتخلص وتصير إلى الله تعالى، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وصية أوصى بها ذو النون لبعض إخوانه، فقال: يا اخى، اعلم أنه لا شرف أعلى من الإسلام، ولا كرم أعزُّ من التقى، ولا عقل أحرز من الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجل من العافية، ولا وقاية أمنع من السلامة، ولا كنز أغنى من القنوع، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت، ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة، والرغبة مفتاح التعب ومطية النصب، والحرص داع إلى التهجم فى الذنوب، والشره جامع لمساوئ العيوب، وربَّ طمع كاذب وأمل خائب ورجاء يؤدى إلى الحرمان وإرباح يئول إلى الخسران.

وقال الجنَيْد، رحمه الله، فى كلام له لبعض أصحابه: أوصيك بقلة الالتفات إلى الحال الماضية عند ورود الحال الكائنة، قال: وقلت لأبى عبد الله الخياط الدينورى رحمه الله: أوصنى بشىء، فقال: أوصيك بخصلة ما أَعْلَمُ أن يكون خصلة لم تصحبه آفة غيرها، قلت: وما هى؟ قال: ذكْرِك لأخيك بالجميل فى ظهر الغيب، ودعاؤك له.

وحكى عن أبى بكر الوراق رحمه الله، أنه قال: بِعْتُ العز من شهوة العز، واشتريت الذل من خوف الذل، هذا جزاء من خالف وصية الله تعالى.

وأتى رجل ذا النون المصرى، رحمه الله، فقال له: أوصنى، فقال له: أوصيك إن كنتَ أُيِّدْتَ فى علم الغيب بصدق التوحيد فقد سبق لك قبلَ أن تخلقَ من لدنْ آدم عليه السلام إلى يومك هذا دعوة النبيين والمرسلين فذلك خير لك، وإن تكن غير ذلك، فأنى ينقذ النداء الغرقى؟!

سمعت أبا محمد المهلب بن أحمد بن مرزوق المصرى يقول: لما حضرت أبا محمد المرتعش رحمه الله، الوفاةُ أوصى إلىَّ بأن أقضى دينه، وكان عليه ثمانية عشر درهمًا، فلما دفناه قومتْ ثيابُ بدنه بثمانية عشر درهمًا فبعتها بثمانية عشر درهمًا، فخرَجَ رأسًا برأس، وقضينا دَينه، واجتمع المشايخ فأخذوا كِنْفَهُ، وكان فيه قماشٌ مثل ما يكون فى الكنف، فأخذ كل واحد منهم شيئًا وتفرقوا.

ودخل رجل على إبراهيم بن شيبان، رحمه الله، فقال له: أوصنى بشىء، فقال له إبراهيم: اذكر الله ولا تنسه، فإن لم تستطع ذلك فلا تنس الموت، قيل لبعض المشايخ: أوصنى، فقال: امْحُ اسمك من ديوان القراء[1]، وقيل لأبى بكر الواسطى رحمه الله: أوصنا، فقال: عدوا أنفاسكم وأوقاتكم والسلام، وقيل لآخر: أوصنى، فقال: القلة والذلة واللحوق بالله عز وجل.

وقال ذو النون رحمه الله: بينا أنا أسير فى جبل المقطم إذا أنا برجل على باب كهف، فسمعته يقول: سبحانَ من عطل قلبى من الإياس وعمرَه بالآمال فاليأس منه قد فارقنى والأمل فيه قد أوصلنى، فتأملته، فإذا هو رجل قد أكمدته العبادة وأقرحته الزهادة، فدنوت منه، فتركنى وولى، فقلت له: أوصنى، قال: انظر أن لا تقطع أملك عن الله تعالى طرفة عين، واجمع بين السراء والضراء، وصل بينك وبين الله تعالى، تر السرور فى يوم يخسر فيه المبطلون.

قلت: زدنى، قال: حسبك حسبك.

وقال: رجل لذى النون رحمه الله: زودنى كلمة، فقال: لا تؤثرنَّ الشك على اليقين، ولا ترض من نفسك بغير التسكين، وإن تأتك نائبة الدهر،

(١) كان هناك دواوين للقراء يكتب فيها اسم القارئ ليأخذ أجرا شهريا وتكون له شهرة بأنه قارئ.

فتحملها بحسن الصبر، وأرْم بآمالك نحو الدائم الخبير تَجِدْه بآمالك قائمًا، واغتنمْ مواصلة الله تعالى فإن لله عبادًا أَلِفوه فاستأنسوا به، وعرفوه فأمّلوه على معرفته، وواصلوه على عَيْن يقين، فَسَمَتْ أبصارهم نحو عظيم، جليل قُدْرَتُهُ، فسقاهم من حلاوة مواصلته، وألعقهم من لذاذة مخالصته، فلبُكائهم حَوْلَ العرش دوىٌّ، ولدُعائهم حنينٌ تتقعقع أبوابُ السماء لسرعة تفتُّحها لإجابة دعائهم.

وللجُنَيْد، فى بعض وصاياه، يقول: يا أخى، فاعملْ، ثم اعجلْ قَبْلَ أن يعجل الموت بك، وبادرْ، ثم بادرْ قَبْلَ أن يُبَادَرُ إليك، وقد وعظك الله تعالى فى الماضين من إخوانك، والمنقولين من الدنيا من أقرانك وأخدانك، فذاك حظُّك الباقى عليك، والنافع لك، وكل ما سوى ذلك فعليك لا لك، وهذه موعظتى لك، ووصيتى إيّاك، فاقبَلْها تَحْمَدَ الأمر بقبولها وتفوز باستعمالها والسلام.

فهذا طرفٌ من وصاياهم، وتخصيص مقاصدهم فى ذلك، وبالله التوفيق.

كتاب السماع

باب في حُسن الصوت والسماع وتفاوت المستمعين

قال الشيخ، رحـمه الله، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾(1) قالوا في التفسير: الْخلُق الطِّيب، والصوت الَحَسن.

ورُوى في الحديث عن النبيّ ﷺ أنه قال: [١٤٧] «ما بعث الله نَبيًّا إلاّ حَسَنَ الصوت».

وعن النبيّ ﷺ أنه قـال: [١٤٨] «مـا أَذِنَ الله تعالى لشَىْءٍ كـأَذَنه لنبيّ حَسَنِ الصوت» الحديث.

وقـال النبيّ ﷺ : اللهُ أَشَـدُّ أَذانًا بالرجل الحَـسَن الصـوت بالقـرآن من صاحب القَيْنة بقينته.

وفي الحديث: أن داود عليه السلام قد أُعْطِيَ من حُسْن الصوت حتى كان يستـمع لقراءته إذا قـرأ الزَّبور الجنّ، والإنس، والوحش، والطيـر. وكان بنو إسرائيل يجتمعون فيستمـعون، وكان يُحْمَل من مجلسه أربعمائة جنازة مِّمن قد مات كما رُوى في الحديث.

ورُوى عن النبيّ ﷺ أنه قال: [١٤٩] «لقد أَعْطِيَ أبو موسى مِزْمَارًا من مزامير آل داود، لما أُعْطِيَ من حُسن الصوت.

وفي الحديث: [١٥٠] « أن النبيّ ﷺ قـرأ يوم الفتح فـمدَّ مـدًّا، وأنه كان يرجِّع.

(1) سورة فاطر: ١.

وعن مُعاذ بن جَبَل أنه قال لرسول الله ﷺ: لو علمتُ أنك هو ذا تسمع لحَبَّرْتُه[1] تحبيرًا، وقد رُوى عن النبىِّ ﷺ أنه قال: زيّنوا القرآن بأصواتكم.

قال الشيخ رحمه الله: يحتمل هذا معنيين، والله أعلم؛ أحدهما: أنه أراد بذلك، أن يزين قراءته للقرآن، وهو رَفْعُ صوته بقراءة القرآن، فيحسّن الصوت عند قراءته، ويطيب النغمة؛ لأن القرآن كلام الله غير مخلوق فلا يزين ذلك بصوت مخلوق ونغمة مكتسبة، والمعنى الآخر: يحتمل أنه أراد بذلك أى زيّنوا أصواتكم بالقرآن، فيكون مقدَّمًا ومؤخرًا فى المعنى، كقوله: ﴿الحَمْدُ لله الّذى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِه الكِتابَ وَلَمْ يَجْعلْ لَه عوجًا قيمًا﴾[2] معناه مقدّم ومؤخرّ على معنى: أنزل الكتابَ على عبده قيّمًا ولم يجعل له عوجًا، ومثل ذلك فى القرآن كثير.

وقد ذم الله تعالى الأصوات المنكرة بقوله عز وجل: ﴿إن أَنْكَرَ الأصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحمير﴾[3]. وفى ذمّه الأصوات المنكرة محمدةٌ للأصوات الطيِّبة.

وقد تكلم الحكماء فى معنى الأصوات الحسنة، والنغمات الطيِّبة، وأكثروا فى ذلك، فقال ذو النون، رحمه الله، وقد سئل عن الصوت الحَسَن، فقال: مخاطبات وإشارات إلى الحقّ، أَوْدَعَها كلّ طيّب وطيِّبة.

وعن يحيى بن مُعاذ الرَّازى، رحمه الله، أنه قال: الصوت الحسن رَوْحة من الله تعالى، لقلب فيه حُبّ الله تعالى.

وقال آخر: النغمة الطيِّبة رَوْحٌ من الله تعالى، يروّح بها قلوبًا محترقةً بنار الله تعالى.

---

(1) وفى نسخة: لحبرته لك.

(2) الكهف: ١.

(3) لقمان: ١٩.

وسمعت أحمد بن على الوجيهى يقول: سمعت أبا على الروذبارى، رحمه الله يقول: إن أبا عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى، رحمه الله، كان يقول: ثلاث إذا وجدن مُتعَ بهن، وقد فقدناهن أجمع: حسن الصوت مع الديانة، وحسن الوجه مع الصيانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

وعن بُنْدار بن الحسين، رحمه الله: أنه كان يقول: الصوت الطيب حكمة مجيبة والة سليمة، بصوت رخيم، ولسان لطيف ذلك تقديرالعزيز العليم.

ومن اللطيفة التى جعل الله فى الأصوات الطيبة: أن الطفل فى المهد يبكى لوجود ألم، فَيَسْمَعُ الصوت الطيب فيسكت وينام.

ومشهور: أن الأوائل كانوا يعالجون من به العلة من السوداء بالصوت الطيب، فيرجع إلى حال صحته.

وقال الشيخ، رحمه الله: ومن السر الذى جعل الله فى الأصوات الطيبة التى فيها إنداء: ترى فى البوادى إذا عييت الجمال، وقصرت عن السير: يحدو لها الحادى، فتستمع وتمد أعناقها وتصغى بآذانها نحو الحادى، وتجود فى السير، حتى تتزعزع محاملها من شدة سيرها، وربما تتلف أنفسها إذا انقطع عنها حدو الحادى من ثقل حملها وسرعة سيرها بعد ما كانت لا تحس بذلك من إصغائها إلى حَدْوِ حاديها واستماعها إلى حسن نغمته وطيب صوت حاديها.

قال الشيخ، رحمه الله: وقد حكى لى فى هذا المعنى، الدُّقِّىُّ بدمشق، وقد كان سئل عن ذلك، فقال: كنت فى البادية، فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافنى رجل منهم وأدخلنى خباءه، فرأيت فى الخباء عبداً أسود مقيداً بقيد، ورأيت جمالا قد ماتت بين يدى البيت، ورأيت جَمَلا قد نحل وهو ذابل كأنه هو ذا ينزع روحه، قال: فقال لى الغلام المقيد: أنت الليلة ضيف لمولاى، وأنت عنده كريم، فتشفع فِىَّ حتى يحل عنى هذا القيد، فإنه لا يردك، قال: فلما قدَّموا لى الطعام، أبيت أن آكل، فاشتد ذلك على صاحبى، فقال لى: ما

لك؟ فقلت: لا آكل طعاما إلا بعد أن تهب لي جناية هذا الغلام وتحل عنه قيده، فقال: يا هذا إن هذا الغلام قد أفقرني، وأهلك جميع مالي، وأضر بّي وبعيالي، فقلت له: ما فعل؟ قال: إن هذا الغلام له صوت طَيِّب، وكنت أعيش من ظهر هذه الجمال، فحملهم أحمالا ثقيلة، وَحدَا لهم حتى قطعوا مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة، من طيب نغمته في حَدْوِه لهم، فلما وافونا وحطوا أحمالهم ماتوا كلهم إلا هذا الجمل الواحد وأنت ضيفي، ولكرامتك قد وهبته لك، قال: فحل عنه قيده، وأكلنا الطعام، فلما أصبحنا أحببت أن أسمع صوته، قال: فسألته أن يسمعني صوته، قال: فأمره أن يحدو على جمل كان يُسْنَى عليه الماء من بئر هناك، قال: فتقدم هذا الغلام وجعل يسوق ذلك الجمل ويحدو، قال: فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهي، وما أظن أني قط سمعت صوتا أطيب من صوته، وكان مولاه يصيح ويقول: يا رجل أيش تريد مني؟ قد أفسدت على جملي!! اذهب عني حكاه الدقي على هذا المعنى، أو كما قال، والله أعلم؟.

سمعت أحمد بن محمد الطِّلّى بأنطاكية، يقول: سمعت بشرًا يقول: سالت إسحاق بن إبراهيم الموصلي: من الحاذق في القول؟ يعني في الغناء، فقال: من تمكن من أنفاسه، وتفرغ في إحباسه، ولطف في اختلاسه.

باب في السماع واختلاف أقاويلهم في معناه

قال الشيخ رحمه الله: بلغني أنه سئل ذو النون، رحمه الله، عن السماع، فقال: وارد حق يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق.

وعن أحمد بن أبي الحواري، رحمه الله أنه قال: سألت أبا سليمان الداراني، رحمه الله، عن السماع واستماع القصائد التي تنشد بالألحان، فقال: من اثنين أحبُّ إليَّ منه من واحد.

وسئل أبو يعقوب النهرجوري، رحمه الله، عن السماع، فقال: حالٌ يبدي الرجوع إلى الأسرار من حيث الاحتراق.

وقال بعضهم: السماع لطف غذاء الأرواح لأهل المعرفة، لأنه وصف يَدِقُّ عن سائر الأعمال، ويدرك برقة الطبع لرقته، ويدرك بصفاء السر لصفائه ولطفه عند أهله.

وعن أبي الحسين الدارج، أنه كان يقول: جال بي السماع في ميدان من ميادين البهاء، فأوجدني في وجود الحق عند العطاء، فأسقاني بكأس الصفاء، فأدركت به منازل الرضا، وأخرجني إلى رياض النزهة والفضاء.

وسئل الشبلي، رحمه الله، كما بلغني، عن السماع، فقال: السماع: ظاهره فتنة، وباطنه: عبرة، فمن عرف الإشارة حل له استماع العبرة، وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية.

وحكي عن الجنيد، رحمه الله، أنه كان يقول: من سمع السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء، وإلا فلا يسمع، قيل له: وما تلك الثلاثة؟ قال: الزمان، والمكان، والإخوان.

ويقال: إن كل من لا يحب السماع الطيب من الآدميين فلنقص فيه واشتغال قد ورد على خاطره فأذهله.

وحكى عن جعفر، عن الجنيد، رحمه الله، أنه قال: تنزل الرحمة على الفقراء فى ثلاثة مواطن: عند السماع، فإنهم لا يسمعون إلا عن حق، ولا يقومون إلا عن وَجْد، وعند مجاراة العلم، فإنهم لا يتكلمون إلا فى أحوال الصديقين والأولياء؛ وعند أكلهم الطعام، فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة.

قال: وسئل أبو على الروذبارى، رحمه الله، عن السماع، فقال: ليتنا خلصنا منه رأسًا برأس.

وسئل أبو الحسين النورى، رحمه الله، عن الصوفى، فقال: الصوفى الذى سمع السماْع، وآثر على الأسباب.

وسمعت أبا الطيب: أحمد بن مقاتل العكى يقول: قال جعفر: كان أبو الحسين بن زيرى من أصحاب الجنيد، وكان شيخًا فاضلا، فربما كان يحضر فى موضع يكون فيه السماع، فإن استطابه فرش إزاره وجلس، وقال: الفقير مع قلبه، أين ما وجد قلبه جلس، وإن لم يستطب قال: السماع لأرباب القلوب، وأخذ نعله وانصرف.

وسمعت الحصرى، رحمه الله، يقول فى بعض كلامه: أيش اعمل بالسماع؟ ينقطع إذا انقطعْ من يُسْمَعُ منه، ينبغى أن يكون سماعك متصلا غير منقطع.

وسئل عن السماع فقال: ينبغى أن يكون ظمأ دائم وشراب دائم، فكلما ازداد شربه ازداد ظمؤه.

باب فى وصف سماع العامة

وإباحة ذلك لهم إذا سمعوا ذكر الترغيب والترهيب

بالأصوات الطيبة، ويحثهم ذلك على طلب الآخرة

قال بُندار بن الحسين، رحمه الله: كل من لم يحب السماع الطيب من الآدميين فلنقْصٍ فى حاسته، لأن كل تمتع يتمتع به الإنسان فيه تكلفٌ وإن كان من المباحات إلا السماع، فإنه إذا خلص من المقاصد الفاسدة إباحةٌ لا تحتاج إلى التكلف، وكل من سمع السماع من طريق الطيبة والتلذذ بالنغمة واستحسان الصوت فليس ذلك محرّمًا عليهم ولا محظورًا، إن لم يكن قصدهم فى ذلك الفساد والمخالفة واللهو وترك الحدود، إن شاء الله تعالى.

فصل

قال الشيخ، رحمه الله: ومما يستدل بذلك على إباحة السماع قوله تعالى: ﴿وفى أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبصِرُونَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ سَنرِيهِمْ آيَاتِنَا فى الآفَاقِ وَفى أَنفُسِهِمْ﴾(٢)، وما أرانا الله فى أنفسنا، وأبصرْنا ذلك فى الحواس الخمسة التى قد يميز بها بين الشىء وضده، كالعين تميز بالنظر بين الحسن والقبيح، والأنف يميز بين الرائحة الطيبة والمنتنة، والفم يميز بالذوق بين الحلاوة والمرارة، واليد تميز باللمس بين اللين والخشن، وكذلك الأذن تميز بين الأصوات الطيبة وغير الطيبة والمنكرة.

قال الله تعالى: ﴿ إِنْ أَنكَرَ الأَصوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(٣) ففى مذمته للأصوات المنكرة محمدةٌ للأصوات الحسنة، ولا يميز بينهما إلا بالسماع وهو الإصغاء والاستماع بحضور القلب، وإدراك الفهم، وإزالة الوهم.

---

(١) الذاريات: ٢١. (٢) فصلت: ٥٣. (٣) لقمان: ١٩.

فصل آخر

قال الشيخ، رحمه الله: وذلك أن الله، تعالى، وصف ما أعد لأهل الجنة من النعيم، فذكر ما ذكر فى كتابه من السدْر المخضود، والطلح المنضود، والفاكهة الكثيرة؛ وذكرلحم الطير، والحورالعِين، والسندُس، والإستبرق، والرحيق المختوم، والأرائك، والقصور، والغرف، والأشجار، والأنهار، وغير ذلك، وذكر أنهم فى روضة يحبرُون، قال مجاهد: وهو السماع الذى يسمعون فى الجنة بأصوات شجية، ونغمات شهية من الجوارى الحسان والحور العين، يقلن بأصواتهن: نحن الخالدات فلا نموت أبدًا، ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدًا، كما جاء فى الحديث [١٥١].

وقد ذكر الله تعالى، تحريم الخمر من جميع ذلك، فقال النبى ﷺ: [١٥٢] «من شربها فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة، إلا أن يتوب»، فقد دخل السماع فى جملة ما أباح الله تعالى للمؤمنين فى الدنيا من جميع ما ذكر من نعيم أهل الجنة، وصار الخمر مخصوصًا من جميع ذلك بالتحريم بنص الكتاب والأثر وظاهر الخبر.

فصل آخر

وهو أن النبى ﷺ [١٥٣] دخل بيت عائشة رضي الله عنها فوجد فيه جاريتين تغنيان وتضربان بالدف، فلم ينههما عن ذلك، وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين غضب، وقال: أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ؟ فقال: دعهما يا عمر، فإن لكل قوم عيدًا.

ولو كان محظورًا لكان سواء فى العيد وغير العيد، والأخبار فى مثل ذلك

تكثر، ومثل ما رُوى عن أبى بكر الصديق، رضي الله عنه، حين دخل على عائشة رضي الله عنها، وقد وعك، وكان يقول:

كلُّ امــرئ مُــصــبحٌ فــى أهلهِ ... والمــوتُ أدنى مِن شــراكِ نعله

ومثل بلال، كان يرفع حنجرته إذا اشتد به الوعك ويقول:

ألا ليتَ شِـعـرى هل أبيـتنَّ ليلة ... بوادٍ وحـــوْلى إذخـــرُ وجـليلُ

وهلْ أردَنْ يومًـا مـيـاهَ مَـجَنة ... وهل يبـدون لى شـامـةُ وطَفـيلُ

وكذلك عائشه رضي الله عنها، كانت تقول شعر لَبيد:

ذهبَ الذين يُعـاش فـى أكنافـهمْ ... وبقيتُ فى خلف كـجلدِ الأجرَبِ

ثم قالت: رحمة الله على لبيد كيف لو أدرك زمانَنا هذا؟! وقد أنشد الشِّعر جماعة أصحاب رسول الله ﷺ، وذِكره يطول، أنشدنى أبو عبد الله الحسين ابن خالوَيه النحوى، قال: أنشدنى ابن الأنبارى بإنشـاد رفعه قال: أنشد كعب ابن زهير بين يدى رسول الله ﷺ، هذه الأبيات:

بانتْ سُعـادُ فقلبى اليـوْم متـبولُ ... مُـتَـيـمٌ إثرَها لـم يُفـد مكبـولُ

ومـا سعـادُ غداة البَـين إذ ظَعنوا ... إلا أغَنُّ غضيضُ الطرْفِ مكحولُ

شُجَّت بذى شَبَمٍ من مـاء محنية ... صافٍ بأبطحَ أضحى وهوَ مشمول

تَنفى الرِّياحُ القذَى عنه، وأفرطَه ... مِن صـوْبِ سـارية بيضٌ يعـاليلُ

أكـرمْ بهـا خُلةً لو أنهـا صـدَقَتْ ... موْعودَها، أو لو أن النُّصْحَ مـقبولُ

لكنهـا خلةٌ قـد سِيـط منْ دمِها ... فَجْعٌ، ووَلْعٌ، وإعـراضٌ، وتبديلُ

كانت مـواعيدُ عُـرْقوب لها مـثلا ... ومـا مـواعـيـدهُ إلا الأباطيلُ

أرجـو وآملُ أن يَعـجلنَ فى أبد ... ومـا لهنَّ إدخـالُ الدهرَ تعـجـيلُ

ولا تُمَسِّكُ بالوصلِ الذى زعمَتْ ... إلا كـمـا يُمسكُ المـاء الغـرابيلُ

فلا يغُـرَّنكَ ما منَّت ومـا وعدتْ ... إن الأمـانىَّ والأحـلامَ تَـضْليلُ

أمستْ سُعادُ بأرْضٍ لن يُبلغها — إلا العتاقُ النجيباتُ المراسيلُ
ولنْ يُبلِّغَها إلا عُذافرةٌ — فيها عَلَى الأينِ إرقالٌ وتَبغيلُ
ضَخْمٌ مُقلَّدُها فَعْمٌ مقيَّدُها — فى خَلقها عن بنات الفحل تفضيلُ
حَرْفٌ أخوها أبوها مِن مُهَجَّنةٍ — وعَمُّها خالُها قوْداءُ شمْليلُ

وقد رُوى عن النبى ﷺ، أنه قال: إن من الشعر لحكمة، وقد قيل: إن الحكمة ضالة المؤمن، ولما صح جواز الإنشاد للشعر، فسواءٌ كان إنشاده بالنغمة الطيبة والصوت الحسن، أو يكون إنشاده بالحدْو، والحدْر، والنَّصْب، والرَّمَل، والرَّجَز، إذا لم يكن لذلك مقاصدُ فاسدة، وإرادة باطلة، ومجاوزة الحد ومخالفة ومعاندة، والله أعلم.

فصل آخر

قال الشيخ، رحمه الله: وقد رخص فى السماع، واستجازه جماعةٌ من أئمة العلماء والفقهاء، منهم مالك بن أنس، ذُكر عنه: أنه سمع رجلا فى وقت الهاجرة مجتازًا بباب داره وهو يغنى ويقول:

ما بالُ قومْك يا رَبابْ — خُزْرًا كأنهمُ غِضابْ؟!

قال فقال له مالك: لقد أسات التأدية ومنعت القائلة، قال: فسأله ذلك الرجل عن تأديته، فقال له: تريد أن تقول: أخذتُها من مالك بن أنس؟

والمشهور عنه وعن أهل المدينة أنهم كانوا لا يكرهون ذلك، وفى تجويز ذلك أخبار عن عبد الله بن جعفر ﷺ، وعن عبد الله بن عمر ﷺ، وعن غيرهما من الصحابة والتابعين.

وقد أجاز الشافعى رحمة الله عليه أيضًا السماع والترنم بالشعر ما لم يكن فيه إسقاط المروءة.

وقد ذُكر عن ابن جُرَيج، مع جلالته، أنه قال: ما كان سبب قدومى من اليمن ومُقامى بمكة إلا بيتان من الشعر سمعتهما يومًا وهما:

باللهِ قُولى له مِنْ غيرِ مَعتبةٍ ماذا أَرَدْتَ بطولِ المكثِ باليمنِ؟
إن كنتَ أَلْمَمْتَ ذنبًا أَوْ هَمَمْتَ به فما وَجَدْتَ بتركِ الحجِ مِنْ ثمن

وقد ذُكر عن ابن جُرَيح أيضًا: أنه كان يرخص فى السماع، فقيل له: إذا أُتِىَ بك يوم القيامة، وتؤتى بحسناتك وسيئاتك، ففى أى الجنبتين يكون سماعك؟.

قال ابن جريج: لا يكون فى الحسنات ولا فى السيئات، لأنه شبيهٌ باللغو لا يدخل فى الحسنات ولا فى السيئات، قال الله تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُم اُللهُ باللغْوِ فِى أَيمانكُمْ﴾[1].

قال الشيخ رحمه الله: فهذه فصول مختصرة فى إباحة السماع للعامة إذا لم يصحبهم فى ذلك مَقاصدُ فاسدة.

ودخولٌ فى نهى رسول الله ﷺ: [١٥٤] «سماعَ الأوتار والمزامير والمعازف والكُوبة والطبل، لأن ذلك سماع أهل الباطل» وهو المحظور المنهى عنه بالأخبار الصحاح المروية عن رسول الله ﷺ.

(١) البقرة: ٢٢٥

باب فى وصف سماع الخاصة
وتفاضلهم فى ذلك

سمعت أبا عمرو: إسماعيل بن نُجَيْد، قال: سمعت أبا عثمان سعيد بن عثمان الرازى الواعظ، يقول: السماع على ثلاثة أَوْجُه: فوجه منها للمُريدين والمبتدئين، يستدعون بذلك الأحوال الشريفة، ويُخْشَى عليهم فى ذلك الفتنة والمراءاة.

والوجه الثانى: للصديقين يطلبون الزيادة فى أحوالهم، ويسمعون من ذلك ما يوافق أحوالهم وأوقاتهم

والوجه الثالث: لأهل الاستقامة من العارفين، فهم لا يعترضون، ولا يتأبون على الله فيما يَرِدُ على قلوبهم فى حين السماع من الحركة والسكون، أو كما قال.

وحُكى عن أبى يعقوب إسحاق بن محمد بن أيوب النهرجورى أنه قال: أهل السماع على ثلاث طبقات: فطبقةٌ منهم مُطَّرَحٌ بحكم الوقت فى سكونه وحركته، وطبقة منهم صامت ساكن الصفة، وطبقة منهم متخبِّط عند ذوقه فهو الضعيف منهم.

وعن بُنْدَار بن الحسين أنه قال: السماع على ثلاثة أَوْجُه: فمنهم مَنْ يسمع بالطبع، ومنهم من يسمع بالحال، ومنهم من يسمع بالحق.

قال الشيخ، رحمه الله: فمن يسمع بطبعه اشترك فيه الخاص والعام وكل ذى روح يستطيب الصوت الطيب لأنه من جنس الروح روحانى وقد تقدم ذكر ذلك، ومن يسمع بحاله فإنه يتأمل إذا سمع حتى يَرِدَ عليه مَعْنًى من ذكر عتاب أو خطاب، أو ذِكْر وَصْل أو هَجْر، أو قُرْب أوبُعْد، أو تأسف على فائت

أو تعطشٍ إلى مـا هو آتٍ، أو ذِكْـر طَمَعٍ أو يأس، أو بسط أو اسـتـئناس، أو خوف الافتراق، أو وفـاء بالعهد، أو تصديق بالوعد، أو نقض للعـهد، أو ذِكْر قلق واشتـياق، أو فَرَح الاتصـال، أو تَرَح الانفصـال، أو التحسـر على ما لم ينل، أو القنوط على الذى أَمَل، أو ذِكْر صفاء المحبَّة، أو التمكن من المودَّة، أو ذِكْر اعـتراض الصبوة بعـد تمكنه من الحظوة، أو ذكر محـافظة الرقيب عند مـلاحظة الحـبيب، أو تبـاريح الشـجـون وفُنون الفُنون، وإهمـال الُجفـون، وسُكوب العَبَـرَات، وتردد الزَّفَرَات، وتجدد الحَـسَرَات، فإذا طرق سَمْـعَهُ من ذلك حالٌ مما يوافق حاله فيكون كالقادح يقدح فى سِرِّه على قدر صفاء وَقْتِه، وقوَّة قـادحِه، فتشـتعل نَارٌ ترمى بشَرَرِهَا، فَـيبين ذلك على الجـوارح، ويظهر على ظاهر صـفاته التغـيـر والحركة والاضطراب والـتهيج، فـعلى قدر طاقـته يضبط، وعلى قدر قوَّة وارِدِه يعـجز عن الضبْط، فسبحان من يتولى سـياستهم وحفْظهم، ولولا فَضْل الله عليهم ورحمته ورِفْقه بهم لطارت عُقولهم، وتَلِفَتْ نفوسهم، وذهبت أرواحهم.

ومن يسمع بالحقِّ ومن الحقِّ فإنه لا يتـرسم بهذه الرسوم، ولا يلتفت إلى هذه الأحوال، ولا يشهد هذه الأفـعال؛ لأنها وإن كانت شريفةً فـهى ممزوجة بحظوظ البشـرية، مرتبطة بحدود الإنسانيـة، وهى مُنَقّاة مع العِلَل، ولا يُؤْمَنُ عليـهـا الزَّلَلَ، حتى يكـون سمـاعُـهُ بالله ولله ومن الله وإلى الله، وهُمُ الذين وصلوا إلى الحقائق، وعبروا الأحـوال، وفَنُوا عن الأفعال والأقوال، ووصلوا إلى محض الإخلاص، وصفاء التوحيد، فخمدت بشريتهم، وفنيت حُظوظهم، وبقيت حُـقوقهم، فـشهـدوا موارد الحق بالحق بلا علة ولا حظ للبـشرية ولا

تنعم الروح بالنعمة فشهدوا من مَوارِد السماع على أسرارهم، إظهار حكمته وآثار قُدْرَته وعجائب لُطفه وغرائب عِلْمه ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[1].

وقال بعضهم: أهل السماع فى السماع على ثلاثة ضروب: فضربٌ منهم أبناء الحقائق، وهم الذين يرجعون فى سماعهم إلى مخاطبة الحق لهم فيما يسمعون، وضرب منهم يرجعون فيما يسمعون إلى مخاطبات أحوالهم وأوقاتهم ومقاماتهم، وهم مرتبطون بالعلم ومطالبون بالصدق فيما يشيرون إليه من ذلك، والضرب الثالث هم الفقراء المجردون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والاشتغال بالجمع والمنع، فهم يسمعون بطيبة قلوبهم، ويليق بهم السماع، وهم أقرب الناس إلى السلامة، وأسلمهم من الفتنة، والله أعلم.

(١) الحديد: ٢١

باب فى ذكر طبقات المستمعين

قال الشيخ رحمه الله: اختلف المستمعون فى السماع على طبقات؛ فطبقة منهم اختاروا سماع القُرْآن ولم يَرَوْ غيـر ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَـرْتِيلاً﴾[1]، وقـوله: ﴿أَلاَ بِذِكْــرِ الله تَطْمَـئِـنُّ الْقُلُوبُ﴾[2]، وقوله: ﴿مَثَـانِيَ تَقْشَـعِرُّ منه جُلُودُ الَّذِينَ يَـخْشَوْنَ رَبهُمْ ثُـمَّ تَلِينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبهُمْ إِلى ذِكْرِ الله﴾[3]، وقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِـرَ اللهُ وَجِلَـتْ قُلُوبهُمْ﴾[4]، وقوله: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾[5]، وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾[6]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[7]، الآيات فى ذلك تكثر.

واحتجوا بقول النبى ﷺ: [١٥٥] «زينوا القرآن باصواتكم»، وقول النبى ﷺ: [١٥٦] لابن مسعود ﷺ: «اقرأ، فقال: أنا أقرأ وعليك أُنْزِلَ؟ قال: أنا أُحبُّ أن أسمع من غيرى»، وقول البراء سمعت رسول الله ﷺ: [١٥٨] «يقـرأ بالتين والزيتـون، فمـا رأيت أحـسن من قراءته»، وقـولـه عليه الصـلاة والسلام: [١٥٩] «شَيَّبَـتْنِي هُودٌ وأَخَواتها»، وقوله لأبى مـوسى: «لقد أُوتى مزماراً من مزاميـر آل داود»، وقوله حين سئل: [١٦٠] «مَنْ أحسـنُ قراءَةً؟ قال: من إذا قرأ رأيت أنه يخـشى الله تعالى»، وأن النبيَّ ﷺ: [١٦١] «مرَّ على عصابة من أهل الصُّـفة يسـتر بعضهم بعـضا من العُـرْى وقارئ يقـرأ لهم،

(١) المزمل: ٤.

(٢) الرعد: ٢٨.

(٣) الزمر: ٢٣.

(٤) الحج: ٣٥.

(٥) الحشر: ٢١ وتكملة الآية: ﴿لرأيته خاشعـا متصدعا من خشية الله وتلك الأمـثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾

(٦) الإسراء: ٨٢.

(٧) الزمر: ١٨.

وأن النبى ﷺ: [١٦٢] قرأ ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾(١) فصعق، وأنه قرأ: [١٦٣] ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾(٢)، فبكى، وأنه عليه السلام كان إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر، وإذا مر بآية عذاب دعا واستعاذ.

والأخبار فى ذلك كثيرة، فمن اختار استماع القرآن فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: [١٦٤] «لا خير فى قراءة ليس بها تدبرٌ»، وقد ذكر الله تعالى المستمعين القرآن فى مواضع من كتابه على وجهين: فوجهٌ منها قوله عز وجل: ﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك﴾(٣) إلى قوله ﴿على قلوبهم﴾ فهؤلاء كانوا يستمعون القرآن بآذانهم ولم يحضروا بقلوبهم، فذمهم الله عز وجل بذلك، وطبع على قلوبهم، وهم الذين قال الله عز وجل ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾(٤).

والوجه الثانى: هم الذين وصفهم الله عز وجل فقال: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾(٥) الآية، فهؤلاء هم الذين سمعوا القرآن لأنهم حضروا بقلوبهم عند استماعهم القرآن، فمدحهم الله تعالى بذلك، ومثل ذلك فى القرآن كثير.

ولو ذكرت ما يدخل فى هذا الباب ممن سمع القرآن فصعق وبكى، ومن مات ومن انفصل بعض أعضائه، ومن غُشِيَ عليه من الصحابة والتابعين وبعد التابعين إلى وقتنا هذا لطال به الكتاب، وخرج عن حد الاختصار، إن لو ذكرنا

(١) النساء: ٤١.

(٢) المائدة: ١١٨..

(٣) محمد: ١٦، وتكملة الآية: ﴿قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾.

(٤) الأنفال: ٢١.

(٥) المائدة: ٨٣، وتكملة الآية: ﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾.

مثل زرارة بن أوفى من الصحابة: أمَّ بالناس فقرأ آية من كتاب الله فصعق ومات، ومثلى أبى جهير من التابعين، قرأ عليه صالح المرِّى فشهق ومات.

وقد حكى عن الشبلى رحمه الله أنه سأله أبو على المغازلى رحمه الله فقال: ربما تطرق سمعى آيةٌ من كتاب الله تعالى فُتحذرنى على ترك الأشياء والإعراض عن الدنيا، ثم أرجعُ إلى أحوالى وإلى الناس، ثم لا أبقى على هذا وأدْفعُ إلى الوطن الأولى: فقال: ما طرق مَسامِعك من القرآن فاجْتذَبك به إليه فذاك عطفٌ منه بك، وما رُددْتَ إلى نفسك فهو شفقة منه عليك: لانه لم يصح لك التبرِّى من الحول والقوة فى التوجه إليه.

وقد حُكى عن أحمد بن الحوارى عن أبى سليمان الدارانى رحمهما الله أنه قال: ربما أبقى فى الآيه خمس ليال، ولولا أنى أترك الفكر فيها ما جُزْتها أبدًا، وربما جاءت الآية من القرآن فيطير فيها العقل، فسبحان الذى يرُدُّه بعد ذلك.

وقد حُكى عن الجنيد رحمه الله أنه قال: دخلت على سرى السقَطى رحمه الله فرأيت بين يديه رجلا قد غشى عليه، فقال لى: هذا رجل سمع آية من كتاب الله عز وجل فَغُشِىَ عليه، فقلت: اقرأ عليه هذه الآية التى قرئت عليه، فقرأ، فأفاق، فقال لى: من أين لك هذا! فقلت: رأيت يعقوب عليه السلام كان عماهُ من أجْل مخلوق، فبمخلوق أبصر، ولو كان عماه من أجْل الحق ما أبصر بمخلوق، فاستحسن منى ذلك.

وحكى عن بعض الصوفية أنه قال: كنت أقرأ ليلة هذه الآية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائقَةُ الْمَوْتِ﴾(١) فجعلتُ أُرَدَدُها وإذا أنا بهاتف يهتف: إلى كم ترددُ هذه الآيةَ؟ وقد قتلتَ أربعة من الجن لم يرفعوا رُءوسهم إلى السماء منذ خلقوا.

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

سمعت أبا الطيب أحمد بن مقاتل العكِّى يقول: كنت مع الشبلى رحمه الله فى مسجد ليلة فى شهر رمضان وهو يصلى خَلْفَ إمام له وأنا بجنبه، فقرأ الإمام هذه الآية: ﴿ولَئِنْ شئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[1]، فزعق زعقة قلتُ: قد طارت روحه، ورأيته قد اخضر وهو يرتعد، وكان يقول: بمثل هذا تخاطب الأحباب يردد ذلك مراراً.

فمن اختار سماع القرآن اختاره لما ذكرْنا من هذه الآيات، والأخبار.

والمعوَّل عند استماع القرآن حضور القلب، والتدبر والتفكر والتذكر وعلى ما يصادف قَلْبَه عليه من قراءته فيكون الغالبَ على وقته فى استماعه القرآن، فإذا لم يكن له حالٌ ولم يكن فى قلبه وَجْدٌ يطرقه ما سَمعَه من القرآن ويوافقه ويزعجه فمثله ﴿كَمثَلِ الذِىَ ينْعِقُ بِماَ لاَ يَسْمَعُ﴾[2].

(١) الإسراء: ٨٦.

(٢) البقرة: ١٧١، وتكملة الآية: ﴿إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون﴾.

باب ذكر من اختار سماع القصائد والأبيات من الشعر

قال الشيخ رحمه الله: فأما الطبقة التى اختارت السماع: سماع القصائد وهذه الأبيات من الشعر، فحجتهم من الظاهر فى ذلك قول النبى ﷺ: [١٦٥] إن من الشعر لحكمة، وقوله: [١٦٦] الحكمة ضالة المؤمن، وزعمت هذه الطائفة: أن القرآن كلام الله وكلامه صفته، وهو حق لا يطيقه البشر إذا بدا، لأنه غير مخلوق لا تطيقه الصفات المخلوقة، ولا يجوز أن يكون بعضه أحسن من بعض، ولا يزيَّن بالنغمات المخلوقة، بل به تزينُ الأشياء، وهو أحسنُ الأشياء، ومع حُسْنه لا تُستَحْسَن المستحسنات، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ للذكرَ فَهَلْ منْ مدَّكر﴾(١) وقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾(٢) الآية، فكذلك لو أنزله الله تعالى على القلوب بحقائقه، وكُشِفَتْ للقلوب ذرةٌ من التعظيم والهيبة عند تلاوته لتصدعت وذهلت ودهشت وتحيرت.

ولما رأوا فى المتعارف بين الخلق، أن أحدهم ربما يختم القرآن ختمات ولا يجد رقة فى قلبه عند التلاوة فإذا كان مع القراءة صوتٌ حسنٌ، أو نغمة طيبة شجية وجد الرقة وتلذذ بالاستماع، ثم إنه إذا كان ذلك الصوت الحسن والنغمة الطيبة على شىء غير القرآن أيضًا فوجد تلك الرقة وذاك التلذذ والتنعم، علموا أن الذى هو ذا يظنون من الرقة والصفاء والتلذذ والوجد أنه من القرآن، لو كان كذلك لكان فى حين التلاوة ووقت القرآءة غير منقطع منهم على الدوام.

والنغمات الطيبة موافقة للطبائع، ونسبته نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق، والقرآن كلام الله ونسبته نسبة الحقوق لا نسبة الحظوظ، وهذه الأبيات

(١) القمر: ١٧.
(٢) الحشر: ٢١.

والقصائد أيضًا نسبتها نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق، وهذا السماع وإن كان أهله متفاوتين فى درجاتهم وتخصيصهم فإن فيه موافقة للطبع، وحظا للنفس، وتنعما للروح، لتشاكله بتلك اللطيفة التى جُعلت فى الأصوات الحسنة، والنغمات الطيبة، وكذلك الأشعار فيها معان دقيقة، ورقة وفصاحة ولطافة وإشارات، فإذا عُلقت هذه الأصوات والنغمات على هذه القصائد والأبيات يشاكل بعضها بعضا بموافقتها ومجانستها، ويكون أقرب إلى الحظوظ، وأخف محملا على السرائر والقلوب، وأقل خطرًا لتشاكل المخلوق بالمخلوق.

فمن اختار استماع القصائد على استماع القرآن اختار لُحرمة القرآن، وتعظيم ما فيه من الخطر: لأنه حقٌّ، والنفوس تخنس عندها، وتموت عن حركاتها، وتفنى عن حظوظها وتنعُّمها إذا أشرفت عليها أنوار الحقوق بتشعشعها وأبدت بها عن معانيها، فقالوا: ما دامت البشرية باقية ونحن بصفاتنا وحظوظنا وأرواحُنا متنعمة بالنغمات الشجية والأصوات الطيبة فانبساطنا بمشاهدة بقاء هذه الحظوظ إلى القصائد أولى من انبساطنا بذلك إلى كلام الله عز وجل الذى هو صفته وكلامه الذى منه بدا وإليه يعود.

وقد كره جماعةٌ من العلماء القراءة بالتطريب، ووضعُ الألحان الموضوعة على القرآن غير جائز عندهم، قال الله تعالى: ﴿ورتّل ألقُرآنَ تَرْتيلاً﴾[1]، وإنما فعل من فعل ذلك لأن الطبائع البشرية متنافرةٌ عن سماع القرآن وتلاوته: لأنه حقٌّ، فعلقوا على تلاوتهم هذه الأصوات المصوغةليجتذبوا بذلك طبائع العامة إلى الاستماع، ولو كانت القلوب حاضرةً، والأوقات معمورةً، والأسرار طاهرة، والنفوس مؤدبة، وطبائع البشرية منخنسة، لما احتيج إلى ذلك، وبالله التوفيق.

(١) المزمل: ٤.

باب فى وصف سماع المريدين والمبتدئين

قال الشيخ رحمه الله: سمعت أبا عمرو عبد الواحد بن علوان بالرَّحبة، رحبة مالك بن طوق، قال: كان شابٌ يصحب الجنيد رحمه الله، فكان إذا سمع شيئًا من الذكر يزعق، فقال له الجنيد يوما: إن فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبنى، قال: فربما كان يتكلم الجنيد رحمه الله فى شىء من العلم، فيتغير، ويضبط عند ذلك نفسه حتى يقطر عن كل شعرة من بدنه قطرةٌ من الماء، وحكى لى أبو عمرو: أنه صاح يوما من الأيام صيحة فانشق وتلفت نفسه.

ورأيت أبا الحسين السيروانى صاحب الخواص بدمياط، وكان يحكى عن الجنيد رحمه الله قال: رأيت رجلا قد سمع السماع حتى تفسخ، ورأيت رجلا سمع الذكر حتى مات، أو كما قال، وسمعت الدقى يقول: سمعت الدراج يقول: كنت أنا وابن الفُوَطى ماريّْنِ على الدجلة بين البصرة والأُبلة وإذا بقصر حسن، له منظر وعليه رجل بين يديه جارية تغنى وتقول:

كـلَّ يـومٍ تـتـلـوَّنْ ... غـيـرُ هـذا بكَ أَجـملْ
فـى سـبـيـلِ اللهِ وُدٌّ ... كـانَ مِـنى لـك يُـبـذَلْ

قال: وإذا شاب تحت المنظر بيده ركوة وعليه مرقعة يتسمع، فقال: يا جارية بالله وبحياة مولاك إلا أعَدْتِ علىَّ هذا البيت، قال: فأقبلت الجارية عليه وهى تقول هذا البيت:

كـلّ يـومٍ تـتـلـوَّنْ ... غـيـرُ هـذا بكَ أجـملْ

وكان الشاب يقول: هذا والله تلونى مع الحق فى حالى، قال فشهق شهقة، وحمَّد، فتأملناه فإذا هو ميت، قال: فقلنا: قد استقبلنا فرضٌ، فوقفنا، فقال صاحب القصر للجارية: أنتِ حرة لوجه الله تعالى، قال ثم خرج أهل

البصرة وصلوا عليه، فلما فرغوا من دفنه قام صاحب القصر وقال: أليس تعرفونى؟ أنا فلان ابن فلان أُشهدكم أن كل شىء لى فى سبيل الله تعالى، وكل جوارى أحرارٌ، وهذا القصر للسبيل، قال: ثم رمى بثيابه، واتزر بإزار، وارتدى بالآخر، ومر على وجهه والناس ينظرون إليه حتى غاب عن أعينهم وهم يبكون، فما رآه أحد بعد ذلك ولا سُمع له خبرٌ، وما رأيت يوما أحسن من ذلك اليوم، أو كلاما هذا معناه، والله اعلم.

قال: وسمعت الوجيهى يقول: سمعت أبا على الروذبارى يقول: دخلت مِصر فرأيت الناس مجتمعين أو منصرفين من الصحراء، فسألتهم، فقالوا: كنا فى جنازة فتى سمع قائلا يقول:

كَبُرَتْ همة عبد طمعتْ فى أن تراكا

وزعق زعقة ومات، ومما حكىٍ الدقى قال: سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول: رأيت بالمغرب شيئين عجيبين، رأيت فى جامع قَيْرَوَان رجلا يتخطَّى الصفوف، ويسأل الناس ويقول: تصدقوا علىَّ فإنى كنت رجلا صوفيا فضعفتُ، والآخر أنى رأيت شيخين اسم أحدهما جَبَلة والآخر زُرَيق، ولكل واحد منهما تلامذة ومريدون، فزار يوما من الأيام جبلة زريقٌ مع أصحابه، فقرأ رجل من أصحاب زريق شيئا من القرآن، فصاح من أصحاب جبلة رجل صيحة فمات، فلما كان غداة يومئذ قال جبلة لزريق: أين صاحبك الذى قرأ بالأمس؟ فدعاه وقال له: اقرأ، فقرأ شيئا فصاح جبلة صيحة فمات القارئ فى مكانه، فقال: واحد بواحد والبادىء أظلمُ، أو كلاما هذا معناه.

وحكى محمد بن يعقوب عن جعفر المبرقع، وكان من الأجلة، أنه حضر فى موضع فيه سماع، فقام وتواجد وقال فى قيامه: خُتم بنا المريدون.

قال الشيخ رحمه الله: ولا يصح السماع للمريد حتى يعرف أسماء الله تعالى وصفاته: حتى يضيف إلى الله ما هو أولى به ، ولا يكون قلبه ملوثا

بحب الدنيا وحب الثناء والمحمدة، ولا يكون في قلبه طمع في الناس ولا تشوفٌ إلى المخلوقين، مراعيًا لقلبه، حافظًا لحدوده، متعاهدًا لوقته، فإذا كان كذلك يسمع ما يكون داخلا في صفة التائبين والقاصدين والطالبين والمنيبين والخاشعين والخائفين، ويسمع ما يحثه على المعاملةوالمجاهدة، ولا يسمع على الجملة، ولا يتكلف، ولا يسمع للاستطابة والتلذذ: لكيلا يصير عادَته فيشغله عن عبادته ورعاية قلبه، فإن لم يكن كذلك يجب عليه ترك ذلك، والاجتناب والتباعد عن المواضع التي يحضر فيها ذلك، ولا يحضر السماع إلا في مواضع يجري ذكر ما يحثه على المعاملة ويجدد عليه ذكرَ الله تعالى والثناء على الله وما فيه رضا الله.

وإن كان مبتدئًا لا يعلم شرائط السماع فيقصد من يعلم ذلك من المشايخ حتى يتعلم منه ذلك، حتى لا يكون سماعه لهوًا ولعبًا، ولا يضيف إلى الله تعالى ما هو منزَّه عنه فيكفر ولا يدري، ولا تدعوه نفسه وهواه إلى اتباع الحظوظ ويخيل إليه الهوى والشيطان أنه من الحقوق فيهلك عند ذلك، والله ولي التوفيق.

باب فى وصف المشايخ فى السماع وهم المتوسطون العارفون

قال الشيخ رحمه الله: سمعت الوجيهى يقول: سمعت الطيالسى الرازى يقول: دخلت على إسرافيل أستاذ ذى النون رحمهما الله وهو جالس ينكت بأصبعه على الأرض ويترنم مع نفسه بشىء، فلما رآنى قال: أتحسن تقول شيئًا؟ قلت: لا، قال: أنت بلا قلب، سمعت أبا الحسن على بن محمد الصَّيْرفى قال: سمعت رُوَيْمًا، وقد سئل عن المشايخ الذين لقيهم: كيف كان يجدهم فى وقت السماع؟ فقال: مثل قَطيع الغنم إذا وقع فى وسطه الذئاب، قال: وسمعت قيس بن عمر الحِمْصى يقول: ورد علينا أبو القاسم بن مروان النهاوندى وكان قد صحب أبا سعيد الخراز رحمه الله وكان قد ترك الحضور عند السماع سنين كثيرة، فحضر معنا فى دعوة فيها إنسان يقول أبياتًا فيها هذا البيت:

واقِفٌ فى الماء عَطْشا نَ وَلكِنْ لَيْسَ يُسْقَى[1]

قال: فكان أصحابنا يقومون ويتواجدون، فلما سكتوا سأل كل واحد منهم عن معنى ما وقع له فى هذا البيت، فكان أكثرهم يقولون على معنى التعطش إلى الأحوال، وأن يكون العبد ممنوعًا عن الحال الذى يتعطش إليه، فكان لا يُقنعه منهم ذلك، فسالناه، وقلنا: هات ما عندك، فقال: يكون فى وسط الأحوال ويُكْرَم بجميع الكرامات، ولا يعطيهم الله منه ذرةً، أو كما قال كلامًا هذا معناه، والله اعلم.

وسمعت يحيى بن الرضا العلوى ببغداد يقول: وكتب لى هذه الحكاية

(١) ومما يشبه هذا المعنى قول بعضهم:

واعطشنا والماء نخوض غماره واوحشنا والمؤنسون كثير

بخطه، قال: سمع أبو حُلْمان الصوفى رجلاً يطوف وينادى: يا سَعْتَرا بَرى[1]، فسقط وغُشى عليه، فلما أفاق، سئل عن ذلك وقال: سمعته يقول: اسْعَ تَرَى برى، قال الشيخ رحمه الله فكذلك قال المشايخ الذين هم من العلماء بهذا الشأن وأهل الفهم بهذه القصة: أن السماع على حسب ما يَقِرُ فى القلوب من حيث شُغْله ووقته وحضوره، ألا ترى أن صوت الصائت حيث أُدِّىَ إلى أبى حلمان سَمِعَه من حيث وقته وشُغْله.

وما يستدل بذلك على ما قلناه، والله اعلم، حكايةٌ حُكيت عن عُتبة الغلام رحمه الله أنه سمع رجلا يقول:

سُبْحانَ جَبارِ السَّما   إنَّ المُحِبَّ لَفى عَنا

فقال عتبة رحمه الله: صدقتَ، وسمعه رجل آخر فقال: كذبتَ، فقال بعض من هو عارفٌ بهذا الشأن: كلاهما أصابا، أمَّا عتبة رحمه الله صدقه لوجود تعبه فى محبته، وأما الآخر فكذبه لوجود راحته وأُنسه فى محبته، وعن أحمد بن مُقاتل أن ذا النون المصرى رحمه الله دخل بغداد، فاجتمع إليه قوم من الصوفية ومعهم قوال، فاستأذنوه فى أن يقول شيئا، فأذن له فى ذلك، فأنشأ يقول:

صَغِيرُ هَوَاكَ عَذَّبَنِى   فَكَيْفَ بِهِ إذا أحْتَنَكا

وأَنْتَ جَمَعْتَ فى قَلْبى   هَوًى قَدْ كانَ مُشْتَرَكا

أَمَا تَرْثى لِمُكْتَئِبِ   إذا ضَحِكَ الخَلىُّ بَكَى

قال: فقام ذو النون رحمه الله، ثم سقط على وجهه، ثم قام رجل آخر، فقال ذو النون رحمه الله ﴿الذى يَرَاكَ حينَ تَقُومُ﴾[2] قال فجلس ذلك الرجل.

(١) فى هامش إحدى النسخ:

من يشترى زعترًا برى، والزعتر نبت معروف عند العطارين.

(٢) الشعراء: ٢١٨.

قال الشيخ رحمه الله: والمعنى فى قوله: ﴿الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أشار إلى قيامه ومزاحمته لغيره بالتكلف، فعرفه بأنَّ الخصم فى دعواك بقيامك ليس غير الله، ولو كان الرجل صادقًا فى قيامه لم يجلس، وذلك أن المشايخ منهم مُشْرِفون على أحوال من هو دونهم بفضل معرفتهم، ولا يجوز لهم أن يسامحوهم إذا جاوزوا حدودهم وادعوا حال غيرهم، وعن أبى الحسين النورى رحمه الله أنه حضر مجلسًا فيه سماع، فسمع هذا البيت:

مَا زِلْتُ مِنْ وِدَادِكَ مَنْزِلاً ... تَتَحَيَّرُ الأَلْبَابُ عِنْدَ نُزُوله

قال: فقام وتواجد وهام على وجهه، فوقع فى أجمة قَصَبٍ قد كُسِحَت وبقى أصولها مثل السيوف فاقبل يمشى عليها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يخرج من رجليه ثم ورمت قدماه وساقاه وعاش بعد ذلك أيامًا قلائل ومات.

وحُكى عن أبى سعيد الخراز رحمه الله أنه قال: رأيت على بن الموفق، وكان من أجلة المشايخ، وقد حضر فى وقت السماع، وقد سمع شيئا، فقال: أقيمونى فأقاموه، وتواجد، ثم قال فى تواجده: أنا الشيخ الزَّفان، قال أبو نصر رحمه الله: والمعنى فى ذلك، والله أعلم، أنه يريد أن يعطى بذلك حاله على جلسائه وقرنائه، ويقول: أنا الشيخ الزفان، ومن حُسْنِ أدبه أنه يتكلم حتى يجتنب بذلك عن التساكن والذهاب، لأنه من أحوال المريدين والمبتدئين.

وحكى لى بعض إخوانى عن أبى الحسين الدارج أنه قال: قصدت يوسف ابن الحسين من بغداد للزيارة والسلام عليه، قال: فلما دخلت الرَّيَّ سألت عن منزله فكل من أسألُ عنه يقول أَيْشَ تعملُ بذلك الزنديق؟ فضيَّقوا صدرى، حتى عزمت على الانصراف، فبتُّ تلك الليلة فى بعض المساجد، فلما أصبحت قلت فى نفسى: قد جُبْتُ هذا الطريق كله لا أَقَلَّ من أن أراه، فلم أزل أسأل عنه حتى دفعت إلى مسجده، فدخلت عليه وهو قاعد فى المحراب وبين يديه رجل وفى حجْره مصحف وهو يقرأ، وإذا شيخ بهى حسن الوجه

واللحية فدنوت إليه وسلمت عليه فرد على السلام، وقعدت بين يديه، فأقبل عليَّ وقال لي: من أين أنت؟ قلت: من بغداد، فقال: وما الذى جاء بك؟ فقلت: قصدت الشيخ للسلام عليه، فقال لى: لو أن فى بعض هذه البلدان قال لك إنسان: تقيم عندنا حتى أشترى لك دارًا وجاريةً، او كما قال، كان يُقعدك عن هذا المجىء؟ قال: فقلت: ما امتحننى الله بشىء من ذلك، ولو امتحننى ما كنت أدرى كيف أكون، ثم قال: تُحْسن أن تقول شيئًا؟ فقلت: نعم، قال لى: هات، فابتدأت أقول:

رَأَيْتُكَ تَبْنِى دائِبًا فى قَطِيعتى ... ولَوْ كُنْتَ ذا حَزْمٍ لَهَدَّمْتَ ما تَبْنى

كأنِّى بِكُمْ واللَيْتُ أَفْضَلُ قَوْلِكُمْ ... أَلا لَيْتَنا كُنَّا إذِ اللَيْتُ لا تُغْنى

قال: فأطبق المصحف، ولم يزل يبكى حتى ابتل لحيته وثوبه، حتى رحمْتُه مما بكى، ثم قال لى: يا بنى تلوم أهل الرى يقولون يوسف زنديق، من صلاة الغداة هو ذا أقرأُ فى المصحف لم تقطر من عينى قطرة، وقد قامت على القيامة بهذين البيتين: قال: وكان الشبْلى رحمه الله يتواجد كثيرًا، إذا سمع هذا البيت:

وِدادُكُمُ هَجْرٌ، وَحُبُّكُم قِلًى ... وَوَصْلُكُم صَرْمٌ، وَسِلمُكُم حَرْبُ

وقام الدقى ليلة إلى شطر الليل وهو يتخبط ويسقط على رأسه ويقوم، والخلق يبكون، والقَّوالون يقولون هذا البيت:

بِالله فأرْدُدْ فُؤادَ مُكْتَئب ... لَيْسَ لَهُ مِنْ حَبيبِه خَلَفُ

وأشباه ذلك كثير، ولا يخفى على العاقل إذا تأمل فى مقاصدهم واختلاف شرْبهم وأماكنهم فى السماع، إذا تأمل فى هذا القليل الذى ذكرت ويَقِفُ على مُرادى من ذلك إن شاء الله، وبالله التوفيق.

باب فى وصف خصوص الخصوص

وأهل الكمال فى السماع

قال الشيخ رحمــه الله : سمعت أبا الحسن محمد بن أحمــد بالبصرة قال : سمعت أبى يقول : خدمتُ سهل بن عبد الله ستِّينَ سنةً فما رأيته تغيَّرَ عند شىء كان يسمعــه من الذِّكْرِ والقرآن أو غير ذلك ، فلما كان فى آخـر عمره قرأ رجل بين يديه هذه الآية : ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾[(١)] الآية ، فرآيته قد ارتعد ، وكاد أن يسـقط ، فلما رجع إلى حـال صحوه سـألته عن ذلك ، فـقال : نَعَمْ يا حبيبى قد ضعفْنَا .

وحكى ابن سالم أيضـا عن أبيه أنه قال : رأيت سهـلاً مَرَّةً أخرى ، وكنت أَصْطَلِى بين يديه بالنار ، فقرأ رجل من تلامذته سـورة الْفُرْقان ، قال : فلما بلغ إلى قـوله تعـالى : ﴿الْمُلْكُ يَومَـئِذ اَلْحقُّ للرَّحْـمنِ﴾[(٢)] اضطرب ، وكـــاد أن يسقط ، قال : فسألته عن ذلك لأنه لَم يكن عهدى به ذلك ، فقال : قد ضعفتُ .

وسمعــت ابن سالم يقول : قلت لسهل بن عـبد الله رحمه الله كـلامًا هذا معناه واللهُ أعلمُ : إن الذى ذكرتَ أنه ضعـفتْ حالك تعنى تغيُّرك واضطرابك ، فمـا الذى يوجب قوَّة الـحال؟ فقـال : لا يَرِدُ عليه وارد إلا وهو يـبتلعــه بقوَّة حاله ، فمن أجْل ذلك لا تُغَيِّره الواردات وإن كانت قَوِيةً .

قال الشيخ رحمــه الله : ولذلك أصلٌ فى العلم وهو قول أبى بكر الصديق ﷺ حين سمع رجلاً وهو يبكى عند قراءة القـرآن فقال : هكذا كنَّا حتى قَسَت القلوب ، يعنى اشتدت وثبتت ، فلا يتغـير إذا طرقه ضربٌ من السماع لأن حاله قبل السماع وبعده سواءٌ .

---

(١) الحديد : ١٥ .

(٢) الفرقان : ٢٦ .

ومَعْنًى آخر: وذلك أن سهل بن عبد الله رحمه الله قد حُكى عنه أنه قال: حالى فى الصلاة وقبل الدخـول فى الصلاة شىء واحد، وذلك أنه يراعى قلبه ويراقب الله تعالى بسرِّه قبل دخوله فى الصلاة، ثم يقوم إلى الصـلاة بحضور قلبه وجَمْع هَمه، فيدخل فى الصلاة بالمعنى الذى كان به قبل الصلاة، فيكون حاله فى الصلاة وقبل الصلاة واحدًا، وكذلك حاله قبل السمـاع وبعده بمعنًى واحد، فيكون سماعه متَّصلاً وشِرْبه ووجده متصلاً وشربه دائمًا وعطشه دائمًا، وكلما ازداد شـربه ازداد عطشه، وكلمـا ازداد عطشه ازداد شرْبه، فـلا ينقطع أبدًا.

وسمعت أحمـد بن على الكرجى المعروف بالوجيهى يقول: كـان جماعة من الصوفية مستجمـعين فى بيت حسن القزَّاز، وعندهم قَوَّالون يقولون، وهم يتواجدون، فأشرف عليـهم ممْشَاذ، فلما نظروا إليه سكتوا جمـيعًا، فقال لهم ممْشَاذ: مـا لكم قد سكتم؟ ارجعوا إلى ما كنتم فيه، فلوجُـمعتْ ملاهى الدنيا فى أُذنى ما شغلتْ همى ولا شفت بعض ما بى.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا أيضًا من صفات أهل الكمال، لا يكون فيهم فـضلة لطارق يطرقـهم ولوارد يَرِد عليـهم، ولم يبق من طبـائعهـم ونفوسـهم وبشريتهم حاسَّة إلا وهى مبدلة ومهذبة لا تأخذ من النغمات حظوظها ولا تتلذذ بالأصـوات الطّيبـة ولا تتنَّعم بهـا؛ لأن همومـهم مـفردة، وأسـراهم طاهرة، وصفاتهم لا يعارضها كدورة الحسوس وظلمات النفوس وتغيير البشرية ومقارنة الإنسانية ﴿ذلكَ فَضْلُ الله يُؤْتيه مَنْ يَشَاءُ﴾[1].

وبلغنى عن أبى القـاسم الُجنَيْـد رحمـه الله أنه قيل له: كنتَ تسـمع هذه القصائد وتحضر مع أصحابك فـى أوقات السماع، وكنت تتحرَّك، والآن فأنت هكذا

(١) الجمعة: ٤.

ساكن الصفة، فقرأ عليهم الجنيد هذه الآية: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الذى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]، فكأنه يشير بذلك، والله أعلم، يعنى أنكم تنظرون إلى سكون جوارحى وهُدُوء ظاهرى، ولا تدرون أين أنا بقلبى، وهذه أيضًا صفة من صفات أهل الكمال فى السماع.

قال الشيخ رحمه الله: وهؤلاء ربما يحضرون فى هذه المواضع التى فيها السماع لأحوال شتَّى، وجهات مختلفة، فربما يجتمعون معهم من جهة مساعدة أخٍ من إخوانهم، وربما يحضرون لعِلْمهم وثباتهم وكِبرَ عقولهم حتى يعرِّفوهم ما لهم وما عليهم من شرائط السماع وآدابه، وربما يجتمعون مع غير أبناء جنسهم من سعة أخلاقهم وتحملهم فيكونون معهم باينين منهم ومنفردين عنهم ببواطنهم وإن كانوا مع جلسائهم بظواهرهم، وبالله التوفيق.

(١) النمل: ٨٨.

باب فى سماع الذكر والمواعظ والحكمة وغير ذلك

قال: سمعت أبا بكر محمد بن داود الدينورى الدُّقى يقول: سمعت أبا بكر الزقاق يقول: سمعت من اُلجَنْيد رحمه الله تعالى كلمة فى التوحيد هيمتنى أربعين سنة، وأنا بعدُ فى غمار ذلك.

وقال، جعفر الخُلْدى رحمه الله: دخل رجل من أهل خراسان على الجنيد رحمه الله وعنده جماعة من المشايخ فقال: يا أبا القاسم متى يستوى على العبد حامده وذامُّه؟ فقال، بعض أولئك المشايخ: إذا أدخل المارستان وقُيِّدَ بقيدَيْن، فقال له الجنيد رحمه الله: ليس هذا من شأنك، ثم أقبل على الرجل فقال: يا حبيبى إذا علم وتيقن أنه مخلوق، فشهق الرجل شهقة وخرج.

وقال يحيى بن مُعاذ رحمه الله: الحكمة جُنْدٌ من جنود الله تعالى يُقَوِّى بها قلوب أوليائه، ويقال: إن الكلام إذا خرج من القلب يقع على القلب، وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الأذنين.

قال الشيخ رحمه الله: ومثل هذا فى الأخبار كثير: من ذكر من سمع كلمة أو ذكْرًا أو حكمة حسنة راقه ذلك وثار من ذلك فى سره وجدًا أو فى قلبه احتراقًا ويقال: كل من لاُ يزَهِّدُك لَحْظهُ عن لَفْظِه لم يُغْنك وعظه عن لَفْظِه.

وقال أبو عثمان: فعلٌ من حكيم فى أَلْف رجل، أنفعُ من موعظة ألف رجل، وإنما هى مصادفات للقلوب من حيث صفاء القلوب عندما يطرقها من واردات الغيوب من المسموعات والمنظورات، فإذا اتفقت قويت، وإذا اختلفت وتضادت ضعفت، إلا لأهل الاستقامة والصدق والكمال فإنهم قد جاوزوا ذلك وسقطت عنهم رؤية التميز فلا يتغيرون، ولكن ربما تجَدَّدُ لهم

أذكارهم بما يسمعون وتصفو لهم المشاهدات وقتًا بعد وقت، وذلك زيادات الصفاء تجدد لهم عند سماع الحكمة والإصغاء إلى طرائف الحكمة.

والمراد فيما ذكرتُ: أن مقصود القوم فى السماع الذى يسمعون من القرآن والقصائد والذكر وغير ذلك من أنواع الحكم ليس كله لحسن النغمة ولطيب الصوت والتنعم والتلذذ بذلك، لأن الرقة والهيجان والوجد كامن فيهم أيضًا عند فُقْدان الأصوات والنغمات، والسكونُ والهدوء كامن فيهم عند وُجْدان الأصوات والنغمات، فعلمنا أن المقصود فى جميع ما يسمعون ما تصادف قلوبهم من خنس ما فى قلوبهم من المواجيد والأذكار، فيقوى الوجد بما تصادفه بمشاكلته.

باب آخر فى السماع

قال الشيخ رحمه الله: قد ذكرنا أن المعوَّل والمقصود فى ذلك على مقاصد المستمعين فيما يسمعون، وعلى حسب مصادفات أسرارهم من ذلك، ومن حيث أوقاتهم وما يكون الغالب على قلوبهم، فإذا سمعوا شيئًا يوافق ما هم به فى الوقت تَقْوى بذلك مُكْمَنات سرائرهم وما انضمت عليه ضمائرهم، فينطقون من حيث وجْدهم، ويشيرون من حيث قصدهم وصدقهم وإلى ما يليق بحالهم، ولا يخطر ببالهم قصدُ الشاعر فى شعره ومراد القائل بقوله، وكذلك لا تصطلمهم غفلة القارىء عند قراءته إذا كانوا منتبهين، ولا يُوحشهم تشتت الذاكر عند ذكْره إذا كانوا مستجمعين، وربما تتفق الحالان، ويتشاكل الوقتان، وتتجانس الإرادتان، فيكون القادح أَقْوَى والوقت أَصْفَى والعِلَل أَخْفَى، وإذا شملتهم العناية وصحبهم التوفيق فهم محفوظون عن الزلَل ومُبَرَّءُونَ من العِلَل فى جميع أحوالهم.

وبيان ما ذكرتُ فى هذه الحكايات التى أذكرها إن شاء الله، ذُكر عن محمد ابن مسروق البغدادى أنه قال: خرجتُ ليلةً فى أيام جاهليتى وأنا نشوان وكنت أُغنى بهذا البيت:

«بِطيزَ ناباذَ»[1] كَرْمٌ ما مَرَرْتُ بِهِ ... إلا تَعَجَّبْتُ مِمَّنْ يَشْرَبُ الماءا

قال فسمعت قائلا يقول:

وَفى جَهَنَّمَ ماءٌ ما تَجَرَّعَهُ ... خَلْقٌ فَأَبْقَى لَهُ فى الجوفِ أَمْعاءا

قال: فكان ذلك سبب توبتى واشتغالى بالعلم والعبادة أو كما قال، ألا ترى أنه حين أدركته العناية امتحق الباطل الذى كان فيه بمصادفة الحق له وكان باطله سببًا لنجاته حين صحبه التوفيق وشملته الرعاية، وقد حُكى أيضًا عن أبى الحسن بن زرعان أنه

(١) اسم بلدة.

قال: كنت أمشى مع رجل من أصحابنا بين بساتين البصرة إذ سمعنا ضاربًا بالطنبور وهو يقول:

يا صِباحَ الوُجُوهِ ما تُنْصِفونا طُولَ ذا الدَّهْرِ كلُّكُمْ تَظْلِمُونا
كانَ فى واجِبِ الحُقُوقِ عَلَيْكُمْ إِذْ بُلِينا بِحُبِّكُمْ تُنْصِفُونا

قال: فشهق صاحبى شهقة ثم قال: وماذا عليك لو قلت؟:

يا صِباحَ الوُجُوهِ سَوْفَ تَمُوتُو نَ وَتَبْلَى خُدُودُكُمْ والعُيُونا
وتَصِيرُونَ بَعْدَ ذلكَ رَسْمًا فَأعْلَمُوا ذاكَ إِنَّ ذاكَ يَقِينا

ألا ترى أنه أجابه من حيث وقته وأبان عما فى ضميره، ولم يحشمه قبْح مقصد القائل فى قوله، لاستيلاء الحقائق عليه وامتلائه بوجده؟ وقد حُكى فى هذا المعنى أيضًا عن الشبلى رحمه الله: أنه سئل عن معنى قوله ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ والله خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ﴾[1] فقيل له: قد علمتُ موضع مكرهم فما موضع مكر الله بهم؟ فقال: تركهم على ما هم فيه ولو شاء أن يغير لغير،

قال: فشهد الشبْلى رحمه الله فى السائل أنه لم يُغْنه جوابُهُ فقال: أما سمعتَ بفلانةَ الطُّنْبُرانية فى ذلك الجانب تقول؟:

ويَقْبحُ مِنْ سِواكَ الفِعْلُ عِنْدى وتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذاك

قال الشيخ رحمه الله: فانظرْ أين تقع إشارته من قصْدها؟ وجميع ذلك داخلٌ فى الذى قيل: إن الحكمة ضالة المؤمن.

وصاحب المسألة والسؤال أبو عبد الله بن خفيف رحمه الله كما بلغنى، والله أعلم.

(١) آل عمران: ٥٤.

باب فيمن كره السماع، والذى كره الحضور فى المواضع التى يقرءون فيها القرآن بالألحان، ويقولون القصائد ويتواجدون ويرقصون

فقد كره ذلك من جهات شتى: فقومٌ كرهوا ذلك لأخبار رُويت عن بعض الأئمة المتقدمون والعلماء والتابعين أنهم كرهوا ذلك، فكره من كره ذلك اقتداءً بهم ومتابعة لهم؛ إذ كانوا هم الأئمة فى أحكام الدين والمقَّدمين فى عصرهم على جماعة المسلمين.

وقوم كرهوا ذلك للمريدين والقاصدين والتائبين لِعظَم ما فيه من الخطر إن استلذوا ذلك وتابعوا حظوظهم فتنحلُّ عند ذلك عقودهم وتنفسخ عزيمتهم ويركنوا إلى شهواتهم ويتعرضوا للفتنة فى البلية.

وطائفة أخرى كرهت ذلك وزعمت أن الذى يتعرض لاستماع هذه الرُّباعيات لا يخلو من أحد وجهَيْن: إما هم قوم متلهون من أهل الدُّعابة والفتنة، أو هم قوم وصلوا إلى الأحوال الشريفة وعانقوا المقامات الرضية وأماتوا نفوسهم بالرياضات والمجاهدات وطرحوا الدنيا وراء ظهورهم وانقطعوا إلى الله عز وجل فى جميع معانيهم، قالوا: ولسنا نحن من هؤلاء ولا من هؤلاء فلا معنى لاشتغالنا بذلك وترْكُ ذلك أولى بنا، والاشتغالُ بالطاعات وأداءُ المفترضات واجتناب المحرَّمات يشغلنا عن ذلك.

قال: سمعت أحمد بن الوجيهى يقول: سمعت أبا على الروذبارى رحمه الله يقول: قد بلغْنا فى هذا الأمر إلى مكان مثل حد السيف فإذا مِلْنا كذى ففى النار.

قال: وأخبرنى جعفر الخُلْدى فيما قرأتُ عليه قال: سمعت الجُنَيْدْ رحمه الله يقول: جئتُ إلى سَرى السَّقَطى رحمه الله يومًا فقال لى: أَيْشَ خَبَرَ أصحابك يقولون قصائد؟

قلت: نعم.

قال: يقولون عاشقٌ دَنِفٌ؟ لو شئت أن أقول هذا الذى بى من هذا اللون لقلت.

قال الجنيد رحمه الله: وكان معه هذا كثيراً، كان يستره وكان معوَّلَهُ الخوف.

وكرهت طائفة أخرى ذلك من جهة أن العامة لا تعرف مقاصد القوم فيما يسمعون، فربما غلطوا فى مقاصدهم وزلقوا، فكرهوا ذلك: شفقةً على العامة وصيانة للخاصة وغيرةً على الوقت الذى إذا فات لا يُدْرَك.

وطائفة أخرى كرهت ذلك: لما قد فقد من إخوانه، وعدم من أشكاله وقرنائه ومن كان يصلح لذلك؛ ولما قد بُلى من الاختلاط بغير أبناء جنسه ولما قد دُفع إلى مجالسة الأضداد ومخالطة أهل العناد فقد ترك ذلك طلبًا للسلامة: لإقباله على شأنه ومعرفته بأهل زمانه.

وطائفة أخرى كرهت ذلك لقول النبى ﷺ فيما رُوى عنه أنه قال: [١٦٧] «من حُسن إسلام المرء تركُهُ مالا يعنيه» فقالوا: هذا مالا يعنينا: لأنا ما أُمرنا بذلك، وليس هو من زاد القبر، ولا مما يُطلب به النجاة فى الآخرة، فكرهوا ذلك لهذا المعنى.

وطائفة أخرى من أهل المعرفة والكمال كرهوا ذلك؛ لأن أحوالهم مستقيمة وأوقاتهم معمورة وأذكارهم صافية وأسرارهم طاهرة وقلوبهم حاضرة وهمومهم مجتمعة، لم يخطر ببالهم خاطرٌ ولا يجرى فى أفكارهم عارضٌ إلا وهم

مُشْـرِفون عليه، يعلمـون من أين مَوْرده وإلى أين مَـصْدره، ليس فيـهم فضلة لطوارق سـمع الظاهر من مـعـارضة طوارق سـمع البـاطن من دوام المناجـاة ولطائف الإشارات وخفى الـمعاتبات والمخـاطبات والمجاوبات فيـنكره جليسه ولا يعرفة أنيسه، فهم مع الله تعالى ببواطنهم، وإن كانوا مع الخلق بظواهرهم ﴿ذلكَ فَضْلُ الله يُؤْتيه مَنْ يشاءُ﴾[1].

فهذا مما حضرنى فى هذا الوقت وبالله التوفيق.

---

(١) الحديد: ٢١.

كتاب الوجد

باب فى ذكر اختلافهم فى ماهية الوجد

قال الشيخ رحمه الله: اختلف أهل التصوُّف فى الوجد: ما هو؟ فقال عمرو بن عثمان المكى رحمه الله: لا يقع على كيفية الوجد عبارة؛ لأنها سِرُّ الله تعالى عند المؤمنين الموقنين.

وذُكِر عن الجُنَيْد رحمه الله أنه قال: كما أظنُّ أن الوجد هو المصادفة بقوله عز وجل: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾[1] يعنى صادفوا، وقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوه عِنْدَ اللهِ﴾[2] أى تُصَادفوا، وقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾[3] يعنى لم يصادفه.

وكل ما صادف القلبُ من غم أو فرح فهو وجدٌ، وقد أخبر الله تعالى عن القلوب: أنها تنظر وتبصر وهو وجدٌ لها، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُور﴾[4] أى عن وجدها، ففرَّق بين التى تجد وبين التى لا تجد.

وقد قيل أيضًا: إن الوجد مكاشفات من الحق، ألا ترى أن أحدهم يكون ساكنًا فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق؟ وقد يكون من هو أقْوَى منه ساكنًا فى وجده لا يظهر منه شىء من ذلك، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[5].

(١) الكهف: ٤٩.
(٢) البقرة: ١١٠.
(٣) النور: ٣٩.
(٤) الحج: ٤٦
(٥) الحج: ٣٥.

قال بعض المشايخ من المتقدمين: الوجد وجدان: وجدُ مُلك، ووجد لقاء لقول الله عز وجل: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ يعنى من لم يملك، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حاضراً﴾ يعنى لقوا.

وقال بعضهم: كل وجد يجدك فيملكك فذاك وجدُ مُلك، وكل وجد تجده فذاك وجدُ اللقاء تلقى بقلبك شيئًا ولا يثبت.

وسمعت أبا الحسن الُحصْرى رحمه الله يقول: الناس أربعة، مُدَّع مكشوف، ومعترضٌ تارة له وتارة عليه، ومتحققٌ قد اكتفى بحقيقته، وواجدٌ قد فنى بما يجد.

وحُكى عن سهل بن عبد الله رحمه الله أنه قال: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.

وقال أبو سعيد أحمد بن بشر بن زياد بن الأعرابى رحمه الله: أول الوجد رفع الحجاب، ومشاهدة الرقيب، وحضور الفهم، وملاحظة الغيب، ومحادثة السر، وإيناس المفقود، وهو فناؤك أنت من حيث أنت.

قال أبو سعيد رحمه الله: الوجد أول درجات الخصوص وهو ميراث التصديق بالغيب، فلما ذا قوها وسطع فى قلوبهم نورها، زال عنهم كل شك وريب

وقال أيضًا: الذى يحجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والأسباب؛ لأن النفس محجوبة بأسبابها، فإذا انقطعت الأسباب، وخلص الذكر وصحا القلب ورق وصفا، ونجعت فيه الموعظة والذكر وحل من المناجاة فى محل غريب، وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعية وقلب شاهد وسر طاهر، فشاهَدَ ما كان منه خاليًا، فذلك هو الوجد؛ لأنه وجد ما كان عنده عدمًا معدومًا.

باب فى صفات الواجدين

قال الشيخ رحمه الله: قال الله عز وجل: ﴿**مثانيَ تقشَعرُّ منهُ جلودُ الذينَ يخشوْنَ ربَهـم ثم تلين جلودُهُم وقلوبهم إلى ذكر الله**﴾[1] هذه صفة من صفات الواجـدين، وقوله تعـالى: ﴿**وَجَلَتْ قلوبهمْ**﴾[2] فالوجل صـفة من صـفات الواجدين، وفى الحـديث أن النبى ﷺ قرأ: [١٦٨] ﴿**فكَيْفَ إذَا جِـئنا منْ كلِّ أُمة بشـهيد وَجِـئنا بك علَى هؤلاء شهـيداً**﴾[3] فصعق، فالصـعقة صفة من صفاتٍ الواجدين.

والأخبار تكثر من مـثل الزفير والشهيق والبكاء والغشيـة والأنين والصعقة والصراخ والصيحة فكل ذلك من صفات الواجدين.

وهم على طبقتين: واجدٌ، ومتواجدٌ.

فأما الواجدون فهم على ثلاثة أصناف: فصنف منهم وجْدُهم مصحوبهم، إلا أنه يعارضهم فـى الأحايين دواعى النفوس والأخلاق البشـرية ومزاج الطبع فيكدر عليهم الوقت ويتغير عليهـم الحال، والصنف الثانى وَجْدُهم مصحوبهم إلا أنه إذا طرأ عليهـم ما يشاكل كل وجـدهم من طوارق السمع تنعـموا بذلك وعاشوا وانتعشوا ثم يتغيـر عليهم الوجد، والصنف الثالث وجدُهم مصحوبهم على الدوام، وقـد أفناهم ذلك الوجـد: لأن كل واجـد قـد فنى بمـا وجـد، فليـست فيـهم فـضلة عن موجـودهم، لأن كل شىء عندهم كـالمـفقـود عند وجدهم بموجودهم بذهاب رؤية وجدهم.

فأما المتواجدون فـهم أيضًـا على ثـلاثة أصناف فى تواجدهم: فصنفٌ منهم المتكلفون والمتشبهون وأهل الدعابة ومن لا وزن له، وصـنفٌ منهم: الذين يستدعون الأحوال الشريفة بالتعرض بعد قطع العلايق المشغلة والأسباب القاطعة، فذلك التواجد

(١) الزمر: ٢٣. (٢) الحج: ٣٥.

(٣) النساء: ٤١.

يجمل منهم، وإن كان غير ذلك أولى بهم؛ لأنهم نبذوا الدنيا وراء ظهورهم، فتواجدهم مطايبةً وتسليًا وفرحًا وسرورًا بما قد عانقوا من خلع الراحات وترك المعلومات.

قال الشيخ رحمه الله: فمن أنكر ذلك ويقول: ليس هذا فى العلم، فيقال له: قد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: [١٦٩] «إذا دخلتم على هؤلاء المعذبين فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا».

فالتواجد من الوجد، بمنزلة التباكى من البكاء، والله أعلم.

وصنف ثالث: أهل الضعف من أبناء الأحوال، وأرباب القلوب، والمتحققين بالإرادات، فإذا عجزوا عن ضبط جوارحهم وكتمان ما بهم تواجدوا ونفضوا ما لا طاقة لهم بحمله ولا سبيل لهم إلى دفعه عنهم وردِّه، فيكون تواجدهم طلبًا للتفرج والتسلِّى، فهم أهل الضعف من أهل الحقائق.

قال: سمعت عيسى القصار يقول: رأيت الحسين بن منصور حين أُخرج من الحبس ليقتل فكان آخر كلامه أن قال: حسب الواجد إفراد الواحد، قال: وما سمع أحد من المشايخ الذين كانوا ببغداد هذا، إلا استحسنوا منه هذه الكلمة.

وسئل أبو يعقوب النهرجورى رحمه الله عن صحة وجد الواجد وسقمه فقال: صحته قبول قلوب الواجدين له، وكذلك سقمه إنكار قلوب الواجدين له، وتبرم جلسائه؛ إذ كانوا أشكالا غير أضداد وليس ذلك لغير أبناء جنسهم.

باب فى ذكر تواجد المشايخ الصادقين

قال الشيخ رحمه الله: حُكى عن الشبْلى رحمه الله: أنه تواجد يومًا فى مجلسه فقال: آه ليس يدرى ما بقلبى سواهُ، فقيل له: آه من أى شيء؟ فقال: من كل شيء، وذُكر عنه أيضًا أنه تواجد يومًا فضرب يده على الحائط حتى عَملَت عليه يده قال: فعمدوا إلى بعض الأطباء، فلما أتاه قال للطبيب: وَيْلك! بأى شاهد جئتنى؟ قال: جئت حتى أعالج يدك، فلطمه الشبْلى رحمه الله وطرده، قال: فعمدوا إلى طبيب آخر أَلْطَفَ منه، فلما أتاه قال له: ويلك، بأى شاهد جئتنى؟ قال: بشاهده، قال: فأعطاه يده فبَّطها وهو ساكت، فلما أخرج الدواء يجعله عليها، صاح وتواجد، وترك إصبعه على موضع الداء وهو يقول:

أَنْبَتَتْ صَبَابَتُكُمْ ... قَرْحَةً عَلَى كَبِدِى
بِتُّ مِنْ تَفَجُّعِكُمْ ... كالأَسِيرِ فى الصَّفَدِ

وذُكر عن أبى الحسين النورى رحمه الله: أنه اجتمع مع جماعة من المشايخ فى دعوة، فجرى بينهم مسألة فى العلم، وأبو الحسين النورى رحمه الله ساكت، قال: ثمَّ رفع رأسه فأنشدهم هذه الأبيات:

رُبَّ وَرْقَاءَ هَتُوف فى الضُّحَى ... ذات شَجْو صَدَحَتْ فى فَنَنِ
فَبُكَائى رُبَّمَا أَرَّقَهَا ... وبُكَاها رُبَّمَا أَرَّقَنى
هىَ إنْ تَشْكو فَلا أَفْهَمُها ... وإذا أَشكو فَلا تَفْهَمُنى
غَيْرَ أَنى بالجوَى أَعْرِفُها ... وَهْىَ أَيْضًا بِالجوَى تعْرِفُنى

قال: فما بقى فى القوم أحد إلا قام وتواجد لما أنشد النورى هذه الأبيات:

وقال بعض الصوفية: هو ذى أشتهى منذ سنين أن أسمع كلمة فى المحبة من رجل واحد يتكلم بها عن وجده.

ويقال: إن أبا سعيد الخراز رحمه الله: كـان كثير التواجد عند ذكر الموت فسئل عن ذلك الْجَنْيـد رحمه الله فقال: العارف قد أيقن أن الله لم يفـعل شيئًا من المكاره بغـضًا له ولا عقـوبةً، ويشاهد فى صنائع الله تعالـى الحالة به من المكاره صفو المـحبة بينه وبين الله عز وجل: وإنمـا يُنزل به هذه النوازل ليرد روحَهُ اليه اصطـفاءً له واصطناعا له، فإذا كـوشف العارف بهذا وما أشـبهه لم يكن بعجب أن تطير روحه إليه اشتياقًـا، وتنقلب من وطنها اشتياقًا، فلذلك ما رأيت من التـواجد عند ذكـر الموت، وربَّماَ أتى ذلـك على قرب مُنْيـته؛ والله يفعل بوليه ما يشاء وما يُحِب.

وسئل بعض المـشايخ عن الفـرق بين الوجود والتـواجد فقـال: الوجود بوادى الغيبـة وإرسالات الحقيـقة، والتواجد داخل فى الاكـتساب، راجع إلى أوصاف العبد من حيث العبد.

والذى كـره الوجد، لمـشـاهدة علة فى الذى يتـواجد، عن أبى عـثمـان الحيـرى الواعظ حُكى عنه أنه رأى رجلا قد تواجـد فقال له: إن كنت صـادقًا فقد أظهرتَ كتمانه وإن كنت كـاذبًا فقد أشركت، والله أعلم بمقصده من ذاك، ويُشَبَّهُ أنه أراد بذلك شفقة عليه، وحذرًا من الفتنة والآفة، والله أعلم.

باب فى قوة سلطان الوجد وهيجانه وغلباته

قال: أخبرنى جعفر بن محمد الخُلدى رحمه الله فيما قرأت عليه قال: سمعت الجنيد رحمه الله يقول: قال: ذُكر يومًا عند سَرى السقَطى رحمه الله تعالى المواجيد الحادة فى الأذكار القوية وما جانس هذا مما يقوى على العبد فقال سرى رحمه الله وقد سألته فيه فقال: نَعَمْ يُضْرَب وجهه بالسيف وهو لا يحسه.

قال أبو القاسم رحمه الله: كان عندى فى ذلك الوقت أن هذا لا يكون، فراجعته أنا فى ذلك الوقت فقلت له: يضرب بالسيف ولا يحس؟ إنكارًا منى لذلك! فقال: نعم، يضرب بالسيف ولا يحس، وأقام على ذلك.

وعن الجنيد رحمه الله أنه كان يقول: إذا قوى الوجد يكون أتم ممن يستأثر العلم، وذكر عنه أيضًا أنه قال: لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم، وفضل العلم أتم من فضل الوجد وقد ذكر عنه جعفر الخُلْدى رحمه الله أنه قال: الحملان فى الوجد بعد الغلبة أتمُّ من حال الغلبة فى الوجد، والغلبة فى الوجد أتمُّ من المحمول قَبْلَ الغلبة، فقيل له: كيف نزلْتَ هذا التنزيل؟ فقال: المحمول عن حال غلبته بالحمل بعد القهر أتمُّ، والمغلوب بعد حُمْلاَنِه عن نفسه وشاهده أتمُّ.

قال الشيخ رحمه الله، وبيان ما قل والله أعلم: أن من يكون محمولا يعنى ساكنًا بعد غلبات الوجود وقوة الوارد يكون أتم فى معناه ممن يغلبه حتى يظهر على ظاهر صفاته، والغلبة لسلطان الوجد من قوة الوارد عليه والمصادفة لقلبه تكون أتمَّ من حال الساكن الذى لا يقدح فيه القادح ولا ينجع فيه الوارد.

سمعت ابن سالم يقول عن أبيه: أن سهل بن عبد الله كان يقوى عليه الوجد حتى يبقى خمسة وعشرين يومًا أو أربعة وعشرين يومًا لا يأكل فيه طعامًا، وكان يعرق عند البرد الشديد فى الشتاء وعليه قميص واحد، وكانوا إذا سألوه عن شىء من العلم يقول: لا تسألونى فإنكم لا تنتفعون فى هذا الوقت بكلامى.

سمعت أبا عمرو بن علوان يقول: سمعت الجنيد رحمه الله يقول: الشبلى رحمه الله سكران ولو أفاق من سكره لجاء منه إمام يُنْتَفَع به.

وحُكى عن الجنيد رحمه الله إنه كان يقول: ذكرت المحبة بين يدى سَرى السقَطى رحمه الله فضرب يده على جلْد ذراعه فمدها ثم قال: لو قلتُ إنما جف هذا على هذا من المحبة لصدقتُ قال: ثم أغمى عليه حتى غاب، ثم تورَّد وجهه حتى صار مثل دارة القمر فما استطعنا أن ننظر إليه من حُسنه حتى غطينا وجهه.

وقال عمرو بن عثمان المكى رحمه الله: الذى يحل بالقلوب من الامتلاء والوجد حتى لم يبق فيه فضل لوجود حال كان يعرفها قبل ذلك، إنما هى زيادة للنفوس فى معرفتها؛ لعظم قدر الحق وقدر ما يستحق حتى يتبين لها عن الحال التى يكون هو منفردًا بها عن كل شىء حتى لا تجد غيره، فعند ذلك انقطع عنها حس كل محسوس، وإنما أدركت انقطاعه عن المحسوسات بما أوقعه الحق عليه منه فلم يكن فيه فضلٌ لغيره.

وعن أبى عثمان المزين رحمه الله أنه كان يقول:

فَسُكْرُ الوَجْدِ فى مَعْنَاهُ صَحْوٌ ... وَصَحْوُ الوَجْدِ سُكْرٌ فى الوِصَالِ

باب فى الواجد الساكن والواجد المتحرك أيهما أتم؟

قال الشيخ رحمه الله: قال أبو سعيد بن الأعرابى رحمه الله فى كتابه فى الوجد إن سائلا سأل فقال: أيما أفضلُ وأتم، الحركة فى الوجد أم السكون فيه؟ وقد قال قوم: إن السكون والتمكن أفضلُ وأعلى من الحركة والانزعاج، قال أبو سعيد: فالجواب فى ذلك والله أعلم: إن الواردات من الأذكار، منها ما يوجب السكون، فالسكون فيها أفضل من الحركة، ومنها ما يوجب الحركة، فالحركة فيها أتم: إذ حُكمها القهر لأهلها، فإذا لم يَقُمْ بهذا القهر كان الوارد ضعيفًا فى وروده، ولو ورد بحقيقته لأوجب ضرورة الحركة والواردات من العلوم والأذكار الكائن عنها الوجد والاستهتار على القلوب فيشاهدها.

ورأيت جماعة يفضلون أهل السكون لكبر عقولهم وقوتها وإشرافها على ما ورد عليها وتمكنها فيه، وهذا لَعَمْرى كذلك، ولكن ربما ورد ما لا يلاوم[1] العقول المخلوقة فيكون نوره أقوى وبرهانه أقوى فيقوم شاهده منه ويعجز العقل عن إدراكه فيكون الوارد أقوى من العقل، فحكم هذه الحركة أتمُّ.

قال أبو سعيد: ومن الواردات ما يكون للعقل ملاومًا[2] فيدركه ويساكنه فلا يظهر مع ذلك حركة لتمكن العقل، لأنه يشير إليه بما قد عرفه، فمن شرَّف أهلَ السكون بقوَّة إنما شرفهم بفضل عقولهم وشدة تمكنهم ومن فضل المتحركين فضلهم بقوة الوارد من الذكر الذى ينخنس دون فهم العقل، فكان أفضل لفضل الوارد، وإذا كان العقلان مستويَيْن ـ ليس أحدهما أفضل ـ فالساكن أتمُّ، وهذا ما لا أحسُبُه يكون: أن يستوى رجلان أو عقلان أو واردان، وقد أَبَى

(١) لا يلاوم: أى، لا يلائم

(٢) فى نسخة: ملازما.

ذلك أهل العـلم، وإذا بطل التساوى رَجَعْنا إلى مـا قلنا فى أول المسألة: أن لا معنى لتفضيل الساكن على المتحرِّك، ولا المتحرك على السـاكن؛ لاختلاف الحـال الواردة التى توجب الحـركـة، والـحـال التى توجب السكون؛ لأن الواجدين لا يستوون فـيما كوشفوا به ولا ما شاهدوه من حالـة الذكر الموجبة إحدى الحـالَيْن من الحركة والسكون، وفى الواردات الـتى توجب السكون ما هو أعلى من الواردات التى توجب الحركة، وفى الواردات التى توجب الحركة ما هو أفضل من الواردات التى توجب السكون، فليس الفـضل ها هنا بالحركة ولا بالسكون حتى تعـلم الحال الواردة على المتـحركين وعلى السـاكنين، فإن كانت الحال توجب سكونًا فلم تُسكن صاحبها فهو ناقصٌ عن غيره، وإن كانت توجب حركـةً فلم تُحَرِّكه دلَّ ذلك على نقص وارده، والمـشاهدات الواردات على قدر صفاء القلوب، وتخليها عن الحجُب المانعة لإدراك الواردات.

فهذه صفة الأذكار لأهل الأحوال وقيامهم بها من حيث ما يوجبه العلم.

فـأما أهل الغلبـات والسُّكر فلا يـجوز عليـهم شىء من هذا الكلام، والله أعلم.

باب جامع مختصر من كتاب الوجد الذى ألفه

أبو سعيد بن الأعرابى رحمه الله

قال أبو سعيد بن الأعرابى: الوجد ما يكون عند ذِكْر مُزْعِجٍ، أو خوف مُقْلقٍ، أو توبيخ على زلة، أو محادثة بلطيفة، أو إشارة إلى فائدة، أو شوق إلى غائب، أو أسف على فائت، أو ندم على ماضٍ، أو استجلاب إلى حال، أو داعٍ إلى واجب، أو مناجاة بسر، وهى مقابلة الظاهر بالظاهر والباطن بالباطن والغيب بالغيب والسر بالسر، واستخراج ما لك بما عليك مما سبق لك؛ لتسعى فيه فيُكْتَبَ لك بعد كونه منك، فيثبت لك قَدَمٌ بلا قدم وذِكر بلا ذكر، إذ كان هو المبتدىء بالنِعمَ والمتولى لها، ومُلهم الشكر عليها، والمضيف إليك كسبها، فيثبت لك بها درجة عاجلة، وإليه يرجع الأمر كله، فهذا جُملةً ظاهرُ علم الوجود.

وقال أبو سعيد رحمه الله: الوجد مباشرة رَوْح ومطالعة مزيد، لا يُصْبَرُ عن قليله ولا يُقْدَرُ على كثيره، التخييل منه متدارك، والاستحثاث منه إليه متواتر، فلذلك يقع اللهف وربما كان دونه التلف، فأما البكاء والشهيق فلقُرْبه ما يزداد إذ كان لم يُعْرَف قَبْلَ وروده ولا أُنْسَ به مع سرعة تقضِّيه مع وقوعه،

حتى كأنهما جميعًا معًا، فلم يتم الاستبشار بوروده حتى لحق الأسف على تقضيه، والرعدةُ والغشية وزوال الأعضاء والغلبة على العقل فلِعظَم قدر الوارد وقوة سطوته، وكذلك كل وارد مستغرب أو مُفزع مهول، ففى سرعة وروده مع سرعة تقضِّيه حكمةٌ بالغة ونعمة ظاهرة، ولولا أنه أمسك أولياءه وألقى على كل قلب من ذلك ما أطاقه لطاشت عقولهم وذهلت نفوسهم، ولكن لا حال معلومة ومناهل موردة، وذلك لا يدوم لحظةً أو طرفةَ عين: رِفْقًا منه بأوليائه حتى يُنْسيهم فيما أراد كما يريد.

وقـال: الوجد فى الدنيـا فليس بكشف ولكن مـشـاهدة قلبٍ وتوهم حق وظن يقين، فـيشاهد من رَوْح اليـقين وصفاء الذكـر لأنه منتبهٌ، فـإذا أفاق من غَمْـرته فَقَدَ مـا وجد، وبقى عليـه عِلْمُهُ، فتـمتع بذلك رُوحـه مع ما زيد من اليقين بالمكاشفة، وهذا من العبد على حسب قُرْبه وبُعْده، وعلى ما يشهده من ذلك خالقُهُ.

ومنهم من ثبت فى وجـده وشـاهد من ذلك بتمكـينه، فوصف بعضَ مـا شاهده، فيكـون ذلك حُجةً على غيرهـم، ولولا ذلك ما خَبَّروا به توقِّـيًا عليه وصيانةً له وإشفاقًا أن يضعوه غيـر موضعه فيُسْلَبوه، وربما وقع بهم الوجد من المسـموع قَبْلَ تدبره، ومن المنظور إلـيه قبل الفكر فـيه، ولا يأمنون أن يكون ذلك من الطبع واستحـسان النفس مع ما يجدون فيه من الرقـة ويشهدون بعده من الزيادة فيلتبس عليـهم تمييز الحق من الباطل، ولا يجب لمن يدعـى معرفة خالقـه أن يسكن إلى سواه أو يشـغل خاطره بناقص أو يقع وهمـه على زائل، وهذا وإن كان مـشكلاً عليه لتـشابهه، فـإنه عند أهل النظر والتحـصيل ممـيَّز بالتفضـيل، إذ ليس ما تلقته القلوب بمـشاهدتها كما توهمـته بظنونها، ولا من كان متـروكًا مُهْملاً كـمن كان محفوظًا، ولا مـا أستُجلب كونه كـما فاض عن معـدنه، ولا ما نتج عن الفكر كمـا رشح عن الذكر، وربمـا يختلط ذلك على أهل التـميـز لعـلةٍ وينكشف لهم بعـد زوال العلة لأن المتـمـيِّـز بالفكر ليس كالمستهتر بالذكر ولا المتخيـر المختار كمن غلب عليه الوجد والاستهتار وليس هذا صفة كل واجـد لاختلاف أحوالهم، فـمنهم من وجْده عن العلم، ومنهم من وجْده بالعلم، ومنهم من وجْده علمٌ.

فـأما الوجـد الذى يكون لأهل الثبـات من السكون عن الحـركة والمنَعـة بالخلوة لأن الأنس أفناهم عن الوحـشة والقُرْب عن رؤية المـسافة، فـربما بدا لهم بادٍ فيتغالون فى وجودهم، وربما ردهم إلى صفاتهم بُقْيا عليهم لما افتُطروا عليه من الحاجـة إلى الغذاء والنساء فيحـشمهم ذلك من رؤيتهم ذلك انزعـاجًا

يظنونها لعلة وقد خافوه زمانًا فيلحقهم عند ذلك الوله لطلب ما فقدوه فيحملهم على الاقتحام على كل ما توهموه أنه يوصلهم، غلبت رؤيتهم التمييز، فبادروا مسرعين، كلما رأوا سرابًا ظنوه ماءً، وكلما رأوا ماء ظنوه سرابًا لغلبة الطمع، فهم على وجوههم ذاهبون فى كل وادٍ يهيمون ولكل بارق يتبعون، سبق سَيلهم مَطَرَهم وذِكرُهم فكرَهم، إلى كلِّ سبب يُسْلمون، وعليه لا يعولون، والطمع يُطمح أبصارهم، واليأس يزجرهم، فلا يأسهم يدوم فينصرفوا ولا طمعهم يصح فيأتلفوا، أَشْبَهَ شيْءٍ بالمجانين، قد سمحت أنفُسُهم بتلف مُهجتهم عند ما يطلبون، لو توهموه فى تيه سلكوه، أو وراء بحر سبحوه أو وراء نار تأججُ اقتحموها كالفَراش إذا رأى ضوءَ النار لا يقصر عن تقحمها، أوَ ما رأيتهم مشرِّدين مهيمين بالمفاوز والمهالك والقفار، لا يأوون ولا يُؤون؟ إلا أنهم فى ذلك محفوظون من الزلل بِصدقهم فى قصدهم، فهم من العلم على سَنَن.

وأما من فارق العلوم الظاهرة فغير مأمون عليه الزلل، ومن سلك غير المحجة كان من السلامة على خَطَر.

وكلما ذكرنا من علوم الوجد ظاهراً وما لحقته العبارة أوْ مَينا[1] إليه بالإشارة أو بدليل قام عليه أو مثال قاربه، فأما ما كان غير ذلك فإنه علمه منه، وشاهده فيه، وحقيقته كونه، ووصفه ذوقه، لأن حجج الله تعالى على عبادة باهرة، وأهله غير محتاجين إلى علمها، لقيام الشاهد فيها، وانتقاء كل وصف عنها، لأنها مما تولى الله كونها، وانفراد بعلم كُنْهها، ومتَّع أهل الإيمان بها، لما كاشفهم فيها، فلم يبحثوا عما وراء ذلك لغناهم بها عن غيرها، لأن ما أبدى لهم منه فهم له مشاهدون ظاهراً وفيه مقيمون باطنًا، وهو الغيب الذى وصف الله [به] المؤمنين فقال: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾[2]، فهم فى غيبه مغيَّبون، وهو وإن كان غيبًا، لا يلحقهم فى ذلك شك ولا رَيْب.

(١) أومينا: أى، أومأنا.

(٢) البقرة: ٢

فإن سأل سائل عن الزيادة فى وصف الوجد فهيهات دون ذلك! فكيف يوصف من ليس له صفة غيره ولا يقام عليه شاهدٌ غيره؟ فهو شاهدُ نفسه، وحقيقته كونه، يعرفه من وجده وينكره من لم يعرفه، ويعجز الجميع، من عرفه ومن لم يعرفه، فهو بالذوق محسوس وصاحبه بالمراد مكاشف، وهو عزيز موجود منيع مفقود محتجب بأنواره عن نوره، وبصفاته عن إدراكه، وبأسمائه عن ذاته: أعنى ذات الوجد واليقين والإيمان والحقائق وكذلك المحبة والشوق والقرب، كل ذلك يَدقُّ وصفه ولا يُدْركُ كنْهُهُ إلا من ذاقه وتفضل عليه بارئه به فيخيَّلون فيه ولا يصفونه ولا يدركونه، يلبسهم إلباسًا ويُذهب عنه الوحشة إيناسًا، فكلما ازدادوا من صفته وصفًا كانوا من حقيقته أشد بُعْدًا فخرسهم فيه أبلغُ من النطق، فلن يعرف أهله منه إلا ما عُرفوه، واعترافهم بالتقصير فيها نهاية العلم بها، فنطقهم عىٌّ، وعيُّهم بلاغة ولُكْنَتُهُمْ فصاحةٌ.

فالسائل عن طعمه وذوقه يسال عن محال لأن الطعم والذوق لا يدرك بالوصف دون التطعم والتذوق والسائل عن كنهه فسؤاله دليلٌ على جهله به، ولا سبيل للعالم إلى جواب كل سائل، إذ كان بعضهم يسأل عما له وبعضهم يسأل عما عليه، فقد أخذ الله على العلماء أن لا يكتموا العلم أهله كما أخذ الله على العلماء أن يصونوه عن غير أهله، وقد قلنا إن أهله غير مرتابين فيسألوا، ولا شاكين فيتعرفوا، وبالله التوفيق.

ولما كانت هذه الأحوال ليس لها نهاية كان الكلام فيها ليس له نهاية، فقطعناه فلو وصلناه لا تَّصل إلى ما لا نهاية له، لأنها ازديادات فى المعارف وليست من كسب الآدميين بل هى داخلة فى قوله عز وجل: ﴿وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾[1] فهذا بعض عطاياه المعمومة[2]، لا نهاية لها، ولا يُبْلَغُ وصفُها فكيف باختصاصه أولياءه

(1) ق: ٣٥ ونص الآية: ﴿لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾.

(2) فى نسخة: المغموضة.

بما يُورد عليهم فى كلِّ وقت وزمـان وطرفة عين؟ وأقَلَّ من ذلك من الأحوال التى هى مذكـورةٌ عندنا علماء بفضله مـعلومةٌ ﴿لاَيَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾[1]، وهذه وإن كانت ليست باكتساب الآدميين، وإنما هى خصوص وبعضها مواريث الأعمال، فالطالب من عند الله المزيد، قد أحكم الأصل الذى يوجب المزيد، فمن فرَّط فيه فليس بمأمـون عليه أن يُسْلَبَ الأصل الذى معه، إذ لم يَرْعَهُ حق رعايتـه، لأن التوقف مع النفوس يقطع الهجـوم، والهجوم مع مفـارقة العلوم خطأٌ بَيِّنٌ، فإذا قـويت الرغبة عن التوقف فـالهجوم ربما أوصل، فـأمَّا من كان مطالبًا بأصلٍ فخطأٌ تخطيه إلى الـفرع قَبْلَ إحكام الأصل، لا يؤمن عليه الزلل، وبالله التوفيق.

فهذا ما اختصرته من كتاب الوجد لابن الأعرابى، وبالله التوفيق.

(١) سبأ: ٣.

كتاب إثبات الآيات والكرامات

باب في معاني الآيات والكرامات وذكر من كان له شيء من ذلك

قال الشيخ رحمه الله: حُكي عن سهل بن عبد الله رحمه الله أنه قال: الآيات لله، والمعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء ولخيار المسلمين.

وحُكي عن سهل بن عبد الله رحمه الله أنه كان يقول: من زهد في الدنيا أربعين يومًا صادقًا مخلصًا في ذلك تظهر له الكرامات من الله عز وجل، ومن لم يظهر له ذلك فلما عدم في زهده من الصدق والإخلاص، أو كلامًا نحو ذلك.

وعن الجنيد رحمه الله أنه قال: من يتكلم في الكرامات ولا يكون له من ذلك شيء مَثَله مثلُ من يمضغ التبن، قيل لسهل رحمه الله في الحكاية التي قبل هذه فيمن زهد في الدنيا أربعين يومًا: كيف يكون ذلك؟ فقال: يأخذ ما يشاء من حيث يشاء.

وسمعت ابن سالم يقول: الإيمان أربعة أركان: ركنٌ منه الإيمان بالقدر، وركن منه الإيمان بالقدرة، وركنٌ منه التبرِّي من الحول والقوَّة، وركنٌ منه الاستعانة بالله عزَّ وجلَّ في جميع الأشياء.

وسمعت ابن سالم رحمه الله وقيل له: ما معنى قولك الإيمان بالقدرة؟ فقال: هو أن تؤمن ـ ولا ينكر قلبك ـ بأن يكون له عبدٌ بالمشرق ويكون من كرامة الله تعالى له أن يعطيه من القدرة وما يتقلب من يمينه على يساره فيكون بالمغرب، يعني تؤمن بجواز ذلك وكونه.

والصحيح عن سهل بن عبد الله أنه كان يقول لشاب كان يصحبه: إن كنتَ تخاف من السبُع بعد ذلك فلا تصحبنى.

ودخلتُ مع جماعة بتُستَرَ قصر سهل بن عبد الله رحمه الله، فدخلنا فى القصر بيتًا كان الناس يسمونه بيت السبُع فسألناهم عن ذلك فقالوا: كانت تجىء السباع إلى سهل بن عبد الله رحمه الله فكان يُدخلها هذا البيت ويضيفها ويُطعمها اللحم ثم يخليها، والله أعلم بذلك، وما رأيت أحدًا من صالحى أهل تسْترَ ينكر ذلك.

وسمعت أبا الحسين البصرى رحمه الله يقول: كان بعبادان رجل أسود فقير يأوى الخرابات، فحملتُ معى شيئًا وطلبته، فلما وقعت عينه علىَّ تبسم وأشار بيده إلى الأرض، فرأيت، يعنى الأرض كلها ذهبًا تلمعُ ثم قال لى: هات ما معك، فناولته ما كان معى، وهربت منه، وهالنى أمرُهُ.

وسمعت الحسين بن أحمد الرازى رحمه الله يقول: سمعت أبا سليمان الخواص رحمه الله يقول: كنت راكبًا حمارًا لى يومًا، وكان يؤذيه الذباب فيطأطىء رأسهُ فكنت أضرب رأسه بخشبة كانت فى يدى، فرفع الحمار رأسه إلىَّ وقال: اضربْ فإنك هو ذا تضرب على رأسك، فقال أبو عبد الله: فقلت لأبى سليمان: يا أبا سليمان وقع لك ذلك أو سمعته؟ فقال: سمعته يقول كما تسمعنى.

وسمعت أحمد بن عطاء الروذبارى يقول: كان لى مذهبٌ فى أمر الطهارة فكنت ليلة من الليالى أستنجى - أو قال كنت أتوضأ - إلى أن مضى من الليل رُبعه ولم يطب قلبى فضجرت، وبكيت، وقلت: يارب العفو، فسمعت صوتًا ولم أر أحدًا يقول: يا أبا عبد الله العفو فى العلم، وكان عند جعفر الخلدى رحمه الله فصٌّ، وكان يومًا من الأيام راكبًا فى سمارية فى الدجلة، فأراد أن يعطى الملاح قطعته، فحل الشُّسْتكة، وكان الفص فيها، فوقع الفص فى الدجلة، وكان عنده دعاء للضالة مجرَّبٌ فكان يدعو به فوجد الفص فى وسط أوراق كان يصفحها، والدعاء اللهم يا جامع الناس لِيَوْم لا رَيْب فيه اجمع علىَّ ضالتى، قال:

ثم أَوْرانى أبو الطيب العكّى جُـزءً قد جـمع ذِكْرَ كل ضالـة رد الله إلى من دعا بهذا الدعاء فى مدة قليلة، فنظرتُ فيه وكان أوراقًا كثيرة.

وسمعت حمزة بن عبد الله العَلَوى يقول: دخلت على أبى الخير التيناتى وكنت قد اعتـقدت فى سرِّى فيما بينى وبين الله تعـالى أن أسلم عليه وأخرج، ولا أتناول عنده طعامًـا، ثم دخلت فسلمت عليه وودعتـه وخرجت من عنده، فلما تبـاعدت من القرية فإذا به وقـد حمل معـه طعامًا فقـال لى: يا فتى، كل هذا، فقد خرجتَ الساعة من اعتقادك، أو كلامًا هذا معناه.

وهؤلاء القوم مشهورون بالصدق والديانة، وكل واحد منهم إمام مُشار إليه فى ناحيتـه، ومقتدى به فى أحكام الديـن، فقد صدقهم المـسلمون فى أحكام دينهم، وقبلوا شهادتهم على رسول الله ﷺ فيما رووا عنه وأسندوا إليه من الأخبـار والآثار، ولا يجوز أن يكذبهـم أحدٌ ويتهـمهم فى هذه الحكـايات وما يشبه ذلك، وإذا كانوا صادقين فى واحد، ففى الجميع كذلك، وبالله التوفيق.

باب فى حجة من أنكر كون ذلك من أهل الظاهر والحجة عليهم فى جواز ذلك للأولياء والفرق بينهم وبين الأنبياء عليه السلام فى ذلك

قال الشيخ رحمه الله: قال أهل الظاهر: لا يجوز كون هذه الكرامات لغير الأنبياء عليهم السلام لأن الأنبياء مخصوصون بذلك، والآيات والمُعْجزات والكرامات واحدة، وإنما سُميت معجزات لإعجاز الخلق عن الإتيان بمثلها، فمن أثبت من ذلك شيئًا لغير الأنبياء عليهم السلام فقد ساوى بينهم ولم يفرق بين الأنبياء وبينهم.

قال الشيخ رحمه الله: من أنكر ذلك فإنما أنكرها احترازًا من أن يقع وهنٌ فى معجزات الأنبياء عليهم السلام، وقد غلط قائل هذا القول لأن بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام فى ذلك فرقًا من جهات شتى:

فوجهٌ منها أن الأنبياء عليهم السلام مستعبدون بإظهار ذلك للخلق، والاحتجاج بها على من يدعونها إلى الله تعالى، فمتى ما كتموا ذلك فقد خالفوا الله تعالى فى كتمانها، والأولياء مستعبدون بكتمان ذلك عن الخلق، وإذا أظهروا من ذلك شيئًا للخلق لاتخاذ الجاه عندهم فقد خالفوا الله وعصَوْه بإظهار ذلك.

والوجه الآخر فى الفرق بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام: أن الأنبياء عليهم السلام يحتجون بمعجزاتهم على المشركين لأن قلوبهم قاسية لايؤمنون بالله عز وجل والأولياء يحتجون بذلك على نفوسهم حتى تطمئن وتُوقن ولا تضطرب ولا تجزع عند فوت الرزق لأنها أمَّارةٌ بالسوء، جاحدة مشركة، مجبولة على الشك، ليس عندها يقين بما ضمن لها خالقها من الرزق وذِكْر القَسْمْ عليها.

وقد سألت ابن سالم عن ذلك فقلت له: ما معنى الكرامات وهم قد أُكرموا حتى تركوا الدنيا اختيارًا؟ فكيف أُكرموا بأن يجعل لهم الحجارة ذهبًا، فما وجه

ذلك؟ فقال: لا يعطيهم ذلك لقدرها، ولكن يعطيهم ذلك حتى يحتجوا بكون ذلك على أنفسهم عند اضطربها وجزعها من فوت الرزق الذى قسم الله لهم فيقولوا الذى يقدر على أن تصير لك الحجارة ذهبًا كما هو ذا تنظر إليه، أليس بقادرٍ أن يسوق رزقك إليك من حيث لا تحسبه؟ فيحتجوا بذلك على ضجيج نفوسهم عند فوت الرزق، ويقطعوا بذلك حُجَجَ أنفسهم، فيكون ذلك سببًا لرياضة نفوسهم وتأديبًا لها.

وقد حكى لنا ابن سالم فى معنى ذلك حكايةً عن سهل بن عبد الله رحمه الله أنه قال: كان رجل بالبصرة يقال له إسحاق بن أحمد، وكان من أبناء الدنيا، فخرج من الدنيا - أعنى من جميع ما كان له - وتاب، وصحب سهلاً رحمه الله فقال يومًا لسهل رحمه الله: يا أبا محمد، إنَّ نفسى هذه ليس تترك الضجيج والصراخ من خوف فوت القُوت والقوام، فقال له سهل رحمه الله: خُذْ ذلك الحجر وسلْ ربَّك أن يصيِّره لك طعامًا تأكله، فقال له: ومن إمامى فى ذلك حتى أفعل ذلك، فقال سهل: إمامك إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحيِى الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾(1).

فالمعنى فى ذلك أن النفس لا تطمئن إلا برؤية العين لأن من جبلتها الشك، فقال إبراهيم عليه السلام: أَرِنى كَيْفَ تطمئن نفسى، فإنى مؤمن بذلك، والنفس لا تطمئن إلا برؤية العين

فكذلك الأولياء يُظهر الله تعالى لهم الكرامات تأديبًا لنفوسهم، وتهذيبًا لها، وزيادةً لهم، ويكون فى ذلك فرقٌ بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام،

(1) البقرة: ٢٦٠.

لأنهم يُعْطَوْن المعجزة للاحتجاج بها فى الدعوة، والدلالة على الله تعالى، والإقرار بوحدانيته تعالى.

والوجه الثالث: فى الفرق بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام لأن الأنبياء كلما زيدت معجزاتهم، وكثرت، يكون أتمَّ لمعانيهم وأَثْبَتَ لقلوبهم كما كان نبيُّنا ﷺ قد أُعطى جميع ما أُعطى الأنبياء عليهم السلام من المعجزات ثم زيادة أشياء لم يُعْطَ أحدٌ غيره مثل: المعراج، وانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه.

وشرح ذلك يطول، ومقصودنا من ذلك أن الأنبياء عليهم السلام كلما زيدت لهم من المعجزات يكون أتمَّ لمعانيهم وفَضْلهم، وهؤلاء الذين لهم الكرامات من الأولياء كلما زيدت فى كراماتهم يكون وَجَلُهم أكثرَ، وخوفهم أكثرَ حذرًا أن يكون ذلك من المكر الخفى لهم والاستدراج، وأن يكون ذلك نصيبهم من الله عز وجل، وسببًا لسقوط منزلتهم عند الله عز وجل.

باب فى الأدلة على إثبات الكرامات للأولياء، وعلة قول من قال لا يكون ذلك إلا للأنبياء عليهم السلام

قال الشيخ رحمه الله: والدليل على جواز ذلك، الكتاب والأثر، قال الله تعالى ﴿وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾(1) ومريم لم تكن نبية.

وحديث النبى ﷺ [١٧٠] فى قصة جُرَيج الراهب، وكلام الصبى، وجريج لم يكن نبيًا.

وقال النبى ﷺ فى قصة الغار [١٧١] : بينا ثلاثة يمشون إذْ آواهم الليل إلى غار، الحديث، وما روى عنه ﷺ [١٧٢] بينا رجل يمشى ومعه بقرة فركبها فقالت: يا عبد الله ما خُلقنا لهذا إنما خلقنا للحرث فقال القوم: سبحان الله فقال النبى ﷺ : آمنت به أنا وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما وليس هما فى القوم، ولم يذكر أن الراكب للبقرة كان نبيًا وكذلك حديث الذئب الذى كلم الراعى ولم يُذكر أنه كان نبيًا.

وقد رُوى عن النبى ﷺ أنه قال [١٧٣] : «إن فى أمتى مكلمون ومحدَّثون وإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه منهم» والمكلم والمحدث أتمّ فى معناه من جميع الكرامات التى ذكر الله عز وجل على البدلاء والأولياء والصالحين، وحديث عمر رضي الله عنه أنه قال فى خطبته [١٧٤]: «يا ساريةُ الجبلَ» فسمع صوتَهُ بالعسكر على باب نهاوند.

وقد روى فى الحديث لعلى بن أبى طالب ولفاطمة رضي الله عنهما كرامات وإجابات كثيرة.

وقد رُوى عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ [١٧٥] فى مثل ذلك

---

(1) مريم: ٢٥.

أشياء مثل حديث أُسَيْد بن حُضير وعتاب بن بشير أنهما خرجا من عند رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة فأضاء لهما رأس عصا أحدهما كالسراج، على حسب ما رُوى فى الخبر.

وحديث أبى الدَّرداء وسلمان الفارسى رضي الله عنهما [١٧٦] أنه كان بينهما قصعة فسبحت حتى سمعا تسبيحها، وقصة العلاء بن الحضرمى [١٧٧] حيث بعثه رسول الله ﷺ [١٧٨] فى غزاة فحال بينهم وبين الموضع قطعة من البحر فدعا الله تعالى باسمه الأعظم ومشوا على الماء كما جاء فى الخبر، وكذلك دعاؤه لما استقبله السبع.

وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حين لقى الجماعة الذين وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع من طريقهم ثم قال: إنما يُسَلطُ على ابن آدم من يخافه ولو أن ابن آدم لم يخف شيئًا غير الله لم يسلط الله عليه شيئًا يخافه غيره، ومثله فى الأخبار كثير، والصحيح عن رسول الله ﷺ ما قال [١٧٩]: رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذى طِمرَين لو أقسم على الله لأبرَّ قسمَهُ وإن البراء ابن مالك منهم: ولا يكون فى الكرامات شىء أتم من أن يقسم العبد على الله تعالى فيبر قسمه وقد قال الله عز وجل ﴿أَدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُم﴾ ولم يقل فى شىء دون شىء.

وقد روى أيضًا لجماعة من التابعين بالأسانيد الصحيحة كرامات وإجابات يطول ذكرها إن ذكرنا بعضها فكيف كلها؟! وقد صنف العلماء فى ذكرها وروايتها عنهم مصنفات.

وقد روى أشياء فى الحديث من الكرامات كثيرة من ذاك لعامر بن عبد القيس وللحسن بن أبى الحسن البصرى ولمسلم بن يسار ولثابت البنانى ولصالح المرى ولبكر بن عبد الله المزنى ولأوَيس القَرَنِى ولهرم بن حيان ولأبى مسلم الخولانى ولصلة بن أشيم وللربيع بن خُثيم ولداود الطائى ولمطرِّف بن عبد الله بن الشخير ولسعيد بن المسيب

ولعطاء السُّلمى ولغيرهم من التابعين، قد رووا عن كل واحد من هؤلاء وغير هؤلاء كرامات كثيرة، وإجابات وأشياء قد ظهرت لهم، لا يتهيأ لأحد أن يدفع ذلك لصحتها عند أهل الرواية، وكذلك لطبقة أخرى بعدهم، مثل مالك بن دينار وفرْقد السخى وعُتبة الغلام وحبيب العجمى ومحمد بن واسع ورابعة العدوية وعبد الواحد بن زيد وأيوب السختيانى وغير ذلك ممن كان فى عصرهم، فإذا روى عنهم العلماء والأئمة الذين كانوا فى عصرهم وقد صح عنهم ذلك عندهم وقد حدَّثوا بها، مثل أيوب السختيانى وحماد بن زيد وسفيان الثورْى وغيرهم من الأئمة والثقات ولم ينكر ذلك واحد منهم، وهم أئمتنا فى الدين، وبرواياتهم صح عندنا علُم الحدود والأحكام وعلم الحلال والحرام، فكيف يجوز أن نصدقهم فى بعض ما يروون ولا نصدقهم فى بعض ذلك؟!.

وقد رأيت جماعة من أهل العلم جمعوا ما يشاكل هذا الذى ذكرنا من كرامات الأولياء والإجابات والذى ظهر لهم فى الوقت فى هذا المعنى، فذكروا أنهم قد جمعوا فى ذلك أكثر من ألف حكاية وألف خبر، فكيف يجوز أن يقال: ذلك كله كذب موضوع؟ وإن صح من الجميع واحد فقد صح الكل فإن القليل والكثير فى ذلك سواء، والذى يحتج بأن الذى كان قبل النبى ﷺ من ذلك كان إكراما لنبى ذلك الزمان الذى كان ذلك فى وقته والذى كان لأصحاب رسول الله ﷺ كان ذلك إكرامًا للنبى ﷺ فيقال له: فالذى كان أيضًا للتابعين ولمن بعدهم وما يكون من مثل ذلك إلى يوم القيامة من الكرامات فكل ذلك إكرامًا للنبى ﷺ لأنه أفضل الأنبياء عليه السلام وأمته خير الأمم.

وكما استحال أن يكون لنبى من الأنبياء عليهم السلام شىء من المعجزات إلا وقد كان للنبىِّ ﷺ من مثل ذلك أو أتمُّ من ذلك وأكثرُ، فكذلك يستحيل أن يكون فى الأمم السالفة لقوم منهم شىء من الكرامات

إكرامًا لأنبيائهم إلا ويكون فى أُمَّة محمد ﷺ أيضًا لطائفة منهم أكثرُ من ذلك إكرامًا لمحمد ﷺ مَعَ ما إن فى أُمَّة محمد ﷺ من لا يرى ذلك حالا ولا مرتبةً ولا كرامةً ويرى ذلك اختبارًا ومحنةً موضوعةً على طرق أصفيائه والمخصوصين من أوليائه، فهم يخشون من ذلك إذا ظهر لهم سقوط منزلتهم عند الله تعالى ونكوصهم على عقبهم ونزولهم عن درجتهم ولا يعدون مَنْ ركن إلى ذلك ورضى به حالا أنه من أهل الخصوص، ونحن نذكر فى ذلك بابًا نبين فيه ذلك إن شاء الله، وإنما أردنا بذكر ذلك جواز كونه وبطلان قول من زعم أن كون ذلك غير جائز فى الأمة.

باب فى ذكر مقامات أهل الخصوص فى الكرامات وذِكْر من ظهر له شىء من الكرامات فكره ذلك وخشى من الفتنة

قال الشيخ رحمه الله: ذُكر عند سهل بن عبد الله رحمه الله الكرامات فقال: وما الآيات وما الكرامات شىء تنقضى لوقتها، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خُلقًا مذمومًا من أخلاق نفسك بخلق محمود.

وعن أبى يزيد البسطامى رحمه الله أنه قال: كان فى بدايتى يرينى الحق الآيات والكرامات فلا أَلتفتُ إليها، فلما رآنى كذلك جعل لى إلى معرفته سبيلا.

وقيل لأبى يزيد رحمه الله: فلان يقال: إنه يمر فى ليلة إلى مكة فقال: الشيطان يمر فى لحظة من المشرق إلى المغرب وهو فى لعنة الله، وقيل له: إن فلانًا يمشى على الماء فقال: الحيتان فى الماء والطير فى الهواء أعجبُ من ذلك.

سمعت طَيْفور بن عيسى يقول: قال موسى بن عيسى قال أبى: قال أبو يزيد رحمه الله: لو أن رجلا بسط مصلاه على الماء وتربع فى الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه فى الأمر والنهى.

قال الجنيد رحمه الله: حجاب قلوب الخاصة المختصة برؤية النعم والتلذذ بالعطاء والسكون إلى الكرامات.

سمعت ابن سالم يقول: سمعت أبى يقول: كان رجلٌ يصحب سهل بن عبد الله رحمه الله يقال له عبد الرحمن بن أحمد فقال يومًا لسهل: يا أبا محمد، ربما أتوضأ للصلاة فيسيل الماء من يدى، فيصير قُضبان ذهب وفضّة، فقال له سهل: يا حبيبى أما علمتَ أن الصبيان إذا بكوا يُنَاوَلون خشخاشةً حتى يشتغلوا بها فانظرْ أَيْشَ هو ذا تعملُ.

وفيما حكاه جعفر الخلْدِى رحمه الله قال: حدَّثنى أبو بكر الكتَّانى قال: قال لى أبو الأزهر وغير واحد من إخواننا حكى عن أبى حمزة قال: اجتمعوا على باب يفتحونه فلم ينفتح لهم، قال أبو حمزة: تنحُّوا، فأخذ الغلق بيده فحرَّكه فقال: بكذا إلا فتحتَهُ، فانفتح الغلق.

وذُكر عن النورى رحمه الله أنه وافى ليلةً إلى الدجلة قال: فوجدتها وقد التزق الشط بالشط قال: فقلت: وعزَّتك لا عبرتُهَا إلا فى زَوْرق.

وحُكى عن أبى يزيد البسطامى رحمه الله أنه قال: دخل علىَّ أبو علىّ السِّنْدِى رحمه الله وكان أستاذه وكان معه جِرابٌ فصبه بين يدى فإذا هو ألوان الجواهر فقلت له، من أين لك هذا؟ قال: وافيتُ واديًا ها هنا فإذا هى تضئ كالسراج فحملتُ هذا منها قال فقلت له: كيف كان وقتك وقت ورودك الوادىَ؟ قال: كان وقتى وقت فترة عن الحال الذى كنت فيه قبل ذلك، وذكر الحكاية، والمعنى فى ذلك: أن فى وقت فترته شغلوه بالجواهر.

قال: أملى علينا أحمد بن على الوجيهى بالـرَّمْلة حكاية عن محمد بن يوسف البنّاء قال: كان أبو تراب النخشبى رحمه الله صاحب كرامات فسافرتُ معه سنة فاجتمع معنا أربعون رجلاً وكان يظهر لهم من الإرفاق ما شاء الله قال: ثم دلهم أبو تراب رحمه الله على الطريق وعدلنا فلم يبق معنا إلا شابٌّ نحيل فقال أبو تراب: ليس فيهم أقوى إيمانًا من هذا قال: فسِرْنا أيامًا واحتجنا إلى طعام نأكله، قال: فعدل أبو تراب عن الطريق ساعة ثمَّ جاء ومعه عِذْقٌ من المَوْز، فوضع بين أيدينا ونحن فى وسط الرمال، قال: فجهد أبو تراب بهذا الفتى أن يأكل من ذلك الموز فلم يأكل، فقلنا لهُ: لِمَ لا تأكل؟ فقال: الحال الذى أعتقده فيما بينى وبين الله تعالى تَرْكُ المعلومات وأنت قد صرتَ معلومى، فلا أصحبك من بعد ذلك، قال محمد بن يوسف: قلتُ لأبى تراب رحمه الله: إن شئتَ أعْزِمْ عليه، وإن

شئتَ أترُكْـهُ، فقال له أبو تراب: كـنْ مع ما وقع لك من ذلك، أو كما قال، والله أعلم.

سمعتُ ابن سالم يقول: لما مات إسحاق بن أحمد دخل سهل بن عبد الله صومعتـه فوجد فيها سَـفَطًا فيه قارورتان، في واحدة منهمـا شيء أحمر، وفي الأخرى شيء أصـفر، ووجد شوشـقة ذهب وشوشقـة فضة، قال: فـأمر أبى حتى رمى بالشوشقتين في الدجلة وخلط ما في القارورتين بالتراب، وكان على إسحاق بن أحمد دَيْنٌ، قال ابن سـالم: قال أبى: قلتُ لسهل رحمه الله: أيْشَ كـان الذى في القـارورتين؟ قال: أمـا الأحـمر فـلو طُرح وزن درهم منه على مثـاقيل من النحـاس لصار ذهبًـا، وأما الأصفـر فلو طرح وزن درهم منه على مثاقيل من النحاس لصار فضة، والشوشقتان كانت تجربة قال: فقلت له: أيش منعـه من أن يعمل ذلك ويؤدى دَيْنه؟ قـال: خاف على إيمـانه، قلت أنا لابن سالم: فلو أدى من ذلك دينه سـهلُ بن عبد الله رحـمه الله ألم يكن أوْلى من إفساده؟ فقال ابن سالم: كان سـهل رحمه الله أخْوَفَ على إيمان نفسه منه، ثم قال: منعه من ذلك الوَرَعُ، لأن ذلك يتغير بعد سبعين سنة.

وذكر عن أبى حـفص أو عن غيره أنه كان جـالسًا وحَوْلَهُ أصحـابه، قال: فنزل ظبيٌ من الجبل وبرك عنـدهم، قال: فبكى أبو حفص أو الشـيخ وسيَّب ذلك الظبى فسـئل عن بكائه فقـال: كنتم حولى فوقع في قـلبى أن لو كان لى شاة لذبحتُ لكم فلما برك هذا الظبى عندنا شبهتُ نفسى بفرْعَوْن حين سأل الله تعالى أن يجرى مـعه النيل فأجراه، فبكيـتُ وسألتهُ الإقالة ممـا تمنيتُ وسيَّبتُ الظبى.

وقال بعض المشايخ: لا تتعجبوا ممن لـم يضع في جيبه شيئًا فيدخل يده فيخرج من جيـبه ما يريد، ولكن تعجبوا ممن وضع في جيبه شـيئًا فيدخل يده في جيبه فلا يجده، فلا يتغير.

قال ابن عطاء: سمعت أبا الحسين النورى يقول: كان فى نفسى من هذه الكرامات شىء، فأخذتُ قَصَبَةً من الصبيان وقمت بين زَوْرقين ثم قلت: وعزَّتك لَئِن لم تخرج لى سمكةٌ فيها ثلاثة أرطال فلأُغرقنَّ نفسى، قال: فخرج لى سمكة فيها ثلاثة أرطال، قال: فبلغ ذلك الجنيد رحمه الله فقال: كان حُكْمَهُ أن يخرج له أَفْعَى تلدغه، يعنى أنه لو لدغته حَيَّةٌ كان أنفعَ له فى دينه من ذلك لأن فى ذلك فتنةً، وفى لدغ الحيَّة تطهير وكفارة.

قال يحيى بن مُعاذ رحمه الله: إذا رأيْتَ الرجل يشير إلى الآيات والكرامات فطريقه طريق الأبْدَال، وإذا رأيته يشير إلى الآلاء والنعماء فطريقه طريق أهل المحبة وهو أعلى من الذى قبل وإذا رأيته يشير إلى الذِّكْرِ ويكون معلقًا بالذكر الذى ذَكَرَهُ، فطريقه طريق العارفين وهو أَعْلَى درجةً من جميع الأحوال.

باب في ذكر من كان له شيء من هذه الكرامات فأظهرها لأصحابه لصدْقه وطهارته وسلامة قلبه وصحته

قال الشيخ رحمه الله: أخبرني جعفر الُخلْدى رحمه الله فيما قرأتُ عليه قال: حدثني الجنيد رحمه الله قال، دخلتُ على سريّ السّقَطى رحمه الله يومًا فقال لي: أعْجِبُك من عصفور يجيء فيسقط على هذا الرواق فآخُذُ لقمة فأفُتُّها في كفي فيسقط على أطراف أناملي فيأكل، فلما كان في وقت من الأوقات سقط على الرواق ففتتُّ الخبز في يدي فلم يسقط على يدي كما كان قبل ذلك ففكرتُ في سبب العلة في وحشته عنّي فذكرتُ أني أكلت مِلْحًا بأبزار فقلت بسري: أنا تايبٌ من الملح المطيَّب فسقط على يدي فأكل وانصرف.

وعن أبي محمد المُرْتَعش، قال: سمعت إبراهيم الخواص رحمه الله يقول تهتُ في البادية أيامًا فإذا بشخص وافاني، فقال لي: السلام عليك، فقلت: وعليك السلام فقال: تهتَ؟ فقلتُ: نعم فقال لي: ألا أدُلك على الطريق؟ فقلت: نعم، قال: فمشي بين يدي خطوات وغاب عن عيني فإذا أنا على الجادة، ومنذ فارقتُ الشخص ما تهت ولا أصابني الجوع ولا العطش.

وفي الحكاية جعفر الخلدي عن الجنيد رحمه الله، قال: جاءني أبو حفص النيسابوري رحمه الله مَرَّةً ومعه عبد الله الرِّباطي رحمه الله وجماعة وكان فيهم رجلٌ أصلع قليل الكلام، فقال يومًا لأبي حفص رحمه الله: قد كان فيمن مضى، لهم الآيات الظاهرة - يعني به الكرامات - وليس لك شيء من ذلك فقال له أبو حفص رحمه الله: تعالَ، فجاء به إلي الحدادين إلي كور عظيم مُحْمَى، فيه حديدة عظيمة فأدخل يده في الكور فأخذ الحديدة المُحماه فأخرجها فبردت في يده فقال له: يجزيك هذا، فسئل بعضهم عن

معنى إظهار ذلك من نفسه فقال: كان مُشْرِقًا على حاله فخشى على حاله أن يتغير عليه إن لم يُظهر ذلك له فخصه بذلك شفقة عليه وصيانة لحاله وزيادة لإيمانه.

وحُكى عن إبراهيم بن شيبان أنه كان فى حداثته يصحب أبا عبد الله المغربى قال: فبعثنى يومًا إلى موضع أحمل له الماء قال: فوافيت الماء وإذا أنا بالسبع قد قصد الماء قال: فالتقينا جميعًا فى مضيق بيننا وبين الماء قال: فكنت مرة أزاحمه ومرة يزاحمنى حتى سبقتُهُ ووصلت إلى الماء قبله، وعن أحمد بن محمد السلمى، قال: دخلتُ على ذى النون المصرى رحمه الله فرأيت بين يديه طشتًا من ذهب وحوله الندّ والعنبر يُسْجَرُ، فقال لى: أنت ممن يدخل على الملوك فى أوقات بسْطهم ثم أعطانى درهما فأنفقتُ منه إلى بَلْخ، وحُكى عن ذى النون رحمه الله أنه كان ربما يقضم الشعير قضمًا مثل الدواب، وعن أبى سعيد الخراز رحمه الله أنه، قال: كان مع حالى الله عز وجل أن يطعمنى فى كل ثلاثة أيام، قال: فدخلتُ البادية فمضى علىَّ ثلاثة ما طعمت شيئًا، فلما كان اليوم الرابع وجدت ضعفًا فجلستُ مكانى فإذا أنا بهاتف يقول: يا أبا سعيد أيما أحَبُّ إليك سُبَبَ أو قُوًى؟ قال: فصحْتُ وقلتُ لا، إلاّ القوَى، فقمتُ من وقتى، وقد استقللت فمشيت بعد ذلك اثنا عشر يومًا ما طعمت شيئًا، ولا وجدت ألَمًا لذلك.

وعن أبى عمر الأنماطى، قال: كنت مع أستاذى فى البادية فأخذنا المطر فدخلنا مسجدًا نُكِنُّ فيه من المطر، وكان فيه خَسْفٌ فى سقفه، فصعدت أنا والشيخ لنصلحه وكانت معنا خشبة فذهبنا لنجعلها على الحائط فقصرتْ فقال لى الشيخ: مُدَّ فمددتها فركبت الحائط من هاهنا ومن هاهنا قال عمر: وكنت عند خير النساج رحمه الله فجاءه رجلٌ فقال: أيها الشيخ رأيتكَ يوم أمْس وقد بعتَ الغزْل بدرهمين فجئتُ فحللتهما من طَرَف إزارك وقد صارت يدى منقبضة على كفى، قال: فضحك وأوْمَى بيده إلى يده ففتحها ثم قال: امض واشتر به شيئًا لعيالك ولاتَعُدْ لمثل ذلك.

باب في ذكر الخصوص وأحوالهم التي لا تعد من الكرامات وهي في معانيها أتمُّ وألطفُ من الكرامات

قال: سمعت طلحة العصائدى البصرى بالبصرة يقول: سمعت المقحى صاحب سهل بن عبد الله، رحمه الله يقول: كان سهل بن عبد الله يصبر عن الطعام سبعين يومًا وكان إذا أكل ضعف، وإذا جاع قوى.

وعن أبى الحارث الأولاسى رحمه الله أنه قال: مكثتُ ثلاثين سنة ما سمع لسانى إلا من سرّى ثم حالت الحال فمكثت بعد ذلك ثلاثين سنة لا يسمع سرى إلا من لسانى.

وعن أبى الحسن المزيّن قال: كان أبو عُبَيْد البُسْرى رحمه الله، إذا كان أول يوم من رمضان يدخل البيت ويقول لامرأته: طينى علىَّ الباب وألْقِى لى كل ليلة رغيفًا فى الكوة فإذا كان يوم العيد رفس الباب ودخلت امرأته البيت فإذا بالثلاثين رغيفًا موضوعة فى زاوية البيت فلا أكل ولا شرب ولا تهيأ للصلاة ولا فاته ركعة من صلاة.

وحُكى عن أبى بكر محمد بن على الكتانى رحمه الله قال: ما استودعتُ قط قلبى شيئًا فخاننى.

وعن أبى حمزة الصوفى قال: دخل علىَّ رجل من أهل خراسان فسألنى عن الأمن، قال: فقلت له: أعرفُ من لو كان على يمينه سَبُعٌ وعلى يساره مِسْورةٌ ما ميز على أيهما يتكئ، قال: فقال الرجل: هذا علمٌ، هاتِ حقيقةً لجواب مسألتى قال: فسكتُّ، قال: فخذها يا أبا بذَبخت، أعرف من لو خرج من المغرب يريد المشرق ما تغير عليه سِرُّه بين ذلك، قال أبو حمزة: فبقيتُ أربعين يومًا وليلة لم آكل ،ولم أنَمْ حتى تبين لى علم ما قال.

وسمعت أبا عمرو بن علوان يقول: كان شابٌ يصحب الجُنَيْدْ رحمه الله، وكان له قلب فطنٌ، وربما يتكلم بخواطر الناس، وما يعتقدون فى سرائراهم، فقيل للجنيد ذلك، فدعاه وقال: أَيْشَ هذا الذى يبلغنى عنك؟ فقال: لا أدرى، ولكن اعتقدْ فى قلبك ماشئتَ، قال الجنيد رحمه الله: اعتقدتُ، فقال الفتى: اعتقدتَ كذا وكذا، فقال الجنيد رحمه الله: لا، فقال: اعتقدْ مرةً أخرى، فقال الجنيد رحمه الله: اعتقدتُ، فقال الشاب: هو كذا وكذا، فقال الجنيد رحمه الله: لا، قال: فاعتقدْ ثالثاً، فقال الجنيد رحمه الله: اعتقدتُ، فقال الشاب: هو كذا وكذا، فقال الجنيد رحمه الله: لا، فقال الشاب: هذا والله عجيب أنت عندى صادق، وأنا أعرف قلبى وأنت تقول لا.

قال: فتبسم الجنيد رحمه الله ثم قال: صدقت يا أخى فى الأول وفى الثانى وفى الثالث، وإنما أمتحنك هل تتغير عما أنت عليه.

وعن جعفر الخلدى رحمه الله: قال: سمعت جنيدًا رحمه الله يقول: دخل الحارث المحاسبى رحمه الله دارى فلم يكن عندى شىء طيب أطعمه، قال: فمضيت إلى دار عمى فأخرجت منها شيئًا وحملت لقمة ففتح فمه فجعلت فى فمه فكان يحوله من جانب إلى جانب ولا يبتلعه ثم قام وخرج فألقاه فى الدهليز فذهبت خلفه وقلت: يا عمى رأيتك لم تبتلع ثم قمتَ وألقيتَه فى الدهليز قال: نعم بُنَى وذلك أن بينى وبين الله تعالى أنه إذا كان شىء من غير وجهه لا يتهيأ لى بلعه، وكنت فتحت فمى لإدخال السرور عليك ولم يتهيأ لى أن أبلعه فقمتُ فألقيته فى الدهليز.

وعن أبى جعفر الحداد أنه قال: أشرف علىَّ أبوتراب رحمه الله فى البادية وأنا جالس على بركة ولى ستة عشر يومًا لم آكل ولم أشرب من البركة الماء وأنا جالس فقال لى: ما جلوسك هاهنا؟ فقلت: أنا بين العلم واليقين أنتظر من يغلب؟ فأكون معه قال: سيكون لك شأن.

قال أبو عبد الله الحصرى رحمه الله: رأيت إنسانًا (يعنى من الصوفية) مكث سبع سنين لم يأكل الخبز، ورأيت رجلاً مكث سبع سنين لم يشرب الماء، ورأيت رجلا إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة جفت، وعن جعفر المبرْقع أنه قال: منذ ثلاثين سنة ما عقدتُ مع الله عقدًا مخافة أن يفسخ ذلك فيكذبنى على لسانى.

وقال أبو بكر الزقاق رحمه الله: سافرنا مع إسماعيل السُّلمى فوقع من رأس جبل فكسرت قصبة ساقه فبكينا فقال: مالكم؟ لا تغتموا إنما هو ساق من قطمة طين فإذا جف فركناه.

ومثل ذلك فى الحكايات كثير، وما لم نذكره أكثرُ، وجميع ذلك أحسن معانى وألطفُ من الكرامات التى ذكرناها، وفى ذلك كفاية لمن عقل وأنصف وفهم.

كتاب البيان عن المشكلات

باب فى شرح الألفاظ الجارية فى كلام الصوفية

مثل قول القائل الحق بالحق للحق، ومنه به له، والحال والمقام والمكان، والوقت، والبادى، والباده، والوارد، والخاطر، والواقع، والقادح، والعارض، والقَبْض، والبَسْط، والغَيْبة، والحضور، والصحو، والسُّكر، وصَفْوُ الوَجْد، والهجوم، والغلبات، والفناء، والبقاء، والمبتدئ، والمريد، والمراد، والواجد، والتواجد والتساكن، والمأخوذ والمستلَب، والدهشة والحيرة والتحيّر، والطوالع، والطوارق، والكشف والمشاهدة، واللوائح واللوامع، والحق والحقوق والتحقيق والتحقّق والحقيقة والحقائق، والخصوص وخصوص الخصوص، والإشارة والإيماء، والرمز والصفاء، وصفاء الصفاء، والزوائد والفوائد، والشاهد والمشهود، والموجود، والمفقود، والمعدوم، والجمع، والتفرقة، والشَّطْح، والصَّوْل، والذهاب، وذهاب الذهاب، والنَّفْس والحِسُّ، وتوحيد العامَّة، وتوحيد الخاصّ والتجريد، والتفريد.

وهَم مفرَّد، وسر مجرَّد، والاسم، والرَّسْم، والوَسْم، والمحادثة، والمناجاة، والمسامرة، ورؤية القلوب، والروح والتروح، والنعت والصفة، والذات والحجاب، والدعوى، والاختيار، والبلاء، واللسان، والسرُّ، والعَقْد، والهَمُّ، واللُّحظ، والَمحْو، والَمحْق، والأثَر، والكَوْن، والبَوْن، والوَصْل، والفَصْل، والأصْل، والفَرْع، والطَّمْس، والرَّمْس، والدمس، والسبب، والنِّسْبة، وصاحب قَلْبٍ، ورَبُّ حالٍ، وصاحب مقامٍ، وفلان بلا نَفْس،

وفـلان صـاحب إشـارة، وأنَا بلا أنَا، ونَحْنُ بلا نَـحْنُ، وأَنْتَ أنت، وأنَا أنَا، وأنْتَ أنَـا، وأنَا أنْتَ، وهـو بلا هو، وقـطْع العـــلائق، وبادى بـلا بادى، والتجلّى، والتخلّى، والتحلّى، والعلّة والأزل والأبد والأمد، ووَقْتى مُسَرْمَد، وبَحْـرِى بلا شـاطئ، ونحْنُ مـسـيَّرُون، والتـلوين، وبَذْل المُـهَج، والتّلَف، واللجـأ، والانزعــاج، وجَـذْب الأرواح، والـوطر، والوطن، والشـــرود، والقـصود، والاصـطناع، والاصطفاء، والَـمسْخ، واللطـيفـة، والامـتحـان، والحـدث، والكُلّية، والـتلبيس، والشّـرْب، والذّوْق، والعَـيْن، والاصطلام، والُحرِّية، والرَّيْن، والغَيْن، والوسائط، وما يشاكل هذه من الألفاظ.

باب بيان هذه الألفاظ

قال الشيخ رحمه الله: وأما معنى قولهم «الحقّ بالحقّ للحقّ» فالحقّ هو الله عزّ وجلّ، وفى التفسير عن أبى صالح فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾[1] قال: الحق هو الله تعالى.

قال أبو سعيد الخزار، رحمه الله، فى بعض كلامه: عبدٌ موقوف مع الحق بالحق للحق، يعنى موقوف مع الله بالله لله، وكذلك «منه به له» يعنى من الله بالله لله، وربما يكون فى مواضع يُعنَى به ما يكون من اكتساب العبد بالعبد للعبد، كما قال أبو يزيد رحمه الله: قال لى، أبو على السِندْى: كنتُ فى حال مِنّى بى لى، ثم صرتُ فى حال منه به له.

والمعنى فى ذلك أن العبد يكون ناظرًا إلى أفعاله ويُضيف إلى نفسه أفعاله فإذا غلب على قلبه أنوار المعرفة يرى جميع الأشياء من الله قائمةً بالله معلومةً لله مردودةً إلى الله، والحال نازلةٌ تنزل بالعبد فى الحين، فيحل بالقلب من وجود الرضا والتفويض وغير ذلك، فيصْفو له فى الوقت فى حاله ووقته ويزول، وهذا كما قال: الجُنَيْدُ رحمه الله.

وعند غيره، والحال: ما يحل بالأسرار من صفاء الأذكار ولا يزول، فإذا زال فلا يكون ذلك حالا.

و«المقام» هو الذى يقوم بالعبد فى الأوقات مثل مقام الصابرين والمتوكلين وهو مقام العبد بظاهره وباطنه فى هذه المعاملات والمجاهدات والإردات، فمتى أقام العبد فى شىء منه على التمام فهو مقامه حتى ينتقل منها إلى مقام آخر كما ذكرته فى باب المقامات والأحوال.

---

(١) المؤمنون: ٧١.

و«المكان» هو لأهل الكمال والتمكين والنهاية، فإذا كمل العبد فى معانيه تمكن له المكان لأنه قد عبر المقامات والأحوال فيكون صاحب مكان، قال بعضهم:

مكانُك من قلبى هو القلبُ كله فليس لشىءٍ فيه غيرك موضعُ

و«المشاهدة» بمعنى المداناة، والمحاضرة، والمكاشفة والمشاهدة، تتقاربان فى المعنى إلا أن الكشف أتم فى المعنى.

قال عمرو بن عثمان المكى رحمه الله: أول المشاهدة زوايد اليقين سطعت بكواشف الحضور غير خارجة عن تغطية الغيب وهو التماس القلب دوام المحاضرة لما وارته الغيوب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1] يعنى حاضر.

و«اللوائح» ما يلوح للأسرار الظاهرة لزيادة السمو والانتقال من حال إلى حال أعلى من ذلك.

قال الجنيد رحمه الله: لقد فاز قوم دلهم وليُّهم على مختصر الطريق فأوقفهم على محجة المناجاة ولوح لهم على فهم الدعوة إلى المسارعة بالمناسبة إلى فهم الخطاب إذ يقول عز وجل ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[2] فنهضت العقول مستجيبة بحسن التوجه لإقامة ما به يحظَون عنده.

و«اللوامع» معناه قريب من «اللوائح» وهو مأخوذ من لوامع البرق إذا لمعت فى السحاب طمع الصادى والعطشان فى المطر.

قال عمرو بن عثمان المكى رحمه الله: إن الله تعالى يوردُ فى صفاء الأوهام كمثل لوامع البرق بعضها فى إثرْ بعض ويُبْدى ذلك لقلوب أوليائه بلا توهم بأصل ما عقدت عليه القلوب من التصديق والإيمان بالغيب وما بدا للقلوب لوامعه من زيادة النور حتى لا يمكن النفوس توهم ذلك النور فى صفاء الأوهام ولو توهمت انقطع ذلك، وقال القائل:

(١) ق: ٣٧. (٢) آل عمران: ١٣٣.

* واغــتــرَّ ذو طــمعٍ بلمعِ ســـرابِ *

و«الحق» هــو الله عــز وجل قـــال الله عـــز وجل: ﴿وإنَّ اللهَ هُــوَ الْحــقُّ الْمُبِينُ﴾(١)، والحــقــوق مــعناه الأحــوال والمــقامــات والإرادات والقــصــود والمعاملات والعــبادات، قال الطيالسى الرازى رحمــه الله: إذا ظهرت الحقوق غابت الحظوظ، وإذا ظهرت الحظوظ غابت الحقوق.

ومعنى «الحظوظ» حظوظ النفس والبــشرية لا تجتمع مع الحقــوق لأنهما ضدَّان لا يجتمعان.

والتحقيق تكلف العبد لاستدعاء الحقيقة جَهْدَه وطاقته.

قال ذو النون رحــمه الله: قلت لبعض الحــكماء الذين لقيــتهم: لَمِ وقف سالكُ الطريق فى كبد فجاج المضيــق؟ فقال: من ضعفِ دعائم التصديق وأخذِ القلوب بالتحقيق.

و«التحــقق» معناه معنى التحــقيق وهو مثل التــعلم والتعليم، و«الحقيــقة» اسم و«الحقائق» جمع الحقيقة، ومعناه وقوف القلب بدوام الانتصاب بين يدى من آمن به، فلو داخل القلوب شك أو مــخيلة فيمــا آمنت به حتى لا تكون به واقفة وبين يديه مــنتصبة لبطل الإيمان وهو قــول النبى ﷺ لحارثة [١٨٠] «لكل حق حقيقــة فما حقيقــة إيمانك فقال: عَزَفَتْ نفسى عن الدنيــا فأسهرتُ ليلى وأظمــأتُ نهارى وكــأنى أنظر إلى عــرش ربى بارزًا» و«كــأنى» يعبــر عن مشاهــدة قلبه ودوام وقوفه وانتــصابه بين يدى الله تعالى لما آمن به حــتى كأنه رأيُ العين.

قال الجنيد رحمه الله: أبت الحقائق أن تدع للقلوب مقالة للتأويل.

و«الخصوص» أهل الخصوص هــم الذين خصهم الله تعالى مــن عامة المؤمنين بالحقائق والأحوال والمقامات، وخصوص الخصوص هم أهل التفــريد وتجريد التوحيد

(١) النور: ٢٥، ونص الآية: ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾.

ومن عبرَ الأحوال والمقامات وسلكها وقطع مفاوزها، قال الله عز وجل ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾[1] فالمقتصد خصوص والسابق خصوص الخصوص.

حُكى عن الشبلى رحمه الله أنه قال: قال لى الجنيد رحمه الله: يا أبا بكر ما ظنُّك بمعنى خصوص الخصوص فيما تجرى إليه من القول عموم ثم قال: خصوص الخصوص فى نعت الإيماء إليه عموم.

و«الإشارة» ما يخفى عن المتكلم كشْفه بالعبارة للطافة معناه.

قال أبو على الروذبارى، رحمه الله: علمُنا هذا إشارةٌ فإذا صار عبارةً خفى، و«الإيماء» إشارة بحركة جارحة.

قال الجنيد رحمه الله: جلستُ عند ابن الكُرينى فأوميتُ برأسى إلى الأرض فقال: بُعْدٌ، ثم أوميتُ برأسى إلى السماء فقال: بُعْدٌ، وقال الشبلى: رحمه الله ومن أومى إليه فهو كعابد وثن لأن الإيماء لا يصلح إلا إلى الأوثان، وقال القائل:

ولى عندَ اللقاء وفيه عَتْبٌ ... بإيماء الجفُون إلى الجفونِ
فَأُبْهتُ خيفة وأذوبُ خوفًا ... وأفنى عن حراكٍ أو سكونِ

و«الرمز» معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهلهُ، قال القنَّاد:

إذا نطقوا أَعْجَزَكَ مرْمى رُموزهم ... وإن سكتوا هيهات منك اتصالُه

وقال بعضهم: من أراد أن يقف على رموز مشايخنا فلينظر فى مكاتباتهم ومراسلاتهم، فإن رموزهم فيها لا فى مصنفاتهم.

و«الصفاء» ما خلص من ممازجة الطبع ورؤية الفعل من الحقائق فى الحين قال الجريرى رحمه الله: ملاحظة ما صفا بالصفاء جفاءٌ، لأن معه ممازجة الطبع ورؤية الفعل.

قال ابن عطاء رحمه الله: لا تغتروا بصفاء العبودية، فإن فيها نسيان الربوبية، لأنها ممازجة بالطبع ورؤية الفعل، والله أعلم.

وسئل الكتانى رحمه الله: عن الصفاء فقال: مزايلة المذمومات.

وسئل عن «صفاء الصفاء» فقال: مزايلة الأحوال والمقامات والدخول إلى

(١) فاطر: ٣٢.

النهايات، «وصفاء الصفاء» إبانة الأسرار عن المحدَثات لمشاهدة الحق بالحق على الاتصال بلا علة قال القائل:

صفوُ الصفا فى صفوه إذعان ... وصفاؤهُ فى كونه إيقانُ
مَنْ بانَ بيَّنَ ما أبانَ به لهُ ... حقَّ البيانِ بواضح التَبْيانُ
هذا حقيقةُ وجده مِنْ وجدِه ... ولوجدِه هل فوق ذاك بيانُ

و«الزوايد» زيادات الإيمان بالغيب واليقين كلما ازدادت الإيمان واليقين زاد الصدق والإخلاص فى الأحوال والمقامات والإرادات والمعاملات.

قال عمرو بن عثمان المكى رحمه الله: زوائد اليقين إذا سطعت بكواشف الحضور عن تغطية القلوب لما وارته الغيوب، والفوائد تُحف الحق لأهل معاملته فى وقت الخدمة بزيادة الفهم للتنعم بها.

قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله: رأيت الفرائد ترِد فى ظلَم الليل.

و«الشاهد» ما يشهدك بما غاب عنك، يعنى يُحضر قلبك لوجوده، قال القائل:

وفى كلِّ شىءٍ لهُ شاهدٌ ... يدلُّ عَلَى أنهُ واحدُ

و«الشاهد» أيضًا بمعنى الحاضر.

وسئل الجنيد رحمه الله عن الشاهد فقال: «الشاهد الحق فى ضميرك وأسرارك مطلع عليها، والمشهود ما يشهده الشاهد»

قال أبو بكر الواسطى: الشاهد الحق و«المشهود» الكون، قال عز وجل **﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾**[1] والموجود والمفقود اسمان متضادان، فالموجود: ما خرج عن حيز العدم إلى حيز الوجود، والمفقود: ما خرج من حيز الوجود إلى حيز العدم.

قال ذو النون رحمه الله: «لا تحزنْ على مفقود ويكون ذكرًا لعبد موجود، و«المعدوم» الذى لا يوجدُ ولا يمكن وجودُهُ، فإذا عدمتَ شيئًا ويمكن وجوده فذاك مفقود وليس بمعدوم».

(١) البروج: ٣.

قال بعض أهل المعرفة: العالم وجودٌ من بين طرفيْ عدم، لأنه موجود، كان عدمًا معدومًا، ويصير عدمًا معدومًا، ولا يشهده العارف إلا بعدم معدوم، فيجعل له عند رؤية عدمه معرفة وحدانية خالقه، و«الجمع» لفظ مجمل يعبر عن إشارة من أشار إلى الحق بلا خلق قبْلُ ولا كوْن كان، إذ الكون والخلق مكوَّنان لا قوام لهما بنفسهما لأنهما وجود بين طرفيْ عدم، و«التفرقة» أيضًا لفظ مجمل يعبر عن إشارة من أشار إلى الكون والخلق وهما أصلان لا يستغنى أحدهما عن الآخر، فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد البارئ، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة، فقد أنكر قدرة القادر فإذا جمع بينهما فقد وحَّد، وقال القائل:

جمعْتُ وفرَّقتُ عنى به ... وفرْدُ التواصُل مثنى العدد

يعنى جمعت به وفرَّقت عنى وفرد التواصل فى الجمع مثنى العدد فى التفرقة، و«الغيبة» غيبة القلب عن مشاهدة الخلق بحضوره ومشاهدته للحق بلا تغيير ظاهر العبد و«الغشْية» هى غيبة القلب بما يردُ عليه ويظهر ذلك على ظاهر العبد، و«الحضور» حضور القلب لما غاب عن عيانه بصفاء اليقين فهو كالحاضر عنده وإنْ كان غائبًا عنه، قال القائل:

* أنت وإن غُيِّبْتَ عنى سيدى كالحاضر *

وقال النورى:

إذا تغيبْتُ بدا ... وإن بدا غيبنى

وكذلك «الصحو» و«السكر» معناهما قريب من معنى الغيبة والحضور، غير أن الصحو والسكر أقوى وأتم وأقهر من الغيبة والحضور، وقد قال فى ذلك بعضهم:

فحالان لى حالان صحوٌ وسكرةٌ ... فلا زلْتُ فى حاليَّ أصحو وأسكرُ
كفاك بأنَّ الصحوَ أوْجد كأبَتى ... فكيف بحال السكر والسكر أجدرُ
جحدْتُ الهوى إن كنت مُذ جعل الهوى ... عيونك لى عينًا تغُضُّ وتبصرُ

نَظرْتُ إلى شَـيءٍ سِـوَاكَ وَإنمَـا ... أرى غـيـرَنَاَ أحـلامَ نوْمٍ يُـقـدَّرُ

والفرق بين السكر والغـشية، أن السكر ليس نشأتُه من الطبع لا يتـغير عند وروده الطبع، والحواسّ، والغشية، نشأتها مـمزوجة بالطبع تتغير عند ورودها الطبع والحواس، وتـنتقص منها الطهـارة، والغشيـة لا تدوم، والسكر يدوم، والفرق بين الحضور والصحو: أن الصحو حادث، والحضور على الدوام.

ومعنى «صفو الوجـد» أن لا يعارضه فى وجده شىءٌ غير وجـوده كما قال القائل:

تحقَّـقَ صَفْوُ الوَجْـدِ مِنَّا فمـا لَنا ... عَلَينا سِـوانـا مِنْ رَقـيبٍ يُخـبِّـرُ

و«الهجوم والغلبات» متقاربا المـعنى إلا أن الهجوم فعلُ صاحب الغلبات، وذلك عند قوّة الرغبـة، والانفلات من دواعى الهوى والنفوس عند قـوة رغبة الطالب إذا لاح له أعلام المـزيد فى حال طلبـه المطلوبَ؛ فلو ظن أن مطلوبه وراء بحـر سَبَحَـهَ أو فى تيـه سلكه بالهجـوم عند غلبات الإرادة وقـوة سلطان المطالبة عليـه لو رأى نارًا اقتحـمها بالهجـوم بتلف الروح وبَذل المُهْجـة سواء أوصله ذلك إلى مطلوبه أو لم يُوصله فذلك معنى الهجوم والغلبات.

و«الفناء والبقاء» قد ذكرته فى بابه، ومعنى «الفناء» فناء صفة النفس، وفناء المنع والاسترواح إلى حـالٍ وقع، و«البقاء» بقاء العبـد على ذلك، وأيضًا فناء هو فناء رؤيا العبـد فى أفعاله لأفعـاله بقيام الله له فى ذلك، والبقـاء بقاء رؤية العبد بقيام الله له فى قيامه لله قبل قيامه لله بالله.

والمبـتدئ هو الذى يبتدئ بقـوة العـزم فى سلوك طرقات المنقطعين إلـى الله تعالى ويتكلف لآداب ذلك ويتأهب للتأدب بالخدمة والقبول من الذى يعرف الحال الذى ابتدأ به وأشرف عليه من بدايته إلى نهايته، و«المريد» الذى صح له الابتداء وقد دخل فى جـملة المنقطعين إلـى الله تعالى بالاسم، وشهد له قـلوبُ الصادقين

بصحة إرادته ولم يترسم بعدُ بحال ولا مقام فهو فى السير مع إرادته، و«المراد» العارف الذى لم يبق له إرادة، وقد وصل إلى النهايات وعبر الأحوال والمقامات والمقاصد والإرادات فهو مراد أُريد به ما أُريد، ولا يريد إلا ما يريد.

و«الوجد» مصادفة القلوب لصفاء ذِكر كان عنه مفقودًا، و«التواجد، والتساكر» قريبا المعنى، وهو ما يمتزج من اكتساب العبد بالاستدعاء للوجد والسكر، وتكلفه للتشبه بالصادقين من أهل الوجد والسكر، و«الوقت» ما بين الماضى والمستقبل.

قال الجنَيد رحمه الله: الوقت عزيز إذا فات لا يُدْرَك: يعنى نَفَسَك ووقتك الذى بين النفس الماضى والنفَس المستقبل، إذا فاتك بالغفلة عن ذكر الله تعالى فلا تلحقه أبدًا.

و«البادى» هو الذى يبدو على القلب فى الحين من حيث حال العبد، فإذا بدا بادى الحق يُبيد كل بادٍ غير الحق، قال إبراهيم الخواص رحمه الله: إذا بدا بادى الحق أفنى كلَّ بادٍ.

و«الوارد» ما يرد على القلوب بعد البادى فيستغرقها والوارد له فِعلٌ وليس للبادِي فعل، لأن البوادى بدايات الواردات، قال ذو النون رحمه الله: واردُ حق جاء يزعج القلوب.

و«الخاطر» تحريك السر لا بداية له، وإذا خطر بالقلب فلا يثبت فيزول بخاطر آخرَ مثله، و«الواقع» ما يثبت ولا يزول بواقع آخر.

سمعت بعض المشايخ وهو أبو الطيب الشيرازى رحمه الله قال: سألت شيخًا من مشايخى مسألة فقال لى: أرجو أن يقع جوابهُ، قال الجنيد رحمه الله لخير النساج رحمه الله حين خرج إليه: هلا خرجت مع أول خاطرك؟ وذلك أنه خطر

بقلبه بأن الجنيد رحمه الله علـى باب داره فكان يدفع خاطره مرارًا؛ فلما خرج قال له الجنيد ذلك.

ويقـال: إن الخاطر الصـحـيح أولُ الخاطر، أى أول مـا يخطر، ومـعنى الخاطر أيضًا مـا لا يكون للعبد نسبةٌ فى ظهوره فى الأسـرار، و«الخاطر» أيضًا قهرٌ يستوعب الأسرار.

و«القادح» قـريب من الخاطر إلا أن الخاطر لقلوب أهل اليـقظة، والقادح لأهل الغفلة؛ فإذا تقـشع عن قلوبهم غُيوم الغفلة قدح فيـها قادحُ الذكر، وهى لفظة مأخوذة من قَدَحَ النارَ بالزِّناد، والقادح الذى يستوقد النار، قال القائل:

* يا قـــــادحَ النـارِ بالـزِّنادِ *

وقال بعضهم: ليس ما قدحتْه الحقيقة كما ساكنتْه البشرية.

و«العارض» ما يعرض للقلوب والأسـرار من إلقاء العدو والنفس والهوى، فكل ما يكون من إلقاء النفس والعدو والهـوى فهو العارض، لأن الله تعالى لم يجعل لهؤلاء الأعداء طريقًا إلى قلوب أوليائه إلا بالعارض دون الخاطر والقادح والبادى والوارد، قال أنشد:

يُعـارِضُنى الواشون قلبى بكلمـا ... يُقَلِـقُلُهُ فى سِـــرِّهِ والعَـــلانيــهْ

و«القـبض» و«البسط» حـالان شريفـان لأهل المعـرفة إذا قـبضـهم الحق أحشمـهم عن تناول القوام والمُباحـات والأكل والشرب والكلام، وإذا بسطهم ردهم إلى هذه الأشياء وتولى حفظهم فى ذلك، فالقبض حال رجل عارف ليس فيه فضل لشىء غير معـرفته والبسط حال رجل عارف بسطه الحق وتولى حفظه حـتى يتـأدب الخلق به، قـال الله تعـالى: ﴿والله يُقبِضُ ويَبْـسُطُ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

(١) البقرة: ٢٤٥.

وقال الجنيد رحمه الله فى معنى «القبض» و«البسط»: يعنى الخوف والرجاء؛ يبسط إلى الطاعة، والخوف يقبض عن المعصية، وقد قال القائل فى صفة حال العارف المنقبض، وصفة حال العارف المنبسط فقال:

معارفُ الحقِّ تحويها إذا نشِرَتْ ... ثلاثةٌ بعدها الأرواح تُخْتلَسُ

فعارفٌ بحُظوظِ الحقِّ ليس له ... عنه سواه ولا منه له نفَسُ

وعارفٌ بِوَلا المَليك معترفٌ ... يحثُّهُ الوجد ما ولَّى لهُ الغلسُ

وعارفٌ غاب عنه العُرْف فاعتسفتْ ... منه السراير مطويٌّ الذرَى شرِسُ

حتى استكانَ وغاب الوَعث فى مهَل ... فطار شيئانِ عنه النُّطق والخَرَسُ

أغاثه الحقُّ عما دُونه فله ... منه إليه سِرارٌ وحْيُها خَنِسُ

يذكر أن العارفين على ثلاثة أصناف: صنف منهم ليس لهم منه نفَس، وصنف منهم يحثهم الوجد إلى الحال الذى يتولاهم الحق بالكلاية(١) فيها، وصنف منهم غاب عنهم العرف والعادة واستوى عندهم النطق والصمت وغير ذلك بعناية الحق لهم، فإن سكتوا فلله يسكتون، وإن نطقوا فعن الله ينطقون.

والغيبة، والحضور، والصحو، والسكر، والوجد، والهجوم، والغلبات، والفناء، والبقاء، فاعلم أن ذلك من أحوال القلوب المتحققة بالذكر والتعظيم لله عز وجل.

و«المأخوذ» و«المستلَب» بمعنى واحد، إلا أن المأخوذ أتمُّ فى المعنى وهم العبيد الذين وصْفُهم فى الحديث المروى عن النبى ﷺ الذى قال [١٨١]: «يظن الناس أنهم قد خولطوا وما خولطوا ولكن خالط قلوبهم من عظمة الله تعالى ما أذهَبَ بعقولهم».

(١) الكلاية يعنى الكلاءة، وهو الحفظ.

وفى الحديث رُوى أيضًا عن النبى ﷺ أنه قال [١٨٢]: «لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يظن الناس أنه مجنون»، وقد رُوى عن الحسن فى الخبر كنتُ إذا رأيتُ مُجاهدًا كأنه خرٌ بَنْدَجٌ قد ضل حمارُهُ لما كان فيه من الوله، والأخبار تكثر فى وصف المأخوذ والمستلَب وقال القائل:

فَلا تَلُمْنى عَلَى ما كانَ مِنْ قَلَقى   إنى بِحُبكَ مأخُوذٌ وَمُسْتَلَبُ

و«الدهشة» سطوة تَصْدِمُ عقل المحِب من هيبة محبوبه إذا لقيه عند الإياس لم يجد لها عاهة إذا انقضت، وقد رُوى عن بعضهم أنه قال: «اللهم إنك لا تُرَى فى الدنيا فهَبْ لى من عندك ما يسكن إليه قلبى» قال: فغشى عليه فلما أفاق قال: سُبُحانَ الله، فقيل له: مم سبحت؟ قال: أَلْقَى إلىَّ سكينَتَهُ بدلا من النظر إليه وهل لذلك من بدل؟ فقلت: يارب دهشتُ من حُبك فلم أتمالك أن قلتُ ما قلتُ، ولبعضهم يقول:

إنَّ مَنْ أَهْواهُ قَدْ أَدْهَشَنى   لا خَلَوْتُ الدَّهْرَ مِنْ ذاكَ الدَّهَشْ

وكان الشبلى رحمه الله يقول: يا دَهِشًا كلُه معناه كل شيء مع الخلق منك دَهِشٌ كله.

و«الحيرة» بديهةٌ تردُ على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكرهم تحجبهم عن التأمل والنكرة، قال الواسطى رحمه الله: حيرة البديهة أجلُّ من سكون التولّى عن الحيرة.

و«التحير» منازلة تتولى قلوب العارفين بين اليأس والطمع فى الوصول إلى مطلوبه ومقصوده لا تطمعهم فى الوصول فيرتجوا ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحوا فعند ذلك يتحيرون، وقد سئل بعضهم عن المعرفة ما هى؟ فقال: التحير ثم الاتصال ثم الافتقار ثم الحيرة، قال قائل:

قَدْ تَحَيَّرْتُ فيكَ خُذْ بِيَدى   يا دَلِيلا لمنْ تَحَيَّرَ فيكْ

و«الطوالع» أنوار التوحيد تطلع على قلوب أهل المعرفة بتشعشعها فيطمئن ما فى القلوب من الأنوار بسلطان نورها كالشمس الطالعة إذا طلعت يخْفى على الناظر من سطوة نورها أنوارُ الكواكب وهى فى أماكنها، قال الحسين بن منصور فى هذا المعنى.

قَدْ تَجَلَتْ طَوالعٌ زاهِراتٌ يَتَشَعْشَعْنَ فى لَوامعِ برْقِ
خَصَّنى واحدى بتَوْحيد صِدْق ما إليها مِنَ المسالِكِ طُرُقُ

و«الطوارق» ما يطرق قلوب أهل الحقائق من طريق السمع فيجدد لهم حقائقهم، حُكى عن بعض المشايخ أنه قال: يطرق سمعى علْم من علوم أهل الحقائق فلا أَدَعُ أن يدخل قلبى إلا بعد أن أعْرِضَها على الكتاب والسنة.

و«الطوارق» فى اللغة ما يطرق بالليل.

ورُوى عن النبى ﷺ أنه كان يدعو [١٨٣]: وأعوذُ بك من شَرِ طوارق الليل والنهار إلا طارقًا يطرق بخير.

و«الكشف» بيان ما يستتر على الفهم فيكشفُ عنه للعبد كأنه رأىُ عَين، قال أبو محمد الجريرى: «من لم يعمل فيما بينه وبين الله تعالى بالتقوى والمراقبة لم يصلْ إلى الكشف والمشاهدة» وقال النورى رحمه الله: «مكاشفات العيون بالإبصار ومكاشفات القلوب بالإتصال».

و«الشطح» كلام يترجمه اللسان عن وَجْد يفيض عن مَعْدنه مقرونٌ بالدعوى إلا أن يكون صاحبه مستلبًا ومحفوظًا، قال أبو حمزة: سألنى رجل خراسانى عن الأمْن فقلتُ: أعرفُ من لو كان على يمينه سَبُعٌ وعلى يساره مِسْوَرَةٌ ما ميَّز على أيهما اتَّكَى؟ فقال لى: هذا شطحٌ فهاتِ العلم.

وكان بعضهم إذا سأله إنسان مسألة فيها دعوَى يقول: أعوذُ بالله من شطح اللسان.

وقد فسَّر الجُنَيْد رحمه الله شطحات أبى يزيد رحمه الله: ولو كان أبو يزيد رحمه الله فى ذلك عنده معلولا ما فسَّرَها، وقد قال القنَّاد:

شَطْحُ الحَقيقَـةِ والأحْوَالِ بَيْنَهُمَا … شَطْحٌ لِذَا البَـيْنِ يَزْهُو بَيْنَ هاتين

فالحالُ كالحالِ فى التَّلْوِينِ شاطِحُها … والعَيْنُ تُدْنى إلَى شَـطْحِ اللّقَائَيْنِ

و«الصَّـوْل»: الاسـتطالة باللسـان من المـريدين والمـتوسّـطين على أبناء جنْسهم بأحوالهم وهو مذموم.

قال أبو على الروذبارى رحمه الله: «إنَّ من أعظم الكبائر أن تخون اللهَ فى نفسك وتتـوهَّم أنَّ الذى أنالك لم يُنِلْ غَيْرَك فـتجعل دعـواك صَوْلَكَ على من يستـحى من الله تعالى أن يُخبرك بـحاله، وتأنَفُ من الصَّوْل لأنه قِحـةٌ إذا كان على من فوقك وقلة معرفة إذا كان على من هو دونك وسوء أدب إذا كان على من هو مثلك، فأمَّا الصادقون وأهل النهايات يصولون بالله لقلة المساكنة إلى ما سوى الله».

ورُوى عن النبى ﷺ أنـه كـان يقـول فى دعـائه [١٨٤]: «اللهـمَّ بك أَصولُ وبك أحـولُ» وقال إبراهيم الخـوَّاص رحمه الله فى كـتاب له: «ثمَّ إنِّى أقولُ وبالله أصولُ» وقال القائل:

وَكَيْفَ يَطِيبُ العَيْشُ مِنْ بَعدْ مَنْ بِهِ … عَلَى نائبـاتِ الـدَّهْرِ كُنْتُ أصُـولُ

و«الذهاب» بمعنى الغَيْبَـة إلا أن الذهاب أتمُّ من الغيبة، وهو ذهاب القلب عن حسِّ المحسوسات بمـشاهدة ما شاهَدَ، ثمَّ يذهب عن ذهابه «والذهاب عن الذهاب» هذا ما لا نهاية له.

قال الجُنَيْـد رحمه الله فى تفسيـر قول أبى يزيد رحمه الله فى كـلامه لَيْسَ بِلَيْسَ قال: هو ذهاب ذلك كله عنه وذهابه عن ذهابه وهو مـعنى قوله لَيْسَ فى لَيْسَ يعنى قـد غابت المـحاضرُ وتلفت الأشـياء فليس يوجَـدُ شىء ولا يُحَسُّ،

وهو الذى يسميه قومٌ الفناء والفناء عن الفناء «وفَقْد الفَقْد فى الفَقْد» فهو الذهاب عن الذهاب، و«النَّفَس» تروُّحُ القلب عند الاحتراق، قال بعض الشيوخ: «النفس» رُوْحٌ من ريح الله المسلطة على نار الله تعالى: وكذلك «التنفس»، قال ذو النون رحمه الله:

مَنْ لاذَ بِاللهِ نَجا بِاللهِ   وَسَرَّهُ مَرُّ قَضاءِ اللهِ

للهِ أنْفاسٌ جَرَتْ للهِ   لا حَوْلَ لى فيها بِغَيْرِ اللهِ

و«النفس» أيضًا نَفسُ العبد، قال الجنيدُ رحمه الله: «أَخَذَ على العبد حِفْظَ أنفاسه على ممر أوقاته» قال القائل:

وَما تَنَفستُ إلا كنْتَ معْ نفسى   تَجْرى بِكَ الرُّوحُ مِنى فى مَجاريها

و«الحس» رَسمُ ما يبدو من صفة النفس، وقال عمرو المكى، رحمه الله: من قال: إنى لم أجِدْ حسًّا عند غلبات الوجد فقد غلط لأنه لم يُدْرك فقد الحسوس إلا بحس.

و«الوجد» و«الفقد» يُدْرَكان بحاسة وهما محسوسان، و«توحيد العامة» معناه توحيد الإقرار باللسان والتحقيق بالقلب لما يقر بِهِ اللسان بإثبات الموحَّد بجميع أسمائه وصفاته بإثبات ما أثبت ونَفْىِ ما نَفى بإثبات ما أثبت الله لِنفسه ونَفْى ما نفى الله عن نفسه.

و«توحيد الخاصة» قد ذكرْنا فى باب التوحيد، وهو وجودُ عظمة وحدانية الله تعالى، وحقيقة قُرْبه بذهاب حس العبد وحركته لقيام الله تعالى له فيما أراد منه، وقد حُكى عن الشبلى، رحمه الله أنه قال لرجل، وقد جرى ذِكرُ التوحيد فقال: هذا توحيدك أنْتَ، قال: فأيْشَ عندى غيرُ ذا؟ فقال الشبلى، رحمه الله: توحيد الموحَّد وهو أن يوحدك الله به، ويُفردك له ويُشْهدك ذلك ويغيبك به عما يُشْهدك، وهذا صفة توحيد الخاص.

و«التـفريد» إفـراد الممُـفْرَد برَفْـع الحدث وإفـراد القِدَم بوجـود حقـائق الفردانيـة، قال: بعـضهم «الموحـدون لله من المؤمنين كـثير والمـفردون من الموحدين قليل» قال: الحسـين بن منصور، رحمه الله: فى بعض ما تكلم به عند قتله: حَسْبُ الواجد إفراد الواحد.

و«التـجريد» مـا تجرد للقلوب من شـواهد الألوهية إذا صـفا مـن كدورة البشرية، وقال: بعض الشيوخ وقد سـئل عن التجريد، فقال: «إفراد الحق من كل ما يُجْرى وإسقاط العبد فى كل ما يُبْدى».

و«التجريد» و«التفريد» و«التـوحيد» ألفاظ مختلفة لمعانٍ متفـقة وتفصيلها على مقدار حقائق الواجدين وإشاراتهم، قال القائل:

حَـقِيـقَةُ الحـق حَقٌّ لَيْسَ يَعْرِفـهُ   إلا المُـجَـرِّدُ فـيـــهِ حَقَّ تَجْـرِيدِ

و«الهَم المفـرَّد» و«السر المجرَّد» بـمعنى واحد، وهو هـم العبـد وسره إذا تجرد من جميع الأشـغال وتفرد بمراقبة ذى الجلال فلا تُعـارضه خواطر قاطعة ولا عوارض مانعة عن التوجه والإقبال والقُرْب والاتصال.

قال: الجنُيدْ، رحمه الله: قال لى إبراهيم الآجُرِّى: يا غلام لأن تردَ بِهَمِّك إلى الله طرفةَ عين خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس.

وقال الشبلى، رحمه الله لرجل: هيمـانُ الهمَم فى فضاء العدم، همُّك همٌّ هايج، وهمى همٌّ هايم، و«المحادثة» وصْفٌ لنهاية الصديقين، سئل: أبو بكر الواسطى عن أعْلَى حال لنهاية الصديقين فـقال: هو الطالع والمحدَّث، وقال: النبى ﷺ، فيـما رُوى عنه [١٨٥]: «إن فى أمتى مكلمـون ومحدَّثون وأن عُمَـرَ ﷺ لمنهم» وقال: سـهل بن عبد الله، رحـمه الله [١٨٦]: خلق الله الخلق ليُسارهم ويساروُه، قال الله عز وجل: «خلقتكم لتساروني فإن لم تفعلوا فكلموني وحدثوني فإن لم تفعلوا فناجوني فإن لم تفعلوا فاسمعوا مني».

و«المناجاة» مخاطبة الأسرار عند صفاء الأذكار للملك الجبار.

قال أبو عمرو بن علوان سمعت الجنَيْد رحمه الله ليلةً إلى الصباح يقول في مناجاته: إلهي وسيدي تريد أن تقطعني عنك بوصلك أو تريد أن تخدعني عنك بترك هَيْهات قلت لأبي عمرو: ما معنى هيهات؟ قال: التمكين.

و«المسامرة» عتاب الأسرار عند خفي التذكار، قال الروذباري:

سامَرْتُ صَفْوَ صَبابتي أَشْجانُها حَرَقُ الهَوَى وغَليلُها نيرانُها

وسئل بعض المشايخ عن المسامرة فقال: استدامة طول العتاب مع صحة الكتمان، ورؤية القلوب هو نَظَرُ القلوب إلى ما توارت في الغيوب بأنوار اليقين عند حقائق الإيمان، وهو على معنى ما قال أمير المؤمنين على بن أبي طالب ﷺ حين سئل: هل ترى ربنا؟ فقال: وكيف نعبد من لم نَرَهُ، ثم قال: لم تَرَهُ العيون يعني في الدنيا بكشف العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، قال الله تعالى: ﴿ما كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ ما رَأَى﴾(1) فأثبت الرؤية بالقلب في الدنيا.

وقال النبي ﷺ [187]: أعبُد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، و«الاسم» حُروف جعلت لاستدلال المسمى بالتسمية على إثبات المسمَّى فإذا سقطت الحروف، معناه لا ينفصل عن المسمَّى.

حُكى عن الشبلي رحمه الله أنه كان يقول: ليس مع الخلق منه إلا اسمه وكان يقول: هَاتِ من يقول الاسم باستحقاقه قولا، وكان أبو الحسين النوري رحمه الله يَسْتشهد في إشارته بهذا البيت:

إذَا أُمُّ طِفْلٍ مَسَّها جُوعُ طِفْلِها غَذَتْهُ بِاسْمِ الطِّفْلِ فأَسْتَعْصَمَ الطِّفْلُ

وكان الشبْلي رحمه الله يقول: أُريدُ من قال الاسم وهو يتحقق ما يقول، وكان يقول: تاهت الخليقة في العلم وتاه العلم في الاسم وتاه الاسم في

(1) النجم: 11.

الذات، و«الرَّسْم» ما رُسِمَ به ظاهر الـخلق برسم العلم ورسْم الخلق فيمـتحى بإظهار سلطان الحق عليه.

سئل الُجنَيْد عن رجل غاب اسمه وذهب وصـفه وامتحى رسومه فلا رسْم له قال نَعَمْ عند مـشاهدته قـيام الحق له بنفسـه لنفسه فى مُـلْكه، فيكون ذلك معنى قوله: امتحى رسومه، يعنى عِلْمُـهُ وفِعْلُه المضاف إليه بنظره إلى قيام الله له فى قيامه، قال القائل:

* برُسُـــومٍ دارِســـاتٍ وطَلَلْ *

و«الوَسْم» ما وَسَمَ الله به المخلوقين فى سابق عِلمه بما شاء كيف شاء فلا يتغيـر عن ذلك أبدًا ولا يطلع على علم ذلك أحدٌ، قال أحمـد بن عطاء رحمه الله: يظهر الوسمان على المقبولين والمطرودين لأنَّهما نعتان يجريان على الأبد بما جريا فى الأزل.

و«الروح» و«التروح» نسـيم تُنَسِّمُ به قلوب أهل الحقائق فيـتروح من تَعَبِ ثِقل ما حُمِّلَ من الرعاية بحُسْن العناية، قال يحيى بن مُعاذ رحمه الله: الحكمة جُنْدٌ من جنود الله يُرسلهـا إلى قلوب العـارفين حـتى تُرَوِّحَ عنها وَهَجَ الدنيـا، وقال: روح ولى الله فى القُـدْس تشغله بمـولاه، وقال سُفْـيان: مـجال قلوب العارفين بروضة سـماوية من دونها حُجُبُ الرب مُعَسْكَرُهَا فيـها ومُجتَنَى ثمارها بنعيم رَوْح الأُنْس بالله من القُرْب.

و«النعت» إخبار الناعتين عن أفعال المنعوت وأحكامه وأخلاقه ويُحتمل أن يكون النعت والوصف بمعنى واحد إلا أن «الوصف» يكـون مُجْمَلاً و«النعت» يكون مبسوطًا، فإذا وصف جَمَعَ وإذا فَرَّقَ.

و«الصفـة» ما لا ينفصل عن الموصـوف ولا يقال هو الموصوف ولا غـير الموصوف.

و«الذات» هى الشىء القائم بنفـسه و«الاسمُ» و«النعت» و«الصفة» مَـعالِمُ

للذات فلا يكون الاسم والنعت والصفة إلا لذى ذات، ولا يكون ذو ذوات إلا مسمًّى منعوتًا موصوفًا وذلك أن القادر اسمٌ من أسماء الله تعالى، والقدرة صفة من صفات الله تعالى، والتقدير نعت من نعوت الله تعالى، والمتكلم اسم من أسماء الله عز وجل والكلام صفة من صفات الله تعالى، والغفران نعت من نعوت الله تعالى.

قال الواسطى: ليس مع الخلق منه إلا اسم أو نعت أو صفة، والخلق محجوبون بأسمائه عن نعوته وبنعوته عن صفاته وبصفاته عن ذاته، فمتى ما ذكر العبد تدبيره وتصويره وفضله وطَوْله ذَكَرَ نعوته ونعته بنعوته وإذا ذكر علمه وقدرته وكلامه ومشيئته ذكر صفاته وَوَصَفَهُ بصفاته وقال:

إذا طَلَعَتْ شَمْسٌ عَلَيْكَ بِنُورِهَا ... وأَنْتَ خَلِيطٌ لِلشُّعَاعِ المُبَاشِرِ
بَعِيدٌ مِنَ الذَّاتِ العَزِيزِ مَكانُهَا ... ولَمْ تَعْرَ مِنْ نَعْتٍ لِنَفْسِكَ قَاهِرِ

و«الحجاب» حائلٌ يحول بين الشىء المطلوب المقصود وبين طالبه وقاصده، كان سَرِى السَّقَطى رحمه الله يقول: اللهم مَهْما عذَّبتَنى بشىء فلا تعذِّبْنى بذُلِّ الحجاب.

وقال محمد بن على الكتانى رحمه الله: رؤية الثواب حجاب عن الحجاب ورؤية الحجاب حجاب عن الإعجاب، معناه والله أعلم: أن رؤية العبد الثواب لعبادته وذكْره حجاب له عن الحجاب المَنْهى عنه ورؤيته للحجاب حجاب له عن إعجابه بعلمه.

و«الدعوى» إضافة النفس إليها ما ليس لها، قال سهل بن عبد الله: أغلظ حجاب بين العبد وبين الله الدعوى، وقال:

وَلَما أدَّعَيْتُ الحُبَّ قَالَتْ كَذَبْتَنى ... فَما لِى أَرَى الأعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيا

وكان أبو عمرو الزجَّاجى رحمه الله يقول: من ليس له دعوى فليس فيه

معنى وكان يعنى بذلك أن تُضيف النفس إليها من الطاعات التى ليست من أخلاقها وتكون معها بيِّنةً لما تدعى، و«الاختيار» إشارة إلى ما يختار الله للعبد؛ ويختار العبد ذلك بعناية الله له، حتى يختار باختيار الله له لا باختيار نفسه.

قال يحيى بن مُعاذ رحمه الله: ما دام العبد يتعرف يقال له: لا تختر فإنك لست بأمين فى اختيارك حتى تعرف فإذا عرف يقال له: إن شئتَ فاخْتَرْ وإن شئت فلا تختر، فإنك إن اخترتَ فبنا اخترتَ وإن تركتَ اختيارك فباختيارنا تركت: فأنت بنا فيما تختار وفيما لا تختار.

و«الاختبار» امتحان الحق للصادقين، ليعمر بذلك منازل المخصوصين، ويستخرج بامتحانه لهم منهم صِدْقَهم، إثباتًا لحُجته على المؤمنين؛ ليتأدب بهم المريدون.

ورُوى عن النبى ﷺ أنه قال [١٨٨]: «أُخْبُرْ تَقْلِهْ» يعنى اخبرْ من شئت وامتحْنه حتى تَقَلاَ عند استخراجك بالامتحان صِدْقَهُ عن الحال الذى هو فيه.

و«البلاء»: ظهور امتحان الحق لِعَبْدِه فى حقيقة حاله بالابتلاء؛ وهو: ما ينزل به من التعذيب.

قال: أبو محمد الجَريرى رحمه الله الإنسان حيث ما كان بلاءٌ.

ورُوى عن النبىَّ ﷺ أنه قال [١٨٩]: « نَحْنُ مَعاشِرُ الأنبياء أَشدُّ الناس بلاَءً» الحديث، وقال بعضهم فى البلاء:

دائراتُ البَلا عَلَىَّ تَدُور ... وإلَى مَا تَرَى علىَّ تَثُورْ!؟

مَا أَرَى لِلْبَلاَ بَلاَءً سِواى ... وبَلاَئى عَلى البَلاَءِ كُدُورْ!

فَأنا مِحْنَةُ البَلا؛ وبَلاَئى ... حاضِنٌ لِلْبَلا عَلَيْهِ غَيُورْ

يَا بلاَئى عَلَى البَلا لا تَعَدَّى ... كُنْ بِهِ مالِكًا رَحِيمًا غَفُورْ

يا مُعِينَ البَلاَ عَلَىَّ أَعنى ... فى البَلا؛ فالبَلا عَلىَّ سَعِيرْ

و«اللسان» معناه: البيان عن علم الحقائق.

كتب أبو الحسين النورى رحمه الله إلى الجُنيد كتابًا، فقال فيه: يا سيدى لك فى علم البلاء لسان، وفى علم بلاء البلاء سِنان ـ يعنى بيان عن علمه.

وسئل الشِبْلى رحمه الله عن الفرق بين لسان العلم ولسان الحقيقة فقال: لسان العلم ما تأدّى إلينا بواسطة، ولسان الحقيقة ما تأدى إلينا بلا واسطة.

فقيل له: ولسان الحق ما هو؟

قال: ما ليس للخلق إليه طريق ـ يريد به إذا قال: اللسان، يعنى بيان علمه والكشف عنه بالعبارة.

و«السر»: خَفَاءٌ بين العدم والوجود موجود فى نعماه.

وقد قيل: السر ما غيبه الحق ولم يُشْرِفْ عليه الخلق؛ فسِرُّ الخلق ما أشرف عليه الحق بلا واسطة، وسرُّ الحق ما يطلع عليه إلا الحق، «وسِرُّ السِر» ما لا يحس به السر، فإن أحسَّ به فلا يقال له: سر.

قال سهل بن عبد الله رحمه الله: للنفس سرٌ ما أشاعها الحق إلا على لسان فِرْعَوْن فقال: أنا ربُّكم الأعلى، وقال القائل:

يا سِرَّ سِرٍّ يَدِقُّ حَتَّى ... يَخْفَى عَلى وَهْمِ كلِّ حَيٍّ
وظاهرٌ باطنٌ تَجَلَّى ... مِنْ كلِّ شَيْءٍ لِكُلِّ شَيْءْ

و«العقد» عَقْدُ السر، وهو ما يعتقد العبدُ بقلبه بينه وبينَ الله تعالى أن يفعل كذا أو لا يفعل كذا.

قال الله تعالى: ﴿يأيُها الَّذينَ آمَنُوا أَوْفُوا بالْعقُود﴾[1].

وقيل لحكيم: بِمَ عرفت الله تعالى؟ فقال: بحل العقود وفَسْخ العزائم.

وقال محمد بن يعقوب الفَرَجى فيما حُكى عنه: منذ ثلاثين سنة ما عقدت بينى وبين الله عز وجل عقدًا مخافة أن يَفْسَخَ على ذلك فيكذبنى على لسانى.

(١) المائدة: ١.

ويقال: إن الفرق بين الخاص والعام: أن العامة من المؤمنين قد أوجب الله عليهم الوفاء إذا عهدوا بألسنتهم عهدًا، والخاص: قد أوجب الله عليهم الوفاء إذا عقدوا بقلوبهم عقدًا؛ و«الهم» إشارة إلى جمع الهموم فيجعلها همًّا واحدًا.

قال أبو سعيد الخراز رحمه الله: اجمع همك بين يدى الله تعالى.

وذكر عن بعضهم أنه قال: ينبغى للعبد أن يكون همُّهُ تحت قدمه، يعنى لا يهم بحال ماض ولا بحال مستقبل، ويكون مع وقته فى وقته.

و«اللحظ»: إشارة إلى ملاحظة أبصار القلوب لما يلوح لها من زوائد اليقين بما آمن به فى الغيوب.

قال الروذبارى:

لاحظْتُهُ فرآنى فى مُلاحظتى	فغبْتُ عن رؤيتى منى بمعناهُ
وصادفَتْ همتى لُطفَ الَخفىِّ بما	تمكنَتْ من تكَنٍّ دون منشاه
فلا إلى أحد همى ولا فطَنى	ولا إلى راحة أسلو فأنساهُ
اللهُ يعلمُ أنى لستُ أذكرُهُ	وكيفَ أذكره؟ إذ لست أنساه!

و«المحو»: ذهاب الشيء إذا لم يبق له أثرٌ، وإذا بقى له أثرٌ فيكون طمسًا.

قال النورى رحمه الله: الخاص والعام فى قميص العبودية، إلا من يكون منهم أرفع جذَبَهَم الحق ومحاهم عن نفوسهم فى حركاتهم وأثبتهم عند نفسه.

قال الله تعالى: ﴿**يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ**﴾(١).

معنى قوله: جذبهم الحق: يعنى جمعهم بين يديه، ومحاهم عن نفوسهم: يعنى عن رؤية نفوسهم فى حركاتهم وأثبتهم عند نفسه بنظرهم إلى قيام الله لهم فى أفعالهم وحركاتهم.

و«المحق»: بمعنى المحو؛ إلا أن المحق أتمُّ، لأنه أسرعُ ذهابًا من المحو.

(١) الرعد: ٣٩.

قال رجل للشبلى رحمه الله: مـا لى أراك قَلقًا أليس هو معك وأنت معه؟ فقال الشبلى رحمه الله: لو كنتُ أنا معه فاتنى، ولكنى محوٌ فيما هو.

يعنى: ليس منى شىء، ولا بى شـىء، ولا عنى شىء، والكل منه، وبه، وله، كقول القائل:

كلٌّ لـه وَبه ومـنه فـأيـنَ لى شىءٌ فـأوثرَهُ فطـلحَ لسـانهـا

و«الأثر»: علامةٌ لباقى شىء قد زال.

قال بعضهم: من مُنع من النَّظر استأنس بالأثر، ومن عدِم الأثر تعلل بالذكر، قال القائل:

فـمـا عنـدِى لكـم أثرْ ولم أسـمع لكـم خـبـرْ

ويقال: إنه وُجد على قصر لبعض الملوك مكتوبٌ.

إنَّ آثـارَنـا تـدُلُّ عـلـيـنـا فـانظـروا بعـدنا إلـى الآثار

وقال الخـواص رحمـه الله: فى معنى الأثر، وسـئل عن توحيـد الخاص فقال: التفـريد لله عز وجل فى كل الأشياء بالإعراض عمـا يلحق نفوسهم من آثار الأشياء، وقال:

لو أنَّ دونك بحرَ الصينِ معترضًا لخِلْـتُ ذاك سـرابًـا ذاهبَ الأثر

و«الكون»: اسم مجمل لجميع ما كونه المكوِّن بين الكاف والنون.

و«البَوْن» معناه البينونة.

و«الكون والبون»: معناهما فى علم التوحيد: ما قال الجنيد رحمه الله فى جواب مسألة فى التوحيد يصف المـوحدين فقال: كانوا بلا كون وبانوا بلا بون معناه أن الموحدين يكونون فى الأشيـاء كأنهم لا يكونون، ويبينون عن الأشياء كـأنهم لا يبينـون؛ لأن كونْهم فى الأشـيـاء بأشخـاصهـم وبونْهم عن الأشيـاء بأسرارهم فهذا معنى الكون والبون قال:

لقـدْ تاهَ فى تيـه التـوحُّدِ وحـدَهُ وغـاب بعـزٍّ منك حـين طلبْـتَـهُ

ظهـرْتَ لـمنْ أثبـتَّـهُ بعـد بوْنِهِ   فكان بـلا كـونٍ كـأنـك كنْتَـهُ

والوصل: معناه لحوق الغائب.

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: من لم يعمِّ عينيه عن النظر إلى ما تحت العرش لم يصلْ إلى ما فوق العرش.

يعنى: لم يلحق ما فاته من مراقبة الذى خلق العرش.

وقال الشبلى رحمه الله: من زعم أنه واصلٌ فليس له حاصل.

وقال بعضهم: إنما حُرِموا الوصول لتضييع الأصول، وقال:

وَوَصْلُكُم هجْـرٌ ووُدُّكُم قِـلاً   وقـرْبُكُم بُعْـدٌ وسِـلمُكُم حـرْب

و «الفصل» فوت الشىء المرجوّ من المحبوب.

ذُكر عن بعض الشيوخ: أنه كان يقول: من زعم أو ظن أنه قد وصل فليتَّقِن[1] أنه قد انفصل، وقال آخر: فرَحُ اتصالك ممزوج بترَح الانفصال، وقال القائل:

فـلا وصلٌ وَلا فـصلٌ   ولا يـأس ولا طـمـعْ

و «الأصل» هو الشىء الذى يكون له تزايدٌ، فأصل الأصول الهداية.

و «الأصول» أصول الدين: مثل التوحيد، والمعرفة، والإيمان، واليقين، والصدق، والإخلاص.

و «الفرع» ما تزايد من الأصل، فإذا تزايد من الفرع زيادةً تسمى باسم الأصل.

فالأصل: حُجةٌ للزيادات التى هى الفروع، والزيادات التى هى الفروع: مردودة إلى الأصول؛ والأصل: الهداية والتوحيد والمعرفة، والإيمان والصدق والإخلاص، زياداتها بزيادة الهداية، والأحوال، والمقامات، والأعمال، والطاعات: زيادات هذه الأصول وفروعها، وهى مسماة باسم «الأصول» لتزايدها وتزايد فروعها.

قال عمرو بن عثمان المكى رحمه الله: إقْرارنا بالأصول لزوم الحجة علينا فى التقصير، ولزوم الحجة بالإنكار بعد الإيمان، والإقرار بالأصول.

(١) قوله فليتقن، هكذا فى الأصل ولعل الصواب: فليتيقن.

وقال بعض العلماء: ما دعا إليه الرسول ﷺ، فهو الأصل، وما تزايد عن ذلك الأصل فهو فرعٌ مردود إلى الأصل.

و«الطمس»: مَحْوُ البيان عن الشيء البيِّن.

وقال الجنيد رحمه الله في رسالته إلى أبي بكر الكسائي: وأنت في سُبل ملتبسة ونجوم منطمسة.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طمست﴾[1]، يعني: ذهب ضوْؤُها.

وقال عمرو المكي رحمه الله: وإنك لا تصلَ إلى حقيقة الحق حتى تسْلك تلك الطرُقات المنطمسة، يعني: تُنازل تلك الأحوال التي لم ينازلها أحدٌ غيرك؛ وقد ذهب أثرُها.

و«الرمس» و«الدمْس»: يعني الدفن: ويقال للمقبرة: الدَّيْماس.

قال الجنيد رحمه الله، في رسالته إلى يحيى بن مُعاذ رحمه الله: ثم أدْمَسَ شاهده في دمس الاندماس، وأرمس مَرْمَسَهُ في غيب غافر الارتماس، وأخفى في إخفائه عن إخفائه، ثم قطع النسبة عن الإشارة إليه وعن الإيماء بما تفرد له منه به.

وهذه إشارة إلى حقيقة التوحيد بذهاب الخلق فيما كان، كأنه لم يكن.

وقال سهل رحمه الله: إذا دفنتَ نفسك تحت الثرَى وصل قلبك فوق العرش يعني: إذا خالفْتهَا وفارقتها.

و«القصم»: الكسر.

حكى عن أبي بكر الزقاق رحمه الله: أنه قال: لو أن المعاصي كانت شيئًا اخترتُهُ لنفسي ما أحزنني ذلك؛ لأن ذلك يشهني، وإنما قُصم ظَهري حينَ سبق لي منه ذلك.

وقال الواسطي: ظهرت الأمور كلها في حقائقها على الدهور، فمن شاهدها بشاهد القدَم انقصم مقابلته لذلك.

و«السبب»: الواسطة.

(١) المرسلات: ٨.

والأسباب والوسائط التى بين الخلق وبين الله تعالى.

قال أحمد بن عطاء رحمه الله: من شهد صُنْعَ المسبِّب فى السبب أوْصَلْه مشاهدة صنع المسبِّب إلى السبب؛ لأن من شهد السبب امتلأ قلبه من زينة الأسباب، ومن عرف الأسباب الشاغلة عن الطاعات انقطع عنها واتصل بالأسباب الداعية إلى صالح الأعمال.

ولأبى على الروذبارى رحمه الله:

مَنْ لم يكنْ بكَ فانيًا عنْ حبه ... وعنِ الهوَى والأنسِ بالأحباب
أوْ تَيَمَّتْه صَبابةٌ جمعتْ لهُ ... ما كان مُفترِقًا منَ الأسبابِ
فكأنَّهُ بينَ المراتبِ واقفٌ ... لمنَالِ حظ أو لحسنِ مآبِ

و«النسبة»: الحال الذى يتعرف به صاحبه، بمعنى: انتسابه إليه.

قال جعفر الطيالسى الرازى رحمه الله: النسبة نسبتان: نسبة الحظوظ، ونسبة الحقوق؛ إذا غابت الخليقة ظهرت الحقيقة، وإذا ظهرت الخليقة غابت الحقيقة.

وسئل القناد عن الغريب فقال: الذى ليس له فى العالم نسيب.

وقال النورى رحمه الله: كلما راته العيون نُسب إلى العلم، وكلما علمته القلوب نسب إلى اليقين.

فلذلك قلنا: معنى النسبة الاعتراف.

وقال عمرو بن عثمان رحمه الله: صفة الكسوف للأسرار: أن لا يكون قائمًا فى رؤية ولا متجليًا فى نسبة، يعنى فى الاعتراف.

وفلان «صاحبُ قلبٍ» معناه: أن ليس له عبارة اللسان وفصاحة البيان عن العلم الذى قد اجتمع فى قلبه.

حُكى عن الجنيد رحمه الله أنه كان يقول: أهلُ خرُسان أصحاب قلوب.

و«رَبُّ حال» معناه: أنه مربوط بحال من الأحوال التى ذكرنا من المحبة

والخوف والرجاء والشوق وغير ذلك؛ فإذا كان الأغْلَبَ على العبد حالٌ من هذه الأحوال يقال له: رَبُّ حال.

و«صاحِبُ مقام» معناه: أن يكون مقيما فى مقام من مقامات القاصدين، مثل التوبة، والورع، والزهد، والصبر، وغير ذلك؛ فإذا عُرف بالمقام فى شىء من ذلك يقال له: صاحب مقام.

حُكى عن الجنَيْد رحمه الله أنه قال: لا يبلغ العبد إلى حقيقة المعرفة وصفاء التوحيد حتى يعبر الأحوال والمقامات.

وذُكر عن بعض المشايخ أنه قال: وقفتُ على الشبلى، رحمه الله، غير مرة فما رأيته تكلم إلا فى الأحوال والمقامات.

و«فلان بلا نفس» معناه: أنه لا تظهر عليه أخلاق النفس، لأن من أخلاق النفس الغضب، والحدة، والتكبر، والشَّرَه، والطمع، والحسد.

فإذا كان عبدٌ قد سلَم من هذه الآفات وما شاكلَ ذلك يقال له: بلا نفس، يعنى كأنه ليس له نفس.

قال أبو سعيد الخراز رحمه الله: عبدٌ رجع إلى الله عز وجل فتعلق بالله وركد فى قرْب الله: فقد نسى نفسه وما سوى الله تعالى، فلو قلتَ له: من أنت؟ وإلى أيْنَ؟ لم يكن له جواب غير أن يقول: الله؛ لأنه لا يعرف سوى الله تعالى، لما قد وجد فى قلبه من التعظيم لله عز وجل.

و«فلان صاحِبُ إشارة» معناه: أن يكون كلامه مشتملا على اللطائف والإشارات وعلم المعارف.

قال الروذبارى:

فإنْ تَحقَّقَ صَفْوُ الوَجْدِ مُشْتَمِلاً   عَلَى الإشارات لا يَلْوى عَلَى أحَدِ

وأما قول القائل: أنا بلا أنا، ونحن بلا نحن، يعنى بذلك تخليَهُ من أفعاله فى أفعاله.

سئل أبو سعيد الخراز، رحمه الله عن معنى قوله: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾.

قال: أخلاهم من أفعالهم فى أقوالهم.

وأما قول القائل لصاحبه: أنا أنت وأنت أنا، فمعناه: معنى الإشارة إلى ما أشار إليه الشبلى، رحمه الله: حيث قال فى مجلسه: يا قوم هذا مجنونُ بنى عامرٍ كان إذا سئل عن لَيْلَى، فكان يقول: أنا لَيْلَى، فكان يغيب بلَيْلَى عن ليلى حتى يبقى بمَشْهَد ليلى، ويُغيبُهُ عن كل معنى سوى ليلى ويَشْهَدُ الأشياء كلها بليلى، فكيف يدعى من يدعى محبته، وهو صحيحٌ مُمَيِّزٌ يرجع إلى معلوماته ومألوفاته وحظوظه! فهيهات أنى له ذلك، ولم يزهد فى ذرة منه، ولا زالت عنه صفةٌ من أوصافه؟! مَعَما[1] أن بَذْلَ المجهود للمعبود أدْنى رُتْبَةً عند القوم.

قال الشبلى، رحمه الله: إن متحابين ركبا بعض البحار، فسقط أحدهما فى البحر وغرق، فألقى الآخر نفسه إلى البحر، فغاص الغواصون، فأخرجوهما سالمين، فقال الأول لصاحبه: أما أنا، فقد سقطت فى البحر، أنت لَمِ رميت نفسك فى البحر؟ فقال له: أنا غائب بك عن نفسى، توهمت أنى أنت.

وقال بعضهم: وقف غلام على حلقة الشبلى، رحمه الله فقال: يا أبا بكر أخذنى منى وغَيَّبنى عنى وردنى إلىَّ كما أنا بلا أنا!.

فقال له الشبلى رحمه الله: ويلك من أين لك هذا؟ أعماك الله؟ فقال الغلام: يا أبا بكر من أين لى، أن أعمى فيه؟ ثم هرب من بين يديه.

وقال بعضهم:

ذَكَرْنا وما كنا نَسينا فَنَذْكرُ ... ولكنْ نَسيمُ القُرْبِ يَبْدُو فَيَبْهَرُ

فَأَفْنى بِهِ عَنى وأبْقَى بِهِ لَهُ ... إذِ الحقُّ عنه مُخْبِرٌ ومُعَبِّرُ

---

(١) قوله: معما، لعل الصواب أن يقال: مع أن الخ

وقال بعضهم:

أنا مَنْ أهْوَى وَمَنْ أهْوَى أنا ... فإذا أبْصَرْتَنى أبصَرْتَنا

نَحْنُ رَوحانِ مَعًا فى جَسَدٍ ... ألبسَ اللهُ عَلَيْنا البَدَنَا

وقال غيره:

يا مُنْيَةَ المُتَمَنِّى ... أفنَيْتَنى بِكَ عَنِّى

أدْنَيْتَنى منْك حَتى ... ظَنَنْتُ أنكَ أنِّى

وهذه مخاطبةٌ لمخلوق فى هواه، فكيف لمن أدَّعَى محبة من هو أقربُ إليه من حَبْلِ الوَرِيد؟!.

وأما قول القائل: «هو بلا هو»: فهى إشارة إلى تفريد التوحيد، كأنه يقول: هو بلا قول القائل: هو، ولا كتابة الكاتب، هو، وهو بلا ظهور هذْين الحرفين، يعنى الهاء والواو، بمعنى: هو.

قال الجنُيَدْ، رحمه الله: فى وصف التوحيد، فقال: حُكْمُها على ما جَرَتْ عليه جارٍ، وسلطانها على كلٍ حق عالٍ، ظهرت فقهرت، وخفيت فاستترت، وصالت فغالت؛ هى هى بلا هى، تُبْدِى فتبيدُ ما بَدَتْ عليه، وتُفْنى ما أشارت إليه، قريبها بعيدٌ، وبعيدُها قريبٌ، وقريبها مُرِيبٌ.

وقد أشار الجنُيَدّ، رحمه الله: إلى معنى ما ذكرتُ، والله أعلم.

وأما «قطْعُ العلائق» فمعنى العلائق: الأسباب التى قد علق على العبد وشغله بذلك حتى قطعه عن الله تعالى.

قال أبو سعيد الخراز، رحمه الله: أهل التوحيد قطعوا منه العلائق، وهجروا فيه الخلائق، وخلعوا الراحات، وتوحشوا من كل مأنوس، واستوحشوا من كل مألوف.

و«بادى بلا بادى»: يريد بذلك ما يبدو على قلوب أهل المعرفة من الأحوال والأنوار وصفاء الأذكار؛ فإذا قال: «البادى» أشار إلى ذلك، فإذا قال: «بلا بادى» أشار إلى أن البادى مُبْدِئ، هو يُبْدِى هذه البوادى على القلوب.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾(١) فإذا شاهد الحال الذى أبْدَأَ به هو المبدئ، فقال: بادى وأثبته، وإذا شاهد المبدئ الذى منه البوادى يقول بلا بادى.

قال الخواص: رحمه الله، فى كتاب معرفة المعرفة: الحق إذا بدا، بدا بلا بادى، ولا بادى، من حيث، لا بادى؛ لأن البادى أفنى كل بادى، من حيث البادى، فلا بادى، وهو بادى، من حيث لا بادى؛ وإنما ذلك على قرب مشاهدة الحق منهم.

و«التحلى»: التلبس، والتشبه بالصادقين، بالأقوال، وإظهار الأعمال.

رُوى عن النبى ﷺ إنه قال [١٩٠]: «ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقته الأعمال».

وقال بعضهم:

مَنْ تَحلى بِغَيْرِ ما هُوَ فيه ... فَضَحَتْهُ شَواهِدُ الامْتِحانِ

و«التَّجلى»: إشراف أنوار إقبال الحق على قلوب المقبلين عليه.

وقال النورى، رحمه الله: تجلى لخلقه بخلقه، واستتر عن خلقه بخلقه.

وقال الواسطى، رحمه الله: فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾(١) قال: تغابن أهل الحق على مقادير الفناء والرؤية والتجلى.

وقال النورى رحمه الله: بتجليه حسنت المحاسن وجملت، وباستتاره قبحت وسمجت.

---

(١) البروج: ١٣.

(٢) التغابن: ٩.

وقال بعضهم:

قَـــدْ تَجَـلى لِقَـلْبِـــهِ مِنْـهُ نورٌ   فـاسْـتَـضـاءَتْ بِهِ منَ الظُّلمـاتِ

و«التخلِّي»: هو الإعراض عن العوارض المشغلة، بالظاهر والباطن، وهو اختيار الخلوة، وإيثار العزلة، وملازمة الوحدة.

قال الجنَيْـد، رحمه الله: القلوب المحـفوظة لا يعرضهـا وليُّها؛ لمجـانبة محـادثة غيـره، ضنًّا منه لها، ونظرًا منه لهـا، وإبقاءً عليـها؛ لَيخْلُـصَ لهم ما أصفاهم به وما جمعهم له، وما عاد به عليهم.

وهذه بعض الصفات من أراده الله للخلوة به، وجـمعه للأُنس، وحال بينه وبين ما يكرهه له.

وعن يوسف بن الحسين، رحمه الله: فى مـعنى التَّخَلِّى قال: هو العزلة، لأنه لم يَقوَ على نفسه وضعف، فاعتزل من نفسه إلى ربه.

وقال بعضهم:

إنَّ قَلْبَ الفَـتـى ولَوْ عـاشَ دَهْرًا   فى الهَـــوَى لا يكادُ أنْ يَتَـــخَلى

و«العلة»: كناية عن بعض ما لم يكن فكان.

حُكى عن الشبلى، رحـمه الله: أنه كان يقول فى صـفة الخلق: إن الذل كائنُهُمْ، والعلة كَوْنهُمْ.

وقـال ذو النون المصـرى، رحمـه الله: علة كل شيء: صُنعـه، ولا علة لصُنعه، مـعناه ـ والله أعلم ـ: أن وجود النقصان فى كل شيء مـصنوع كائن؛ لأنه لم يكن فكان، وليس فى صُنع الصانع لمصنوعاته علةٌ.

وقال بعضهم:

يا شِـــفـــائى مِنَ الـسَّـــقـــا   مِ وإنْ كـــنْـــتَ عِـــلـــتـــى

و«الأزل»: معناه معنى القِـدَم؛ لأن القديم يسمى به غيـر البارئ؛ ويقال:

شىء أَقْدَمُ من شىء؛ والأزل والأزلية لله تعالى لا يتسمى بالأزل شىء غير الله جل جلاله، و«الأزل» اسم من أسماء الآولية، فهو الله الأول القديم الذى لم يزل ولا يزال، و«الأزلية» صفة من صفاته.

قال بعض المتقدمين: الحق فيما لم يزل كهو فيما لا يزال؛ فقومٌ استحسنوا هذه المقالة، لنفى التغيير عن الحق؛ لأنه بجميع أسمائه وفعاله لم يزل، وقومٌ قالوا: يَلْزَمُ القائلَ لهذا، القولُ بقِدَم الأشياء؛ وفرقوا بين أسماء الفعل وأسماء الذات، وصفات الفعل وصفات الذات، والله أعلم.

و«الأبد» و«الأبدية»: نعت من نعوت الله تعالى، والفرق بين الأزلية والأبدية: أن الأزلية لا بداية لها ولا أولية، والأبدية لا نهاية لها ولا آخرية.

وسئل الواسطى عن الأبد فقال: إشارة إلى ترك انقطاع فى العدد ومَحْوِ الأوقات فى السَّرْمَد.

وقال: الوسم والرسم: نعتان يجريان فى الأبد بما جريا فى الأزل.

وقال آخر: الأزل والقِدَم والأبد غير مرتفعة فى حقيقة الآحدية؛ لأنها عبارات وإشارات تعرَّفَ بذلك إلى خلقه لخلقه.

وحُكى عن الشبلى رحمه الله: أنه قال: سُبْحان من كان ولا مكان، ولا زمان، ولا أوان، ولا دهر، ولا أبد، ولا أزل، ولا أول، ولا آخر؛ وهو فى حال ما أَحْدَثَ الأشياء، غيرُ مشغول عنهم، ولا مستعين بهم، عدلٌ فى جميع ما حكم عليهم.

وقال عمرو بن عثمان المكى رحمه الله: سبحان الصمد، القديم فى أزل، لم يزل فى سَرْمَد الأبد.

و«وقتى مُسَرْمَدٌ» وأما قول القائل: وقتى مسرمد، يعنى بذلك أن الحال الذى بينه وبين الله لا يتغير فى جميع أوقاته، وهو كلام واجدٍ خبَّر عن نعت

سره لا عن نعت صفاته؛ لأن الصفات كائنة التغيير، وهى متغيرة إذا لم تتغير لأنها إذا لم تتغير فقد تُغُيِّرَ عن الحال الذى جَبلتْ عليه.

قال بعضهم، وهو الشبلى:

تَسَرْمَدَ وَقتِى فيكَ وَهوَ مُسَرْمَدٌ ... وأَفنيتنى عَنِّى فصرْتُ مُجرَّدًا

«بَحْرِى بلا شاطئ» وقول القائل: بحرى بلا شاطئ، معناه أيضًا قريب من المعنى الذى ذكرنا فى الوقت المسرمد؛ وهذه لفظة قد حُكيت عن الشبلى رحمه الله تعالى أنه قال - يومًا فى مجلسه فى عقيب كلام جرى له - قال: أنتم أوقاتكم مقطوعة، ووقتى ليس له طَرَفان، وبحرى بلا شاطئ، يعنى بذلك أن الحال الذى خصنى الله تعالى به من التعظيم لله، وخالِصِ الذكر له، والانقطاع إليه، لا نهاية لها ولا انقطاع؛ والشىء إذا لم تكن له نهاية ولا غاية، فلا يُعَبَّرُ عنه بأكْثر من ذلك.

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مدادًا لكَلمَات ربِّى لَنَفدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كَلمَاتُ ربِّى وَلَوْ جِئْنَا بمِثْله مَدَادًا﴾[1] لم يجعل لها غاية لأن الموصوف بها ليس له نهاية.

وقال بعضهم: من عرف الله أحبَّهُ، ومن أحبه غرق فى بحر الهم.

وقال آخر:

لَوْ أنَّ دُونكَ بحرَ الصينِ مُعترضًا ... لخَلْتُ ذاكَ سرابًا ذاهبَ الأثرِ

وقول القائل: «نحن مُسَيَّرُونَ» يريد بذلك تسيير القلوب وسيرها عند انتقالها من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام.

وقال يحيى بن مُعاذ رحمه الله: الزاهد سيَّار، والعارف طيَّار؛ يعنى فى سرعة الانتقال فى المقامات والأحوال عند الزوائد وطُرَف الفوائد.

(١) الكهف: ١٠٩.

قال بعضهم، وهو الشبلي:

لَسْتُ مِنْ جُمْلة المُحِبِّينَ إنْ لَمْ ... أجْعَلِ القَلْبَ بَيْتَهُ والمقاما
وَطَوافي إخالُهُ السَّيْرَ فيهِ ... وَهْوَ رُكْني إذا أردْتُ أسْتلاما

يريد بذلك: سير القلوب.

و«التلوين» معناه: تلوُّنُ العبد في أحواله، قال قومٌ: علامة الحقيقة التلوين؛ لأن التلوين ظهور قدرة القادر ويُكْتَسَبُ منه الغيرة؛ ومعنى التلوين: معنى التغيير.

فمن أشار إلى تلوين القلوب وتغير الأحوال فقال: علامة الحقيقة رَفْعُ التلوين، ومن أشار إلى تلوين القلوب والأسرار الخالصة لله تعالى في مشاهدتها وما يردُ عليها: من التعظيم والهيبة وغير ذلك من تلوين الواردات فقال: علامة الحقيقة التلوين؛ لأنهم في كل سير مع الله تعالى في زيادة من تلوين الواردات على أسرارهم وأما تلوين الصفات فهو كما قال القائل:

كلُّ يَوْم تَتَلَوَّنْ ... غَيْرُ هذا بكَ أجْمَلْ

قال الواسطي: رحمه الله: من تخلق بخُلُقه لم تقع به طوارق التلوين في طبعه.

ولبعضهم هذان البيتان في صفة المسيَّرين:

زَجَرْتُ فؤادي فلم ينزَجِرْ ... وَيطلبُ شيئًا ومنهُ يفرْ
يسيرُ إلى الحقِ مُستظهرًا ... وإني عَلَيهِ شفيقٌ حَذِرْ

و«بذْل المهج» معناه: بذْلُ مجهود استطاعة العبد على قدر طاقته في توجهه إلى الله تعالى وإيثاره الله عز وجل على جميع محابِّه.

قال: الخواص رحمه الله: وكل متوجه يتوجه إلى الله عز وجل، ومَواضعُ الاستراحة فيه قائمة، فلا ينفذ في توجهه.

قال القائل:

يا مَليحَ الدَّلِّ والغُنُجِ ... لَكَ سُلْطانٌ عَلَى المُهَجِ

ومعنى «المُهَج»: جميع المحبوبات إليك، من النفس، والمال، والولد.

و«التلف» معناه: معنى الحتْف؛ والحتف والتلف: ما يُنْتَظَرُ منه الهلاك فى حينه.

وقد حكى عن أبى حمزة الصوفى أنه قال: وقعتُ فى بئر فطموا رأسها، فأيستُ من نفسى وسلمت الأمر إلى الله تعالى واستسلمت؛ فإذا بسبعٍ قد نزل البئر فتعلقتُ برجله فأخرجنى من البئر، فسمعت هاتفًا يقول: يا أبا حمزة هذا حَسَنٌ، نجيناك من التلف، فقال أبياتًا وفيها هذان البيتان:

أراكَ وبى من هيْبتى لكَ وحْشةٌ ... فتُؤْنسُنى باللطف منكَ وبالعطف
وتُحْيى مُحبًا أنتَ فى الحبِّ حتفُهُ ... وذا عجبٌ: كَوْنُ الحياة مع الحتف

قال الجريرى رحمه الله: من يَقفْ على علم التوحيد بشاهد من شواهده زل به قَدَمُ الغرور فى مهواةٍ من التلف.

و«اللجأ»: توجه القلوب إلى الله تعالى بصدق الفاقة والرجاء.

قال الواسطى رحمه الله: من لم يكن فى صدق الفاقة واللجأ إلا عند الموت، بقيَت الذلة عليه على دوام الأوقات.

وقال بعض أهل الفهم فى معنى قوله: ﴿وقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنى مُدْخَلَ صِدْقٍ وأَخْرِجْنى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾(1) قال: أظْهرَ محمد، ﷺ، من نفسه صدق اللجأ بصدق الفاقة بين يدى الله تعالى، وبصدق اللجأ ترتبت السرائر.

و«الانزعاج»: تحرك القلب للمراد باليقظة من سنة الغفلة.

ذُكر عن الجنيد رحمه الله أنه قال فى بعض كلامه: كيف لا تسمو إليه السرائر، وتنزعج بما فيها إليه الضمائر! وكيف لا تسرع إليه الأقدام بالطاعة، وتنهض إليه بالجد والمبادرة، أُنسًا منها ببلاياه وسرورًا بعظيم عطاياه!.

و«الانزعاج» و«الازدعاج» بمعنى الانكساب والاكتساب.

(1) الإسراء: 80.

وقد قيل لبعض المشايخ، أظنُّه إبراهيم الخواص رحمه الله: أصحابك يقولون: نحن نأخذ من الله إذا أخذنا، ولا نراهم إلا يأخذون من الناس، فقال: من ذا الذى يُزعج قلوب الناس حتى يُعْطوهم من غير أن يطلبوا منهم شيئًا ويسألوهم؟.

و«جذب الأرواح».

فأما جذب الأرواح وسُمُوُّ القلوب ومشاهدة الأسرار والمناجاة والمخاطبة وما يشاكل ذلك؛ فإن أكثرَ ذلك عباراتٌ تُعبر عن التوفيق والعناية، وما يبدو على القلوب من أنوار الهداية على مقدار قرب الرجل وبُعده وصدقه وصفائه فى وجده.

قال أبو سعيد الخراز: إن الله تعالى جذب أرواح أوليائه إليه، ولذذها بذكره والوصول إلى قربه، وعجل لأبدانهم التلذذ بكل شىء؛ فعيْشُ أبدانهم عيش الحيوانيين، وعيش أرواحهم عيش الربانيين.

وقال الواسطى رحمه الله: إنما أشهدَهم ألطافهُ التى بها جذب سرائرهم إلى نفسه وقال: إذا جذب الأرواح عن الأشباح، ثبت الأشباح مع العقول والصفات؛ لأنه حجبها بشرط العقول، وآيسهم أن يكون لهم شىء من غير سرائرها بقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ﴾[1].

و«الوَطر»: مُنيةُ وتمتع محمودة خارجة عن نعت البشرية وحظوظ النفسانية، ويقال: فلان هو المتمكن فى وطنه والمعلى فى وَطَره.

قال القائل:

تَرَحَّلْتُ يا ليلى ولم أقضِ أوطارى ... وما زلْتُ محزونًا أحنُّ إلى دارى

وقال ذو النون رحمه الله:

أموتُ وما ماتتْ إليكَ صبابتى ... ولا قُضيتْ عن وِرْدِ حُبِّك أوطارى

مُناى المنى كلُّ المنى أنت لى مُنًى ... وأنت الغنا كلُّ الغنا عند إقتارى

(١) يونس: ٥٨ ونص الآية: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾.

وقيل لحكيم: أيُّ المواطن أحبُّ للسكون والتوطن فيه؟

فقال: أحب المواطن إلى صاحبه: موطن إذا دعا فيه أوطارَه أجابتْه، والوطن وطن العبد حيث انتهى به الحال واستقر به القرار.

ويقال: قد توطن فى حال كذا ومقام كذا.

قال الجنيد رحمه الله فى كلام له: إن لله عبادًا على وطنات مطى حُمْلانه يركبون، وبالسرعة والبدار إليه يستبقون.

وقال النورى رحمه الله:

أمــا تــرَى هيَّمنــى شــرَّدنــى عــنْ وطنــى
إذا تــغيَّبــتُ بَــدا وإنْ بــدا غيَّبنــى
يقــولُ لا تَشْهــدُ مــا تشهــدُ أو تَشْهــدَنى

وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله: الإيمان أفضلُ من اليقين؛ لأن الإيمان وطنات واليقين خطرات.

وإنما وصفَ قدرَ ما شاهد من يقينه، ووصف نفسه بذلك، وأراد بذلك غرْبته عنده، لأن اليقين صفاء العلم فى القلب واستقراره فيه، والناس فيه متفاوتون.

و«الشرود»: نفْرُ الصفات من منازلات الحقائق وملازمة الحقوق.

قال ابن الأعرابى رحمه الله: أوَما تراهم مشرَّدين، فى كل وادٍ يهيمون، ولكل بارق يتبعون؟!.

قال الواسطى: غذاهم بتربية الأحوال، ونعَّمهم بالملاحظة لهم فى الأعمال.

يجب على المرء أن يكون فى صدق الفاقة واللجأ فى أيام حياته؛ لئلا يردَ عليه ذلك الشرود، فيحس بذُلِّ الشرود، ويطلب من كل أحد عونًا بدعاء ويكلمه؛ ولو كانت صحة الوجد فى الوجد فى الأوقات مصحوبه، ما أصابه ذلك الشرود.

و«القصود»: معناه: الإرادات والنيات الصادقة، المقرونة بالنهوض إليه.

حُكى عن أحمد بن عطاء رحمه الله أنه قال : من قصد فى قصوده غير الحق فقد عظمت استهانته بالحق.

وقال الواسطى رحمه الله: خواطر القصود، جُحود للمعبود، وكيف يشهد القصود من هو فى معانى المقصود؟ معناه: أن من يشاهد المقصود فى قصده سقط عنه رؤية قصده فى قصده.

و«الاصطناع»: مرتبة خُص بها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والصديقون.

وقال قوم: الاصطناع خص به موسى من جميع الأنبياء عليهم السلام لقوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾(1).

وقال قوم: هي مرتبة الأنبياء عليهم السلام دون غيرهم.

قال أبو سعيد الخراز رحمه الله: أول بادٍ من الحق قد أخفاهم فى أنفسهم وأمات أنفسهم فى أنفسهم، واصطنعهم لنفسه؛ وهذا أول دخول فى التوحيد من حيث ظهور التوحيد بالدَّيمومية.

وسئل بعضهم عن قوله جل جلاله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾﴿ ولِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى﴾(2) فقال: ما نجا نبيٌّ ولا ولىٌّ من محنته، ولا سلم أحد فى منته من فتنته.

و«الاصطفاء» معناه: الاجتباء فى سابق العلم، وهو اسم مشترك، قال الله تعالى: ﴿واجْتَبَيْنَاهُمْ وهَدَيْنَاهُمْ﴾(3)، وقال الله تعالى: ﴿اللهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ومِنَ النَّاسِ﴾(4).

وقال الواسطى رحمه الله: ابتدأك بنفسه، واصطفاك لنفسه، فمن استعظم ذلك حَسُنَتْ إخطار نفسه فيما بَذَلَتْ؛ فإن قابلتَهُ بنفس العناية تضمَّنك ما منه من الهداية.

(1) طه: 41.
(2) طه: 39.
(3) الأنعام: 87.
(4) الحج: 75.

و«المسْخ»: معناه مسخُ القلوب؛ وذلك للمطرودين من الباب؛ كانت لهم قلوب متوجهــةٌ فمسخَت بالإعراض عنها، وجعلـت توجهها إلى الحظوظ دون الحقوق؛ فإذا قال القائل: فلان قد مُسخ به معناه: أى أعْرَض بقلبه.

و«اللطيفة»: إشــارة تلوحُ فى الفهم وتلمعُ فى الذهن، ولا تَسَعُهــا العبارة لدقة معناها قال أبو سعيــد ابن الأعرابى، رحمه الله: الحق: يريدك بلطيفة من لدنْه تُدْرِكُ بها ما يريد بك إدراكهُ.

وقال أبو حمزة الصوفى، رحمه الله:

تلَّطفْتَ فى أمرى فأبدأتَ شاهدى إلى غائبى واللطفُ يُدْرَكُ باللطف

و«الامــتحــان»: ابتلاء من الحــق يحل بالقلوب المــقبلة على الله تعــالى، و«محنتُها»: انقسامها وتشتُّها.

حُكى عن خير النساج رحمه الله أنه قــال: دخلتُ بعض المساجد، فتعلق بى شابٌ من أصــحابنا فــقال لى: يا شيخ، تعطف علىَّ فــإن محنتى عظيــمة، فقلت: وما مــحنتك؟ فقال: افتــقدت البلاء وقورنت بالعافــية، وأنت تعلم أن هذه محنةٌ عظيمة.

و«الامتحان» على ثلاثة، لقوم منهم عقوبة، ولقوم منهم تمحيص وكفارة، ولقوم استدعاء الزيادة، وارتفاع درجة.

و«الحَدَث»: اسم لما لم يكن فكان.

قال بعــضهم: إذا أراد الله، تعــالى تنبيه العــامة أحْدَث فى الــعالم آية من آياته، وإذا أراد تنبيه الخاصة أزال عن قلوبهم ذِكرَ حَدَثِ الأشياء.

و«الكلية»: اسم لجــماع الشىء الذى لم يبق منه بقــيةٌ؛ فإذا قــال القائل: الكل، يريد بذلك: أن لم يبق منه بقية إلا بمعناه.

قال بعضهم: لا يكون العبد عبدًا بالكلية ويكون منه لغير الله بقيةٌ.

وقال آخر: إن أقبلتَ عليه بكليتك أقبلَ عليك بكل الكل، وقال:

بل كل ما كل مِنْ كُلِّى عليكَ كما بكلٍّ كــلك كُلِّى كــانَ مِــنشــاهُ

و«التلبيس»: تحلِّى الشىء بنعت ضِده.

حُكى عن الواسطى، رحمه الله، أنه قال: التلبيس عين الربوبية، معناه: أن المؤمن يُظهره فى زى الكافر، والكافر فى زى المؤمن، قال الله تعالى: ﴿ولَلَبَسْنا علَيهمْ ما يَلْبَسُونَ﴾(١).

وقال الُجنَيْد، رحمه الله: امتزج بالالتباس واختلط متلونًا فى الإحْساس، وما يتغير عنها فى الالتباس يُؤخَذَ عنه كأسرع مأخوذٍ ومُختلَسٍ، وللقنَّاد فى هذا المعنى:

بِنا يُكْشَفُ التَّلبيسُ فى كـل ماكرٍ إذا طاحَ فى الدَّعْوى وطاحَ انتحالهُ

و«الشرب»: تلقى الأرواح والأسرار الطاهرة لما يردُ عليها من الكرامات وتنعمها بذلك، فشبه ذلك بالشِّرْب، لتهنيهِ وتنعمه بما يردُ على قلبه من أنوار مشاهدة قُرْب سيده.

قال: ذو النون، رحمه الله: وردتْ قلوبهم على بحر المحبة فاغترفتْ منه رِيًا من الشراب، فشربت منه بمخاطرة القلوب فسهل عليهم كلُّ عارضٍ عرض لهم دون لقاء المحبوب.

وقال القائل فى هذا المعنى:

شَرِبْتُ كـاسًا عَلَى ذِكْرَاكَ صَافِيَةً فـمـا يُـعَلِّلُ فِـيكَ القَلْـبُ تَعْليلُ

فما وَجَدْتُ لِشَىْءِ عَنْكَ لى شُـغُلاً لا عِـشْتُ إنْ قُلْتُ: إنِّى عَنْكَ مَشْغُولُ

«الذوْق»: ابتداءُ الشِّرْب.

قال ذو النون رحمه الله: لمَّا أراد أن يسقيهم من كأس محبَّته ذَوَّقهم من لذاذته وأَلْعقَهم من حلاوته.

قال القائل فى هذا المعنى:

يَقُـولُونَ تَـكْلَى ومَنْ لَـمْ يَذُقْ فِـراقَ الأحِـبَّـةِ لَمْ يَثْكَلِ

(١) الأنعام: ٩

و«العَيْن»: إشارة إلى ذات الشيء الذى تبدو منه الأشياء.

قال الواسطى رحمه الله: وقومٌ علموا مصادر الكلام من أين، فوقعوا على العَيْن فأغناهم عن البحث والطلب.

وقال الجنَيْد رحمه الله: حكايات أبى يزيد البسطامى رحمه الله تدلُّ على زنه كان قد بلغ إلى عَيْنِ الجَمْع، و«عين الجمع»: اسم من أسماء التوحيد، له نعتٌ ووصفٌ يعرفه أهلُهُ.

وقال النورى:

مَضَى الجَميعُ فلا عينٌ ولا أثَرٌ مُضِيَّ عادٍ وفِقْدَانَ الألَى إرَمِ

و«الاصطلام»: نعت غَلَبَةٍ تَرِدُ على العقول فيستلبها بقوَّة سلطانه وقَهْره.

قال بعضهم: قلوب ممتحنة وقلوب مصطلَمة، وإن وقع الاصطلام فهو ذهابُهُ وطَمْسُهُ، قال:

إذا ما بَدَتْ لى تَعَاظَمْتُها فأَصْدُرُ فى حالِ مَنْ لَمْ يَرِدْ

فَيُصْطَلَمُ الكلُّ منِّى بها ويُحْجَبُ عنِّى بها ما أجِدْ

و«الحرِّية»: إشارة إلى نهاية التحقق بالعبودية لله تعالى، وهو أن لا يملكك شىءٌ من المكونات وغيرها، فتكون حُرًا إذا كنتَ لله عبدًا، كما قال بِشْرٌ لسَرِى رحمهما الله فيما حُكى عنه أنه قال: إنَّ الله تعالى خلقك حُرًا، فكن كما خلقك، لا تُرَائى أهْلك فى الحَضَر، ولا رُفقتك فى السَّفَر، اعملْ لله ودَعِ الناس عنك.

قال الجنَيْد رحمه الله: آخرُ مقام العرف، الحرِّية.

وقال بعضهم: لا يكون العبد عبدًا حقًّا ويكون لما سوى الله مُسْتَرَقًّا.

و«الرَّيْن»: هو الصَّدَأ الذى يقع على القلوب.

قال الله تعالى: ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

(١) المطففين: ١٤.

وقال بعض أهل العلم: حُجُبُ القلوب على أربعة أوْجُه: فمنها الختم والطبع، وذلك لقلوب الكفار، ومنها الرَّيْن والقَسْوة، وذلك لقلوب المنافقين، ومنها الصدأ والغشاوة، وذلك لقلوب المؤمنين.

سئل ابن الجلاء: لِمَ سُمِّى أبوك الجلاء؟ فقال: ما كان بجلاءِ الحديد، ولكن كان، إذا تكلم على القلوب جلاها من صدأ الذُّنوب.

و«الغَيْن»: قد أكثروا فى وصفه، وهو خَبَرٌ ضعيفٌ، قد رُوى عن النبى ﷺ أنه قال [١٩١]: «إنَّه لَيُغَانُ على قلبى فأستغفرُ الله وأتوبُ إليه فى اليوم مائة مرة» فقالوا: الغَين الذى كان يعارض قلبَ النبى ﷺ، وكان يتوب منه، مَثَلُه مثلُ المرآة إذا تنفس فيها الناظر فينقص من ضوئها ثمَّ تعود إلى حالة ضوئها.

وقال قوم: هذا مُحال؛ لأن قلْب النبى ﷺ لا يلحقه قهرٌ من الخلق، لأنه مخصوص بالرؤية.

قال الله تعالى: ﴿مَا كذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾(١)، وليس لأحد أن يحكم على قلب النبى ﷺ، بوصْف، أو نعت، أو يشبهه بشىء، أو يضرب له مثلاً، أو يعِّلله بعلة خفيَّة أو جلية.

وقال أبو على الروذبارى رحمه الله فى معنى الإغانة:

الغَينُ يُحْبَسُ عَنْ تَحْصيلِ لُبْسَته	لِقَلْبِ لابسٍ حقٍّ بانَ عن عِلَلَهْ
فإن تَرَاءَتْ بِسَبْقِ الحقِّ رُؤْيَتُهَا	كان التغَيُّنُ فى التصريف عن ثِقَلَهْ
لكننى قُلْتُ ما لاحَتْ طَوَالِعُهُ	مِنَ المُؤَمَّلِ تَنْبيهٌ إلى أمِلِهْ
والثَّوْبُ مِنْهُ عَلَى مَعْنَى الوِفَاقِ وَمَا	تُبْدِى سَرَائرُها غَيْنًا لِمُحْتَمِلِهْ

وهذه الألفاظ قد شرحناها على حسب ما فتح الله به على قلبى فى الوقت،

(١) النجم: ١١.

والذى بقى أكثرُ، وإن استقصيت فى شرحها يطول به الكتاب، ويخرج عن الاختصار.

ونذكر بعد ذلك شرح الشطحيات من كلامهم الذى يكون ظاهره مستشنعًا، وباطنه صحيحًا مستقيمًا، والله الموفق للصواب.

و«الوسائط»: الأسباب التى بين الله تعالى وبين العبد من أسباب الدنيا والآخرة.

سئل بعض المشايخ عن الوسائط فقال: الوسائط على ثلاثة أوْجُه: وسائط مواصلات، ووسائط متَّصلات، ووسائط منفصلات.

فالمواصلات بَوَادى الحق، والمتَّصلات العبادات، والمنفصلات حظوظ النفس.

وقال أبو على الروذبارى رحمه الله: وهو الذى جعل الوسائط رحمةً للعارفين؛ ليُؤْثِرُوه عليها.

كتاب تفسير الشطحيات والكلمات التى ظاهرها مستشنع وباطنها صحيح مستقيم

باب فى معنى الشطح والرد على من أنكر ذلك برأيه

إن سأل سائلٌ فقال: ما معنى الشَّطْح؟

فيقال: معناه عبارةٌ مستغربَةٌ فى وَصْف وَجْدٍ فَاضَ بقوَّته، وهاجَ بشدَّة غليانه وغلبته.

وبيان ذلك: أن الشطح فى لُغة العرب: هو الحَرَكة، يقال: شَطَحَ يَشْطَحُ إذا تحرَّك، ويقال للبيت الذى يحوزون فيه الدَّقيقَ، المِشْطَاحُ، قال الشاعر:

قِفْ بشط الفراتِ مشرعةِ الخيـ ... ـل قبَيْلِ الطريق بالمِشْطَاحِ

بالطواحين مِنْ حِجارةِ بِطْريـ ... ـقٍ بِدَيْرِ الغزلانِ دَيْرِ المِلاحِ

وإذا لاحَ بالمُسَناةِ ظَبيٌ ... قَد كَساهُ الإشراقُ ضَوْءَ الصَّباحِ

فاقرِ ذاكَ الغَزال منى سَلامًا ... كلما صاحَ صائحٌ بِفَلاحِ

وإنما سمى ذلك البيت«المشطاح» من كثرة ما يحركون فيه الدقيق فوق ذلك الموضع الذى ينخلونه به؛ وربما يفيضُ من جانبيه من كثرة ما يحركونه؛ فالشطح: لفظة مأخوذة من الحركة؛ لأنها حركَةُ أسرار الواجدين إذا قَوِىَ وجُدْهم فعبَّروا عن وجدهم ذلك بعبارة يستغرب سامعها؛ فمفتون هالك بالإنكار والطعن عليها إذا سمعها، وسالم ناج برفع الإنكار عنها والبحث عما يشكل عليه منها بالسؤال عمن يعلم علمها، ويكون ذلك من شأنها.

ألا ترى أن الماء الكثير إذا جرى فى نهر ضيق فيفيض من حافتيه؟! يقال شطح الماء فى النهر! فكذلك المُريد الواجد: إذا قوى وَجْدُهُ، ولم يطقْ حَمْلِ

ما يردُ على قلبه من سطوة أنوار حقائقه، سطع ذلك على لسانه، فيترجم عنها بعبارة مستغربَة مُشكلة على فهوم سامعيها؛ إلا من كان من أَهْلها، ويكون مُتَبَحِّرًا في علمها، فَسُمِّيَ ذلك على لسان أهل الاصطلاح: شَطْحًا.

وبَعْدُ فإن الله تعالى فتح قلوب أوليائه وأذنَ لهم بالإشراف على درجات متعالية، وقد جاد الحق تعالى على أهل صفوته والمتحققين بالتوجه والانقطاع إليه بكَشف ما كان مستترًا عنهم قَبلَ ذلك من مراتب صفوته ودرجات أهل الخصوص من عباده.

فكل واحد منهم ينطق بحقيقة ما وجد ويصدق عن حاله، ويصف ما ورد على سره بنطقه ومقاله؛ لأنهم لا يرون حالاً أَعْلَى من حالهم حتى يحكموها، فإذا أحكموها فعند ذلك يَسْمون بهممهم إلى حالة أعلى من ذلك حتى تنتهى الطُرق والأحوال والأماكن إلى غاية ونهاية، هى أعلى النهايات وغاية الغايات.

قال الله تعالى: ﴿وَفوقَ كل ذى علْم عَليمٌ﴾[1].

وقال: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُم فَوق بَعْض دَرَجَات﴾[2].

وقال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض﴾[3].

وليس لأحد أن يبسط لسانهُ بالوقيعة فى أوليائه ويقيسَ بفهمه ورأيه ما يسمع ألفاظهم وما يُشْكِلُ على فهمه من كلامهم، لأنهم فى أوقاتهم متفاوتون، وفى أحوالهم متفاضلون ومتشاكلون ومتجانسون بعضهم لبعض، ولهم أشكالٌ ونظراء معروفون، فمن بان شَرَفه وفضله على أشكاله، بفضل علمه وسعة معرفته، فله أن يتكلم فى عللهم وأصابتهم، ونقصانهم وزيادتهم، ومن لم يسلك سبلهم، ولم ينحُ نحوَهم، ولا يقصد مقاصدهم؛ فالسلامة له فى رفع الإنكار عنهم، وأن يكل أمورهم إلى الله تعالى، ويتَّهم نفسه بالغلط فيما ينسبهم إليه من الخطأ، وبالله التوفيق.

(١) يوسف: ٧٦. (٢) الزخرف: ٣٢. (٣) الإسراء: ٢١.

باب تفسير العلوم وبيان ما يُشْكل على فهم العلماء من علوم الخاصة وتصحيح ذلك بالحُجة

قال الشيخ رحمه الله: إعلم أن العلم أكثر من أن يحيط به فهمُ الفهماء أو يدركه عقول العقلاء، وكفاك بقصة موسى والخضر عليهما السلام مع جلالة موسى عليه السلام وما خصه الله به من الكلام والنبوة والوحي والرسالة.

وقد ذكر الله تعالى في المحْكم الناطق على لسان نبيه الصادق، عَجزَ موسى عليه السلام عن إدراك علم عبد من عباده إذ قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عبدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاه رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾(1) الآية، حتى سأله فقال: ﴿هَلْ أَتَّبعكَ﴾(2) الاية؟ مع تأييد موسى عليه السلام وشرفه وعصمته من الإنكار عليه؛ على أن الخضر عليه السلام لم يلحق درجة موسى عليه السلام في النبوة والرسالة والتكليم أبدًا.

وقال النبي ﷺ [١٩٢]: «لو تعلمون ما أعلُم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا ولما تلذذتم بالنساء، ولا تقاررتم على فرُشكم، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى، والله لوددتُ أني كنت شجرةً تُعْضَدُ» رواه إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورق عن أبي ذر عن النبي ﷺ.

وفي هذا الخبر دليل على أن قوله: ﴿يأيها الرَّسُول بَلّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ ربِّكَ﴾(3) ولم يقل ما تعرَّفنا به إليك.

وقوله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم» لو كان من العلوم التي أُمر بالبلاغ لبلغهم، ولو صلح لهم أن يعلموه لعلمهم؛ لأن الله تعالى خص النبي ﷺ بعلوم ثلاث:

---

(1) الكهف: ٦٥. (2) الكهف: ٦٦.

(3) المائدة: ٦٧.

عِلم بيِّن للخاصة والعامة، وهو: علم الحدود والأمر والنَّهْي.

وعلم خُص به قومٌ من الصحابة دون غيرهم: هو العلم الذى كان يعلم حُذَيفة بن اليمان ﵁ حتى كان يسأله عمر بن الخطاب ﵁ مع جلالته وفضله ويقول: يا حذيفة، هل أنا من المنافقين؟

وكذلك رُوى عن على بن أبى طالب ﵁ أنه قال [١٩٣]: «علمنى رسول الله ﷺ سبعين بابًا من العلم لم يعلم ذلك أحد غيرى»، قال: «وكان أصحاب رسول الله، ﷺ، إذا أشكل على أحدهم شىء يلتجئون فى ذلك إلى على بن أبى طالب ﵁.

وعِلم خُص به رسول الله، ﷺ، لم يشاركه فيه أحد من أصحابه: وهو العلم الذى قال: لو تعلمون ما أعلم.

فمن أجل ذلك قلنا: لا ينبغى لأحد أن يظن أنه يحوى جميع العلوم حتى يُخَطىءَ برأيه كلام المخصوصين ويكفرهم ويزندقهم وهو متعرٍّ من ممارسة أحوالهم ومنازلة حقائقهم وأعمالهم.

وعلوم الشريعة على أربعة أقسام:

فالقسم الأول منها: علم الرواية والآثار والأخبار، وهو العلم الذى ينقله الثقات عن الثقات.

والقسم الثانى منها: علم الدارية وهو: علم الفقه والأحكام، وهو: العلم المتداول بين العلماء والفقهاء.

والقسم الثالث: علم القياس والنظر والاحتجاج على المخالفين، وهو: علم الجدل وإثبات الحجة على أهل البدع والضلالة نصرةً للدين.

والقسم الرابع: هو أعلاها وأشرافها، وهو: علم الحقائق والمنازلات، وعلم المعاملة والمجاهدات، والإخلاص فى الطاعات، والتوجه إلى الله عز وجل من

جـميع الجهـات، والانقطاع إلـيه فى جـميع الأوقـات، وصـحة القـصـود والإرادات، وتصفيـة السرائر من الآفات، والاكتـفاء بخالق السـموات، وإماتة النفوس بالمخالفات، والصدق فـى منازلة الأحوال والمقامات، وحُسْن الأدب بين يدى الله فى السر والعلانية فى الخطوات، والاكتـفاء بأخذ البُلغة عند غلبة الفـاقات، والإعراض عن الـدنيا وترك مـا فيهـا، طلبًا للـرفعة فى الـدرجات، والوصول إلى الكرامات.

فمن غلط فى علم الرواية غلطًا لم يسأل عن غلطه أحدًا من أهل الدراية.

ومن غلط فى علم الدراية شيئًا لا يسأل عن غلطه أحدًا من أهل علم الرواية.

ومن غلط فى شىء من علم القـياس والنظر فلا يسـأل عن غلطه أحدًا من أهل علم الرواية والدراية.

وكذلك من غلط فى شىء من علم الحقائق والأحوال فلا يسأل عن غلطه إلا عالمًا منهم كاملا فى معناه.

ويمكن أن توجَد هذه العلـوم كلها فى أهل الحقـائق، ولا يمكن أن يوجد علم الحقـائق فى هؤلاء إلا ما شاء الله؛ لأن علم الـحقائق ثمـرة العلوم كلها، ونهاية جمـيع العلوم، وغاية جميع العـلوم إلى علم الحقائق؛ فاذا انتـهى إليها وقع فى بحر لا غاية له، وهو علم القلوب، وعلم الـمعارف، وعلم الأسرار، وعلم الباطن، وعلم التـصوف، وعلم الأحوال، وعلم المعـاملات، أىَّ ذلك شئت، فمعناه واحد.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(١).

ألاَ ترى أن هؤلاء لا ينكرون شيئًـا من علومهم، وهم ينكرون علوم هؤلاء إلا ما شاء الله؟.

وكل صنف من هؤلاء إذا تبحر فى علمه، فصار مُتـقنًا فى فهمه فهو السيد لأصحابه لا بد لهم من الرجوع إليه فيما يشكل عليهم.

(١) الكهف: ١٠٩.

فإذا اجتمعت هذه الأقسام الأربعة في واحد فهو الإمام الكامل، وهو القطب والحُجة والداعي إلى المنهج والمحَجة.

كما روى عن علي بن أبي طالب، ﷺ أنه قال، في كلام له لكُمَيل بن زياد: اللهم بَلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحججه لئلا تبطلَ آياته وتدْحضَ حُجته، أولئك الأقلون عددًا، والأعظمون عند الله تعالى قدرًا.

وقد رجعتُ إلى معنى الشطح وتفسير الشطحيات، وأقلُّ ما يوجَدُ لأهل الكمال الشطح؛ لأنهم متمكنون في معانيهم، وإنما وقع في الشطح من كان في بداية، وكان مرادًا بالوصول إلى الكمال والغاية، فتكون بدايتُهُ نهاية الإرادات، وهي في معناها: بداية الغايات والكمال والنهايات.

والله أعلم بالصواب.

باب فى كلمات شطحيات تحكى عن أبى يزيد

[قد فسر الجنيد] طرفًا منها

قال الشيخ رحمه الله: قد فسر الجنيد رحمه الله شيئًا قليلا من شطحيات أبى يزيد رحمه الله، والعاقل يستدل بالقليل على الكثير، ومن المحال أن أجدَ للجنيد رحمه الله تفسيرًا لكلامه، فأدَعَ ذلك وأتكلمَ من عندى له جوابًا غيره.

قال الجنيد رحمه الله: الحكايات عن أبى يزيد مختلفة، والناقلون عنه فيما سمعوه مفترقون؛ وذلك، والله أعلم، لاختلاف الأوقات الجارية عليه فيها، ولاختلاف المواطن المتداولة بما خص منها؛ فكلٌّ يحكى عنه ما ضبط من قوله، ويؤدى ما سمع من تفصيل مواطنه.

وقال الجنيد رحمه الله: وكان من كلام أبى يزيد رحمه الله، لقوته وغوره وانتهاء معانيه، مغترَفٌ من بحر قد انفرد به؛ وجُعل ذلك البحر له وحده.

قال الجنيد رحمه الله: ثم إنى رأيت الغاية القُصْوى من حاله، يعنى من حال أبى يزيد رحمه الله، حالا قلَّ من يفهمها عنه أو يعبر عنها عند استماعها؛ لأنه لا يحتمله إلا من عرف معناه وأدرك مُستقاه، ومن لم تكن هذه هيئته عند استماعه فذلك كله عنده مردود.

وقال الجنيد رحمه الله: رأيت حكايات أبى يزيد رحمه الله، على ما نَعتُّه ينبئ عنه: أنه قد غرق فيما وجد منها وذهب عن حقيقة الحق، إذا لم يرد عليها، وهى معانٍ غرقته على تارات من الغرق، كلٌّ واحد منها غير صاحبتها.

وقال الجنيد رحمه الله: أما ما وصف من بدايات حاله فهو قَوِىٌّ مُحكم،

قد بلـغ منه الغاية، وقـد وصف أشياء من علـم التوحيـد صحـيحـة، إلا أنها بدايات، فيما يُطلب منها المرادون لذلك.

وهذه الكلمات التى أريد أن أذكرها ليست هى مـما يكتبُ فى المصنفات؛ لأنهـا ليست من العلوم المـبثـوثة عند العلماء، ولكن رأيـت الناس قد أكـثروا الخوض فى معانيهـا: فواحد قد جعله حُجة لباطله، وآخر قد اعـتقد فى قائلها الكفر، والجميع قد غلطوا فيما ذهبوا إليه، والله الموفق للصواب.

باب ذكر حكاية حكيت عن أبى يزيد البسطامى

رحمه الله تعالى

وقد شـاع فى كلام الناس أنه قـال: ذلك، ولا أدرى: يصح منه، ذلك أم لا؟.

ذكر عن أبى يزيد أنه قـال: رفعنى مرةً فأقـامنى بين يديه، وقال لى: يا أبا يزيد، إن خلقى يحبون أن يَرَوْك.

فقلت: زَيِّنى بوحدانيتك، وألْبِسْـنِى أنانيتك، وارفعنى إلى أحديتك، حتى إذا رآنى خَلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هنا.

فإن صح عنه، ذلك فقد قال: الجنُيَدْ، رحمه الله، فى كتاب تفسيره لكلام أبى يزيد، رحمـه الله: هذا كلام من لم يُلبسه حـقائق وجْد التفريـد فى كمال حق التوحيد، فيكون مستغنيًا بما ألبسه عن كون ما سأله.

وسـؤاله لذلك يدل على أنه مـقارب لمـا هناك، وليس المـقـارب للمكان بكائن فيه على الإمْكان والاستمكان.

وقوله: ألْبسنى وزَينى وارفعنى: يدل على حقيقة ما وجده مما هذا مقدارُهُ ومكانه، ولم يَنَل الحظوة إلا بقدر ما استبانه.

قلت: فهذا الذى فـسر الجنُيَدْ، رحمـه الله، فقد وصف حالهُ فيـما قال: وبين مكانَهُ فيما أشار إليه أبو يزيد، رحمه الله.

فأما ما يجـدُ المتعنت والمعاند مقـالا بالطعن على من يقول مثل ذلك فلم يبين.

وإلى ذلك المعنى والمقْصَد وبالله التوفيق.

وقوله: رفعنى مـرةً، فأقامنى بين يديه، يعنى أشهـدنى ذلك وأحضر قلبى لذلك؛ لأن الخلق كلهـم بين يدى الله تعـالى، لا يذهب عليـه منهم نفَسٌ ولا

خاطر، ولكن يتفاضلون فى حضورهم لذلك ومشاهدتهم، ويتفاوتون فى صفاتهم من كدورة ما تَحْجُبُ بينهم وبين ذلك من الأشغال القاطعة والخواطر المانعة.

وقد روى فى الحديث عن النبى ﷺ كان إذا أراد أن يدخل فى الصلاة يقول [١٩٤]: وقفتُ بين يدى الملك الجبار.

وأما قوله: قال لى، وقلتُ له، فإنه يشير بذلك، إلى مناجاة الأسرار وصفاء الذكر عند مشاهدة القلب لمراقبة الملك الجبار فى آناء الليل والنهار.

فقِسْ على ما بيَّنتُ لك، فإن الجميع يشبه بعضُهُ بعضًا، واعلم أن العبد إذا تيقن بقُرْب سيده منه، ويكون حاضرًا بقلبه مراقبًا لخواطره؛ فكل خاطر يخطر بقلبه فكأن الحق يخاطبه بذلك، وكل شىء يتفكر بسره فكأنه يخاطب الله تعالى به؛ إذِ الخواطر وحركات الأسرار وما يقع فى القلوب، بَدْوهُ من الله وانتهاؤهُ إلى الله.

فهذا على هذا المعنى، والله أعلم بالصواب.

وقد قال القائل:

مَثَّلْتُهُ المنَى فَظَلَّ نَديمى ... فتَنَعَّمتُ فاقدًا للنَّعيم

مَثَّلْتُهُ حَتى كأنى أُناجيه ... بِسِرى وَسِرهِ المكتُومِ

وقال آخر:

قال لى حِينَ رِمْتُهُ ... كلُّ ذا قَدْ عَلِمْتُهُ

لوْ بَكَى طُولَ عُمْرهِ ... بدَمٍ ما رَحِمْتُهُ

يريد مناجاة الأسرار، ومثلُ ذلك كثير فى الشعر وغيره.

وأما قوله: زَيِّنى بواحدانيتك، وألبسنى أنانيتك، وارفعْنى إلى أحديتك: يريد بذلك الزيادة والانتقال من حاله إلى نهاية أحوال المتحققين بتجريد التوحيد والمفردين لله بحقيقة التفريد.

وقد ذكر عن رسول الله ﷺ، فيما روى عنه [١٩٥]: «سبق المفرِّدون قيل: يا رسول الله، ومن المفردون؟ قال: الحامدون الله فى السراء والضراء».

وأما قوله: ألبسنى أنانيتك حتى إذا رآنى خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هناك: فهذا وأشباه ذلك تصف فناءه، وفناءه عن فنائه، وقيام الحق عن نفسه بالوحدانية، ولا خَلْقَ قَبْلُ، ولا كون كان.

وكل ذلك مستخرج من قوله ﷺ [١٩٦]: يقول الله تعالى: «مازال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُهُ كنتُ عَينه التى يبصر بها، وسمعه الذى يسمع به، ولسانه الذى ينطق به، ويده التى يبطش بها، كما جاء فى الحديث».

وقد قال القائل فى وجده بمخلوق مِثلهُ، وقد وصف وجده بمحبوبه حتى قال:

أَنا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنا ... فإذا أَبصَرْتَنى أَبصَرْتَنا

نَحْنُ رُوحانِ معًا فى جَسَدٍ ... ألبسَ اللهُ عَلَيْنا البَدَنا

فإذا كان مخلوقٌ يجدُ بمخلوقٍ، حتى يقول مثل ذلك، فما ظنك بما وراء ذلك؟ وبلغنى عن بعض الحكماء أنه قال: لا يبلغ المتحابان حقيقة المحبة حتى يقول الواحد للآخر: يا أنا.

وشرحُ ذلك يطول إن استقصيتُ، وفيما ذكرتُ كفاية، وبالله التوفيق.

باب آخر فى تفسير حكاية ذكرت عن

أبى يزيد رحمه الله

قال الشيخ رحمه الله: قلتُ: وقد حُكى أيضًا عنه أنه قال: أول ما صِرْتُ إلى وحدانيته، فصِرْتُ طَيرًا جسمه من الأحدية، وجناحاه من الدَّيمومية؛ فلم أزَلْ أطيرُ فى هواء الكَيفية عشر سنين، حتى صرتُ إلى هواء مثل ذلك مائةَ أَلْف أَلْف مرة، فلم أزل أطيرُ إلى أن صرتُ فى مَيدان الأزلية، فرأيت فيها شجرة الأحدية.

ثم وَصَفَ أرضها وأصلها وفَرْعها وأغصانها وثمارها، ثم قال: فنظرتُ فعلمتُ أن هذا كله خُدْعة.

قال الجنيد، رحمه الله: أما قوله: أول ما صرتُ إلى وحدانيته: فذاك أول لحظه إلى التوحيد، فقد وصف ما لاحظ من ذلك، ووصف النهاية فى حال بلوغه، والمستقَرَّ فى تناهى رُسوخه.

وهذا كله طريقٌ من طريق المطلوبين بالبلوغ إلى حقيقة علم التوحيد بشواهد معانيها، منظوراً إليها، متوهًا بأهلها فيها، مُرْسلين فى حق ما لاحظوه مما شهدوه.

وليس لذلك إذا كان كذلك غاية كُنْه يقْوَى عليه المطلوبُ به، ولا رُسوبٌ فى إرْماس يصيرون إليه، بل ذلك علىً شاهد التأبيد فيه، وإيثار التخليد فيما وجدوا منه.

وقال الجنيد، رحمه الله: وأما قول أبى يزيد أَلْف أَلْف مرة فلا معنى له؛ لأن نعته أجلُّ وأعظمُ مما وصفه وقاله، وإنما نَعَتَ من ذلك على حسب ما

أَمْكَنَهُ، ثم وصف ما هناك، وليس هذا، بَعْدُ، الحقيقة المطلوبة، ولا الغاية المستوعبة، وإنما هذا بعضُ الطريق.

فهذا ما فسره الجنيد، رحمه الله، وفيه بُلغة وكفاية لمن يفهم والله الموفق للصواب.

قال الشيخ رحمه الله: غير أن الجنيد قد تكلم على حال أبى يزيد، رحمه الله، فيما شطح به وما نطق بذلك عن وجده.

فأما ما يجدُ المتعنِّت مطعنًا فيما قال أبو يزيد فلم يذكره؛ وهو قوله صرتُ طيرًا، ولم أزل أطيرُ، فكيف يتهيأ للمرء أن يصير طيراً ويطير؟.

والمعنى، فيما أشار إليه، سمو الهمم وطيران القلوب، وذلك موجود فى لغة العرب: أن يقول القائل: كدُتْ أطيرُ من الفرح، وقد طار قلبى وكاد يطيرُ عقلى.

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله: الزاهد سيار، والعارف طيار، يريد بذلك: أن العارف ـ فى قصده إلى مطلوبه ـ أسْرَعُ من الزاهد، وهذا جائز.

وقد قال الله تعالى ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِه﴾[1].

روى عن سعيد بن جبير رحمه الله عليه فى معنى تفسيره: ألحقنا به ما سبقَ له من السعادة والشقاوة.

وقال الشاعر:

رُبَّ يَوْمٍ كأنهُ يَوْمَ بَانُوا ... منْ دموع الفراق يومٌ مطيرُ

لَوْ ترانى رأيتَ يومَ تولَّوْا ... جسدًا واقفًا وَقلبا يطيرُ

«وأما قوله»: وما يضيف جناحيه وجسمه إلى الأحدية والديمومية، يريد

(١) الإسراء: ١٣.

بذلك تَبَرِّيه من حوله وقوته فى طيرانه، يعنى فى قصده إلى مطلوبه، وأن يضيف فعله وحركته، فى قصده إلى الأحد الدائم، بلفظة مستغربة.

ومثل ذلك موجودٌ فى كلام الواجدين والمستهترين، وإذا كان الغالبُ على سر الواجد وقلبه ذكْرُ من يجدُ به، يصفُ جميع أحواله بصفات محبوبه، مثل مجنون بنى عامر: كان إذا نظر إلى الوحش يقول: ليلى! وإن نظر إلى الجبال يقول: ليلى! وإن نظر إلى الناس يقول: ليلى! حتى إذا قيل له: ما اسمك وما حالك؟ يقول: ليلى، وفى ذلك قال:

أمُرُّ على الديار ديار ليلى ... أُقَبِّلُ ذا الجدارَ وَذا الجدارا

وَما حُبُّ الديار شغفنَ قلبى ... ولكنْ حُبُّ منْ سكنَ الديارا

وقال غيره:

أُفَتِّشُ سرى عنْ هَواكُم فلا أَرَى ... سواىَ وَأَنِّى عنكَ والكنهُ أكبرُ

فإنْ وَجَدَتْ أنى ففى الوَجدْ أنَّها ... فإنْ عَبَّرتْ عنى فعنها تعبِّرُ

ومثل ذلك كثير ومستحسن من القائلين فى معنى ما قالوا فى وصف وجدهم بمخلوق وفى هوى باطل، والإشارة فى معنى المراد من ذكر ذلك تغنى عن العبارة وبالله التوفيق.

وأما معنى قوله: عشر سنين، وألْف ألْف مرة، وميدان الأزلية، وهواء الكيفية: فذاك قد قال الجنيد رحمه الله: أنه وصف بعض الطريق.

فيما قال الجنيد رحمه الله: كفاية عن كلامنا وتكرارنا فى هذا.

وأما قوله فنظرت فعلمت أن ذلك كله خدعة، معناه ـ والله أعلم ـ: أن الالتفات والاشتغال بالملاحظة إلى الكون والمملكة: خدعة عند وجود حقائق التفريد وتجريد التوحيد.

فمن أجل ذلك قال الجنيد رحمه الله: لو أن أبا يزيد، رحمه الله، على عظم إشارته خرج من البداية والتوسط! ولم أسمع له نطقًا يدل على المعنى الذى ينبئ عن الغاية! وذلك ذكره للجسم، والجناح والهواء، والميدان.

وقوله: فعلمت أن ذلك كله خدعة؛ لأن عند أهل النهاية أن الالتفات إلى أى شىء سوى الله خدعة، فمن أنكر ذلك فقد قال سيد الأولين والآخرين، ﷺ [١٩٧]، أصدق كلمة قالتها العرب قَوْلُ لبيد:

* ألا كلُّ شىءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ(١) *

(١) وتمامه: وكل نعيم ـ لا محالة ـ زائل.

باب أيضًا فى شرح كلام حُكى عن أبى يزيد

رحمه الله تعالى

قال الشيخ رحمه الله: وقد ذُكر عن أبى يزيد أيضًا أنه قال: أشرفتُ على ميدان الليْسية، فما زلتُ أطير فيه عشر سنين، حتى صرت من ليس فى ليس بليس، ثم أشرفت على التضييع، وهو ميدان التوحيد، فلم أزل أطير بليس فى التضييع، حتى ضعت فى الضياع ضياعًا، وضعت فضعت عن التضييع بليس فى ليس فى ضياعه التضيع، ثم أشرفت على التوحيد فى غيبوبة الخلق عن العارف، وغيبوبة العارف عن الخلق.

قال الجنيد، رحمه الله: هذا كله وما جانسه داخلٌ فى علم الشواهد على الغيبة عن استدراك الشاهد، وفيها معان من الفناء بتغيُّب الفناء عن الفناء.

ومعنى قوله: أشرفت على ميدان الليسية، حتى صرت من ليس فى ليس بليس: فذاك أول النزول فى حقيقة الفناء، والذهاب عن كل ما يُرَى ولا يُرَى، وفى أول وقوع الفناء انطماس آثارها.

وقوله: ليس بليس، هو ذهاب ذلك كله عنه وذهابه عن ذهابه، ومعنى ليس بليس: أى ليس شىء يُحَسُّ ولا يوجد، قد طُمِسَ على الرسوم، وقُطِعَت الأسماء، وغابت المحاضر، وبُلعت الأشياء عن المشاهدة، فليس شىء يوجد، ولا يحس بشىء يُفقد، ولا اسم لشىء يُعهد، ذهب ذلك كله بكل الذهاب عنه، وهو الذى يسميه قومٌ الفناء، ثم غاب الفناء فى الفناء، فضاع فى فنائه، فهو التضييع الذى كان فى ليس به، وبه فى ليس.

وذلك حقـيقة فَـقْد كل شىء، وفـقد النفس بعد ذلك، وفـقد الفـقد فى الفقد، والارتمـاس فى الانطماس، والذهاب عن الذهاب، وهذا شىء ليس له أمد ولا وقت يُعْهَد.

وقال الجنيد، رحمه الله: ذِكرُهُ لعشر سنين: هو وقتُه، ولا معنى له؛ لأن الأوقات فى هذا الحال غـائبة، وإذا مضى الوقت وغاب بمعـناه عمن غُيِّبَ عنه فعشر سنين ومائة وأكثر من ذلك كله، فى معنى واحد.

قال الجنيد، رحمه الله، فيما بلغنى: ثم قال أبو يزيد، رحمه الله: أشرفت على التـوحيد فى غـيبـوبة الخلق عن العارف، وغـيبوبة العـارف عن الخلق: يقول: عند إشـرافى على التوحـيد تحقـق عندى غيبـوبة الخلق كلهم عن الله تعالى، وانفراد الله عز وجل، بكبريائه عن خليقته.

ثم قال الجنيـد، رحمه الله: هذه الألفاظ التى قال أبـو يزيد، رحمه الله: معروفة فى إدخال المراد فيما أُريد منها.

فهذا ما بلغنى عن الجنيد، رحمـه الله فى تفسير هذه الكلمات لأبى يزيد، رحمه الله: والذى فـسر الجنيد، رحمه الله أيضًا: مـشكل إلا عند أهله؛ فإنما يشكل ذلك وأشباهه على من لم يتبحر فى العلم، ولم ينظر فى الروايات، وما دُوِّن فى الكتب عند العلمـاء، فى وصف عظمـة الله تعالى، وكـبريائه؛ حـتى يستدل بذلـك على ما لم يدوَّن فى الكتب مما انفـرد، وخُصَّ به قلوب أوليائه وخاصته وخالصته.

على أن الفهماء من العلماء بالله: يعلمون أن كل من شاهد زيادته فى حاله الذى خص به من أحوال المنقطعين إلى الله، تعـالى، فهو فى زيادة الحال مع الله، عز وجل، فى كل نفَس وطرفة عين من المـزيد، كائنة فى كل نفَس فيما

رُبط به من الحال، فهو فى الانتقال فى كل نَفَسٍ من حال إلى حال، إلى ما لا نهاية له، حتى يبلغ وطنهُ فى مكانه إلى محله الذى هو مراد بذلك، فكل حال هو منقول إليه، فهو: فانٍ به عن الحال الذى انتقل منه. وهذا معنى قوله: الفناء، والفناء عن الفناء، والذهاب، والذهاب عن الذهاب، وضَعِتُ فَضعْتُ عن التضييع ضياعًا، وإن كانت عباراته مختلفة، فإن معانيه متفقة، وحقائقه متسقة.

وبيان ذلك، فيما رُوى عن عبد الله بن عباس ﷺ، فى قوله تعالى: **﴿ثمَّ استوى إلى السماءِ وَهِيَ دُخانٌ فقالَ لهُا وَللأرْضِ ائتيا طَوْعًا أوْ كَرْهًا قالتاَ أتَيْنا طائعينَ﴾**(١).

قال: فقالت الملائكة: يا رب، فلو لم تأتك، ما كنت صانعا بهما؟

قال: كنت أُسلط عليهما دابة من دوابى تبتلعهما فى لُقمة.

قالت: يا رب، وأين تلك الدابة؟

قال: فى مرج من مروجى.

قالت: يا رب، وأين ذلك المرج؟

قال: فى غامض علِمى.

ألا ترى أن فى الدابة واللقمة ذهاب السموات والأرض، وفى المرج ذهاب الذهاب، وفى الذهاب تنبيه قلوب العارفين؟! فما شاهد بقلبه ذلك، فكيف يشهد نفسه، والمُلك، وجميع ما خلق الله تعالى؟.

(١) فصلت: ١١.

ويقـال: إن فى بعض الكتب أن الله أوحى إلى جـهنم: إن لم تأتمرى مـا آمرُك به لأحرقَّنك بنيرانى الكبرى.

فقيل لبعض العارفين: ما معنى قوله: لأحرقنك بنيرانى الكبرى؟

قال: يطالع بذرَّة من حـبه قَدَمَهُ، فـيكون مَثَل جهنم فـيها كتنور خـباز فى حريق الدنيا، بل أقل من ذلك.

ومعنى قوله: ليسَ بليس فى ليس: فـإنه يشير إلى ليسيته فيـما هو فيه؛ إذ الأشياء كلـها فى معانيـها، ووجودها أشباح فـيما لله تعالى، فـهى، وإن كانت بالإيجاد مرسومة فى حقائقهـا بالعدم والتلاشى، مرسومة، ولأهل الحقائق فى مشاهدتها مراتب مقسومة، ﴿والله يَقبِض ويَبْسُط وإليه ترْجَعونَ﴾[1].

(١) البقرة: ٢٤٥.

باب آخر فى شرح ألفاظ حكيت عن أبى يزيد رحمه الله
وكان يكفره فى ذلك ابن سالم بالبصرة
وَذِكْرُ مناظرة جرت بينى وبينه فى معنى ذلك

قال الشيخ رحمـه الله: سمعت ابنُ سالم يقول فى مجلسـه يومًا: فِرْعَوْنُ لم يقل ما قال أبو زيد رحمـه الله، لأن فرعون قال: أنا ربُّكم الأعلى، والرب يسمَّى به المـخلوق، فيـقال: فلان رَبُّ دار وربُّ مـال، وربُّ بيت، وقال أبو يزيد رحمـه الله: سُبْحـانى سُبْحـانى، وسُبُّوح، وسـبحان اسمٌ من أسـماء الله تعالى الذى لا يجوز أن يسمى به غير الله تعالى.

فـقلت له: هذا الكلام قد صح عـندك عن أبى يزيد، رحمـه الله، وصح عندك أن اعتـقاده فى ذلك: كان كاعـتقاد فرعـون فى قوله: أنا ربُّكم الأعلى؟ فقـال ابن سالم: قد قـال ذلك حتى يصح عندى: أنه أيْشَ أراد بـذلك؟ يلزمه الكفر.

فقلت: إذا لم يتهيـأ لك أن تشهد عليه بما اعتـقدَ عند قوله ذلك فبطل أن تكفره، لأنه يَحْـتَمِلُ أن يكون لهذا الكلام مقـدماتٌ، فيقـول: يعقبه سـبحانى سبحانى: يحكى عن الله تعـالى يقول: سبحانى سبحـانى، لأنا لو سمعنا رجلا يقول: ﴿لا إله إلاَّ أنا فاعْـبُدُونِ﴾ ما كان يختـلج فى قلوبنا شىءٌ غير أن نعلم: أنه هو ذا يقرأ القرآن، أو هو ذا يصف الله تعالى بما وصف به نفسه.

وكذلك لو سمعنا دائبًا، أبا يزيد، رحمه الله أو غيره، وهويقول: سبحانى سبحانى: لم نشك بأنه يسبح الله تعالى، ويصفه بما وصف به نفسه.

وإذا كان الأمـر هكذا وعلى مـا قلناه، فتكفـيرك لرجلٍ مـشهـور بالزهد، والعبادة، والعلم، والمعرفة: من أعظم المُحالات.

وقد قصدتُ بسطام وسألت جماعة من أهل بيت أبى يزيد رحمه الله عن هذه الحكاية : فأنكروا ذلك وقالوا : لا نعرف شيئًا من ذلك ؛ ولولا أنه شاع فى أفواه الناس ودونوه فى الكتب ما اشتغلت بذكر ذلك .

وسمعت ابن سالم أيضًا، وهو يحكى فى مجلسه عن أبى يزيد رحمه الله ، أنه قال : ضربت خيمتى بإزاء العرش أو عند العرش وكان يقول هذه الكلمة كفرٌ ، ولا يقول مثل هذا إلا كافرٌ .

وكان يقول أيضًا : إن أبا يزيد ، رحمه الله ، اجتاز بمقبرة اليهود ، فقال : معذورون ، ومر بمقبرة المسلمين فقال : مغرورون .

ومع جلالة ابن سالم كان يُسْرف فى الطعن على أبى يزيد رحمه الله ، وكان يكفره من أجل أنه قال ذلك .

فقلت : له عافاك الله! إن علماء نواحينا يتبركون بتربة أبى يزيد ، رحمه الله ، إلى يومنا هذا ، ويحكون عن المشايخ المتقدمين أنهم كانوا يزورونه وكانو يتبركون بدعائه ، وهو عندهم من أجِلة العُباد والزُهاد وأهل المعرفة بالله ، ويذكرون أنه فاق أهل عصره بالورع والاجتهاد ودوام الذكر لله تعالى ؛ حتى حكى عنه جماعة أنهم رأوه قد ذكر الله تعالى ، حتى بال الدم من خشية الله تعالى ودوام تعظيمه لله عز وجل .

وكيف يجوز أن نعتقد فيه الكفر بحكاية تحكى عنه ولم نعرف إرادته فيما قال ، ولا نطلع على حاله فى الوقت الذى قال؟! وهل يجوز لنا أن نحكم عليه فيما يبلغنا عنه إلا بعد أن يكون لنا حال مثل حاله ، ووقت مثل وقته ، ووجد مثل وجده؟ أوَليس قد قال الله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[1] .

(١) الحجرات : ١٢ .

فهذا كلام جرى بينى وبين ابن سالم فى مجلسه فى الحكايات التى حكاها عن أبى يزيد رحمه الله، أو كلام هذا معناه أو قريب من معناه.

فأما قوله: ضربت خيمتى بإزاء العرش أو عند العرش: فإن صح عنه أنه قال ذلك: فهذا غير مجهول أن الخلق كلهم، والكون، وجميع ما خلق الله، تعالى: تحتَ العرش، وبإزاء العرش.

ومعنى قوله: ضربت خيمتى بإزاء العرش، يعنى: وجهتَ خيمتى نحو مالك العرش، ولا يوجد فى العالم موضع قدمٍ إلا وهو بإزاء العرش، فلا سبيل للمتعنِّت فى هذا بالطعن.

وأما قوله عند اجتيازه بمقبرة اليهود، وقوله: معذورون أى: كأنهم معذورون، فكأنه، لما نظر إلى ما سبق لهم من الله بالشقاوة واليهودية من غير فعل، كان موجودًا فى الأزل، وأن الله تعالى جعل نصيبهم منه السخط عليهم، فكيف يتهيأ لهم أن يكونوا مستعملين إلا بعمل أهل السخط؟! فقال: كأنهم معذورون، وهم غير معذورين، من حيث ما رسم القلم، ونطق به الكتاب، وما وصفهم الله تعالى بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾[1] و ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[2].

والله عَدْل فى جميع ما حكم، حكيم فى جميع ما رسم ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفعلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[3].

وأما قوله لما مر بمقبرة المسلمين فقال: مغرورون، إن صح عنه ذلك، كأنه لما نظر إلى المتعارَف بين عامة المسلمين فى نظرهم إلى أعمالهم وطمعهم فى النجاة باجتهادهم، وقلة من تخلص من ذلك، فسماهم: مغرورين؛ لأن

---

(١) التوبة: ٣٠. (٢) المائدة: ١٨.

(٣) الأنبياء: ٢٣.

أعمـال الخلق كلها لو جُعلت بإزاء نِعَـمه ممَّا أَنْعَـمَ الله تعالى على الخلق: بأن دلهم عليـه وزين قلوبهم بالإيمان به، والمـعرفـة بواحدانيـته لَبطل واضـمحل ذلك.

وليس من جـمـيع الخلق حـركـة ولا نَفَس إلا وبَدْؤها من الله سـبـحـانه وانتهاؤها إلى الله عز وجل.

فمن ظن أن أحدًا ينجو إلا بفضل الله وسعة رحمته: فهو مغرور هالك.

ألا ترى سيد الأنبيـاء، وإمام الأتقياء ﷺ [١٩٨]، يقول: «ليس منا أحـدٌ يُنجيه عمله، قالوا، ولا أنت يا رسول الله فقال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمة».

فالتـعنت والجسـارة بالطعن والوقـيعة مـن العلماء فـيمن تكون جـوارحه مـضبـوطة مـقـيدة بالـعلم والأدب، بحكاية أو بكلام لا يحـيط به الفـهم فى الوقت: زَلةٌ من العالم، وهَفْوةٌ من الحكـيم، وخطأ بين من العاقل؛ لأنه ربما تَصَحَّفَ علـى الحكيم، لأن الحكمة ربمـا تجرى ويَحْضُـرها من لا يقفُ على معانيـها، ولا يلحق فَهْمه مَـقاصدَ المتكلم بها، فـعند ذلك تجرى على الألْسنة بضد مـعناها، فيلحق الحكيمَ عـند ذلك نقصٌ عند من لا يقف على مرامـيه، ويُشْكِلُ عليه معانيه، ولـم يُشْرِف على مكانه، ولا يَسْأل عن بيانه؛ لأن الغامض من العلوم لا يُدْرَك إلا بالغامض من الفهوم.

والتصحيـف الذى يقع فى الحكمة يقع من وجهين: فوجهٌ منهـا تصحيف الحـروف، وذلك أيسَرُهُ، والوجـه الثانى تصـحيف المـعنى، وهو: أن يتكلم الحكيم بكلمـة، من حيث وقـته وحالـه، فلا يكون للمـستمع لذلـك الحالُ، والوقت، فيصـحف معناه، فيعـبر عنها من حيث مـا يليق بحاله ووقته ومـقامه ووجْده فيغلط فى ذلك ويهلك.

سمعـتُ أبا عمرو بن علوان يقول: سـمعتُ الجنيد، رحمـه الله، يقول: كنتُ أصحبُ هذه الطائفة، وأنا حَدَثٌ، فكنت أسمعُ منهم كلامًا لم أفهم عنهم ما يقولون، إلا أن قلبى قد سلم من الإنكار عليهم، فبذلك نلت ما نلت.

ومما يقوِّى هذا الذى ذكرتُ: أنى كنت فى مجلس ابن سالم بالبصرة بعد هذا الخَوْض الذى جرى بينى وبينه فى كلام أبى يزيد، رحمه الله، فحكى يومًا عن سهل بن عبد الله، رحمه الله، أنه قال: ذِكْر الله تعالى باللسان: هَذَيان، وذِكْر الله تعالى بالقلب: وسوسة، فسئل عن ذلك، فقال: كأنه أراد بذلك: أن يكون قائما بالمذكور لا بالذكر.

ثم حكى فى مجلس آخر عن سهل بن عبد الله رحمه الله أيضًا أنه قال: مَوْلاى لا ينام وأنا لا أنام، فقلتُ لبعض أصحابه ممن كان يخصه: لولا أن الشيخ أمْيَلُ إلى سهل بن عبد الله، رحمه الله، منه إلى أبى يزيد، رحمه الله، لكان يُخَطِّئه أيضًا فيما قد حُكِىَ عنه، كما خَطَّأ أبا يزيد، رحمه الله، وكفره بين يديك، فى الكلام الذى حكى عنه؛ لأن فى هذا الذى قد حكى عن سهل رحمه الله، وهو إمامه، وأفضلُ الناس عنده، يَجِدُ المتعنت مقالا، إن قصد إلى ذلك، والذى يعلم أن لهذا الذى حكاه عن سهل بن عبد الله، رحمه الله، وجهًا غير ما يجد المتعنت فيه مطعنًا، فكذلك يجوز أن يكون لكلام أبى يزيد، رحمه الله الذى حكاه عنه وجهٌ غير الوجه الذى هو ذا يكفره به ويخطئه فيما قال، فلم يكن له جواب عند ذلك أو كلام هذا قريب من معناه، وبالله التوفيق.

ويقال: لولا ما خَص الله تعالى موسى عليه السلام بالعصمة والتأييد وما شملته من أنوار النبوة والكلام والرسالة حتى وُفِّقَ وسُدِّد من الإنكار على الخَضِر مما كان يرى منه: من قتل النفس التى حرم الله تعالى، وهى من أعظم الكبائر! فما يرضى أن يقول له: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾[1]، حتى كان يرد

(١) الكهف: ٧٤.

عـليه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إنكَ لَنْ تَسْتَطيع مَعِيَ صَبْرًا﴾(١)، فيقول: ﴿إنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شيءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبنِى قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّى عُذْرًا﴾(٢) بعد ما عاين منه قَتْلَ النفس التى حرم الله تعالى، وأمر فيه بالقصاص، فكان يجبُ على موسى عليه السلام أن يطالبه بالقَوَد ويهجره، ولا يستحلُّ مجالسته ومصاحبته(٣)؛ غير أن عناية الله تعالى، وتخصيصه وتسديده، وتوفيقه الذى كان مصحوبَهُ حجز بينه وبين ذلك.

فكذلك دأب كل ولى وصدِّيق إلى يوم القيامة، ولا يجوز لواحد منهم أن يلحق درجةً من درجات النبوَّة، والله الموفق للصواب.

وحُكى عن أبى يزيد رحمه الله: أنه لم يستند قط إلى جدار إلا أن يكون جدارَ مسجدٍ أو رباط، ويقال: إنه ما رأَوْهُ مُفطرًا قط إلا أيامَ العيد، حتى لحق بالله عز وجل، ويكثر فى مثل هذا عنه الأخبار.

---

(١) الكهف: ٧٥.

(٢) الكهف: ٧٦.

(٣) قد يجاب بأن لينه معه، كان لأمر الله له بمصاحبته له وتعلمه منه بقوله.

باب في ذكر كلام حكى عن الشبلى رحمه الله وشرحه عن ذلك

قال الشيخ رحـمه الله: سمعتُ أبا عبـد الله بن جابان يقول: دخلتُ على الشبلى رحمه الله، فى سنة القحط، فـسلمت عليه، فلما قمتُ على أن أخرج من عنده، فكان يقول لى ولمن معى، إلى أن خَرَجْنَا من الدار: مُرُّوا أنا معكم حيث مـا كنتم، أنتم فى رعايتى وفى كـلاءتى، قلتُ: أراد بقوله ذلك: إن الله تعالى معكم حيث ما كنتم، وهو يرعاكم ويكلؤكم، وأنتم فى رعايته وكلاءته.

والمعنى فى ذلك: أنه يرى نَفْـسَهُ مَحْقًـا فيما غلب على قلبـه: من تجريد التوحيد، وحقـيقة التفريد، والواجد إذا كان وقْتُهُ كـذلك؛ فإذا قال: أنا، يعبر عن وَجْده ويترجم عن الحال الذى قد استـولى على سرِّه، فإذا قال: أنا، يشير بذلك إلى ما غلب من حقيقة صفة مشاهدته قُرْبَ سيِّده.

وسمعت الحُصْرى رحـمه الله يَحْكى عنه: أنه كان يقول: لو عرضتُ ذُلى على ذُلِّ اليهـود والنصارى لكان ذُلى أَذَلَّ من ذُلهم، فإن قـال القائل: أَيْنَ تقع هذه الحكاية من ذلك؟ فيـقال له: الحكايتان صحيـحتان، والوقتان مـختلفان؛ فوقتًـا خُصَّ بصفاء المـشاهدة، فنطق عن وجده وحقـيقته بمـحض الإخلاص وخالص التوحيد، ووقـتًا رُدَّ إلى صفته، وعجزِ بشريتـه، ،وذُل آدميته، فنطق بما وجد من ذلك.

كما قال يحيى بن مُعاذ الرازى رحمه الله: العارف إذا ذكر ربَّه افتخر، وإذا ذكر نفسه افتقر واحتقر، وهذا المعنى موجود فى العلم.

روى عن النبى ﷺ أنه قال [١٩٩]: «لى وَقْتٌ لا يسعنى شىءٌ غير الله وأنا سَيِّدُ وَلَد آدم ولا فَخْرٌ».

ورُوى عنه ﷺ أنه قال [٢٠٠] : «لا تفضلونى على يونس بن مَتَّى عليه السلام، أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد».

فكم بين الخبرين وتفاوت ما بين الوقتين؟! والله أعلم.

ومما يضاهى هذا الذى قلناه ما حُكى عنه، يعنى عن الشبلى رحمه الله: أنه أخذ من يد إنسان كسرة خُبْز فأكلها، ثم قال: إن نفسى هذه تطلب مِنِّى كسرة خبز، ولو التفت سِرِّى إلى العرش والكُرْسى لاحترق، أو كما قال، يريد بذكر الالتفات بسرِّه إلى العرش والكرسى: أن يَجِدَ له فى سرِّه أثَرًا فى الواحدانية والقدم؛ لأن العرش والكرسى محدثان مخلوقان مما لم يكن فكان.

وحُكى عن الشبلى، رحمه الله: أنه سئل عن أبى يزيد البسطامى رحمه الله وعرض عليه ما حكى عنه: مما ذكرناه، وغير ذلك، فقال الشبلى، رحمه الله: لو كان أبو يزيد، رحمه الله: هاهنا لأسلم على يد بعض صبياننا، وقال: لو أن أحدًا يفهم ما أقول لشددتُ الزنانير.

قلتُ: قد أشار إلى ما قال الجنيد، رحمه الله: إن أبا يزيد، رحمه الله: مع عظم حاله وعلوِّ إشارته: لم يخرج من حال البداية، ولم أسمع منه كلمة تدل على الكمال والنهاية.

والمعنى فى ذلك: أن هؤلاء المخصوصين بهذا العلم: فكأنه قد أخذ عليهم أن كل واحد منهم يُرَى أن حاله أعْلَى الأحوال، وذلك غيرة من الحق عليهم، حتى لا يسكن بعضهم إلى بعض.

ألا ترى أن أبا يزيد، رحمه الله: تكلم بأشياء عجز عن فهم ذلك فهماء زمانه وأهل عصره.

ثم قال الجنيد، رحمه الله: إنه لم يخرج من حد البداية، ولم أسمع له لفظًا يدل على أنه وصل إلى النهاية.

ثم يقول الشبلى، رحمـه الله: لو كان أبو يزيد، رحمه الله: عندنا لأسلم على يد بعض صبياننا، يعنى لاستفادَ من المريدين الذين هم فى وقتنا.

وحكى عن بعض المشـايخ أنه قال: وقفـتُ على الشبلى عشـرين سنة ما سمعتُ منه كلمة فى التوحيد، كان كلامه كله فى الأحوال والمقامات.

وهذا كله قليل فى عِظم ما أشاروا إليـه من الحقيقة؛ لأن حقيقـة التوحيد لا غاية لها ولا نهـاية، وكل واحد منهم قد غرق فى بـحر لا يوصَفُ حَدُّه ولا يُدْرَكُ منتهاه: ﴿**ذلكَ فَضْلُ اللهِ يؤتيه مَنْ يشاءُ واللهُ ذُو الفضل العظيم**﴾.

باب فى معنى حكاية حكيت عن الشبلى رحمه الله

قال الشيخ، رحمه الله: قال بعضهم: وقفت على الشبلى، رحمه الله فسمعته يقول: أمر الله تعالى الأرض أن تبتلعنى إن كان فىَّ فضل منذ شهر أو شهرين لذكر جبريل وميكائيل، عليهما السلام.

وسمعت الحصرى يقول: كان الشبلى، رحمه الله يقول لى: إن مرَّ بخاطرك ذكر جبريل وميكائيل عليهما السلام أشْرَكتَ.

فرأيت جماعة قد أنكروا هذا مع تخصيص جبريل وميكائيل عليهما السلام من الملائكة المقرَّبين.

وفى الخبر عن النبى ﷺ، أنه قال [٢٠١]: «رأيت جبريل، عليه السلام مثل الحِلس البالى فعلمت به فضل علمه وخشيته علىَّ» أو كما قال.

فقالوا: إذا كان رسول الله ﷺ يفضله على نفسه، فكيف يجوز لقائل أن يقول مثل ذلك.

فأقول، وبالله التوفيق: إن كلام الواجدين والمستهترين بذكر الله تعالى، يكون مُجْملا وتفصيلا، وإنما يجد المتعنت فرصة بالوقيعة والطعن فى الكلام المجمل دون المفصَّل؛ لأن المجمل ربما يكون له مقدمات لم تبلغ المستمع، والمفصَّلَ يكون مشروحًا مُبيَّنًا محترزًا، والمجمل لا يكون كذلك، وهذا الكلام الذى حُكى عن الشبلى، رحمه الله كلام مجمل له مقدمات، فإذا سمع العاقل مقدماته، لم يتشنع عليه ما قاله الشبلى، رحمه الله، وإذا لم يسمع بالمقدمات التى قد تقدمت قبل هذا الكلام، فأحْرَى أن يتشنع عليه وينكر قلبه ذلك.

وبيان ما ذكرتُ فى حكاية حكاها أبو محمد النساج، وهو الذى ذكر مقدمات هذه الحكاية بتمامها، حتى أوضح معناها وأزال الإنكار عنها، وذلك

أنه قال: وقف رجل على الشبلى، رحمه الله، فسأله عن صورة جبريل عليه السلام فقال الشبلى رحمه الله: سمعت فى الرواية: أن لجبريل عليه السلام سبعمائة لغة وسبعمائة جناح: منها جناحان، إذا نشر واحدًا غطى به المشرق، وإذا نشر الآخر غطى به المغرب، فأيْشَ تسأل عن ملكٍ تغيب الدنيا بين جناحيه رآه على صورته قد سد الأفق؟ ثم قال الشبلى رحمه الله للرجل: نعم.

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما [٢٠٢]: أن صورة جبريل عليه السلام فى قائمة الكرسى: مَثَلُ الزَّرَدة فى الجوْشن، والكرسى وجبريل والعرش، كل ذا مع الملكوت الذى ظهر لأهل العلم مَثَلُ الرملة فى أرض فلاة.

ثم قال: أيها السائل، هذه علوم أظهرَها، فهل تحملها الأجساد، أو تطيقها البنية، أو يحويها المعقول، أو تحدُّها الأبصار، أو تخرق فى الأسماع؟ يدل بها منه، وعليه وإليه، استأثر الحق بمُلك هو له غيب، لا يسع سواه، لو كُشف منه ذرةٌ ما وقف على الأرض دَيَّار، ولا حملت الأشجار، ولا جرت البحار، ولا أظلم ليل ولا أشرق نهار، ولكنه حكيم عليم، أنهم لا يطيقون هذا.

ثم قال: أيها السائل: إنك سألتنى عن جبريل عليه السلام وأحواله، فأمر الله تعالى الأرض أن تبتلعنى إن كان فىَّ فضل، منذ شهر ولا شهرين لذكر جبريل وميكائيل عليهما السلام، فإذا كان كلامًا يحتاج أن يكون له مثل هذه المقدمات التى ذكرنا؛ حتى يتبين معناه، فيقصد المتعنت إلى آخر الكلام منها، وينقلها إلى من لا يفهم ذلك، حتى يبسط لسانه بالوقيعة والطعن فى أولياء الله تعالى وأهل خاصته، فيكون ذلك من أكبر الكبائر وأعظم الإثم.

وبالله التوفيق.

باب آخر

فى معنى أحوال كانوا ينكرون بها على الشبلى، رحمه الله

قال الشيخ رحمه الله: ومما ينكرون على الشبلى، رحمه الله، أيضًا: أنه كان ربما يلبس ثيابًا مُثمنة، ثم ينزعها ويضعها فوق النار.

وذكر عنه أنه أخذ قطعة عنبر فوضعها على النار، فكان يبخر بها تحت ذنب حمار، وأنه كان يقول: لو كانت الدنيا لقمة فى فم طفل لرحمنا ذلك الطفل.

وقال بعضهم: دخلت عليه، فرأيت بين يديه اللوْز والسُّكر وهو يحرقهما بالنار وحكى عنه أيضًا أنه كان يقول: وددتُ أن لو كانت الدنيا لقمةً، والآخر لقمة، أجعلَهما فى فمى، حتى أترك هذا الخلق بلا واسطة.

وحكى عنه أيضًا: أنه باع عقارًا بمال كثير، فما قام من موضعه حتى نثرها وفرقها على الناس، وكان له عيال لم يدفع إليهم شيئًا من ذلك.

فقالوا: هذا واشباه هذا مخالفة للعلم، وقد نهى رسول الله، ﷺ [٢٠٣]، عن إضاعة المال، ومَنْ إمامه فى الذى كان يدفع إلى الناس ولم يترك لعياله؟

فيقال: إمامه أبو بكر الصديق، رضي الله عنه! إنه خرج من جميع ما كان يملك، فلما قال الرسول، ﷺ [٢٠٤]: ما خلفت لعيالك؟ قال: الله ورسوله، فلم ينكر عليه رسول الله، ﷺ، ذلك.

وإضاعة المال أن يُنفقها فى معصية الله تعالى، فلوأنفق رجل دانقًا فى معصية يكون ذلك من إضاعة المال، ولوأنفق مائة ألف درهم فى غير المعصية لم يكن ذلك من إضاعة المال.

وأما الذى كان يحرقه بالنار فلأنه كان يشغل بقلبه عن الله تعالى.

وقد ذكر الله تعالى فى قصة سليمان بن داود، عليه السلام، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾(1)، يقال: إنه كان له ثلاثمائة فرس عربيات لم يكن لأحد من الملوك مثلها قبله ولا بعده، فكان يُعْرَضُ عليه ذلك فاشتغل قلبه لذلك، حتى فاتته صلاة العصر عن وقتها، فعند ذلك قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾(2)، فعرقب الجميع وضرب أعناقهم، فشكر الله له ذلك، وردَّ له الشمس إلى موضعها الذى تكون فيه وقت العصر، حتى صلاها كما جاء فى الخبر.

وقد روى أيضًا عن رسول الله، ﷺ [٢٠٥]، فى هذا المعنى: أنه لما فاتته صلاة العصر يوم الخندق، وجد رسول الله، ﷺ، لذلك وَجْدًا شديدًا، حتى قال: «شغلونا عن الصلاة الوسطى: صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارًا»، وكانوا قد آذوه قبل ذلك أذى كثيرًا، وضربوه، وطردوه، وشتموه، وطرحوا عليه الكرش والدم، ولم يدع، ﷺ، ولم يزد على أن قال «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» فلما اشتغل قلبه بما فاته من الصلاة عن وقتها، دعا عليهم من شدة وَجْده بذلك.

وهذا أتم فى معناه مما فعل سليمان عليه السلام.

فإن سأل سائل فقال: أيْشَ المعنى فى رد الشمس لسليمان إلى موضعها ولم تُرَدّ للنبى ﷺ؟.

(1) ص: ٣٠ ـ ٣٣.

(2) المطلوب شرعا نفع الناس به لا هذا الإهلاك بدون فائدة، وتلك حكاية لا تنهض دليلا.

فيقال: لأن النبى ﷺ ، بعث بالحنيفية السمحة، فسومح له بذلك، لأن فرضًا منعه عن الفرض، لأن حفر الخندق كان من أمر الجهاد فى سبيل الله، فلما حبسه فرض الجهاد عن فرض الصلاة سومح له بذلك، وسليمان عليه السلام لم يحبسه فرض عن فرض الصلاة ولا تطوع، فمن أجل ذلك لم يسامح له، وإكرام نبينا، ﷺ بالمسامحة له أتم من رد الشمس لسليمان عليه السلام، ولوسامحه لم تُرَدُّ عليه الشمس.

وبعد فإن عند أهل الحقائق أن كل شىء شغلهم عن الله تعالى، من الدنيا والآخرة، فذاك عدوهم، يطلبون الخلاص منه بجميع ما يمكنهم، ولا ينبغى أن يكون فيهم فضل لسواه فهذا على هذا المعنى، وبالله التوفيق.

والذى قال: وددت أن الدنيا لقمة أجعلها فى فم يهودى فذاك من هوانها عنده.

وقد روى فى هوان الدنيا عن النبى، ﷺ أكثر من ذلك.

وروى عنه، ﷺ ، أنه قال [٢٠٦]: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها».

وروى عنه، ﷺ ، أنه قال [٢٠٧]: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة من ماء، الحديث».

باب آخر فى شرح كلام تكلم به الشبلى رحمه الله وهو مما يشكل فهمه على قلوب العلماء والفقهاء، وألفاظ جرت بينه وبين الجنيد رحمه الله

قال الشيخ، رحمه الله: حكى عن الشبلى، رحمه الله أنه قال، يومًا لأصحابه: يا قوم أَمُرُّ إلى مالا وراء فلا أرى إلا وراء وأمر يمينًا وشمالا إلى مالا وراء، فلا أرى إلا وراء، ثم أرجع فأرى هذا كله فى شعرة من خنصرى.

قال: فأشكل على جماعة من أصحابه، إشارته فيما قال.

قال الشيخ أبو نصر: إشارته فيما قال، والله أعلم، إلى الكون، لأن الكرسى والعرش محدث. . .، وليس فى الدنيا وراءه وراء، ولا تحته تحت لا نهاية له، ولا يقدر أحد من الخلق أن يحده أو يصفه إلا بما وصفه الله تعالى به، ولا يحيط بذلك علم الخلق، قد انفرد بعلم ذلك خالقه وصانعه.

ثم قال: أرجع فأرى هذا كله من شعرة من خنصرى، يريد بذلك: أن قدرة القادر فى خلق هذا كله وفى خلق شعرة من خنصرى واحد.

ويحتمل وجهًا آخر وهو أن يقول: إن الكون وجميع ما خلق، وإن كانت مسافته بعيدة، وطوله وعرضه عظيما، فى كبرياء خالقه وعظمة صانعه كشعرة من خنصرى بل أقل من ذلك.

وحكى عنه أنه قال: إن قلت كذا فالله، وإن قلت كذا فالله، وإنما أتمنى منه ذرة كأنه يشير إلى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[1] وأنه حاضر لا يغيب، وهو بكل مكان لا يسعه مكان، ولا يخلو منه مكان.

(١) المجادلة: ٧.

وقوله: إنما أتمنى منه ذرة، يعنى الخلق محجوبون عنه بأسمائه وصفاته، وما أعطاهم منه غير اسمه وذكره؛ لأنهم لا يطيقون أكثر من ذلك.

وفى ذلك كان ينشد الشبلى رحمه الله ويقول:

فقلت: أليس قد فضوا كتابى فقال: نعم، فقلت فذاك حسبى

وله أيضًا:

أليس من السعادة أن دارى مجاورة لدارك فى البلاد؟

وأنشد:

* أظلت علينا منك يومًا غمامة *

أضاءت لنا برقًا وأبطى رشَاشُها

فلا غيمها يجلو فيأيس طامع

ولا غيثها يأتى فَيَرْوَى عِطَاشُهَا

وقال الشبلى رحمه الله: كتَبْتُ الحديث والفقه ثلاثين سنة حتى أسفر الصبح، فجئت إلى كل من كتبت عنه فقلت: أريد فقه الله تعالى، فما كلمنى أحد.

ومعنى قوله: حتى أسفر الصبح، يعنى به حتى بدت أنوار الحقيقة ومنازلة ما دعت إليه حقيقة الفقه والعلم والمعرفة.

ومعنى قوله: هات فقه الله تعالى، يعنى التفقه فى علم الأحوال الذى بين العبد والله تعالى، فى كل لحظة وطرفة عين.

قال: وقال الشبلى للجنيد رحمه الله: يا أبا القاسم ما تقول فيمن كان الله حسبه قولا وحقيقة؟ فقال له الجنيد، رحمه الله: يا أبا بكر، بينك وبين أكابر الناس فى سؤالك هذا عشرة آلاف مقام، أوله مَحْوُ ما بدأتَ به.

والمعنى في ذلك: أن الجنيد رحمه الله، كان متشرفًا على حاله بفضل علمه وتمكينه فأوراه موضع ما يخشى عليه من الدعوى فيما يقول؛ لأن من كان الله حسبه قولا وحقيقة يستغنى عن السؤال، فسؤاله للجنيد، رحمه الله، عن ذلك ينبئ عن أنه مقارب لما هناك.

وهكذا سمعت ابن علوان يقول: كان الجنيد، رحمه الله، يقول: قد أوقف الشبلي، رحمه الله، في مكانه، فما بعد، ولو بعد لجاء منه إمام.

وقال أبو عمرو: ربما كان يجيء الشبلي، رحمه الله، إلى الجنيد، رحمه الله، فيسأله مسألة، فلا يجيبه، ويقول: يا أبا بكر، هو ذا أشفق عليك وعلى ثباتك؛ لأن هذا الاضطراب، والانزعاج، والحدة، والطيش، والشطح: ليست هي من أحوال المتمكنين، وهي منسوبة إلى أحوال أهل البدايات والإرادات.

وكذلك حكى عن الشبلي، رحمه الله، أنه قال: قال الجنيد يومًا: يا أبا بكر أيْشَ تقول؟

فقلت: أنا أقول، الله

فقال: مُرَّ، سلمك الله

يعنى بذلك: إنك في خطر عظيم، فإن لم يسلمك الله في قولك: الله، من الالتفات إلى شيء سوى الله، فما أسوأ حالك!!

وكان الشبلي، رحمه الله، يقول: ألف عام ماضية في ألف عام واردة، هو ذا الوقت، ولا تغرنكم الأشباح.

وكان يقول: أنتم أوقاتكم مقطوعة، ووقتي ليس له طرفان!!!

وربما كان يشطح ويقول: أنا الوقت، وقتي عزيز، وليس في الوقت غيري، وأنا محق.

وكان ينشد هذين البيتين:

مَكينٌ فى مُعامله مكينُ أمينُ الحقِ آمَنَهُ أمينُ

تَعازَزَ عِزُّهُ فاعْتَزَّ عِزًّا فَقَدْ فاتَ اليقينُ مِنَ اليقينِ

وربما كان يقول: نظرتُ فى كل عز فزاد عزى عليهم، ورأيت عزهم ذلك فى عزى، ثم كان يتلو فى إثره: ﴿**منْ كانَ يريدُ الْعِزَّةَ فلله الْعِزَّةُ جَميعًا**﴾[1] ثم يقول:

مَنِ اعْتَزَّ بِذى العِزِ فَذُو العِزِ لَهُ عِزُّ

قال الشيخ، رحمه الله: أما قوله: الوقت، فإنه يشير إلى النفَسِ الذى بين النَّفَسَيْنِ، والخاطر الذى بين الخاطرين، إذ كان بالله ولله، وهو الوقت، وإذا فات نَفَسٌ، ولو فى ألف سنة، فقد فات ما لا يُلْحَقُ ولا يُدْرَكُ بالتأسُّف عليه.

يعنى: أن ألف عام ماضية، وألف عام واردة، وفيك الذى بين نفسيك، يجب أن لا تفوتك، والعزيز: من أعزه الله به، فلا يلحقه أحدٌ فى عزه؛ وكذلك الذليل: من شغله الله عنه بغيره، لا يلحقه أحدٌ فى ذُلِّه.

وقوله: لا تغرنكم الأشباح، فكل شىء سوى الله تعالى: أشباح، إن سكَنْتَ إليه فقد غرَّك.

وقوله: أنا مُحقٌ، يعنى فى قوله: أنا الوقت، أنا المحق؛ لأن قوله: أنا لا يشير بذلك إلى أياه.

وقوله: وقتى ليس له طرفان؛ لأن فى كل شىء مسامحة إلا فى الوقت؛ فإن الاشتغال بغير الله، والسكون إلى جميع ما خلق الله تعالى: فى الوقت، ليس فيه مسامحة ولو فى نَفَسٍ فى ألف سنة.

وحُكى عن الشبلى: أنه قال، أيضًا: اللهم إن كنت تعلم أن فىَّ بقية لغيرك فأحْرِقنى بنارك، لا إله إلا أنت.

فهذا وما يُشبه ذلك: غلبات وجد عبرً عنه على حسب ما وجد فى وقته، ولا يكون ذلك على الدوام؛ لأن ذلك: حال، فيه الحال نازلة، تنزل بالعبد فى الحين، ولا تلبث به على الدوام، وذلك رِفقٌ من الله، عز وجل، بأوليائه وخاصته، ولو دام ذلك لبطلوا عن الحدود والحقوق، وتعطلوا عن الآداب والأخلاق ومعاشرة الخلق.

ألا ترى أن أصحاب رسول الله ﷺ، سألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا [٢٠٨]: «يا رسول الله، إنا إذا كنا عندك وسمعْنا منك ترقُّ قلوبنا، فإذا خرجْنا من عندك نرجع إلى الاشتغال بالأهل والولد، فقال رسول الله ﷺ: «لو بقيتم على الحال الذى تكونون عندى لصافحتكم الملائكة» كما جاء فى الحديث.

وذكر عن الشبلى، رحمه الله: أنه كان يقول: لو خطر ببالى أن الجحيم بنيرانها وسعيرها تحرق منى شعرة لكنت مُشركا، أو كما قال.

فكذلك نقول: نحن أيضًا: إن جهنم ليس إليها شىء من الإحراق، لأنها مأمورة، وإنما يوصل ألم الاحتراق إلى أهل النار بقدر ما قسم لهم[١].

فأما ما حُكى عنه أيضًا أنه قال: أَيْشَ أعملُ بلَظَى وسَقَرَ؟ عندى: أن لَظَى وسَقَرَ فيها تسكن، يعنى فى القطيعة والإعراض؛ لأن من عرفه الله بالقطيعة فهو أشدُّ عذابًا ممن عذبه بلظى وسقر.

وذكر عنه: أنه سمع قارئًا يقرأ هذه الآية ﴿**اخْسَأُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ**﴾[٢] فقال الشبلى: ليتنى كنت واحدًا منهم، كأنه أشار إلى رد جوابه إليهم، فقال: ليتنى كنت ممَّن يُرَدُّ جوابى، ولو فى النار، من شدة وجله؛ لأنه لا يدرى ما سبق له منه بالسعادة والشقاوة والإعراض عنه أو بالإقبال عليه.

(١) هذا من أدق الأوصاف لجهنم وينبغى أن يفهم.

(٢) المؤمنون: ١٠٨.

وذكر عنه، أيضًا، أنه قال فى مجلسه: إن لله عبادًا لو بزقوا على جهنم لأطفوها[1]، فصعب ذلك على جماعة ممن كان يسمع ذلك.

وقد رُوى عن النبى ﷺ، أنه قال: تقول جهنم يوم القيامة للمؤمن: جُزْ يا مؤمن، فقد أطفأ نورُك لَهبى.

وفيما يحكى عن الشبلى، رحمه الله: مثل هذا كثير لا يتهيأ ذكره لكراهة التطويل، والعاقل يستدل بالقليل على الكثير.

وبالله التوفيق.

(١) قوله: لأطفوها: أى، لأطفأوها.

باب فى ذكر أبى الحسين النورى، رحمه الله وما شهدوا عليه بالكفر عند الخليفة، وغير ذلك

قال أبو نصر: وفيما بلغنى أن أبا الحسين أحمد بن محمد النورى، رحمه الله، كان فى أيام الموفق، وكان ينكر عليه غلام الخليل، فرفع إلى الموفق، وهو يومئذ، أمير المؤمنين، أن ببغداد رجلا من الزنادقة دمه حلال، فإن قتله أمير المؤمنين، فدمه فى عنقى، قال فبعث الخليفة فى طلبه، فحمل إليه، فشهد عليه «غلام الخليل»: أنا سمعته يقول: أنا أعشق الله وهو يعشقنى، فقال النورى، رحمه الله: سمعت الله تعالى ذكره يقول: «يحبهم ويحبونه»، وليس العشق بأكثر من المحبة؛ غير أن العاشق ممنوع، والمحب يتمتع بحبه، قال فبكى الموفق من رقة كلامه!

وشهدوا عليه أيضًا: أنه سمع أذان المؤذن فقال: طعنه وشم الموت، وسمع نباح الكلاب فقال: لبيك وسعديك.

فقيل له فى ذلك، فقال: «أما المؤذن فأنا أغار عليه أن يذكر الله وهو غافل، ويأخذ عليه الأجرة، ولولا الأجرة؛ القليل من حطام الدنيا، التى يأخذها، لما ذكر الله؛ فلذلك قلت له: طعنة وشم الموت! وقد قال الله جل ذكره: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[١] فالكلب، وكل شىء يذكرون الله بلا رياء ولا سمعة، ولا طلب للعوض؛ فلذلك «قلت ما قلت».

قال: وحمل النورى مرة أخرى إلى الخليفة وشهدوا عليه بأنه قال: «كنت البارحة فى بيتى مع الله» فسئل عن ذلك؟ فقال: صدق! وأنا الساعة مع الله،

(١) الإسراء: ٤٤.

وإذا كنت فى البيت فأنا مع الله، وإذا كنت فى بَرِّية فأنا مع الله ومن كان فى الدنيا مع الله فهو فى الآخرة مع الله! أليس يقول الله جل ذكره: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ**﴾[1].

قال: فغلفه الخليفة بيده وقال: تكلم بما شئت! فتكلم النورى بكلام لم يسمعوا به قط، فبكى الخليفة وبكوا جميعًا وقالوا: «هؤلاء أعرف بالله من غيرهم!».

وسمعت أبا عمرو بن علوان يقول: حمل إلى أبى الحسين النورى «ثلاثمائة دينار» ثمن عقار بيع له فصعد قنطرة الصراة، وكان يرمى واحدًا واحدا منها إلى الماء ويقول: «حبيبى تريد أن تخدعنى منك بمثل هذا؟!!».

فقال بعض الناس: بئس ما فعل؟ لو أنفقها فى سبيل الخير كان خيرًا له، فقلت إن علم أن تلك الدنانير كانت تشغله عن الله طرفة عين لكان الواجب عليه أن يرميها فى الماء بدفعة واحدة؛ حتى يكون أسرع بخلاصه من فتنته كما أخبر الله جل ذكره عن سليمان عليه السلام حيث يقول: ﴿**فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ**﴾[2]، وقد ذكرت ذلك فى موضعه.

قال أبو نصر: «وأبو الحسين النورى من الواجدين، ومن أهل الإشارات اللطيفة، وله كلام مشكل وأشعار كثيرة وكان يغرف من بحر كبير.

ذكر عنه أنه قال: قرب القرب، فى معنى ما أشرنا إليه نحن: «بعد البعد» هذا كلام معناه مفهوم عند أهله وهو قريب من قول القائل: «ذنوب المقربين حسنات الأبرار»[3]، وقول القائل: «إخلاص المريدين رياء العارفين».

ولأبى الحسين النورى أبيات كتبها إلى أبى سعيد الخراز:

---

(١) ق: ١٦.

(٢) ص: ٣٣.

(٣) والمحفوظ: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

لعمرى ما استودعت سرى وسره سواء[1] حذارًا أن تشيع السرائر

ولا لاحظته مقلتاى بنظرة؛ فتشهد نجوانا العيون النواظر!

ولكن جعلت الوهم بينى وبينه رسولا: فأدى ما تكن الضمائر!

وفيه إشارات غريبة ومعان عجيبة يشير إلى سره الذى هو مخصوص به وينطق عن وجده الذى لا يضيف ذلك إلى صفته ولا ينسبه إلى مكان ليس ذلك من نعته.

وللنورى مثل ذلك كثير، وفيما ذكرنا كفاية؛ وبالله التوفيق!.

(١) من معانى السواء: الغير.

باب فى ذكر أبى حمزة الصوفى، رحمه الله

فأما أبو حمزة الصوفى: فكان من أجلة المشايخ، وكان من أهل الإشارة والعبارة، وله أيضًا كلام وألفاظ مشكلة، سمعت أحمد بن على الوجيهى يقول: سمعت أبا على الروذبارى، رحمه الله يقول: أطلق على أبى حمزة أنه حلولى؛ وذلك أنه كان إذا سمع صوتا مثل هبوب الرياح، وخرير الماء، وصياح الطيور فكان يصيح ويقول: «لبيك!» فرموه بالحلول؛ لبعد فهمهم فى معنى إشارته، وذلك أن أرباب القلوب، ومن كان قلبه حاضرا بين يدى الله ويكون دائم الذكر لله فيرى الأشياء كلها بالله ولله، ومن الله وإلى الله، فإذا سمع كلامه فكأن ذلك سمعه من الله، ولا يكون ذلك الحال إلا لعبد مجموع على الله! لا ينصرف منه جارحة إلى سوى الله؛ فعند ذلك يقع له حقائق الفهم عن الله فى جميع ما يسمع وجميع ما يرى من الأشياء!.

وبلغنى عن أبى حمزة أنه دخل دار حارث المحاسبى، وكان لحارث دار حسن وثياب نظاف، وفى داره شاه مرغ، فصاح الشاه مرغيا، فشهق أبو حمزة شهقة وقال: «لبيك يا سيدى» قال: فغضب الحارث وعمد إلى سكين، فقال: «إن لم تتب من هذا الذى أنت فيه أذبحك»، قال: فقال له أبو حمزة: أنت إذا لم تحسن أن تسمع هذا الذى أنت فيه فلم لا تأكل النخالة بالرماد؟ أيش يبينك وبين أكل الطيبات والتوسع فى الدار والثياب، يريد بذلك: أن إنكارك علىَّ يشبه أحوال المريدين والمبتدئين، وتوسعك على نفسك وبسطك فى الدخول فى السعات، يشبه حال الأنبياء والصديقين «الذين لا يضرهم الدخول فى السعات».

وبلغنى عن أبى حمزة رحمه الله أنه دخل عليه رجل من أهل خراسان، فسأله عن مسألة فى الأمن، فشطح أبو حمزة، وقال: «أعرف رجلا لوكان على

يمينه مسورة[1] وعلى يساره سبع لم يبال على أيهما يتكئ وكأنه أشار إلى نفسه بذلك، وزعم أن الأمن لا يصح إلا لمن يكون بهذه الصفة.

قال: فقال له الخراساني: هذا شطح هات العلم، ثم قال: خذها يا بدبخت[2] أعرف من لو كان بالمغرب وهو يريد المشرق لم يتغير سره فيما بين ذلك، ثم خرج، قال: قال أبو حمزة: فبقيت أربعين ليلة لا آكل ولا أنام؛ حتى يتبين لي علم ما قال ذلك الرجل، فكأنه أشار بأن الأمن لا يصح إلا لمن يكون حاله كذلك، فزاد في المعنى على ما قال أبو حمزة! فإن قال قائل: هذا دعوى من الجميع، فيقال له: لم لا يجوز أن تُعَلُّ[3] أقوال المتقدمين، ويوجد لما يذكر عنهم وجه، وقد قال الله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[4] وقال النبي ﷺ [٢١٠]: «إذا أنعم الله على عبد نعمة، أحب أن يرى أثرها عليه» وهذا من أعظم النعم ـ فيجوز أنهم قد تحدثوا بما أنعم الله عليهم، ومن قال غير ذلك فيحتاج إلى بيان ودليل.

---

(١) متكأ من جلد.

(٢) عظيم.

(٣) قوله: تعل: أي تعلل.

(٤) الضحى: ١١.

باب ذكر جماعة المشايخ الذين رموهم بالكفر ونصبوا العداوة معهم ورفعوهم إلى السلطان

قال أبو نصر: «فأما الذين نصبوا العدواة مع هؤلاء القوم، واعتقدوا فيهم الباطل فعلى وجهين:

فمنهم قوم لم يفهموا معانى ما أشاروا إليه فى كلامهم من غامض العلم وجليل الخطب، ولم يكن لهم زاجر من العقل ولا واعظ من الدين أن يستبحثوا عن المعانى التى أشكلت عليهم ويسألوا ذلك عن أهلها، وقاسوا ما يسمعون من ذلك بما علموا من العلوم المبثوثة بين عوام الناس حتى هلكوا، فمنهم من رجع عن ذلك وتاب وأناب، ومنهم من مات على ذلك فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

ومنهم من علم مقاصدهم ومعانيهم فيما قالوا أو قد صحبهم برهة من الدهر فلم يصبر على حالهم ودعاه شيطانه وهواه إلى طلب الرياسة وجمع الدنيا وأكل أموال الناس بالباطل، فجعل المعاداة والمنافاة معهم، والطعن والوقيعة فيهم والسفاهة والإنكار عليهم؛ سُلمًا إلى جمع الدنيا وسببا إلى قبول[1] قلوب الجهلة من العامة له، فلا يبالى بعد ما أسرته أهواؤه، واستحوذته شياطينه: أن يسفك الدماء ويأكل الحرام، ويرتكب المآثم، ويشهد بالزور، ويكذب على الله وعلى رسوله، ويبسط بالوقيعة والطعن على أوليائه وأصفيائه؛ وينسبهم إلى الكفر والزندقة والبدعة والضلالة، ويهيج على سفك دمائهم: الغاغة[2]، والجهلة من العامة، فكم من ولىٍّ لله قد قتلوا من هؤلاء وكم جمع فى طاعة الله ورضاه قد فرقوه!! وما خلق الله على وجه الأرض قوما شرًا من هؤلاء.

ولو ذكرت قصص هؤلاء وما أعلم من اعتدائهم على هذه الطائفة قديما وحديثا يطول[3] . . . ولكن نذكر من ذلك طرفا على الاختصار والإيجاز إن شاء الله.

(١) قبول: أى إقبال قلوب الجهال إليه.
(٢) الغاغة: الغوغاء من الناس، كما يستفاد من القاموس.
(٣) الأولى أن يقال: لطال الكلام.

فمنها ما وقع لذى النون المصرى، رحمه الله، حيث شهدوا عليه بالكفر والزندقة ورفعوه إلى السلطان حتى أُشخص وشيل وأجاب عما سئل وردوه إلى موضعه عزيزًا[1] مكرمًا.

ذكر عن ابن الفرجى أنه قال: كنت مع ذى النون فى الزورق، وإذا بزورق آخر فيه جماعة من الناس فقيل لذى النون: «هؤلاء هم ذا يمضون ليشهدوا عليك عند السلطان بالزندقة، فقال ذو النون: «اللهم إن كانوا كاذبين فخذهم!»، قال: ابن الفرجى: فما استتم كلامه حتى انقلب الزورق وغرق القوم، قال: فقلت لذى النون: أحسب أن القوم فسقوا فى ممشاهم فما ذنب الملاح؟، قال: لم حمل الفساق؟ ثم قال: إذا قام هؤلاء يوم القيامة، شهداء الغرق، خير لهم من أن يقولوا شهداء الزور!، قال: ثم انتفض انتفاضة، وقال: «وعزتك وجلالك لا أدعو على خلقك أبدا».

فصل آخر

وسمنون: كان يقال له: «سمنون المحب»، وكان موصوفا بحسن الوجه وحسن الكلام فى المحبة وعذوبة المنطق، بلغنى أن امرأة مالت إليه وهويته، فلما علم سمنون بذلك طردها من مجلسه، قال: فجاءت هذه المرأة إلى الجنيد، رحمه الله، فقالت: ما تقول فى رجل كان طريقى إلى الله؟ فذهب الله وبقى الرجل؟!.

فعلم الجنيد أيش مرادها، فلم يجبها وقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل!» ثم عرضت نفسها بالتزويج على سمنون فأبى ذلك عليها سمنون.

فعلمت أن غلام الخليل هو منكر على هؤلاء ـ وهو يعاديهم ـ فقصدت إليه وقالت: إن هؤلاء صوفية فلان وفلان وذكرتهم «يجتمعون معى كل ليلة على الحرام»

(١) الأولى: أن يقال: معززا ليناسب ما بعده.

فشهد عليهم غلام الخليل بذلك وقال: «هؤلاء زنادقة ودمهم فى عنقى» فبلغنى أن السلطان أمر بضرب أعناقهم؛ حتى كشف الله عنهم ذلك ونجاهم وخلصهم!.

وأما أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز، أنكر عليه جماعة من العلماء ونسبوه إلى الكفر بألفاظ وجدوها فى الكتاب صنفه وهو: كتاب السر، فلم يفهمو معناه؛ وهو قوله: «عبدٌ رجع إلى الله وتعلق بالذكر، وذكر فى قرب الله وطالع ما أذن له من التعظيم لله ونسى نفسه وما سوى الله! فلو قلت: من أين أنت وأين تريد؟ لم يكن له جواب غير قول «الله!»».

وأشباه ذلك موجود فى كتبه وكلامه، وقد شرحت ذلك فى بابه.

فصل آخر

وأما عمرو بن عثمان المكى: كان عنده حروف فيه شيء من العلوم الخاصة، فوقع فى يد بعض تلامذته فأخذ الكتاب وهرب، فلما علم بذلك عمرو بن عثمان قال: سوف يقطع يديه ورجليه ويضرب رقبته، يقال: إن الغلام الذى سرق منه ذلك الكتاب، كان «الحسين بن منصور الحلاج» وقد هلك فى ذلك وفعل به ما قال عمرو بن عثمان.

فصل آخر

وأما سهل بن عبد الله مع علمه وشدة اجتهاده فقال: «التوبة فريضة على العبد مع كل نفس»، وكان فى ناحية رجل ممن ينسب إلى العلم والعبادة فيهج عليه العامة وكفره ونسبه إلى القبائح عند العامة حتى وثبو عليه؛ وكان ذلك سبب خروجه عن تُسْتَر وانتقاله إلى البصرة رحمه الله.

فصل آخر

وكذلك أبو «عبد الله الحسين بن مكى الصبيحى» تكلم فى شىء من علم الأسماء والصفات وعلم الحروف، فكفره «أبو عبد الله الزبيرى» وهيج عليه العامة فقال: إن سهل بن عبد الله قال له: نحن فتحنا للناس جراب الحلتيت فلم يصبروا علينا! فَلِمَ كلمتهم أنت مما لا يعرفون؟ فكان ذلك سبب خروجه من «البصرة» ومات بمدينة «شوشتر» وبها قبره.

بلغنى عن أبى عبد الله الصبيحى: أنه لم يخرج ثلاثين سنة من بيت من تحت الأرض من كثرة اجتهاده وتعبده، وكان إذا تكلم بعلوم المعارف يدهش العالم؛ فحسدوه على ذلك!!.

فصل آخر

وأما «أبو العباس أحمد بن عطاء» مع جلالته وسعة معرفته وكثرة علمه وحسن ألفاظه رفع إلى السلطان ونسب إلى الكفر والزندقة فدعاه الوزير وهو «على بن عيسى» فزجره وجفا فى الكلام.

فقال له ابن عطاء: ارفق يا رجل، فغضب عليه كما بلغنى، فأمر حتى نزعوا خفه وصفعوه به؛ وكان ذلك سبب موته!.

فصل آخر

وكذلك الجنيد مع كثرة علمه وتبحره وفهمه ومواظبته على الأوراد والعبادات وفضله على أهل زمانه: بالفهم، والعلم، والدين؛ حتى يقال له: «طاووس العلماء»، فكم من مرة قد طلب وأخذ وشهدوا عليه بالكفر والزندقة.

وذكـر ذلك يطول! وإنمـا أردنا أن نذكر ذلـك حتى لا يتـعـجب من أهل عصرنا من يـبسط لسانه بالوقيعـة فى هذه العصابة فإن الشـىء قديم: فأول من امتحن بذلك «عامر بن عبد قيس» من التابعين، رفع إلى «عثمان بن عفان» أنه يقول: «إنه خير من إبراهيم»، «وأنه يحرم مـا أحلَّ الله» حتى كتب «عثمان بن عفان» ﷺ، إلى «معاوية بن أبى سفيان» فى ذلك، وأشخص «عامر بن قيس» إلى «معاوية» على ظهر قتب، فلما سُئِل عن حاله؟ وَعَرَف محله ومكانه أكرمه ورده إلى مـوضعـه، وكذلك مَنْ بعـده فى كل وقت، مـقصـودون: بالأذى، والطعن والوقيعة، والإنكار، والشنعة، والسفاهة؛ فليس هذا إلا كما روى عن النبى ﷺ أنه قال [٢١١]: «نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاءً، ثم الأمثل فالأمثل ويُبْتَلَى الرجل على حسب ديـنه؛ فإن كان فى دينه صلابة فيكون بلاؤه أشد» أو كما قال، والله أعلم.

فمن امتحن بشىء من ذلك فعليه بالصـبر؛ فإن الله مع الصابرين «والصبر مفتاح الفرج» وأنشد لعلى بن أبى طالب ﷺ وكرم فى الصبر:

مـا أحسـن الصبر فى مـواطنه! والصـبـر فى كل مـوطن حـسن

حـسـبك من حـسنه عـواقـبـه؛ عـاقـبـة الصـبـر مـا لهـا ثمن!!

باب فى ذكر «أبى بكر على بن الحسين بن يازدانيار»

سمعت «أبا سعيد بن عبد الوهاب» يقول: كنت ببغداد وقت الذى ورد ابن يازدانيار فهجره المشايخ من أجل أنه رماهم بالكفر والإنكار عليهم، فأنكروا ذلك: فقال: «لم أقل شيئا من ذلك» حتى مشى الناس فيما بينهم ووقع بينهم الصلح.

قال أبو نصر: وكان «أبو بكر بن يازدانيار» ممن قد صحب المشايخ وسافر معهم وتكلم وأجاب عن المسائل الكبيرة فى علوم المعارف والأحوال والمقامات، فمضى على ذلك برهة من الدهر، فلما رجع إلى ناحيته وأسرته أهواؤه ومال إلى الرياسة وإلى جمع الناس عليه وانصراف الوجوه إليه واستحلى جمع الناس والسياسة؛ فبسط لسانه فى مشايخه بالوقيعة ونسبهم إلى البدعة والضلالة وإلى الغلط والجهالة ونصب معهم العدواة والمنارأة: من التمرد، والمباهاة فحل به البلاء، ونزع منه الحياء «وصار من المطرودين» وقد كان قبل ذلك من المعدوين فبعد المعرفة أنكرهم، ومن بعد المواصلة هجرهم، فضيع الأمانة، وحالف الخيانة، وترك المحجة، وركب اللجة، فما ترك فى كنانته سهما إلا رماهم به، ولا اهتدى إلى مكروه إلا قصدهم به، حتى كتب إلى البلاد: يحذر منهم العباد وينسبهم إلى الكفر والبدع كل ذلك لطلب الرياسة واتخاذ الجاه عند العامة، فلم يكتسب من جميع ذلك إلا فرحة قليلة أعقبها ترحة طويلة وبقى عليه التبعة والعار والشنار والنار والندامة والملامة إلى يوم القيامة.

وهؤلاء المشايخ السادة والأئمة القادة قد زاد الله بذلك فى مناقبهم ورفع فى مراتبهم ولم ينقصوا لمطعن الطاعنين وتعنت المتعنتين عند العقلاء والأدباء وعند

الفقهاء من العلماء، بل زادوا بذلك عندهم محاسن وفضائل «فرفع الله بذلك أقدارهم وأخطارهم إلى الأبد» بلا زوال ولا أمد!

وهؤلاء المتعنتون مأثومون مذمومون خاسرون خاسئون موسومون بذلك إلى يوم الدين، لَقَدْ ضَلُّوا ضَلاَلاً بعِيدًا وَخَسِرُوا خُسْرَانًا مُبِينًا ـ أعاذنا الله وإياكم من مثل ذلك.

وفى ذلك يقول على عبد الرحيم القناد [رحمه الله] يصف «ابن يزدانيار» ويذكر المشايخ الذين طعن عليهم ويقول:ـ

تكلف أمرًا ضل عنك احتماله	فكيف تسامى والمعاناة ماله؟
سموت بأحوال البطالة شامخًا	تزلُّ بمن كنه البطالة حاله!
فمنهم جنيد [قدس الله] روحه	وأضحى نسيم القدس وهو طلاله!
فكيف منالا لست تعرف عينه؟	فعالمك أرض والجنيد هلاله!
وطعنك فى النورىِّ أعجب ما بدا	لنا منك يا من يزدريه مقاله
تبغضت أشياخ التصوف عائبًا	فإنك لا . . . . . . رجاله
فكيف طمعت الآن فى عيب مثلهم؟	فأنت شنار الجيش وهو جماله؟
وسمنون والمصرى ذو النون بعده	فراميهما بالنقص، ضل ضلاله
إذا جعفر الخلدى لم ترع حقه	فكيف يُرَجَّى خير مَنْ ذى فعاله؟
وكيف يرجَّى خير مَنْ سب سيدا	أشاد لنا ذكرًا بطيئا زواله!
فإن لسان الحق يبديه معشر	إذا نطقوا عنه تجلى جلاله
أسرهم سرًا فلا السرُّ ظاهر	على مستقر السرِّ يخفى مجاله

قد استشعروا كتم السرائر وامتطوا ... لموعده جحراً فمات ابتذاله

إذا نطقوا أعجزك مرمى رموزهم ... وإن صمتوا هيهات منك اتصاله

بيانا لكشف اللبس من كل ماكر ... إذا طاح فى الدعوى وطاح انتحاله

وبلغنى أن ابن يزدانيار وقف على الشبلى فقال: «يا أبا بكر، أريد أن أسألك مسألة، وقد قصدتك لهذا»؟.

فقال الشبلى: لو كان بيننا وصلة ما أردت أن نتعنى، ولكننا اثنان غيران، قال: فلما بلغ الشبلى ما قد أعد من الطعن والإنكار عليهم والإطباق على المشايخ المتقدمين، فكان يسميه ثور الأرمنى، وكان إذا جاء من ناحيته إنسان يقول: أيش خبر ذاك ثور الأرمنى.

وسمعت الوجيهى يقول: سمعت أبا على الروذبارى يقول: رأيت ابن يزدانيار ببغداد فسألته مسألة فى العلم فأحسن الجواب.

ثم سألته مسألة فى اليقين فتعسف فيها ولم يحسن جوابه فقلت له: رد الجواب؟ - رحمك الله - فقال: «لا أحبيك حتى تقضى دينك» وكان يعلم أن أبا على ربما يستدين.

قال أبو على: فقلت لأصحابنا: يا أصحابنا، لا تظنوا أن هذا فراسة؛ لأن هذا عادة.

قال: فخجل من الجماعة وانقطع.

وسمعت الحسين بن عبد الله الفارسى يقول: سمعت أبا بكر الفارسى يقول: دخلت على ابن يزدانيار فحضرت مجلسه، فلما فرغ نادانى فقال: ما تقول فى هؤلاء العراقيين؟ [يعنى الجنيد والنورى والشبلى] قال: فقلت أرباب التوحيد، قال: فغضب من كلامى، وقام، وقال لى بعض من كان يسمع كلامنا:

يا رجل، اتق الله، قم واخرج من هاهنا ومن هذا البلد أيضًا، ولا تقم الليلة. . فإنك إن أقمت الليلة هاهنا نالك مكروه، ويكون دمك في عنقك وهذه أمانة بيني وبينك قال: فقمت وخرجت»، أو كما قال.

وإنما ذكرت هذه الحكاية؛ حتى يعلم الناظر في هذا الكتاب أن هؤلاء الذين يطعنون على هذه العصابة لا يكون منهم أحد يرجع إلى دين وأمانة، وكلهم يكونون مستحلين منسلخين من الدين، أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

باب في ذكر محمد بن موسى الفرغاني
وبيان ما ذكر عنه من الكلام الذي ظاهره مستشنع
وباطنه صحيح مستقيم

قد نظرت فى كلام الواسطى أكثره فوجدت كلاما فصيحا وأصولا صحيحة؛ إلا أن عامة ما تكلم به استقاه من منابع العراقيين، ووجدت كثيرا من كلامه مدونا فى دواوين العراقيين، وفى كلامه مدخل المتعنت[1] بالطعن والإنكار؛ غير أنى وجدت مغزاه ومقصده مقصدًا صحيحًا، ومراميه مرامى موجودة فى الأصول ونادرا فى الفصول، مثل ما ذكرنا لغيره من المشايخ المتقدمين.

وبلغنى أنه سكن مَرْوَ، وذكر أنه لم يجد بخراسان قوما أوسع فهما منهم لإدراك علمه والاستنباط لمعانى ألفاظه وفضوله، وإشارته تكثر إن ذكرنا ذلك؛ غير أن المحكم من العلم يدل قليله على كثيره، ويستنبط جليله من يسيره وبالله التوفيق.

ذكر عن محمد بن موسى المعروف بالواسطى أنه قال: «من ذكر افترى، ومن صبر اجترى، ومن شكر انبرى».

وقد حكى هذا الكلام بعينه لابن عطاء، إلا أن المشهور المستفاض المدون فى الكتب للواسطى.

وهذا الكلام ظاهره مستشنع، ولأهل التعنت فيه مقال، إلا أن إشاراته فيما نطق به صحيحة.

أما قوله: «من ذكر افترى» يحتمل وجوها:

وجه منها: يحتمل أنه أراد بذلك: أن من ظن أنه قد ذكر الله باستحقاق ذكره فقد افترى، وإن كان ذاكرًا لله.

(١) الأولى: للمتعنت.

والوجه الثانى: يحتمل أن يقول: من ذكر الله بلسانه ولم يذكره بقلبه فكأنه قد افترى؛ لأن الافتراء: هو الكذب، والكذب: هو النفاق، وهو أن تقول بلسانك بخلاف ما يكون فى قلبك، فإذا قلت: الله أكبر فقد ذكرت الله بلسانك، فإن كان قلبك شىء أكبر واعظم من الله، فكان ذكرك لله افتراء على الله، فهذا معناه والله أعلم.

والوجه الثالث: يحتمل أنه أراد بذلك: أن من ظن أنه قد ذكر الله، وهو ذاكر لله بالحقيقة، فقد افترى؛ حتى يعلم أن ذكر الله له قبل ذكره لله، قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَر﴾[1].

قال أهل الفهم: ذكر الله لكم فى الأزل بالإيمان به والمعرفة، والذكر له أكبر من ذكركم.

وقوله: «من صبر اجترى» يحتمل أيضا وجوها:

الوجه الأول: أن طوارق محنة وبلواه لا يطيق ذلك أحد من خلقه؛ فمن صبر فى بلواه واحتمل ذلك، فإنما يحمل بما حمل فيه، قال الله عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِالله﴾[2]، فمن صبر فليس له نسبة فى صبره، ومن ظن أنه صبر أو يقدر أنْ يصبر على ذرة من طوارق محنة فقد اجترى، والاجتراء: الجسارة.

والوجه الثانى: أن الصبر على طوارق البلوى: داع يدعو صاحبه إلى الجسارة والدعوى، وإلى استدعاء المحن والبلوى، والعجز والجزع عن عمل المكاره: حادٍ يحدو صاحبه إلى الفاقة واللجأ، وتوفيقه بين الخوف والرجاء.

كما قال يحيى بن معاذ الرازى: ذنب أتذلل به بين يديه أحب إلىَّ من طاعة أدل بها عليه.

(١) العنكبوت: ٤٥. (٢) النحل: ١٢٧.

فهـذا معنى قـوله «من صبـر اجتـرى» ومن قوله «ومن شكر انـبرى» لأن الشكر جزاء النعمة.

ومن خطر بباله أنه شكر لأقل نعمة من نعمـه، ولو بذل فى ذلك مهجته، وتلف بذلك روحه: فقد انبرى، يعنى قد انفصل من درجة المتوجهين.

ووجه آخـر، وهو: أن كل عمـل ينقطع وله غاية ونهـاية إلا الشكر؛ لأن الشكر أيضا نعمة يجب عليها الشكر.

وفى الخبر [٢١٢]: أن مـوسى عليه السـلام قال: يارب كـيف أشكرك، وشكرى لك نعمة مـنك علىَّ! يجب على فيها الشكر؟ قـال: فأوحى الله إليه: يا مـوسى، الآن قد شكرتنى - فـكأنه يريد بقوله «انـبرى» يعنى: انفـصل عن جميع الأشغال بالشكر؛ لأن الشكر نعمة، والشكر على الشكر أيضا نعمة، فلا ينقطع ذلك أبدا!!!.

وهذا الذى ذكرت جـوابا وبيانا: على مـعنى التفـصيل، وأما جـوابه على الجملة: فـإن جميع مـا أضيف إلى العبـد: من حركاته، وخطراته، وأفـعاله، وأحواله فليس فاعله - فى الحـقيقة - غير الله، فـمن لم ينظر إلى قيام الله له، حتى يذهب عن مشاهدة قيامه بقـيام الحق له فى جميع حركاته وخطراته، فإن ذكر فقد افترى، وإن صبر فقد اجترى، وإن شكر فقد انبرى، وبالله التوفيق.

وإنما حملنى على الزيـادة فى الشرح، حتى يعلم القاص والمسـتبحث عن هذا العلم أن تحت كل كلـمة من كـلام هؤلاء الحكمـاء كنوزا لا يظفر بهـا إلا بصـدق الطلب ودوام النصب والكد والتـعب، ولا ينبغى لأحـد أن يقيس مـا يسمع من هذا العلم برأيه ويزين ذلك بعبـارة؛ فإنه يتيه ويزل، ويهلك ويضل: ﴿وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى كَيْدَ الخَائِنِينَ﴾[1].

(١) يوسف: ٥٢.

ومما وجدوا فى مجموع كلام «الواسطى» وأضافوا إليه كلاما قد هلك به خلق من الناس؛ لأنهم لم يفهموا معناه ولم يعرفوا ما قصد به فى مقاله، وهو الذى ذكر عنه وعن غيره من العراقيين، والله أعلم: أنه قال:

إياك أن تلاحظ حبيبًا أو كليمًا أو خليلا وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلا، فقيل له: أفلا أصلى عليهم؟ فقال: صلِّ عليهم بالأوتار ولا تجعل لها فى قلبك مقدارًا وكل من قلل هذا الفضل فقد أخطأ، ولا معنى لوصفه فى الكتب وإفشائه وبثه بين الناس؛ لأن هذا كلام هلك به طائفتان من الناس: فطائفة ظنت بأن قصد القائل فيما قال: هذا أراد بذلك وَهْنًا ونقصًا فى اعتقاد القلب فى معنى تعظيم الأنبياء عليهم السلام وحرمتهم وما خصهم الله به من الشرف والفضيلة إذ يقول سيدنا ونبينا محمد ﷺ [٢١٣]: «والذى نفس محمد بيده لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله» وفى خبر آخر «لا يؤمن عبد» أو كما قال.

وطائفة جهلت معناها وما فهمت فبسطت لسانها على الجمهور بأنهم لم يعطوا الأنبياء عليهم السلام، حقهم من التعظيم والتفضيل، الذى خصهم الله بذلك.

وبلغنى أن بناحية الجبل خلقًا من العامة افتتنوا بذلك حتى يقولون: إن هؤلاء محمديون وهؤلاء ليس محمديين، وذلك أن رجلا ممَّن كان يقص الصوفية على الناس طمعًا فى كثرة حطام الدنيا ممن قد أشهر نفسه بعداوة الصوفية كان يقال له: «أبو سعيد البسطامى» وقع إليهم فقال لهم فى قصصه الذى كان يقص عليهم: إن الصوفية لا يقولون: «محمد» ﷺ، وذكر لهم هذا الكلام الذى ذكرت من كلام «الواسطى» وغير ذلك حتى هجَّمهم[1] بذلك على صوفية نواحيهم ومتنسكيها وصالحيها، وظن من سمع منه ذلك من العامة أنه يريد بذلك نصحهم وكان قصده فى ذلك العداوة والبغضاء والتنفير من الصوفية؛ لأنهم كانوا قد طردوه من بلاد كثيرة احتسابا منهم من كثرة ما كان

(١) هجمهم: أى هيجهم وحرضهم.

يكذب على الله، عز وجل، وعلى رسوله ﷺ، وكثرة استحلاله، وقلة مبالاته، وكان يستر قبائحه وفضائحه بالتساتر وكثرة الروايات والحكايات، ودقة البيان، وفصاحة اللسان، وادعائه مذهب أهل الحديث، ومحبة أصحاب رسول الله ﷺ.

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال [٢١٤]: «أخوف ما أخاف عليكم منافق عليم اللسان».

وقد ذكرت بعض ما وقع بهذه العصابة من المعاندين والمتعنتين من وقت التابعين إلى يومنا هذا من أمثال هؤلاء فلا يضرهم ذلك.

﴿وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾(١)، وهو يتولى الصالحين ولا يضيع أجر المحسنين.

(١) يوسف: ٥٢.

باب فى بيان ما قال الواسطى

أما قول القائل: إياك أن تلاحظ حبيبا، أو كليما، أو خليلا، وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلا، كأنه يشير بذلك إلى التفريد وتجريد التوحيد، وأن تعطى الواحدانية حقها بترك المساكنة إلى ما سواه؛ لأن الخلق كلهم - وإن كانوا فى درجاتهم متفاوتين، وفى دينهم متفاضلين - فإن الله قد ساوى بينهم فى أشياء كثيرة، وذلك أن الجميع مخلوقون، مقدورون، مأمورون، مهنوعون، محتاجون، محكومون، عاجزون، فاترون، مبتلون، مقهورون، بما أرادهم الحق كيف شاء، وأنى شاء، وحيث شاء! ليس لأحدهم عنده يد، وليس لأحدهم نفس منهم بهم وإليهم.

ألا ترى أن سيد الأنبياء، وإمام الأصفياء، وحبيبه المرتضى، ورسوله المصطفى، يقول له، جل ذكره: ﴿قُلْ لاَ أَمْلكُ لنَفْسى نَفْعًا ولاَ ضَرًا﴾(1)، ويقول: ﴿إنَّكَ لا تَهْدى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكنَّ الله يَهْدى مَنْ يَشَاء﴾(2)، ثم قال: ﴿ومَا مُحمَّدٌ إلا رسُولٌ قَدْ خَلَتْ منْ قَبْله الرُّسُلُ أَفَإنْ مَاتَ أَوْ قُتلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابكُمْ ومَنْ يَنْقَلبْ عَلَى عقبَيْه فَلَنْ يَضرَّ الله شَيْئًا وَسَيَجْزى الله الشَّاكرينَ﴾(3)، وقال: ﴿ولَئنْ شئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالَّذى أَوْحَيْنَا إلَيْكَ ثمَّ لاَ تجدُ لَكَ به عَلَيْنَا وكيلا﴾(4).

وأشباه ذلك كثيرة، لأن الله عز وجل، لم يكن له شريك فى الملك، وخلق كل شىء فقدره تقديرا!.

(1) الأعراف: ١٨٨.

(2) القصص: ٥٦.

(3) آل عمران: ١٤٤.

(4) الإسراء: ٨٦.

ثم وصف الله الأصنام، فقال: ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا﴾(١) وقال: ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾(٢).

والأنبياء عليهم السلام، وغير الأنبياء: كلهم فى مراتبهم ومواقفهم ومقاماتهم التى جعلت لهم ووصفوا بها.

فمن لاحظ الخلق فيرى تخصيصهم وتفضيلهم وتشريفهم، ومن لاحظ سطوات عظمة الواحدانية، وبوادى سلطان الربوبية، وقدم الأحدية والفردانية، بغيبوبته عن الخلق، وغيبوبة الخلق عنه، فأين هو الخلق، وكيف يجد السبيل إلى ملاحظة الخلق؟.

ذلك معنى قوله: إياك أن تلاحظ حبيبا، أو كليما، أو خليلا إن وجدت إلى ملاحظة الحق سبيلا، يعنى المشاهدة، والمحاضرة، والرؤية أتم من الملاحظة.

وقال النبى، ﷺ [٢١٥]: «اعبد الله كأنك تراه».

وقال على بن أبى طالب ﵁: «رأته القلوب بحقائق الإيمان».

وقد روى عن النبى، ﷺ، أنه قال [٢١٦]: «ليس منا أحد ينجيه عمله، فقيل له: ولا أنت يا رسول الله؟ فقال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه!».

وقد قال ذلك، لأنه لم يلاحظ نفسه عند ملاحظة الحق، وقال فى وقت آخر [٢١٧]: «أنا أول من تنشق عنه الأرض والأنبياء تحت لوائى، والجنة حرام على كل أحد حتى أدخلها»؛ لأنه لاحظ نعم الله عليه ومنه لديه.

(١) الفرقان: ٣

(٢) الأنبياء: ٦٦، ٦٧.

قال الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1].

وكذلك أبو بكر الصديق ﷺ لما مات النبى ﷺ اضطرب قلوب المسلمين، وخشوا على ذهاب الإسلام بموت النبى ﷺ فصعد المنبر وقال: «ألا من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت!».

ألا ترى أنه لم يلاحظ موت النبى ﷺ، عند ملاحظته للحق فى نصرة الدين وتمكين المسلمين.

وكذلك عائشة ﷺ عند نزول براءتها من مقالة أهل الأفك؟ ألا ترى كيف واجهت رسول الله ﷺ وقالت: بحمد الله لا بحمدك، وكان شرفُها وفضلُها وفخرُها برسول الله ﷺ، إلا أنها لم تلاحظ رسول الله ﷺ، عند ملاحظة الحق فى نزول القرآن ببراءتها، ولم يزِدْها ذلك عند رسول الله ﷺ إلا رفعةً ومحبّةً ودرجةً وفضيلةً.

فقسْ على هذا المعنى، جميع ما تسمع من نحو ذلك فى هذا الباب.

وأما قوله: صلِّ عليهم بالأوتار، ولا تجعلْ لها فى قلبك مقداراً: ليس كما ظن المتعنت: أنه لا تجعلْ للأنبياء عليهم السلام فى قلبك مقداراً، ولكن يريد بذلك أى لا تجعل لكثرة صلاتك عليهم عندك مقداراً، أى لا تستكثر ذلك؛ فإنهم يستحقون أكثر من ذلك.

لأن النبى ﷺ قال [٢١٨]: «من صلى علىَّ مرة واحدة صلى الله عليه عشراً».

يقول: وإن كثرت الصلاة عليهم فلا تجعل لها فى قلبك مقداراً باستكثارك لها: لأن صلوات الله عليك إذا صليتَ على رسوله، ﷺ، أكثر من صلاتك عليه.

---

(١) الضحى: ١١.

ومن قال: إنه أراد بقوله: لا تجعل لها فى قلبك مقداراً، يعنى الأنبياء عليهم السلام يعنى به عند مقدار عظمة الله تعالى، وكبريائه؛ لأنه لا يجوز أن يأخذ مقدار شىء، من جميع ما خلق الله: من الملائكة، والأنبياء، والجنة، والنار، والعرش، والكرْسى، موضعًا من قلوب المؤمنين، عند موضع مقدار عظمة الله تعالى، وكبريائه، وقدرته، وسلطانه، ووحدانيته.

فهذا فى معنى التوحيد وحقيقة التفريد.

وأما من حيث العلم والشرع، وما ندب الله إليه الخلق ودعاهم إلى تعظيم الرُّسُل والإيمان بما جاءوا به، وبما خص الله نبينا، ﷺ، من جميع الرُّسُل فقد ذكرتُ فى هذا المعنى أبوابًا فى باب: مستنبطات أهل الصفوة فى تخصيص النبى ﷺ، من كتاب الله تعالى، وأخبار رسول الله، ﷺ، وما فتح من ذلك على قلوب أولياء الله.

وأَقْرَبُ ما يقول أهل الصفوة فى الرسول، ﷺ: أنه عبدٌ أوحدُ لا يجوز لأحد أن يدركه فى جميع ما خص به.

سئل أبو يزيد البسطامى، رحمه الله: هل يزيد أحدٌ على النبى ﷺ؟ [فقال: وهل يدركه أحدٌ]!.

ثم قال أبو يزيد، رحمه الله، جميع ما يفهم الخلق وأدركوه من شرف رسول الله ﷺ، فيما لم يفهمه ولم يدركه، مَثَلُ ذلك: مثل قِرْبة زرقاء ملآى من الماء، فما رُشح أدرك الخلقُ وفهموه من شرفه وفضله، وما سوى ذلك فلم يفهمه أحدٌ ولم يدركه.

وأَقْرَبُ ما يصف به أهل الصفوة رسول الله، ﷺ: أنهم قالوا: لما وعد الله تعالى رسوله، ﷺ، بأن يعطيه جميع ما يسأله بقوله: «يا محمد، سلْ تعطَهُ» فلا يجوز أن يسأله شيئًا إلا أن يعطيه.

وكان من دعـائه، ﷺ [٢١٩]: «اللهم اجـعلْ من فـوقى نورًا، ومن تحتى نورًا، وعن يمينى نورًا وعن شمالى نورًا، ومن ورائى نورًا، ومن قُدَّامِى نورًا ومن خلفى نورًا، الـلهم اجعـل فى قلبى نورًا، وفى بصـرى نورًا، وفى سمعى نورًا، وفى لحمى نورًا، وفى عظمى نورًا» كما جاء فى الحديث.

قالوا: الدليل على أن الله تعـالى، أعطاه ذلك قوله ﷺ [٢٢٠]: والله إنى لأراكم خلف ظهرى كما أراكم قدامى.

وكل فضيلة وشرف خص بذلك أحد من أمة محمد، ﷺ، فذلك شرف رسول الله، ﷺ، وفضله، فلا ينبغى لأحـد أن يقول ما لا يعلم. قال بعض الحكمـاء: إذا ألفَ القلبُ الإعراض عن الله تعـالى، أورثه الوقيـعةَ فى أولـياء الله، تعالى.

والمسـتبحث عن هذا العلم يجـد فى كتب هؤلاء وفى كلامـهم مثل ذلك كثيرًا؟ وإنمـا بينت هاتين الكلمتين، وفسرت على الاختـصار حتى يقاس بذلك على ما لـم نذكره، وبالله التوفيق.

باب فى ذكر من غلط من المترسمين بالتصوف
ومن أين يقع الغلط، وكيف وجوه ذلك

قال الشيخ، رحمه الله: سمعت أحمد بن على الكرخى يقول: سمعت أبا على الروذبارى، رحمه الله، يقول: قد بلغنا فى هذا الأمر إلى مكان مثل حد السيف؛ فإن قلنا: كذا ففى النار وإن قلنا: كذا ففى النار.

يعنى: إن غلطْنا فيما نحن فيه بدقيقة فنصير من أهل النار، لأن الغلط فى كل شىء أَهْوَنُ من الغلط فى التصوف وفى علمه، لأنها: مقامات، وأحوال، وإرادات ومراتب، وإشارات؛ فمن تخطى فى ذلك إلى ما ليس له فقد اجترأ على الله فيكون الله خصْمَهُ، فإن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه بما شا كيف شاء.

وكل من ترسَّم برسوم هذه العصابة أو أشار إلى نفسه بأن له قَدَمًا فى هذه القصة، أو توهم أنه متمسك ببعض آداب هذه الطائفة، ولم يُحْكِمْ أساسه على ثلاثة أشياء فهو مخدوع، ولو مشى فى الهواء ونطق بالحكمة، أو وقع له قبول عند الخاصة أو العامة.

وهذه الثلاثة أشياء:

أولها: اجتناب جميع المحارم: كبيرها وصغيرها.

والثانى: أداء جميع الفرائض: عسيرها ويسيرها.

والثالث: ترك الدنيا على [أهل] الدنيا: قليلها وكثيرها إلا ما لا بد للمؤمن منها.

وهو ما رُوى عن النبى ﷺ ،أنه قال [٢٢١]: أربعة فى الدنيا، وليست هى من الدنيا: كِسْرةٌ تسد بها جوعتك، وثوب توارى عورتك، وبيت تُكَنُّ فيها، وزوجة صالحة تسكن إليها.

فـأمـا سـوى ذلك: من الجـمع، والمنـع، والإمـسـاك، وحب التكاثر، والمباهاة، فجميع ذلك: حجاب قاطع يقطع العبد عن الله عز وجل.

فكل من ادعى حالا من أحوال أهل الخـصوص، أو توهم أنه سلك منزلا من منازل أهل الصفوة، ولم يبن أساسـه على هذه الثلاثة فإنه إلى الغلط أقربُ منه إلى الإصابة فى جميع ما يشير إليه أو يدعيه أو يترسم برسمه، والعالم مُقرٌّ والجاهل مدَّعٍ.

باب فى ذكر الفرقة الذين غلطوا وطبقاتهم، وتفاوتهم فى الغلط

قال الشيخ رحمه الله: ثم إنى نظرتُ إلى الفِرَق الذين غلطوا، فوجدتهم على ثلاث طبقات:

فطبقة منهم: غلطوا فى الأصول من قلة إحكامهم لأصول الشريعة، وضعف دعائهم فى الصدق والإخلاص، وقلة معرفته بذلك، كما قال بعض المشايخ، حيث يقول: إنما حُرموا الوصول لتضييع الأصول.

وطبقة ثانية: منهم غلطوا فى الفروع، وهى: الأداب، والأخلاق، والمقامات، والأحوال، والأفعال، والأقوال؛ فكان ذلك من قلة معرفتهم بالأصول، ومتابعتهم لحظوظ النفوس ومزاج الطبع؛ لأنهم لم يدنوا ممن يروضهم، ويجرعهم المرارات، ويوقفهم على المنهج الذى يؤديهم إلى مطلوبهم.

فمثلهم فى ذلك: كمثل من يدخل بيتًا مُظلمًا بلا سراج، فالذى يفسده أكثر مما يصلحه، وكلما ظن أنه قد ظفر بجوهر نفيس فلم يجد معه إلا خزفًا خسيسًا، لأنه لم يتبع أهل البصيرة الذين يميزون بين الأشباه، والأشكال، والأضداد، والأجناس فعند ذلك يقع لهم الغلط، ويكثر منهم الهفوة والشطط، فهم متحيرون، ومتفرقون بين منهزم ومفتون، ومتجبر ومحزون ومغتر بالظنون، ومخترف بالجنون، ومتلبس بالمجون، ومكمد بالشجون، ومُدَّع ومفتون ومتمن للمنون، فسبحان من قسم لهم بذلك وهو العالم بدائهم ودوائهم، وسقمهم وشفائهم.

والطبقة الثالثة: كان غلطهم فيما غلطوا فيه: زلة وهفوة، لا علة وجفوة، فإذا تبين ذلك عادوا إلى مكارم الأخلاق، ومعالى الأمور، فَسَدُّوا الخلل، ولَمُّوا الشَّعثَ، وتركوا العناد، وأذعنوا للحق، وأقروا بالعجز فعادوا إلى الأحوال

الرضية والأفعال السنية، والدرجات الرفيعة، فلم تنقص مراتبهم هفوتهم، ولم تظلم الوقتَ عليهم جفوتهم، ولم تمتزج بالكدورة صفوتهم.

وكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث على أحوال شتى: من التفاوت، والإرادات، والمقاصد، والنيات.

وقد قال القائل:

مَنْ تحلى بغير ما هُوَ فيه فضحته لسانُ ما يَدَّعيه

وقد ذهب عليه ما روى عن النبى، ﷺ، أنه قال [٢٢]: «ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى، ولكن هو ما وقر فى القلب وصدقته الأعمال» كما روى فى الحديث.

فمن غلط فى الأصول فلا يسلم من الضلالة، ولا يرجى لدائه دواء، إلا أن يشاء الله ذلك، والغلط فى الفروع أقل آفة، وإن كانت بعيدة من الإصابة.

باب في ذكر من غلط في الفروع التي لم تؤدهم إلى الضلالة

ونبتدئ في ذكر الطائفات الذين غلطوا في الفقر والغنى

قال الشيخ رحمه الله: ثم إن طائفة من المترسمين بالصوفية، تكلموا في تشريف الغنى على الفقر، وكانت إشارتهم في ذلك: إلى الغنى بالله، لا إلى الغنى بالأعراض الدنية من الدنيا، [فغلطت طائفة] فطلب التأويلات؛ وتعلقت بالاحتجاجات والاختراعات: من الآيات والروايات، أن تجعل الغنى بأعراض الدنيا حالا محمودة أو مقامًا من مقامات طلاب الآخرة، فتاهت في ذلك وغلطت؛ لأن الذى تكلم في الفقر والغنى، وعد الغنى حالا من أحوال المنقطعين إلى الله تعالى: أشار إلى الغنى بالله، لا إلى الغنى بأعراض الدنيا التي لا تَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة.

وطبقة أخرى: تكلمت في حقائق الفقر والافتقار إلى الله تعالى، ما يقارنها: من الصبر، والشكر، والرضا، والتفويض، والسكون، والطمأنينة، عند العدم.

فضلت طائفة أخرى وتوهمت أن الفقير المحتاج الذى يعدم الصبر والرضا: لا فضيلة له ولا ثواب له على فقره؛ والفقير المضطر المعدم الرضا والصبر: له فضلٌ على الغنى الذى يكون غناه بالدنيا.

وخلقت النفس محتاجة، وليس من صفات البشرية: الطمأنينة والسكون عند عدم القوام والقرى، والفقر تكرهه النفس ولا يلائمه الطبع والهوى، لأنه من [الحقوق والغنى تحبه النفس ويلائمه الطبع والهوى، لأنه من] الحظوظ.

وقد وعد الله تعالى الغنى على الحسنة الواحدة، إذا عملها، عشر أمثالها: لقوله عز وجل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1]، والحسنة من

(١) الأنعام: ١٦٠.

الفقير كائنة فى كل نفس لصبره على مرارة الفقر ؛ ليس لثواب الصبر نهاية معدودة .

لقوله عز وجل : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(1) .

والفقر فى ذاته محمود ، فإن صحبته علة فالعلة فيه مذمومة .

لقول النبى ﷺ [٢٢٣] : الفقر أزين على المؤمنين من العذار الجيد على خد الفرس .

ولم يشترط مع الفقر غير الفقر شيئًا .

والغنى بالدنيا فى ذاته مذموم ، فإن صحبته خصلة محمودة من أعمال البر فهى المحمودة لا نفس الغنى .

لقول النبى ﷺ [٢٢٤] : «ليس الغنى عن كثرة العرض» ولم يشترط مع الغنى شيئًا غير الغنى .

فشتان بين خصلة محمودة فى ذاتها لا يقع اسم المذمة عليها إلا بعلة نادرةمن أعمال الخير .

وطبقة أخرى : زعمت أن الفقر والغنى حالان ، ليس للعبد أن يتبعها ، بل يجب عليه أن يعبرهما ولا يقف معهما ، وهذا عند أهل الحقائق والمعارف ، واحكام الحقيقة عند النهايات ، فظنت طائفة أخرى أن الذى قال ذلك فقد ساوى بين الفقر والغنى وقالوا : لا فرق بين الفقر والغنى فى معنى الحال .

فيقال لهم : قد رأيناكم كارهين للفقر ، وما رأيناكم كارهين للغنى ؛ فإن كانا حالَيْن مستويَيْن ، فأين استواؤكم فى المساكنة ، إليهما ، والاحتراز منهما ، والمعانقة لهما ؟ فقد تبيَّنَ غلطهم فى ذلك .

(1) الزمر : ١٠ .

وغلطت طائفة أخرى فى الفقر فتوهمت أن المراد من حال الفقر العدم والفقر فقط، فاشتغلتْ بذلك ولم تَسْمُ بهمتها إلى آداب الفقر، وخفى عليها أن رؤية الفقر حجاب الفقير فى الفقر عن حقيقة الفقر.

وليس للفقير الصادق فى حال الفقر خصلة أقلُّ من الإعدام، والفقر، والصبر، والرضا، والتفويض، فى معانيها: أتمُّ من الفقر الذى لم يكن مقرونًا بهذه الخصال، ورؤية الفقر والمساكنة إلى الفقر والإعجاب به علَةٌ فى الحال وحجاب فى المكان.

والله أعلم بالصواب، وبالله التوفيق.

باب فى ذكر من غلط فى التوسع، وترك التوسع من الدنيا بالتقشف والتقلل، ومن غلط فى الاكتساب وترك الاكتساب

قال الشيخ، رحمه الله: لا يصح الدخول فى السعات إلا لنبى أو صديق، معناه: لأنهم يكونون فى الأشياء لغيرهم، ويقومون فى الأسباب بحقوقها لا بحظوظها؛ لأنهم يعرفون الإذن: إذا أذن الله لهم بالإنفاق أنفقوا، وإذا أذن لهم بالإمساك أمسكوا.

فمن لم يعرف الإذن، ولم يكن من أهل الكمال والنهايات، غلط عند دخوله فى السعات بالغرور والتأويلات.

ومن زعم أنه لا يسكن إلى ذلك فيقال له: من لايسكن إلى ما فى يديه من أسباب الدنيا ينبغى أن لا يُمسك ولا يطلب، ويكون القليل والكثير عند سواء، فمن لم يكن القليل آثره عنده من الكثير، ولا يكون الواحد آثر عنده من الاثنين، ولا يخلو سِرِّه من الطلب لمفقودٍ من أسباب الدنيا والإمساك لموجودها: فهو من طلاب الدنيا والمرتبطين باكتسابها بحظها لا بحقها.

فمن توهم أن له حالاً غير ذلك فهو فى غلط.

وطبقة أخرى: تعلقوا بالتقشف والتقلل، واعتادوا الدون من اللباس والقليل من القوت، وظنوا أن كل من رفق بنفسه، أو تناول شيئًا من المباحات، أو أكل شيئًا من الطيبات: أن ذلك علة وسقوط من المنزلة، وكل حال غير الحال الذى هم عليه عندهم زلة؛ وقد غلطوا فى ذلك، لأن العلة كائنة فى التقلل والتقشف؛ كما أن العلة كائنة فى الترفع والترفه، والتقلل والتقشف بالعادة، والتكلف معلول؛ إلا أن يكون العبد مرادًا بذلك وقتًا من الأوقات، أو يكون تأديبًا له، أو رياضةً لنفسه، فإذا شاهد آفاتها، واستحلى ملاحظة الخلق له بذلك، ولم يعمل فى الانقلاع عنها بجهده يكون هالكا ولا يرجى خيرُهُ أبدًا.

وطبقة أخرى من المتنسكين: تعلقوا بأخذ القوت من الكسب، وركنوا إلى اكتسابهم، وأنكروا على من لم يكتسب مثلهم وتوهموا وظنوا أن الحال لا يصح إلا بتصفية الغذاء، وتصفية الغذاء والقوت - عندهم - لا تصح إلا بالاكتساب.

واحتجوا بقول النبى ﷺ [٢٢٥]: أحل ما يأكل المؤمن كسب يده.

وقد غلطوا فى ذلك؛ لأن كسب رخصة وإباحة لمن لم يطق حال التوكل، لأن التوكل حال الرسول ﷺ، وكان الرسول ﷺ، مأمورًا بالتوكل والثقة بالمضمون من الرزق؛ وكذلك الخلق كلهم مأمورون بالتوكل على الله، عز وجل، والثقة بما وعدهم الله تعالى، والسكون عند عدم الرزق حتى يسوق الله، عز وجل، إليهم أرزاقهم، فمن ضعف عن ذلك ولم يطق فقد سن له رسول الله ﷺ، الكسب المباح بشروطه حتى لا يهلك.

وشروط الكسب: أن لا يركن إلى كسبه، ولا يرى رزقه من كسبه، ولا يكون فى كسبه مغتنمًا، بل ينوى بذلك معاونة المسلمين، ولا يشغله كسبٌ عن أول أوقات الصلاة المفروضة، ويتعلم العلم حتى لا يأكل الحرام، فمتى ما ترك خصلة من هذه الخصال فقد صار كسبه معلولا بعاهة، وإن كان له إخوان ممن لم يكتسبوا ويعلم أنهم محتاجون، فيجب عليه أن يتفقدهم بما فضل من قوته.

فمن لم يقم بهذه الشروط فأخشى عليه الغلط فى إعجابه وتعلقه باكتسابه.

وطبقة أخرى: طعنوا على المكتسبين، وجلسوا معتمدين على حالهم، متشرفين إلى من يفتقدهم؛ وعندهم أن هذا هو الحال، وقد غلطوا فى ذلك؛ لأن الجلوس عن المكاسب ينبغى أن يكون من قوة اليقين والصبر، فمن ضعف يقينه وغلب عليه طبعه وطمعه يُؤْمر بالدخول فى الطلب، والطلب مباح، وترك الطلب بقوة الإيمان أتمُّ وأفضل.

باب فى ذكر طبقات الذين فتروا فى الإرادات، وغلطوا فى المجاهدات، وسكنوا إلى الراحات

قال الشيخ، رحمه الله: ثم إن طبقة من الصوفية غلطت فى العبادات، والمجاهدات، ورياضات النفوس، والمكابدات؛ فلم تحكم فى ذلك أساسها، ولم تضع الأشياء فى مواضعها؛ فانهزمت ونكصت على أعقابها القَهْقَرَى؛ وذلك أنهم حين سمعوا بمجاهدات المتقدمين، وما نشر الله بذلك أعلامهم فى خلقه، بالثناء الجميل، والقبول عند الناس، وإظهار الكرامات، فطمعت نفوسهم وتمنوا، فتكلفوا شيئًا من ذلك، فلما طالت المدة ولم يصلوا إلى مرادهم كسلوا، فإذا دعاهم داعى العلم إلى المجاهدة والعبادة ورياضة النفس، فلا يقام لذلك عندهم وزن.

ولو جذبهم الحق جذبة إلى خدمته، وأرادهم بالمداومة على طاعته، وأدركهم بلطفه وعنايته؛ لازدادت رغباتهم، وقويت نياتهم، ودامت على ما كانت عليه نياتهم، فلما لم يكونوا مرادين بذلك، لضعف دعائمهم، وفساد قصدهم؛ توهموا أن ذلك فتور.

وقد غلطوا فى ذلك؛ لأن الفتور ما يتروح به قلوب المجتهدين وقتًا دون وقت ثم تعود إلى الحال.

فأما ما وقع فيه هؤلاء فهو الكَسَل والتوانى والأمانى الكاذبة.

قال: وسمعت أحمد بن على الكرخى يقول: سمعت أبا على الروذبارى، رحمه الله يقول: البداية: هى كالنهاية، والنهاية فهى كالبداية، فمن ترك شيئًا فى نهايته مما كان يعمل فى بدايته، فهو مخدوع.

وطبقة أخرى: ساحت، وسافرت، ولقيت المشايخ، وجلست وتصدرت، وتطاولت على أبناء جنسها، لأنها قد لقيت ما لم يلق قرناؤها، ونظرت إلى ما لم ينظر إليه جلساؤها، وعدت نفسها من المستقلين.

وقد غلطت فى ذلك؛ لأن السفر سمى سفرًا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، وإنما يسافرون حتى يشاهدوا من أنفسهم خُلقًا مذمومًا فيعلموا فى تبديلها، ويعرفوا أيضًا من أنفسهم من المخبيات ما لم يعرفوا ذلك فى حضرهم ومعارفهم.

ولقاء المشايخ يحتاج إلى الأدب، والحرمة، والإرادة، وأن ينسى جميع ما يعلم، ويقبل من الشيخ ما يُوصيه به ويُشير عليه، ويطالب نفسه بحق الشيخ، ولا يقتضى لنفسه من الشيخ إقبالا عليه ولا رفقًا، ويحفظ قلبه، ويغتنم نظره إليه، ويخاف أن تكون صحبته ولقياه للشيخ حُجة عليه.

فمن ساح أو سافر، أو لقى شيخًا من المشايخ على غير ما ذكرت، وتوهم أنه من المسافرين، أو ممن قد صحب المشايخ: فهو فى غلط عظيم.

وطبقة أخرى: أنفقوا الأموال والأملاك، وبذلوا، وتوهموا أن المراد البذلُ والإنفاق، والتخلق بالسخاوة والبذل والسماحة.

وقد غلطوا فى ذلك؛ لأن مراد القوم وقصودهم، فيما أنفقوا وبذلوا: لم يكن إظهار السخاوة، ولا الاشتهار بالسماحة، ولكن رأوا أن التعلق بالأسباب مع المسبب: علة فى المكان، وحجابٌ قاطع عن الحقيقة؛ فكان إنفاقهم وبذلهم وخروجهم من الأملاك: فرارًا من العلة وقطعًا للعلاقة، فمن بذل شيئًا من طريق السماحة والسخاوة، وظن أن طريقه طريق القوم فهو فى غلط.

وقوم آخرون انبسطوا فى المباحات، ولم يتكلفوا المراعاة للأوقات، وقالوا: ليس لنا معلوم أيْشَ، ما وجدنا أكلنا ونمنا، فذلك وقتنا!.

وقد غلطوا فى ذلك، لأن الوقت إذا فات لا يدْرَكُ، وليس الوقت ما يكون معمورًا بالإرفاق، إنما الوقت ما يكون معمورًا بدوام الذكر، ومربوطًا بالإخلاص والشكر، والرضا والصبر؛ والنفس والهوى والشيطان: أعداء يطلبون فرصة الظفر بالعبد، فإذا غفل العبد عنهم طرفة عين فلا يُرْجَى خيرهُ ولا يُؤْمَن هلاكه.

فمن توهم أنه وصل إلى حال قد أَمِن من ذلك فهو فى غلط.

باب فى ذكر طبقات الذين غلطوا فى ترك الطعام والعزلة والانفراد وغير ذلك

قال الشيخ، رحمه الله: ثم إن جماعةً من المريدين والمبتدئين سمعوا علم مخالفة النفوس، فتوهموا: أن النفس إذا انكسرت بترك الطعام يُؤْمَنُ شرُّها وبوائقها وعوائقها، فتركوا عاداتهم من الطعام والشراب، ولم يستعملوا الأدب فى ترك الطعام، ولم يستبحثوا عن الأستاذين آدابها، فعمدوا إلى ترك الطعام، وواصلوا الليالى والأيام وظنوا أن ذلك حالٌ.

وقد غلطوا فى ذلك؛ لأن المريد ينبغى أن يكون له مؤدبٌ يوقفه على ما يحتاج إليه حتى لا يتولد من أرادته بلاء وفتنة لا يقدر أن يتلافاها ولا يتلخص من فسادها.

والنفس لا يؤمن شرها، ولا يذهب عنها ما جُبلتْ عليه من الشر، وهى الأمارة بالسوء، فمن ظن أن النفس إذا انكسرت بالجوع بقلة المَطْعَم فقد زال عنها شرها وآفات بشريتها، حتى يأمنها صاحُبها، فقد غلط.

وسمعت ابن سالم يقول: كانوا إذا أرادوا أن يتقللوا ينقصون من طعامهم فى كل جمعة مثل أُذن السنَّوْر.

وسمعته يقول: كان سهل بن عبد الله ـ رحمه الله ـ يأمر أصحابه أن يأكلوا اللحم فى كل جمعة مرةً حتى لا يضعفوا عن العبادة.

ولقد رأيتُ جماعةً حملوا على أنفسهم فى مثل هذه الأشياء: من التلقل، وأكل الحشيش، وترك شرب الماء، حتى فاتتهم الفريضة، لأنهم لم يأتوا بها على سيَتها، ولم يتأدبو بآداب من سلك هذا المسلك من المتقدمين.

وطائفةٌ اعتزلت ودخلت كهوف الجبال، وظنوا أنهم بذلك يهربون من الخلق، أو يأمنون فى الجبال والفلوات من شر نفوسهم، أو يوصلهم الله

تعالى، بالانفراد والخلوة إلى ما أوصل إليه أولياءه من الأحوال الشريفة ولا يوصلهم إلى ذلك بين الناس.

وقد غلطوا فى ذلك؛ لأن الأئمة من المشايخ الذين قلَّ مطعمهم، ودامت خلواتهم وانفرادهم، واختاروا العزلة: إنما حداهم على ذلك ودعاهم إلْيه، داعى العلم وقوة الحال، فورد على قلوبهم ما أذهلهم وشغلهم عن المعارف والأوطان، وأخذهم عن الطعام والشراب وجذبهم الحق إليه جذبة أغناهم بها عمن سواه(١).

فمن لم يكن مصحوبه قوة الحال وغلبة الوارد، ثم يتكلف ويحمل على نفسه ما لا تطيقه، يظلم نفسه: فيُدخل على نفسه الضررَ، ولا يُدرك ما فاته، ويفوته ما معه، فمن شيئًا من ذلك بتكلفه، ويتولى أنه قد وصل إلى شىء من مراتب المخصوصين: فهو فى غلط.

قال: ورأيتُ جماعةً من الأحداث كانوا يُقِلُّون الطعام، ويسهرون الليل ويذكرون الله تعالى، على الدوام، حتى كان أحدهم ربما يُغْشَى عليه، وكان يحتاج بعد ذلك إلى أن يُدارَى، ويُرْفَق به أيامًا، حتى يقدر أن يصلى الفريضة.

وجماعةٌ جبُّوا أنفسهم، وظنوا أنهم إذا قطعوا ذلك سلموا من آفات الشهوة النفسانية.

وقد غلطوا فى ذلك؛ لأن الآفات تبدو من الباطل، فإذا قُطعت الآلة، والعلة موجودةٌ فى الباطن لم ينفع ذلك، بل يضر وتزداد الآفة، فمن ظن أن الآفة فى الآلة الظاهرة ويتخلص بقطع ذلك من شرها، فهو فى غلط.

وقومٌ هامُوا على وجوههم ودخلوا البرارى والبوادى، بلا زاد ولا ماء، ولا آلة الطريق، وتوهموا أنهم إذا فعلوا ذلك نالوا ما نال الصادقون من حقيقة

(١) ومن ذلك قوله، ﷺ: «لست كأحدكم؛ أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى».

التوكل وقد غلطوا فى ذلك؛ لأن القوم الذين كان هذا دأبهم كانت لهم بدايات، وتأدبوا بآداب، وراضوا أنفسهم قبل ذلك بالمجاهدات، وكانوا مستقلين بأحوالهم: لم يبالوا بالقلة ولم يستوحشوا من الوحدة، فكم من مَوْتةٍ ماتوا وكم من مرارة ذاقوا؟ حتى استوت أحوالهم فى الخراب والعمران، والسهل والجبل، والجماعة والوحدة، والعز والذل، والجوع والشبع، والحياة والموت.

فمن فعل شيئا من ذلك وتوهم أنه قد نطق بشىء من أحوال المتوكلين فهو فى غلط.

وجماعةٌ تكلفوا لبس الصوف، واتخذوا المرقعات المعمولة، وحملوا الركاء[1] ولبسوا المصبوغات، وتعلموا الإشارات، وظنوا أنهم إذا فعلوا ذلك، أنهم من الصوفية.

وقد غلطوا فى ذلك، لأن التحلىَ والتلبُّس والتشبه، لا يورث لصاحبه غير الحسرة والندامة، والعتب والملامة، والشنار والنار فى يوم القيامة.

فمن ظن أو توهم أنه يصل إلى أحوال أهل الحقائق بالتلبس والتشبه بهم فهو فى غلط.

وجماعة أخرى جمعوا علوم القوم، وعرفوا إشاراتهم، وحفظوا حكاياتهم، وتكلفوا ألفاظًا صحيحة وعبارات فصيحة، وظنوا أنهم، إذا فعلوا ذلك فقد صاروا منهم، ووصلوا إلى شىء من أحوالهم، وقد غلطوا فى ذلك.

وجماعة أخرى أحرزوا قوتهم وسكنت نفوسهم بنفقة معلومة، ودراهم موضوعة ثم عمدوا بعد ذلك إلى أورادهم: من الصوم، والصلاة، وقيام الليل، وَالورع، ولباس الخَشِنْ، والبكاء، والخشية، وظنوا أن هذا هُوَ الحال المقصود الذى لا يكون بعده حالٌ.

(١) بكسر الراء: جمع ركوة؛ ما يجعل تحت المعصرة فيجمع فيه عصير العنب ونحوه.

وقد غلطوا فى ذلك، وما أظنُّ أن أحدًا ممن أشار إلى علم التصوف يُذكر عنه أنه لم يخرج فى بدايته من المعلوم، ولم يأمر أصحابه فى أول الأمر بقطع العلائق، وأن يجعلوا قوتهم فى الغيب، فمن كان منهم، ورجع إلى سبب معلوم، أو ادِّخار قوت فإن ذلك لم يكن من أجل نفسه، ولكن لمن حَوْلَهُ من أصحابه وعياله، ولمن يَردُ عليه من إخوانه.

فمن أشار إلى التصوُّف، وادَّعى حالهم، وعد نفسه منهم، ولم يكن أصله كذلك على ما ذكرتُ: فهو فى غلط.

قال الشيخ رحمه الله:

وجماعةٌ ظنوا أن التصوف: هو السماع والرقص، واتخاذ الدعوات، وطلب الإرفاق(١)، والتكلف للاجتماعات على الطعام، وعند سماع القصائد والتواجد والرقص، ومعرفة صياغة الألحان بالأصوات الطيبة، والنغمات الشجية، والاختراع من الأشعار الغزلية، بما يُشْبه أحْوَال القَوْم، على نحو ما رأوا من بعض الصادقين، أو بلغهم ذلك عن المتحققين.

وقد غلطوا فى ذلك، لأن كل قلب ملوثٍ بحُبِّ الدنيا، وكل نفس معتادةٍ بالبطالة والغفلة، فسماعه، ووجوده، معلولٌ، وحركته وقيامه تكلفٌ.

فمن ظن أنه يصير بتكلفه وحِيَله وتمنيه، من المتحققين، فى وقت السماع، والحركة، والوجود، وغير ذلك: فقد غلط فى ذلك.

(١) وفى نسخة: الأرقاق.

باب ذكر من غلط فى الأصول، وأداه إلى الضلالة

ونبتدئ بذكر القوم الذين غلطوا فى الحرية والعبودية

قال الشيخ رحمه الله: تكلم قوم من المتقدمين، فى معنى الحرية والعبودية، على معنى: أن العبد لا ينبغى له أن يكون فى الأحوال، والمقامات التى بينه وبين الله تعالى، كالأحرار، لأن من عادة الأحرار: طلب الأجرة، وانتظار العِوَض على ما يعملون من الأعمال، وليس عادة العبيد كذلك؛ لأن العبد لا ينتظر من مولاه أجرةً ولا عوضًا على ما يأمره به مولاه، فمتى طمع فى شىء من ذلك، فقد ترك سِمة العبيد؛ لأن العبيد إن أعطاهم مَوْلاهم [عطيةً]، على ما أمرهم به، واستعملهم فيه: كان ذلك من تفضيل مولاهم عليهم، لا باستحقاقهم.

وليس عادة الأحرار كذلك.

وقد صنف شيخٌ من المشايخ كتابًا فى مقامات الأحرار والعبيد فى هذا المعنى.

فظنت الفِرْقة الضالة أن اسم الحرية أتمُّ من اسم العبودية، للمتعارف بين الخلق: أن الأحرار أَعْلَى مرتبةً، وأسْنَى درجة فى أحوال الدنيا من العبيد، فقاست على ذلك، فضلت، وتوهمت: أن العبد، ما دام بينه وبين الله تعالى تعبُّدٌ: فهو مسمًّى باسم العبودية، فإذا وصل إلى الله فقد صار حُرّا، وإذا صار حرّا سقطت عنه العبودية.

وإنما ضلت هذه الفرقة، لقلة فهمها، وتضييعها لأصول الدين.

خَفِيَتْ على هذه الفرقة الضالة أن العبد لا يكون فى الحقيقة عبدًا، حتى يكون قلبه حُرًا من جميع ما سوى الله، عز وجل، فعند ذلك يكون فى الحقيقة عبدًا لله.

وما سمى الله تعالى المؤمنين باسم أحسن مِنْ اسم العبد إذ يقول:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمنِ﴾(١) ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾(٢)؛ لأنه اسم سَمَّى به ملائكته، فقال: ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾(٣).

ثمَّ سَمَّى به أنبياءه ورُسُله عليهم السلام فقال: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا﴾(٤)، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا﴾(٥)، وقال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾(٦)، وقال لحبيبه وصفيه ﷺ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(٧).

فكان ﷺ يصلي حتى ورمت قدماه، فقيل له [٢٢٤]: يا رسول الله، أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذَنْبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا».

ورُوى عن النبى ﷺ أنه قال [٢٢٥]: «خُيِّرْتُ بين أن أكون نبيًا مَلِكًا ونبيًا عبدًا؛ فأشار إليَّ جبريل عليه السلام: تواضعْ، فقلت: بل نبيًا عبدًا».

فلو كان بين الخلق والله تعالى درجةٌ أَعْلَى من درجة العبودية لم يَفُتْ ذلك رسول الله ﷺ، والله جل وعلا كان يُعطيه ذلك.

وبالله التوفيق.

---

(١) الفرقان: ٦٣.
(٢) الحجر: ٤٩.
(٣) الأنبياء: ٢٦.
(٤) ص: ٤٥.
(٥) ص: ٤١.
(٦) ص: ٣٠.
(٧) الحجر: ٩٩.

باب فى ذكر من غلط من أهل العراق فى الإخلاص

قال الشيخ رحمه الله: وزعمت الفرقةُ الضالة من أهل العراق [وغيره]: أن الإخلاص لا يصح للعبد، حتى يخرج عن رؤية الخلق، ولا يوافقهم فى جميع ما يريد أن يعمله، كان ذلك حقًّا أو باطلاً.

وإنما ضلت هذه الفرقة لأن جماعة من أهل الفهم والمعرفة تكلموا فى حقيقة الإخلاص: أن لا يَصْفُو لهم ذلك حتى لا يبقى على العبد بقيةٌ من رؤية الخلق والكون وكل شىء غير الله تعالى، فظنت هذه الفرقة وطمعت أن ذلك يصح لهم بالدعوى، والتقليد، والتكلف قَبْلَ سلوك مناهجها، والتأدب بآدابها، والابتداء ببدايتها، حتى يؤديه ذلك إلى نهاياتها حالا بعد حال، ومقامًا بعد مقام، فأداهم الدعوى، والطمع الكاذب، إلى قلَّة المبالات، وترك الأدب، ومجاوزة الحُدود؛ فأسرهم الشيطان، وغلبتهم النفس والهوى، بما خُيل إليهم: أنهم، برسم المخلصين، فى الإخلاص، وهُمْ فى عين الضلالة والانتقاص، وأَنَّى لهم من ذلك الخلاص؟.

وقد خفيت عليهم ـ لشقاوتهم ـ أن العبد المطلوب بدرجة الإخلاص هو: العبد المهذب المؤدَّب، الذى هجر السيئات، وجرَّد الطاعات، وعمل فى الإرادات، ونازل الأحوال والمقامات، حتى أدَّاه ذلك إلى صفاء الإخلاص!!!.

فأمَّا من هو أسيرُ هواه، ورهينُ نفسه وشيطانه، وهو فى ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[1].

---

(١) النور: ٤٠.

فهو محجوب عن حال أهل البدايات، فكيف يَصِلُ إلى ما بعد ذلك؟

فمثل هؤلاء: كمثل من سمع بالجوهرة النفيسة: أنها تكون صافيةً مدوَّرةً، فوقع في يد خرزةٌ من الزجاج فأعجبته تلك؛ لأنها مدوَّرة صافية، فلما احتاج إليها حملها إلى من يعرف الجواهر، فقال له: هي زجاجة لا قيمة لها، فلم يَدَعْهُ الجهل والطمع [الكاذب] أن يرمي بها من قلة معرفته بالزجاج والجوهر.

فهؤلاء كل يوم في ضلالتهم يخسرون، وفي طغيانهم يعمهون.

أعاذنا الله وإياكم.

باب فى ذكر من غلط فى النبوة والولاية

قال الشيخ رحمه الله: ثمَّ ضلت فرقة أخرى فى تفضيل الولاية على النبوَّة، ووقع غلطهم فى قصة موسى والخَضِر عليهما السلام، وتفكرهم فى ذلك برأيهم.

إذ يقول جل وعز: ﴿عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾(1).

ثم قال لموسى عليه السلام، مع تخصيصه بالكلام والرسالة وما كتب الله له: ﴿فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(2)، يقول له الخضر عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾(3).

فيقول له موسى عليه السلام: ﴿لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾(4) إلى آخر القصة.

فظنت هذه الطائفة الضالة، أن ذلك نقصٌ فى نبوَّة موسى عليه السلام، وزيادة للخضر عليه السلام على موسى فى الفضيلة، فأداهم ذلك إلى أن فضلوا الأولياء على الأنبياء عليهم السلام.

وقد ذهب عنهم أن الله، جل وعز، يخصُّ من يشاء بما يشاء كيف يشاء، كما خُصَّ آدَمُ عليه السلام بسجود الملائكة له، وخُصَّ نُوحٌ عليه السلام بالسفينة، وصالحٌ عليه السلام بالناقة، وإبراهيم عليه السلام بأن جُعلت عليه النار بردًا وسلامًا، وخُصَّ موسى عليه السلام بالعصا، وخُصَّ عيسى عليه

(1) الكهف: 65.

(2) الأعراف: 145.

(3) الكهف: 67.

(4) الكهف: 73.

السلام بإحياء الموتي، وخُصَّ نبينا ﷺ بانشقاق القمر، ونبع الماء بين أصابعه.

فأما غير الأنبياء عليهم السلام:

فقد ذكر الله تعالى مَرْيَمَ حيث يقول: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾(١)، ولم تكن مَرْيَمُ نبيَّةً، ولك يكن ذلك لغيرها من الأنبياء عليهم السلام، ولا يجوز لقائل [أن يقول]: إنها تزيد بالفضل على الأنبياء عليهم السلام.

وآصَف بن بَرْخِياء: كان عنده علمٌ من الكتاب حتى أتى بعرش بِلْقيس قَبْلَ أن يرتدَّ [إليه] طَرْفُهُ، فكيف يجوز أن تقول: إنه أتمُّ من سليمان عليه السلام مع ما آتاه الله تعالى من النبوَّة والفهم والملك؟.

وقد سمعتَ بقصَّة الهُدْهُد، وكان قد خُصَّ بمعرفة المياه، لم يخص بذلك غيره من الطيور وغيرها: من الجنِّ والإنس.

وقد رُوي عن النبي ﷺ إنه قال [٢٢٦]: «أَفْرَضُكُم زَيْدٌ، وأَقْرَؤكم أُبَيٌّ، وأعْلَمُكم بالحلال والحرام مُعاذ بن جَبَل ﷺ».

وقد شهد رسول الله ﷺ لعشرة من الصحابة بالجنَّة ليس هؤلاء فيهم، ونحن نعلم أن أبا بكر الصديق ﷺ أفضلُ منهم.

ومثل ذلك كثير!

وكل ولي من الأولياء ينال ما ينال من الكرامة بحسن اتباعه لنبيه ﷺ، فكيف يجوز أن يفضل التابع على المتبوع، والمقتدى على المقتدى به؟ وإنما يعطى الأولياء رشاشةً مما يعطى الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) مريم: ٢٥.

والذى قال: إن الأنبياء عليهم السلام يُوحَى إليهم بواسطة، والأولياء يتلقفون من الله بلا واسطة، فيقال لهم: غلطتم فى ذلك؛ لأن الأنبياء عليهم السلام، هذا حالُهم على الدوام، يعنى الإلهام، والمناجاة، والتلقف من الله عز وجل، بلا واسطة، والأولياء وقتًا دون وقت.

وللأنبياء عليهم السلام الرسالة، والنبوَّة، ووحىٌ بنزول جبريل عليه السلام، وليس للأولياء ذلك.

ولو بَدَت ذرَّة على الخضر عليه السلام من أنوار موسى عليه السلام، وتخصيصه بالكلام، لامْتَحَقَ الخضر عليه السلام، ولكن حجبه الحق عن ذلك تهذيبًا وزيادةً لموسى عليه السلام، فافهمْ ذلك إن شاء الله تعالى.

والولاية والصدِّيقية منوَّرة بأنوار النبوَّة، فلا تلحق النبوَّة أبدًا، فكيف تَفْضُل عليها؟.

باب فى ذكر الفرقة التى غلطت فى الإباحة والحظر والرد عليهم

قال الشيخ رحمه الله: ثمَّ زعمت الفرقة الضالة، فى الحظر والإباحة، أن الأشياء فى الأصل مُباحة، وإنما وقع الحظر للتعدى، فإذا لم يقع التعدى تكون الأشياء على أصلها من الإباحة، وتأولوا قول الله عز وجل:

﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾(1).

فقالوا: هذا على الجملة غير مفصل، فأدَّاهم ذلك بجهلهم، إلى أن طمعت نفوسهم بأن المحظور الممنوع منه المسلمون: مباحٌ لهم، إذا لم يتعدَّوا فى تناوله.

وإنما غلطوا فى ذلك بدقيقة خَفِيَت عليهم، من جهلهم بالأصول، وقلة حظهم من علم الشريعة، ومتابعتهم شهوات النفوس فى ذلك؛ لأنهم سمعوا بمكارم الأخلاق، وحُسْن عِشرة، ومؤاخاة، كانت بين جماعة من المشايخ المتقدمين، فجرى بينهم أحوال: من رفْع الحشمة والبسط، بعضهم مع بعض، حتى كان أحدهم يمرُّ إلى دار أخيه، ويمدُّ يده فيأكل من طعامه، ويأخذ من كسْبه حاجته، ويفتقد أحوال أخيه وهو غائب كما يفتقد لنفسه.

وهذا، كما حُكى عن فَتْح المَوْصِلى: أنه مرَّ إلى دار بعض إخوانه، فقال لجاريته: أَخْرجى لى كيس أخى، فأخرجته إليه، فأخذ منه حاجته، فلما رجع أخوه إلى البيت أخبرَته الجارية، فقال: إن كنتِ صادقةً فأنت حُرَّة لوجه الله تعالى.

(1) عبس: ٢٧ ـ ٣٢.

وكما ذكـر الحسن البصرى رحمـه الله، أنه كان يأكل من رءُوس زنابيل أخٍ من إخوانه وهو غائب، فسُئِل عن ذلك قال: يا لُكَعُ، وهل كان الناس قَبْلَنَا إلا مثـل هذا؟ كان أحدهـم يمرُّ إلى بيت أخـيه، فـيأخذ من طـعامه، ويأخـذ من دراهمه، يريد بذلك إدخـال السرور على أخيـه، ويعلم أن ذلك أحبُّ إليه من حُمْر النَّعَم.

وكذلك جماعـة، كانوا يقولون ليس بين هذه الطائفة مؤاسـاة، إنما استُنَّ مذهبهم على المؤاساة.

كما قـال إبراهيم بن شَيْبَان: كنَّا لا نصحب مـن يقول: نَعْلِى؛ ومثلُ ذلك كثيرٌ.

فظنَّت هذه الطائفة الضـالة بالإباحة، لأن ذلك كان منهم على حـال، جاز لهم تَرْكُ الحدود، أو أن يجاوزوا حدَّ متابعـة الأمر والنهْى؛ فوقعوا من جَهْلهم فى التِّيه، وتاهوا، وطلبوا ما مالت إليـه نفوسهم: من اتِّبَاع الشهوات، وتناول المحظورات؛ تأويلاً، وحَيْلاً، وكذبًا، وتمويهًا.

والذى زعم أن الأشـياء فى الأصل مـبـاحةٌ، فـهلاَّ قـال: إن الأشيـاء فى الأصل محظورة، وإنما وقعت إباحتهـا بالأمر والنهى، فى التوسعة والرُّخص، حـتى لا يقع فى الغلط، مَعَ أن الحـلال: مـا حلله الله تعـالى، والحرام: مـا حرَّمه الله تعالى.

وليس أحد مـن المؤمنين مـستعـبَدًا باسـتعمـال الشرائع المـتقـدمة، ولا باستعمال مـا كان عليه الأوائل، بل المؤمنون: مستعبـدون بالائتمار لما أمرهم الله تعالى به، والانتهاء عما نهاهم الله عنه، واجتناب ما اشتبه عليهم.

لقـول النبى، ﷺ [٢٢٧]: «الحـلال بيِّنٌ والحرام بين وبينهـما أمـورٌ مشتبهاتٌ، وحرامُ الله حِمًى، فمن وقع حول الحِمَى يوشك أن يقع فيه».

وليس قول من زعم أن الأشـياء فى الأصل على الإباحـة، بأولى من قول من يقول: إن الأشيـاء فى الأصل محظورة، وإذا استملك لا يـبيح ذلك لأحد إلا بحُجَّة.

وليس هذا من قياس النجاسة والطهارة؛ لأن الأشيـاء عند الفقهاء وجماعة من أهل العلم فى الأصل طاهرة، حتى يقوم الدليل على نجاستها.

والفرق بين هذا وبين ذاك: أن النجـاسات والطهارات تدخل فى العـبادات والحظر، والإباحة تقع على الأملاك، وما وقع عليه الملك لا يبيح ذلك لأحد إلا بدليل وحُجَّة.

وبالله التوفيق.

باب في ذكر غلط الحلولية، وأقاويلهم على ما بلغني، فلم أعرف منهم أحدًا ولم يصح عندي شيء غير البلاغ

قال الشيخ، رحمه الله: بلغني أن جماعة من الحلولية، زعموا أن الحق، تعالى ذكره: اصطفى أجسامًا حلّ فيها، بمعاني الربوبية، وأزال عنها معاني البشرية.

فإن صح عن أحد [أنه] قال هذه المقالة، وظن أن التوحيد أَبْدَى له صفحته بما أشار إليه، فقد غلط في ذلك، وذهب عليه أن الشيء في الشيء مجانس للشيء الذي حلّ فيه، والله تعالى، بائن من الأشياء، والأشياء بائنة منه بصفاتها، والذي أظهر في الأشياء: فذلك آثار صنعته ودليل ربوبيته؛ لأن المصنوع يدل على صانعه، والمؤلف يدل على مؤلفه.

وإنما ضلت الحلولية، إن صح عنهم ذلك؛ لأنهم لم يميزوا بين القدرة التي هي صفة مقادر، وبين الشواهد التي تدل على قدرة القادر وصنعة الصانع، فتاهت عند ذلك.

فبلغني أن منهم من قال بالأنوار:

ومنهم: من قال بالنظر إلى الشواهد المستحسنات نظرًا يجهل.

ومنهم: من قال: حال في المستحسنات وغير المستحسنات.

ومنهم: من قال: حال في المستحسنات فقط.

ومنهم: من قال: على الدوام.

ومنهم: من قال: وقتًا دون وقت فيما بلغني.

فمن صح عنه شيء من هذه المقالات: فهو ضال بإجماع الأمة، كافر، يلزمه الكفر فيما أشار إليه.

والأجسام التى اصطفاها الله تعالى أجسام أوليائه وأصفيائه: اصطفاها بطاعته وخدمته، وزينها بهدايته، وبين فضلها على خلقه.

والله تعالى، موصوف بما وصف به نفسه؛ كما وصف به نفسه ﴿ليس كمثله شىء وهو السميع البصير﴾.

والذى غلط فى الحلول، غلط لأنه لم يحسن أن يميز بين أوصاف الحق وبين أوصاف الخلق؛ لأن الله تعالى، لا يحلُّ فى القلوب، وإنما يحل فى القلوب الإيمان به، والتصديق له، والتوحيد والمعرفة، وهذه أوصاف مصنوعاته، من جهة صنع الله بهم، لا هو بذاته أو بصفاته، يحل فيهم.

تعالى الله عز وجل، عن ذلك علوا كبيراً؟.

باب فى ذكر من غلط فى فناء البشرية

قال الشيخ، رحمه الله: أما القوم الذين غلطوا فى فناء البشرية: سمعوا كلام المتحققين فى الفناء، فظنوا أنه فناء البشرية، فوقعوا فى الوسوسة: فمنهم من ترك الطعام والشراب، وتوهم أن البشرية، هى القالب، والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها فيجوز أن يكون موصوفا بصفات الإلهية.

ولم تحسن هذه الفرقة الجاهلة الضالة، أن تفرق بين البشرية وبين أخلاق البشرية لأن البشرية لا تزول عن البشر، كما أن لون السواد لا يزول عن الأسود، ولا لون البياض عن الأبيض؛ وأخلاق البشرية تبدل وتغير بما يرد عليها من سلطان أنوار الحقائق، وصفات البشرية ليست هى عين البشرية.

والذى أشار إلى الفناء: أراد به فناء رؤيا الأعمال والطاعات ببقاء رؤيا العبد لقيام الحق للعبد بذلك.

وكذلك فناء الجهل بالعلم، وفناء الغفلة بالذكر، والذى طبع فى فناء البشرية: فناء البشرية طبع فى ذلك، وفناء البشرية بالبشرية صفة من صفات البشرية.

والذى يتوهم أنه ذهاب النفس وزوال التلوين عن العبد وقتًا دون وقت، وذهاب البشرية فقد غلط وجهل عن وصف البشرية؛ لأن التغيير والتلوين من صفة البشرية، فإذا زال عنها التغيير والتلوين: فقد تغير الآن عن صفتها وتلون عن معناها؛ لأنها إذا لم تتغير ولم تتلون فقد تغير وتلون عن صفتها.

والله أعلم.

باب ذكر من غلط فى الرؤية بالقلوب

قال الشيخ، رحمه الله: بلغنى عن جماعة من أهل الشام، أنهم يدعون الرؤية بالقلوب فى دار الدنيا، كالرؤية بالعيان فى دار الآخرة، ولم أر أحدًا منهم، ولا بلغنى عن إنسان، أنه رأى منهم رجلا له محصولٌ.

ولكن رأيتُ لأبى سعيد الخراز، رحمه الله، كتابًا كتبه إلى أهل دمشق يقول فيه: بلغنى أن بناحيتكم جماعة قالوا: كذا وكذا، وذكر قولا قريبًا من هذا القول، ويشبِّه أن فى زمانه قوم غلطوا فى ذلك وضلوا وتاهوا.

والذى قال أهل الحق والإصابة فى هذا المعنى، وأشاروا إلى رؤية القلوب: إنما أشاروا إلى التصديق والمشاهدة بالإيمان، وحقيقة اليقين.

كما روى فى حديث حارثة حيث يقول [٢٢٨]: «كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزًا» كما جاء فى الحديث بطوله، حتى قال النبى ﷺ: «عبدٌ نَوَّر الله، تعالى، قَلْبَهُ» أو كما قال، كما جاء فى الرواية.

والذى تاه وتوسوس فى هذا المعنى قوم من أصحاب الصُّبَيحى من أهل البصرة، كما بلغنى، وقد رأيتُ جماعة منهم وذلك: أنهم حملوا على أنفسهم فى المجاهدة والسهر، وترك الطعام والشراب والانفراد والخلوة، وكثرة التوكل، وصحبهم الإعجاب مع ذلك بما هم فيه، فاصطادهم إبليس لعنه الله، فخُيل إليهم: كأنه على عرش أو سرير وله أنوارٌ تتشعشع: فمنهم من أَلْقَى إلى بعض الأستاذين الذين يعرفون مكايد العدو، فعرفوهم ذلك ودلوهم وردوهم إلى الاستقامة.

كما حُكى عن سهل بن عبد الله، رحمه الله: أن بعض تلامذته قال له يومًا: يا أستاذ، أنا فى كل ليلة أرى الله بعين رأسى، فعلم سهلٌ رحمه الله، أن ذلك من كيد العدو، فقال له يا حبيبى: إذا رأيتَهُ الليلة فابزقْ عليه، قال:

فلما رآه من ليلته بزق عليه، قال: فطار عرشه، وأظلمت أنواره، وتخلص من ذلك الرجل، ولم ير شيئًا بعد ذلك.

ومن لم يقع إلى الأستاذين، فيدفع ذلك، ويتكلم بالهوس، وينسلخ عن دينه بالظنون الكاذبة إلى آخر عمره.

وبلغنى أيضًا أن جماعة هربوا من عبد الواحد بن زيد، حيث كان يأمرهم بالمجاهدة والعبادة وأكل الحلال والزهد فى الدنيا.

وبلغنى أن عبد الواحد، رحمه الله، رأى واحدًا منهم بعد مدة، فسأله عن خبره وخبر أصحابه، فقال: يا أستاذ، نحن كل ليلة ندخل الجنة، ونأكل من ثمارها، قال: فقال له: خُذونى الليلة معكم، قال: فأخرجوه معهم إلى الصحراء، فلما جنهم الليل فإذا بقوم عليهم ثياب خُضْر، وإذا بساتين وفواكه، قال: فنظر عبد الواحد إلى أرْجُل هؤلاء الذين عليهم الثياب الخضر، فإذا هو مثل حوافر الدواب، فعلم أنهم شياطين، فلما أرادوا أن يتفرقوا قال لهم: إلى أين تذهبون؟ أليس إدريس النبى، ﷺ، لما دخل الجنة لم يخرج منها؟ قال: فلما أصبحوا فإذا هم على مزابل بين روث الدواب وبعر الحمار، فتابوا ورجعوا إلى صحبة عبد الواحد بن زيد، رحمه الله!.

وينبغى أن يعلم العبد أن كل شىء رأته العيون، فى دار الدنيا: من الأنوار، أن ذلك مخلوقٌ ليس بينه وبين الله تعالى، شبهٌ وليس ذلك صفة من صفاته، بل جميع ذلك خَلقٌ مخلوقٌ.

ورؤية القلوب، بمشاهدة الإيمان وحقيقة اليقين والتصديق حقٌّ.

لقول النبى، ﷺ «أعبُد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والذى قال من التابعين: لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقينًا، أشار إلى حقيقة يقينه وصفاء وقته، وتكلم بذلك من غلبات وجده، وليس الخبر كالمعاينة فى جميع المعانى فى الدنيا والآخرة.

وقد قيل فى قول الله تعالى،: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[1] يعنى لم تكذب عينه ما رآه بقلبه، ولم يكذب فؤاده ما رآه بعينه.

وهذا خصوصٌ للنبى، ﷺ، ليس لأحد غيره.

(١) النجم: ١١.

باب ذكر من غلط فى الصفاء والطهارة

قال الشيخ رحمه الله: وطائفة أدعت الصفاء والطهارة على الكمال والدوام، وأن ذلك لا يزول عنهم، وزعموا أن العبد يصفو من جميع الكدورات والعِلَل، بمعنى البينونة منها.

وقد غلطوا فى ذلك؛ لأن العبد لا يصفو على الدوام من جميع العلل، وإن وقعت له الطهارة وقتًا فلا يخلو من العلل، وإنما تصفو له وقتًا دون وقت على مقدار أماكنهم، فيذكر الله بنعت الصفاء، ثم يبقى عليه الذكر مع جريان ادّكار الأشياء عليه.

والطهارة تكون لقلب العبد: من الغل والحسد، والشرك والتُّهم، فأما الصفاء الذى لا يحتمل العلة، والطهارة من جميع أوصاف البشرية، على الدوام بلا تلوين ولا تغيير: ليس ذلك من صفات الخلق؛ لأن الله تعالى هو الذى لا تلحقه العلل، ولا تقع عليه الأغيار، والخلق مُرادٌ بالابتلاء، أنى يخلون من العلل والأغيار.

وحُكمُ العبد، إذا كان ذلك كذلك: أن يتوب إلى الله تعالى، ويستغفر الله تعالى، فى كل وقت.

لقول الله عز وجل: ﴿وَتوبُوا إلَى الله جَميعًا أيُّهَ الْمُؤْمنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلحُونَ﴾[1]، كما رُوى عن النبى ﷺ أنه قال: «إنه لَيُغَانُ على قلبى فأستغفرُ اللهَ فى اليوم مائة مرة».

(١) النور: ٣١.

باب ذكر من غلط فى الأنوار

قال الشيخ، رحمه الله: وطائفة غلطت فى الأنوار، وزعمت أنها ترى أنوارًا، و[بعضهم] يصف قلبه بأن فيه أنوارًا، ويظن [أن] ذلك من الأنوار التى وصف الله تعالى بها نفسه، وهذه الطائفة تصف ذلك النور بصفة أنوار الشمس والقمر، وتزعم: أن ذلك من أنوار المعرفة والتوحيد والعظمة، وتزعم أنها ليست بمخلوقة.

وقد غلط هؤلاء فى ذلك غلطًا عظيمًا؛ لأن الأنوار كلها مخلوقةٌ: نور العرش، ونور الكرسى، ونور الشمس، والقمر والكواكب، وليس لله نور موصوف محدود، والذى وصف الله تعالى به نفسه فليس ذلك بمُدْرَك ولا محدود، ولا يحيط به علم الخلق؛ وكل نور تحيط به العلوم والفهوم: فهو مخلوق، وأنوار الله تعالى، كلها هدايات الخلق، وأنوار المصنوعات دلائل وعبرة؛ ليستدلوا بها على معرفة التوحيد، يُهْتَدَى بها فى ظلمات البر والبحر.

ومعنى أنوار القلوب: معرفة الفرقان والبيان من الله عز وجل، وذلك قوله: ﴿يَاأَيُّهَا ألذينَ آمَنُوا إنْ تَتَّقوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾(١).

قالوا فى التفسير: نورًا يوضع فى القلب حتى يفرق به بين الحق والباطل. هذا معرفة الأنوار كما ذكرتُه فى الوقت.

(١) الأنفال: ٢٩.

باب ذكر من غلط فى عين الجمع

قال الشيخ، رحمه الله: وجماعة غلطوا فى عين الجمع، فلم يضيفوا إلى الخلق ما أضاف الله تعالى إليهم، ولم يصفوا أنفسهم بالحركة فيما تحركوا فيه، وظنوا أن ذلك منهم احترازًا؛ حتى لا يكون مع الله سوى الله، عز وجل! فأداهم ذلك إلى الخروج من الملة، وترك حدود الشريعة؛ لقولهم: أنهم مجبرون على حركاتهم، حتى أسقطوا اللائمة عن أنفسهم عند مجاوزة الحدود ومخالفة الاتباع.

ومنهم من أخرجه ذلك إلى الجسارة على التعدى والبطالة وطمعته نفسه على أنه معذور فيما هو عليه مجبور.

وإنما غلط هؤلاء لقلة معرفتهم بالأصول والفروع، فلم يفرقوا بين الأصل والفرع، ولم يعرفوا الجمع والتفرقة، فأضافوا إلى الأصل ما هو مضاف إلى الفرع، وأضافوا إلى الجمع ما هو مضاف إلى التفرقة، فلم يحسنوا وضع الأشياء فى مواضعها، فهلكوا.

وقد سئل سهل بن عبد الله، رحمه الله، عن ذلك، كما بلغنى، فقيل له: ما تقول فى رجل يقول: أنا مثل الباب لا أتحرك إلا أن يحركونى؟ فقال سهل ابن عبد الله: هذا لا يقوله إلا أحد رَجُلين: إما رجل صديق، أو رجل زنديق.

والمعنى فيما قال سهل، رحمه الله: الصديق يرى قوام الأشياء بالله، ويرى كل شىء من الله تعالى، ويرجع فى كل شىء إلى الله، عز وجل، مع معرفة ما يحتاج إليه: من الأصول والفروع، والحقوق والحظوظ، والمعرفة

بين الحق والباطل، ومتابعة الأمر والنهى، وحسن الطاعات، والقيام بشرط الأدب، وسلوك المنهج على حد الاستقامة.

وأما معنى قول الزنديق بهذه المقالة، فإنما يقول ذلك، حتى لا يزجره شيء من ركوب المعاصى، أنه أداه جهله إلى الجسارة والاعتداء بإضافة أفعاله وجميع حركاته إلى الله تعالى؛ حتى أزال اللائمة عن نفسه فى ركوب المآثم بغواية الشيطان وتسويله، وتأويل الباطل.

أعاذنا الله وإياكم من ذلك!.

باب فى ذكر من غلط فى الأنس والبسط وترك الخشية

قال الشيخ، رحـمه الله: وطبقة أشاروا إلـى القرب والأنس، وتوهموا أن بينهم وبين الله، عـز وجل، حال من القـرب والدنو، فأحـشمـهم، عند ذلك التوهـم، الرجوع والالتفـات إلى الآداب التى كانوا يـراعونها، والحـدود التى كانوا يحـفظونها قبل ذلك، فانبـسطوا إلى ما كانوا محـتشمين، وأنسـوا بأشياء كانوا عنها مستوحشين من قبل ذلك، وتوهموا أن ذلك قربهم ودنوهم.

وقد غلطوا فى ذلك وهلكوا، لأن الآداب والأحوال والمقامات: خِلَعٌ من الله تعالى: على عـباده وكرامة لهم، وهو مـستوجبون الزيـادة، إذا صدقوا فى قصـودهم،فمتى مـا تركهم وخـلاهم عن توفيقـه وعنايته بهم، حـتى جاوزوا الحدود، وخالفـوا ما أمروا به: قد نكصوا على أعقـابهم، وسلبوا الخلع التى أكـرموا بهـا من الطاعـات، وقد طردوا من الـباب، وصـارت سمـتـهم سمـة المطرودين، وهم عندهم أنهم من المقبولين، وكلما توهموا أن الذى هم عليه قرب ودنو، ازدادوا بذلك من الله سحقًا وبعدًا.

وهذا كما حُكى [عن] ذى النون رحمه الله، أنه قال: ينبغى للعارف أن لا يطفئ نور معرفـته نور ورعه، ولا يعتقـد باطنًا من العلم ينقض عليه ظاهرًا من الحكم، ولا تحـمله كثرة الكرامـة من الله تعالى على هتك أسـتار مـحارم الله تعالى.

كـما كـان يقول بعض الحـكماء: اللهم لا تشـغلنى بك عنك، واشـغلنى بطلبك، بعد ما كنت لى من غير طلبى.

فهذا على المعنى، والله أعلم بالصواب.

باب في ذكر من غلط في فنائهم عن أوصافهم

قال الشيخ، رحمه الله: وقد غلطت جماعة من البغداديين في قولهم: إنهم عند فنائهم عن أوصافهم، دخلوا في أوصاف الحق، وقد أضافوا أنفسهم، بجهلهم، إلى معنى يؤديهم ذلك إلى الحلول، أو إلى مقالة النصارى في المسيح، عليه السلام، وقد زعم سمع أنه [عن] بعض المتقدمين، أو وجد في كلامه: أنه قال في معنى الفناء عن الأوصاف والدخول في أوصاف الحق.

فالمعنى الصحيح من ذلك: أن الإرادة للعبد، وهي من عند الله: عطية، ومعنى خروج العبد من أوصافه والدخول في أوصاف الحق: خروجه من إرادته ودخوله في إرادة الحق وبمعنى أن يعلم أن الإرادات: [هي عطية من الله تعالى، وبمشيئته شاء وبفضله جعل له ما بعطية ذلك قطعه عن رؤية نفسه حتى ينقطع بكليته] إلى الله تعالى: وذلك منزل من منازل أهل التوحيد.

وأما الذين غلطوا في هذا المعنى، إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم، حتى ظنوا: أن أوصاف الحق هي الحق، وهذا كله كفر، لأن الله تعالى، لا يحل في القلوب، ولكن يحل في القلوب الإيمانُ به، والتوحيدُ له، والتعظيم لذكره، بمعاني التحقيق والتصديق.

ولا فرق في ذلك بين الخاص والعام، غير أن للخاصة معنى يتفردون به، وهو مفارقتهم دواعي الهوى، وإفناء حظوظهم من الدار وما فيها، وخلوصُ أسرارهم بمن آمنوا به.

وسائر العوام محجوبون عن هذه الحقائق بانقيادهم للهوى ومطاوعتهم للنفوس.

فهذا هو الفرق بين الخاص والعام في هذا المعنى.

وبالله التوفيق.

باب فى ذكر من غلط فى فقد الحسوس[1]

قال: وزعمت طائفة من أهل العراق أنهم يفقدون حسهم عند المواجيد، حتى لا يحسوا بشيء، ويخرجوا عن أوصاف المحسوسين، وقد غلطوا فى ذلك، لأن فقد الحس لا يعلمه صاحبه إلا بالحس، لأن الحس صفة البشرية، وإن غلب عليه بادٍ من الواردات التى ترد على الأسرار وتقهرها بسلطانها، فيطمئن ويمتحق، ويكون مثل ذلك كمثل الكواكب: إذا طلع عليها سلطان أنوار الشمس، تطمس أنوار الكواكب، وهى ممتحقة فى أماكنها.

فكذلك الحس لا يزول ولا يفقد على البشر الحى، ولكن ربما يغيب العبد عن حسه بحسه عند المواجيد الحادة عن الأذكار القوية.

كما حكى جعفر الخلدى فيما قرأت عليه عن الجنيد، رحمه الله: أنه قال: سألت سريًّ السقطى، رحمه الله: عن المواجيد الحادة، عند الأذكار القوية، مما يقوى على العبد، فقال: نعم يضرب وجهه بالسيف ولا يحس، وإنما يعنى بقوله، والله أعلم: لا يحس، يعنى لا يجد ألمًا، وهو بالحس لا يجد ألمًا كما أنه بالحس كان يجد ألمًا.

وما دام فى العبد روح، وهو حىٌّ: لا يزول عنه الحس، لأن الحس مقرون بالحياة والروح.

وبالله التوفيق.

(١) الحسوس: الإحساس.

باب فى ذكر من غلط فى الروح

قال الشيخ رحمه الله: ثمَّ جماعة غلطوا فى الأرواح، وهم طبقات شتى، كلهم تاهوا وغلطوا؛ لأنهم تفكروا فى كيفية ما رفع الله عنه الكيفيَّة ونزهه عن إحاطة العلم فى أن يصفه أحدٌ إلا بما وصفه الله به.

فقومٌ قالوا: الروح نور من نور الله، فتوهَّمُوا أنه نورُ ذاته فهلكوا.

وقوم قالوا: حياة من حياة الله تعالى.

وقوم قالوا: الأرواح مخلوقة، وروحُ القُدْس من ذات الله تعالى.

وقوم قالوا: أرواح العامَّة مخلوقة، وأرواح الخاصَّة ليست بمخلوقة.

وقوم قالوا: الأرواح قديمة، إنها لا تموت، ولا تعذب، ولا تُبْلَى.

وقوم قالوا: الأرواح تتناسخ من جسم إلى جسم.

وقوم قالوا: للكافر روح واحد، وللمؤمن ثلاثة أرواح، وللأنبياء والصدِّيقين خمسة أرواح.

وقوم قالوا: الروح خلقٌ من النور.

وقوم قالوا: الروح روحانية خُلقت من الملكوت، فإذا صَفَتْ رجعت إلى الملكوت.

وقال قوم: الروح روحان: روح لاهوتية، وروح ناسوتية.

وهؤلاء كلهم قد غلطوا فيما ذهبوا إليه، وضلوا ضلالاً مُبينًا، وجهلوا ما يلزمهم فى ذلك من الخطأ، وذلك من تعمُّقهم وتفكرهم بآرائهم فيما منع الله تعالى قلوب العباد من التفكر فيه بقوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1].

والذى عليه أهل الحق والإصابة عندى، والله أعلمُ: أن الأرواح كلها مخلوقة، وهى أَمْرٌ من أَمْرِ الله تعالى، ليس بينها وبين الله تعالى سببٌ ولا نِسْبَةٌ غير أنها من مُلْكه وطَوْعُه وفى قبضته، غير متناسخة، ولا تخرج من جسم فتدخل فى غيره، وتذوق الموتَ كما يذوق البدن، وتنعَّم بتنعم البدن، وتعذَّب بعذاب البدن، وتُحشر فى البدن الذى تخرج منه.

وخَلَقَ الله تعالى روحَ آدم عليه السلام من الملكوت، وجسمَه من التُّراب.

ولكل فرقة من هؤلاء الذين ذكرتُ لهم فى غلطهم احتجاجاتٌ، ولأهل الحق والإصابة ردٌّ عليهم، وبيان واصح لغلطهم.

وقد اختصرتُ ذِكْر ذلك لكراهية التطويل، وفيما ذكرتُ كفاية وبُلْغَةٌ لمن عَقَل من المسترشدين والراغبين فى العلم، إن شاء الله تعالى.

---

(١) الإسراء: ٨٥.

تمَّ الكتاب بحمد الله وعونه وتوفيقه، وحَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوكيل.

وصلى الله على سيِّدنا محمد وآله ما زَهر كوكبٌ، وما أظلم غيهبٌ، وما وضح فَجْر، وما غبر دَهْر، وما عرض فِكْر، وما ذكر ذاكِر، وما سار سائر، وما هطل هاطل، وما أفل آفل، وما نطق قائل، وما امتدَّ الظل، وما درَّ الوَابل، وما عُرِف الكلام، وما بقى الأنام، وما حسن الإسلام، وما عسعس الدَّيْجور، وما اختلف الظلام والنُّور، وما فُلق الإصباح، وما هبَّت الرياح، وما سبحت الأملاك، وما جرَتْ الأفلاك، وما زال فَىْء، وما بقى حَى، وما عُدَّ عَدَد، وما بقى الأبد، وما نطق لسان، وصدق عيان، وما درَّ القطر، وما امتدَّ الدهر، وما اضطربت الأمواج، وما أضاء السراج، وما تلألأت الأنواء، وما اعلنكست الظلماء، صلاةَ دائمةً على الأبد، مُتَّصلةً بلا نهاية ولا أمد.

فرغتُهُ فى عاشر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة.

تخريج أحاديث

كتاب اللمع

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
وقال الترمذى: حسن صحيح، وبمعناه عن زيد بن ثابت، رواه أصحاب السنـن، وابن جبير بن مطعم، رواه الإمـام أحمد، وابن ماجه، والطبرانى من الكبير، ولأحمد طريق عن صالح ابن كيسان عن الزهرى بسنـد حسن، وقـد ذكـره السـيـوطى فى الأحـاديث المتواترة.		
من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين:	٦	٢٧
رواه الإمام أحمد، والشيخـان، وابن ماجه من حديث معاوية، والترمذى عن ابن عباس وصححـه، والبزار، والطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود بسند لا بأس به، وفى الحلية عنه بسند حسن: من يرد الله به خيرًا يفقه فى الدين، ويلهمه رشده		
أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك:	٧	٢٩
«أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك»:		
رواه البـيهـقى فى الزهد عن ابن عبـاس بإسناد ضعـيف، وله شاهد من حديث أنس.		
حديث الحارث بن مالك: فـما حقيقة إيمـانك؟ فقال: عزفت نفسى عن الدنيا.	٨	٣٠
رواه البزار بسند ضـعيف عن أنس، والطبرانى فى الكبـير من حديث الحارث بن مالك، وسنده ضعيف أيضا.		
أدبنى ربى فأحسن تأديبى.	٩	٣١
رواه العسكرى عن على، وابن السمعانى عن ابن مسعود، وفى الدرر أن الفضل بن ناصر صححـه، وفى اللآلىء المنثورة للحافظ ابن حجر: معناه صحيح، لكن لم يأت عن طريق صحيح.		

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
رب أشعث أغبر طمرين لو أقسم على الله لأبره وإن البراء منهم: هكذا أورده المصنف، لكن رواه مسلم وغيره بلفظ «رب أشعث أغبر مدفوع إلى الأبواب لو أقسم على الله لأبره».	١٠	٣٤
استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك: هكذا رواه الإمام أحمد فى المسند، ورواه البخارى فى تاريخه، والدارمى فى سننه، والطبرانى وحسنه النووى فى رياض الصالحين، بلفظ «استفت نفسك وإن أفتاك المفتون».	١١	٣٤
يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب: رواه البخارى، ومسلم.	١٢	٣٤
لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا: عن أبى ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: إنى أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك واضع جبهته ساجد لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله، والله لودد أنى شجرة تعضد، والله لوددت أنى شجرة تعضد، مدرج فى الحديث من كلام أبى ذر، ورواه البخارى باختصار، والحاكم وصححه، والترمذى إلا أنه قال: ما فيها موضع أربع أصابع، وأوله عند أحمد، والشيخان من حديث أنس، وفى أفراد البخارى من حديث عائشة ﷺ، ورواه الحاكم، والطبرانى من حديث أبى الدرداء، وصححه الحاكم، وأقره الذهبى.	١٣	٣٨
اختصاص حذيفة بعلم أسماء المنافقين	١٤	٣٨

الحديث	مسلسل	الصفحة
في الصحيحين عن أبي الدرداء، ومسلم عن حذيفة، وفي صحيح البخاري عن زيد بن وهب.		
عن علي بن أبي طالب ﷺ، علمني رسول الله ﷺ سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك أحدًا غيري.	١٥	٣٨
في الحلية لأبي نعيم وعن ابن عباس قال: كنا نتحدث أن النبي ﷺ عهد إلى علي سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك أحدا غيره، في الحلية لأبي نعيم عن ابن عباس قال: كنا نتحدث أن النبي ﷺ، عهد إلى علي سبعين عهدا لم يعهده إلى غيره		
لبس الصوف دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام	١٦	٤٠
كانت الأنبياء يستحبون أن يلبسوا الصوف، رواه الحاكم موقوفا على عبد الله بن مسعود وقال: صحيح على شرطهما.		
عن أبي بكر ﷺ أنه كان يقول: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله عز وجل برأيي؟ رواه أبو عبيد القاسم بن سلام عن إبراهيم التيمي ولم يدرك إبراهيم التيمي الصديق ﷺ وصح بمعناه عن عمر ﷺ، رواه ابن جرير عن أنس.	١٧	٤٨
من كلام الصديق ﷺ، سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته، تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره، رواه أبو نعيم عن ابن عباس.	١٨	٥٧
وروى الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب نحوه عن ابن عمر.		

الحديث	مسلسل	الصفحة
وروى أحمد والطبرانى وأبو نعيم نحوه عن عبد الله بن سلام وأسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكسب السند قوة والمعنى صحيح وفى صحيح مسلم، عن عائشة عنه ﷺ لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.		
خرج رسول الله ﷺ وبيده كتابان، أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال: حسن صحيح غريب وأخرجه الطبرانى فى الكبير عن ابن عمر وفيه عبد الوهاب بن مجاهد ضعيف.	١٩	٦٠
وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون قال ابن عباس: ليعرفونى، نقله الحافظ بن كثير فى التفسير عن ابن جريج عنه، يراجع الطبرى.	٢٠	٦٣
الأرواح جنود مجندة. البخارى عن عائشة والإمام أحمد ومسلم وأبو ذر عن أبى هريرة والطبرانى، عن ابن مسعود.	٢١	٦٥
خير الذكر، الخفى الإمام أحمد وابن حبان وأبو عوانة فى صحيحيهما، والبيهقى فى الشعب عن سعد ابن أبى وقاص وصححه السيوطى، وفيه محمد بن عبد الرحمن أبى لبينة، قال الحافظ الهيثمى: ابن عبد الرحمن وثقه ابن حبان وضعفه معين وبقية رجاله رجال الصحيح.	٢٢	٦٦
ملاك دينكم الورع، خير دينكم الورع، أبو الشيخ فى الثواب بسند حسن قاله السيوطى والبزار والطبرانى فى الأوسط عن حذيفة	٢٣	٧٠

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
مرفـوعا فضل العلم خـير من فضـل العبادة وخـير دينكم الورع، وسنده حـسن والطبرانى عن ابن مـرفوعـا «أفضل العـبادة الفـقه وأفـضل الدين الـورع» وفى إسناده مـحـمـد بن أبى يـعلى قـاله المنذرى.		
الإثم ما حـاك فى الصدر، البر حسن الخلق، والإثم مـا حاك فى صدرك، الإمام أحمد ومسلم والتـرمذى عن النواس بن سمعان والبخارى فى الأدب الـمفرد، والإمام أحمـد نحوه عن أبى ثعلب والإمام أحمد عن وابصة بسند حسن.	٢٤	٧٠
استفت قلبك مكرر.	٢٥	٧١
لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، من حـديث سهل بن سعد رواه الترمـذى وقال: حسن صحـيح وابن ماجـه مثله، وعند أحمـد فى الزهد عن أبى الدرداء موقوفا.	٢٦	٧٣
الفقر أزين بالعـبد المؤمن من العذار الجيـد على خد الفرس، والطبرانى عن شداد بن أوس: ولا يصح سنده، والمعروف أنه من كـلام عـبد الرحـمن ابن زياد بن أنعـم كمـا رواه ابن عـدى فى الكامل.	٢٧	٧٤
زكريا كما وضع المنشار عليه إن أنت إلى آخره عن وهب من أخبـار بنى إسرائيل ولا تصح نسبـته إلى النبى ﷺ أعبد الله كأنك تراه حديث جبريل فى الصحيحين الإحسان أن تعـبد الله كـأنك تراه، عن عمـر وأبى هريرة وأحمـد عن ابن عباس والبزار عن أنس ﷺ.	٢٨	٧٧

الحديث	مسلسل	الصفحة
اعبد الله كأنك تراه وعد نفسك فى الموتى وإياك ودعوات المظلوم، الطبرانى عن أبى الدرداء وحسن السيوطى سنده وضعفه المنذرى وقال الحافظ الهيثمى: الرجل الذى من النخع لا أعرفه «اعبد الله ولا تشرك به شيئا واعمل كأنك تراه واعدد نفسك فى الموتى» رواه الطبرانى والبيهقى عن معاذ، قال الحافظ العراقى: رجاله ثقات وفيه انقطاع «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك واحسب نفسك فى الموتى واتق دعوة المظلوم» فى الحلية عن زيد بن أرقم.	٢٩	٨٢
فإذا أحببته كنت سمعه إلى آخره، وهو حديث قدسى رواه البخارى عن أبى هريرة وأحمد عن عائشة والطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة وابن السنى عن ميمون، وقد أخطأ من زعم أن البخارى نفراد بروايته.	٣٠	٨٨
لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا. ليس بحديث، وهو من كلام بعض السلف، قال السيوطى أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن ثابت البنانى من قوله وقال: كانا سواء.	٣١	٩١
ألا هل مشتاق إلى الجنة؟ هى ورب الكعبة ريحانة تهتز ونهر مطرد وزوجة حسناء.	٣٢	٩٤
اسألك لذة النظر إلى وجهك النسائى والحاكم عن عمارة وسنده صحيح وأوله، اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما علمت الحياة خيرا لى.	٣٣	٩٤

الحـــــديـــــــث	مسلسل	الصفحة
لو عرفتم الله حق معرفته لمـشيتم على البحور، ولزالت بدعائكم الجبال.		
الخلق يبعثون على ما يموتون عليه: مسلم، وابن ماجه عن جابر.	٣٩	١٠٢
ليس الخبر كالمعاينة: أحمـد، والطبرانى، والـحاكم، وابن حـبان عن ابن عـباس، وأورده الضياء فى المختارة، والطبرانى فى الأوسط عن أنس. وقال الحافظ بن حجر فى اللآلىء المنثورة: فإن قيل هو معلول بما قاله ابن عدى فى الكامل من أن هشيما لم يسمع هذا الحديث من أبى بشر فدلسه، قلت: قال ابن حبـان فى صحيحه: لم ينفرد به هشـيم، فـقد رواه أبو عـوانه عن أبى بشـر أيضـا: إذبح ولا تجزىء عن أحـد بعدك، قاله ﷺ لأبى برده، رواه الشيـخان، وله طرق أخرى ذكرتهـا فى المعتبر فى تخـريج أحاديث المنهاج والمختصر، ورمز السيوطى لحـسنه، وهو كما قال أعلى، فقد قال الهيثمى: رجاله ثقات، رواه الخطيب عن أبى هريرة.	٤٠	١٠٢
القرآن حبل الله المتين: الترمذى عن الحارث الأعور عن على عن رسول الله ﷺ.	٤١	١٠٥
قول عبد الله بن مسعود: من أراد العلم فليثور القرآن: الطبرانى بأسانيد ورجال أحدهمـا رجال الصحيح، قاله الحافظ الهيثمى.	٤٢	١٠٥
الشرك أخـفى من دبيب النمل على الصـفا فى الليلة الظـلماء وأدناه أن تحب على شىء من الجور أو تبغض على شىء من العدل:	٤٣	١١٧

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
الحاكم عن عائشة ﵂، وتعقبه الذهبى بأن فيه عبد الأعلى بن أعين، وفى مسند الإمام أحمد: اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل، رواه أبى على رجل من بنى كاهل عن أبى موسى. وقال الحافظ والنذرى: ورواته إلى أبى على محتج فى الصحيح، وأبو على وثقه ابن حبان، ولم أر أحدًا جرحه، ورواه أبو يعلى بنحوه من حديث حذيفة، ورواه أبو يعلى، وابن عدى، وابن حبان عن أبى بكر، ورواه الحكيم عن ابن عباس بسند ضعيف.		
الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة: الإمام أحمد عن عائشة ﵂، ورواه الترمذى وابن أبى حاتم من حديث مالك بن مقول بنحوه، وابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وقال الحافظ العراقى: منقطع بين عائشة ﵂ وعبد الرحمن بن سعد وهب، والترمذى، عن عبد الرحمن بن سعد عن أبى حازم عن أبى هريرة.	٤٤	١١٨
قول الملائكة: سبحانك ربنا ما عبدناك حق عبادتك: عن سلمان ﵁ عن النبى ﷺ قال: «يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعه، فتقول الملائكة: يارب لمن يزن هذا؟ فيقول الله: لمن شئت من خلقى، فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك» رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم «يراجع فى المستدرك».	٤٥	١٢٢
قوله ﷺ فى الوصال: «لست كأحدكم» إنى لست كهيئتكم:	٤٦	١٣٢

الحـــــديـــــــث	مسلسل	الصفحة
رواه مالك، والشيخان، والترمذى عن أنس.		
إذبح ولا تجزىء عن أحد بعدك:	٤٧	١٣٢
قاله ﷺ لأبى بردة بن نبار، رواه الشيخان من حديث البراء بن عازب.		
كان ﷺ خلقه القرآن:	٤٨	١٣٣
الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود عن عائشة ﵂.		
إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق:	٤٩	١٣٣
رواه مالك فى الموطأ بلاغا عن النبى ﷺ، ورواه أحمد عن أبى هريرة بسند رجاله رجال الصحيح، كما ذكره الحافظ الهيثمى بلفظ «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» ورواه البخارى فى الأدب المفرد، والحاكم، والبيهقى، وروى الطبرانى فى الأوسط عن جابر نحوه، وفى سنده عمر بن إبراهيم القرشى، وهو ضعيف.		
أدبنى ربى فأحسن تأدبى:	٥٠	١٣٤
تقدم ب ٩.		
أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله:	٥١	١٣٤
البخارى عن أنس «والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له».		
والشيخان عن عائشة «والله إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية».		
خُير ﷺ بين أن يكون ملكا نبيًا أو عبدًا نبيًا، فاختار أن يكون عبدًا نبيًا:	٥٢	١٣٤
الطبرانى عن ابن عباس بسند حسن، والبيهقى فى الزهد، وابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة.		

الحـــــــديـــــــث	مسلسل	الصفحة
عرضت على الدنيا فأبيتها كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز عرضت «أى الدنيا» على نبيك ﷺ بمفاتيحها وخزانتها، الحديث رواه ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا، ورواه أحمد والطبرانى متصلا عن أبى بويهية فى أثناء حديث فيه.	٥٣	١٣٤
إنى قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة الحديث وسنده صحيح ولأحمد وللترمذى من حديث أبى أمامة «عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا» وقال: حديث حسن.	٥٤	١٣٤
لو كان لى أحد ذهبًا لأنفقته فى سبيل الله رواه الشيخان عن أبى ذر، عنه ﷺ ، ورواه ابن ماجه «مختصر».	٥٥	١٤٣
إنه ﷺ لم يدخر شيئا لغد عن أنس كان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئا لغد ألا وإنى أكثر دينارًا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد، رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب، وأنه ﷺ ، إنما ادخر مرة قوت سنة لعياله ولمن يرد عليه من الوفود. ادخاره ﷺ قوت السنة، أخرجه الشيخان من حديث عمر: كان يعزل نفقة أهله سنة.	٥٦	١٣٤
أنه ﷺ لم يكن له قميصان ولم ينخل له طعام وأنه خرج ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز بُرٍّ قط اختيارًا لا اضطرارًا لأنه لو سأل الله تعالى أن يجعل له الجبال ذهبًا ولم يحاسب عليها لَفَعل.	١٣٤	٥٧

الحديث	مسلسل	الصفحة
لم يكن له قميصان، روى الطبرانى فى الصغير والأوسط عن أبى الدرداء ؓ قال لم ينخل لرسول الله ﷺ الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد، ورواه البزار وروى الشيخان عن أبى هريرة ؓ، وعن عبد الرحمن بن عوف خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع هو ولا أهله من خبز الشعير، رواه البزار بإسناد حسن، وعن أبى هريرة ؓ، خرج رسول الله، ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير، رواه البخارى والترمذى، وعن سهل بن سعد ؓ قال: ما رأى رسول الله ﷺ منخلا من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله فقيل كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول قال كنا نطحنه وننفخه فيطير ما طار وما بقى ثربناه، رواه البخارى، وعن الحسن قال: كان رسول الله ﷺ يواسى الناس بنفسه حتى جعل يرفع إزاره بالأدم، وما جمع بين غداء وعشاء ثلاثة أيام حتى لحق بالله، رواه ابن أبى الدنيا فى «كتاب الجوع» مرسلا.		
عنه ﷺ أنه قال لبلال: «أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا»	٥٨	١٣٥
عن بلال المؤذن قال: دخل النبى ﷺ وعندى صبرة من تمر فقال: ما هذا؟ فقلت: ادخرناه لشتائنا، قال عليه الصلاة والسلام: أما تخاف أن ترى له بخارًا فى جهنم؟ «أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا» قال الهيثمى: إسناده حسن، ورواه البزار عن بلال ورواه الطبرانى فى الكبير والقضاعى فى سنده عن ابن مسعود	١٣٥	

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
قال الهيـثمى: رواه بإسنادين أحدهما حسن، وفى الآخـر معاذ ابن الربيع وفيه كلام، وبقية رجاله ثقات. وروراه أيضا عن أبى هريرة، وفيه مبارك بن فضالة وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ. وذكره النجم عن أبى هريرة والبزار عن عائشة وأطلق الحافظ العـراقى أن الحديث ضـعيف فى جمـيع طرقه لكن قال تلمـيذه الحافظ ابـن حجر من رواية البـزار إسناد حديث حسن ووضعت بريرة بين يديه ﷺ طعامـا فأكل منه فردته إليه الليلة الثانية.		
وعن أنس بن مـالك قال: أهديت لرسـول الله ﷺ، ثلاثة طوائر، فأطعم خـادمه طائرًا فلما كـان من الغد أتت به فقـال لها رسول الله ﷺ: ألم أنهك أن ترفـعى شيئًا لغـد؟ فإن الله يأتى برزق كل غد.	٥٩	١٣٥
قال الحافظ الهيثمى: ورواه أحمـد ورجاله رجال الصحيح غير هلال بن المعلى، وهو ثقة.		١٣٥
أنه ﷺ لم يعب طعامًا قط، ولا خيـر بين أمرين إلا اختار أيسرهـما، إنه لم يعب طعـامًا قط، متـفق عليه من حـديث أبى هريرة، ولا خير بين أمرين إلا اختار أيسـرهما، مالك والشيخان وأبو داود عن عائشه.	٦٠	١٣٥
وكان من تواضعه ﷺ يلبس الصـوف، وينتعل المخصوف، ويركب الحـمار، ويحلب الشـاة، ويخـصف نعله، ويرقع ثوبه، وكان لا يأنف أن يركب الحمار، ويردف خلفه. وعن أنس ﵁ أن رسـول الله ﷺ أكل خـشـنًا، ولبس	٦١	١٣٥

الحديث	مسلسل	الصفحة
خشنًا ولبس الصوف، واحتذى المخصوف، رواه ابن ماجه، والحاكم.		
وعن أبى موسى قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويعتقل الشاة، ويأتى مراعاة الضيف، رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح، قاله الحافظ الهيثمى.		
قيل لعائشة ماذا كان يعمل رسول الله ﷺ فى بيته؟ قالت: كان بشرًا من البشر، يغلى ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، رواه أبو نعيم فى الحلية، كان يعمل عمل البيت، وأكثر ما يعمل الخياطة ـ الجامع.		
وروى أبو الشيخ عن عائشة: يخصف النعل، ويرقع الثوب.		
كان يركب الحمار موكفًا عليه قطيفة، وكان مع ذلك يستردف متفق عليه من حديث أسامة بن زيد.		
وكان يكره الغنى، ولا يخشى من الفقر، وكان يمر به وبأزواجه الشهر والشهران فلا يوقد فى بيته نار للخبز، وأنه كان طعامهم الأسودين التمر والماء.	٦٢	١٣٥
وعن أبى أمامة ﷺ: عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبًا قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا أو قال ثلاثًا أو نحو هذا؛ فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك، ثم قال: الترمذى هذا حديث حسن.		
وكان يمر به الشهر والشهران لا يوقد فى بيته نار، الشيخان عن عائشة، وأبو يعلى، عن أبى هريرة.		
اللهم أحينى مسكينًا.	٦٣	١٣٥

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
الترمذى، وابن ماجه، عن أبى سعيد الخدرى والحاكم وقال: صحيـح الإسناد، ورواه الطبرانى بسند رجاله ثقات عن عـبادة بن الصـامت، وقال الحـافظ بن حـجر: وادعى ابن الجـوزى، وابن تيمية أنه موضوع وليس كـما قالا اهـ. ومعنى الحديث دلالة الأمة على طلب التواضع، وأن لا يكون من الجبابرة.		
اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا، يومًا بيوم. رواه الشيخان، والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة.	٦٤	١٣٦
وكان أبو سعـيد الخدرى ﷺ يصف رسـول الله ﷺ، كما روى عنه، كان رسول الله ﷺ يعقل البـعير، ويعلف الناضح، ويقم البـيت، ويخـصف النعل، ويرقع الثـوب، ويحلب الشـاة، ويأكل مع الخادم، ويطحن مـعها إذا أعيت وكان لا يمنعـه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله؛ فكان يصافح الغنى والفقير ويسلم مبتدئًا، وكان لا يرد من دعـاه، ولا يحقر ما دعى إليه ولو إلى حـشف التـمـر، وكـان لين الخلق، كـريم الطبع، جـمـيل المعاشـرة، طلق الوجه بسامًا من غـير ضحك، محـزونًا من غير عبوس متواضعًا من غيـر مذلة جوادًا من غير سرف، رقيق القلب، دائم الإطراق، رحيما بكل مسلم لم يتـجشأ قط من شبع، ولا مد يده إلى طمع، قال الحـافظ العراقى: أخرج أبو الحسن الـضحاك فى الشمائل حديث أبى سعيـد الطويل الذى قال فيه: متواضع من غير مذلة وإسناده ضعيف. وهذا الحديث جـمع فيه مـحاسن من مـحاسنه ﷺ التى لا تحصى وهى من ضمن أوصافه وسجاياه المشهورة منثورة فى كتب السنة الصحيحة.	٦٥	١٣٦

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
يلبس الصوف ويعقل البعير: البزار من حديث أبى موسى.	٦٦	١٣٦
يعلف الناضح ويقم البيت: للبخـارى من حديث عائشة: كـان يكون فى مهنة أهله، وفى مسند الأمام أحـمد: ويعمل فى بيتـه كما يعمل أحـدكم فى بيته، ورجاله رجال الصحيح.	٦٧	١٣٦
ويأكل مع الخادم ويطحن معها إذا أعيت: أبو بكر بن الضـحاك فى الشـمائل من حـديث أبى سعـيد، وروى مسـلم من حديث أبى اليـسر: أطعـموهمـا ممـا تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون. وحديث أبى هريـرة: إذا أتى أحدكم خادمـه بطعام فليـجلسه وليأكل معه، فإن لم يفعل فليناوله لقمة، متفق عليه.	٦٨	١٣٦
وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله: الطبرانى فى الأوسط.	٦٩	١٣٦
وكان يصافح الغنى والفقير: أبو داود من الحديث أبى ذر: وكان إذا لقى أحدًا من أصحابه بداه بالمصافحة، ثم أخذ بيده فشابكه، ثم قبض عليه.	٧٠	١٣٦
وكان يسلم مبتدئًا: فى الشمائل عن هند بن أبى هالة: كـان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام.	٧١	١٣٦
وكان لا يرد من دعاه ولا يحقر ما دعى إليه: روى الإمام أحمد وابن حبان والترمذى عن أنس لو أهدى إلى كراع لقبلت ولو رغبت إليه لأحببت.	٧٢	١٣٦

الحـــــــديـــــــث	مسلسل	الصفحة
وكان لين الخلق كريم الطبع جميل المعاشرة طلق الوجه: الترمذى فى الشمائل من حديث على بن أبى طالب كان دائم البشر كامل الخلق لين الجانب.	٧٣	١٣٦
وكان بسامًا من غير ضحك: الترمذى من حديث عبد الله بن الحارث: ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا مبتسمًا، وقال: صحيح غريب، وله فى الشمائل من حديث هند بن أبى هالة.	٧٤	١٣٦
محزونا من غير عبوس: الشيخان عن عائشة «إنما ضحكة التبسم» أبو الحسن فى الضحك فى الشمائل من حديث أبى سعيد الخدرى فى صفته ﷺ.	٧٥	١٣٦
وكان متواضعا من غير مذلة: كان يجلس مع أصحابه مختلطا بهم كان أحدهم يعانى الغريب فلا يدرى أيهم هو أبو داود والنسائى من حديث أبى هريرة وأبى ذر.	٧٦	١٣٦
وكان جوادًا من غير سرف: لأنه لا ينفق إلا فى طاعة الله عز وجل.	٧٧	١٣٦
وكان رقيق القلب: لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم.	٧٨	١٣٦
وكان دائم الإطراق: أتيت النبى ﷺ وأصحابه كأنما على رءوسهم الطير: لأصحاب السنن من حديث أسامة بن شريك.	٧٩	١٣٦

الحديث	مسلسل	الصفحة
وكان رحيما بكل مسلم: حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم.	٨٠	١٣٦
لم يتجشأ قط من شبع: عن ابن عمر ﷺ، فقال: كف عنا جشاءك فإن أكثرهم شبعا فى الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة. رواه الترمذى وابن ماجه والبيهقى من رواية يحيى البكاء عنه، وقال الترمذى: حديث حسن، وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: إن أهل الشبع فى الدنيا هم أهل الجوع فى الآخرة، رواه الطبرانى بإسناد حسن، ورواه البزار عن أبى جحفة ﷺ بإسنادين رواة أحدهما ثقات.	٨١	١٣٦
ولا مد يده إلى طمع، بل كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر: وقالت عائشة ﷺ: كان رسول الله ﷺ أجود من الريح المرسل، فى الصحيحين عن ابن عباس كان أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان، وفيه: فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة. ووهب رسول الله ﷺ ما بين جبلين من الغنم لرجل واحد، فرجع ذلك الرجل إلى قبيلته فقال: إن محمدًا ﷺ يعطى عطاء من لا يخشى الفقر: الإمام أحمد، ومسلم عن أنس.	٨٢	١٣٦
ولم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا بالأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح: رواه الترمذى عن عائشة وصححه.	٨٣	١٣٦

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
وكان رسول الله ﷺ يأكل على الأرض:	٨٤	١٣٧
عن ابن عباس رضي الله عنهما.		
وكـان رسول الله ﷺ يجلس عـلى الأرض، ويجيب دعـوة المملوك على خبز الشعير:	٨٥	١٣٧
رواه الطبراني.		
ويلبس العباء:	٨٦	١٣٧
رواه الحاكم وصححه عن أنس وابن ماجه.		
وأكل خشنًا ولبس خشنًا:	٨٧	١٣٧
وفيه يوسف بن أبى كثير عن نوح بن ذكوان.		
ويجالس المساكين، ومجالسـته ﷺ للفقراء ثابتة، كما أمره ربه تبارك وتعالى.	٨٨	١٣٧
وروى أبو داود من حديث أبى سعيد: مجالـسته للفقراء ليعدل بنفسه فيهم: وابن ماجه من حديث خباب: كان رسول الله ﷺ يجلس معنا		
ويمـشى فى الأسواق، وهذا ثابـت فى الكتاب، وحـديث أبى هريرة فى دخوله السوق وحمله السراويل:	٨٩	١٣٧
رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو يعلى.		
وكان ﷺ إذا دخل السوق قال: «اللهم إنى أسألك من خير هذه السوق وخير ما فيها» الحديث:		
الطبرانى والحاكم عن بريدة، وسنده صحيح.		
ويتوسد يده:	٩٠	١٣٧
وكان إذا عرس وعـليه ليل توسد يمينه، وإذ عـرس وعليه ليل وضع رأسه على كفه اليمنى وأقام ساعده:		

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
الإمام أحمد وابن حبان والحاكم عن أبى قتادة ـ صحيح.		
ويقتص من نفسه:	٩٢	١٣٧
وحديث عكاشة بن محصن ثابت فى الصحاح.		
ولم يُرَ ضاحكا ملء فيه:	٩٣	١٣٧
وقد تقدم أن ضحكه ﷺ كان التبسم، وفيه حديث عائشة ﵂: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا حتى أرى لهواته إنما كان يتبسم.		
ولم يأكل وحده قط:	٩٤	١٣٧
حديث أنس: كان رسول الله ﷺ لا يأكل وحده الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف.		
ولا ضرب عبده قط:	٩٥	١٣٧
متفق عليه من حديث عائشة.		
ما ضرب رسول الله ﷺ خادما ولا امرأة قط، أبو داود عن عائشة.		
ولا ضرب أحدًا بيده إلا فى سبيل الله عز وجل:	٩٦	١٣٧
متفق عليه من حديث عائشة		
ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادما إلا أن يجاهد فى الله عز وجل وما نيل منه شىء قط فينتقم من صاحبه إلا إن انتهك شىء من محارم الله فينتقم لله عز وجل.		
وكان لا يجلس متربعًا ولا يأكل متكئًا ويقول: آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد.	٩٧	١٣٧
كان لا يأكل متكئًا، الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو		

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد. ابن سعد وأبو يعلى، وابن حبان والحاكم فى التاريخ عن عائشة رضي الله عنها.		
وروى عنه ﷺ أنه شد الحجر على بطنه من الجوع ولو سأل ربه أن يجعل له أبا قبيس ذهبا لأجابه: متفق عليه من حديث جابر، وروى الترمذى من حديث أبى طلحة شكونا إلى النبى ﷺ الجوع ورفعنا ثيابنا عن حجر إلى بطوننا فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين.	٩٨	١٣٧
وحمل رسول الله ﷺ أصحابه إلى أبى الهيثم بن التيهان مالك والترمذى ومسلم عن أبى هريرة.	٩٩	١٣٧
ودعاه رجل وخمسة معه فلم يدخل السادس إلا بإذنه: عن أبى مسعود رضي الله عنه، أخرجه الشيخان والترمذى.	١٠٠	١٣٧
لبس ﷺ منديلا له علم ثم رمى به: متفق عليه، فى حديث عائشة.	١٠١	١٣٧
وسئل عن الصلاة فى ثوب واحد فقال: أو كلكلم يجدثو بين؟ مالك، والشيخان، والترمذى، وأبو داود عن أبى هريرة.	١٠٢	١٣٧
إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد: الحاكم، من حديث جرير، وقال: صحيح على شرط الشيخين.	١٠٣	١٣٧
لا تفضلونى على يونس بن متى: لا ينبغى لعبد أن يقول: أنا خير من يونس ابن متى، للشيخين، وأبى داود ابن عباس ونقله الشيخان عن أبى هريرة	١٠٤	١٣٧

الحـــــديــــــث	مسلسل	الصفحة
وهو فى الصحيح عن عبد الله بن جعفر عن عبد الله بن مسعود وذلك قبل أن يعلم أنه أفضل الخلق وقد ثبت ذلك عنه.		
أنا سيد ولد آدم يوم القيامة:	١٠٥	١٣٧
مسلم، وأبو داود عن أبى هريرة، وأحمد، والترمذى وابن ماجه، عن أبى سعيد، سيادة ولا فخر.		
أنى لأعطى أقوامًا إلخ. . . :	١٠٦	١٣٧
الشيخان، والإمام أحمد، والنسائى عن سعد.		
أول من يدخل الجنة فقراء الأنصار، الشعثة رءوسهم الدنسة ثيابهم:	١٠٧	١٣٧
عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ، رواه أحمد والبزار، ورواتهما ثقاة، وابن حبان فى صحيحه وفيه الفقراء المهاجرون، عن ثوبان، رواه الطبرانى فى الصحيح، وفى الترمذى وابن ماجه نحوه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.		
مالى وللدنيا:	١٠٨	١٣٧
رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه، والبيهقى عن عباس، والترمذى عن عبد الله بن مسعود، وقال: حسن صحيح وابن ماجه.		
ليكن بلغة أحدكم كزاد الراكب:	١٠٩	١٣٨
رواه أبو يعلى والطبرانى عن حباب بإسناد جيد، والبيهقى فى الشعب عنه، وروى الحاكم وابن حبان فى صحيحه نحوه من حديث سلمان، ورواه ابن ماجه ورواته ثقات احتج بهم الشيخان إلا جعفر ابن سليمان احتج به مسلم وحده، وعن عائشة ﵂،		

الحديث	مسلسل	الصفحة
قال رسول الله ﷺ : إن أردت اللحوق بى فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، رواه الترمذى والحاكم.		
يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف وخمسمائة عام: الترمذى، وابن حبان فى صحيحه، وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.	١١٠	١٣٨
أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل: رواه الترمذى، قال: حسن صحيح، وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن سعد بن أبى وقاص، والإمام أحمد والنسائى، وابن ماجه والدرامى من حديث عاصم ومالك وآخرين؟ وابن حبان والحاكم وصححاه، والطبرانى من حديث فاطمة والحاكم عن أبى سعيد.	١١١	١٣٨
قال رجل للنبى ﷺ : إنى أحبك: رواه الطبرانى عن كعب بن عجرة، وقال الحافظ المنذرى: قال شيخنا الحافظ أبو الحسن: إسناده جيد وعن عبد الله بن مغفل ﷺ قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله إنى أحبك، قال: والله إنى لأحبك، ثلاث مرات فقال: إن كنت تحبنى فأعد للفقر تجفافًا فإن الفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى منتهاه، أخرجه الترمذى وقال: حديث حسن غريب.	١١٢	١٣٨
حبب إلى من دنياكم ثلاث: رواه الإمام أحمد والنسائي والحاكم والبيهقى عن أنس من غير لفظ «ثلاث»، وسنده حسن، قال الحافظ العراقى: بسند جيد وضعفه العقيلى.	١١٣	١٣٨
أنتم أعلم بدنياكم:	١١٤	١٣٨

الحـــــديــــــث	مسلسل	الصفحة
مسلم عن أنس وعائشة		
لم يضع رســـول الله ﷺ لبنة على لبنـة إلى أن خـرج من الدنيا وكان يقول: عريشًا كعريش أخي موسى:	١١٥	١٣٨
ابن حبــان في الثقــات عن الحسن مـرسلا، مــات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة، وأبو نعيم في الـحلية، والطبراني في الأوسط عن عـائشة بعض حـديث وإسناده ضعـيف، وأخرج المخلص في فوائده، وابن النجار عن أبي الدرداء: عريشا كعريش موسى تمـام، وخشـبيـات والأمر أعجل من ذلـك، وأخرج الدار قطني في الأفراد من حـديث أبي الدرداء، وقال: غـريب أن سئل أن يكحل المسجد فقال: لا عريش كعريش أخي موسى.		
وخرج رسول الله ﷺ، من الدنيا ودرعـه مرهونة على صاع من شعير:	١١٦	١٣٨
البخاري، ومسلم، والترمذي، عن عائشة		
توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين، وعن البيهقي بثلاثين صاعا من الشعير، والترمذي والنسائي والبيهقي عن ابن عباس بعشرين صاعا من طعام أخذه لأهله، وسنده حسن، ولم يترك ولا درهما، مسلم عن عائشة.		
ولم يقم له ميزان:	١١٧	١٣٨
ما ترك دينارًا ولا درهما ولا شاة ولا أجيرًا:	١١٨	١٣٨
مسلم، عن عائشة		
لم يوجد في بيته أثاث:	١١٩	١٣٨
الشـيخـان عن عائشـة ﵂، كان فـراشه أدمـا حشـوه ليف،		

الحديث	مسلسل	الصفحة
والشيخان عن عمر، أنه كان ينام على سرير مرمول بشريط حتى يؤثر فى جنبه. وقال: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدق، لمالك والشيخان والترمذى وأبى داود عن ابن بكر، وعمر، وعثمان، وطلحةوالزبير، وسعد، وأبى هريرة، وعائشة.		
وكان يقبل الهدية، ولا يأكل الصدقة: متفق عليه من حديث أبى هريرة، والإمام أحمد، والطبرانى عن عائشة، وأبى هريرة.	١٢٠	١٣٨
ما أوحى الله تعالى إلىَّ أن أجمع المال وأكون تاجرًا: ابن عدى من حديث ابن مسعود، ولأبى نعيم، والخطيب فى التاريخ، والبيهقى فى الزهد من حديث الحارث بن سويد فى أثناء الحديث: لا تجمعوا ما لا تأكلون.	١٢١	١٣٨
حديث عائشة رضي الله عنها ذبحنا شاة فتصدقنا بها حتى لم يبق إلا كتفها: الترمذى: عن عائشة، وقال: حسن صحيح.	١٢٢	١٣٩
إن الله يحب مكارم الأخلاق، ويكره سفسافها، إن الله يحب معالى الأمور، ويبغض سفسافها: الحاكم من حديث سهل بن سعد، وابن ماجه، وأبو نعيم، والطبرانى عن سهل،إن الله كريم يحب الكريم، ويحب معالى الأخلاق، ويكره سفسافها، وبمعناه الطبرانى عن الحسن ابن على رضي الله عنه، والبيهقى من حديث سهل متصلا، ومن رواية طلحة بن عبيد الله ابن كريز مرسلا، ورجالهما ثقات ذكره الحافظ العراقى.	١٢٣	١٣٩

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
بعثت لآتى بمكارم الأخلاق: مكرر عن ٤٩.	١٢٤	١٣٩
كان متواصل الأخزان دائم الفكرة:	١٢٥	١٣٩
الطبرانى فى الكبير عن الحسن بن على سألت خالى هند بن هالة، وكان لصدره أزيز كـأزيز المرجل: عن مطرف عن أبيه أبو داود، والنسائى، وابن حـزين، وابن حبان، ولصـدره أزيز كأزيز الرحى، ولبعضهم: ولجوفه أزيز كأزيز المرجل، عن عبد الله ابن الشخير أبو داود، والترمذى فى الشمائل، والنسائى.		
صلى حتى تورمت قدماه:	١٢٦	١٣٩
الشـيخان، والنـسائى، والتـرمذى عن المـغيـرة بن شعـبة، والشيخان عن عائشة، حتى تنفطر قدماه: والبزار عن أبى هريرة.		
كان يعطى من حرمه، ويصل من قطعه، ويعفو عن من ظلمه:	١٢٧	١٤٠
البخـارى عن عبد الله بن عمـرو بن العاص: ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالشـيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح.		
أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم من ترك مالا لورثته الخ:	١٢٨	١٤٠
الإمام أحـمد ، والشـيخـان، والنسائى، وابن مـاجه عن أبى هريرة.		
اللهم إنى بشر أغضب كما يغضب البشر:	١٢٩	١٤٠
الشيخان عن أبى هريرة، وأحمد، ومسلم عن جابر.		
حديث أنس خدمت رسول الله ﷺ الخ:	١٣٠	١٤٠
الشيخان، وأبو داود، والترمذى.		
عفوه عن أهل مكة حين فتحها:	١٣١	١٤٠

الحديث	مسلسل	الصفحة
النسائى عن أبى هريرة رضي الله عنه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، الحديث وفيه: فجاء فأخذ بعضادتى الباب ثم قال: يا معشر قريش ما تقولون؟ قالوا: نقول ابن أخ وابن عم رحيم كريم ثم أعاد عليهم القول فقالوا مثل ذلك، فقال: إنى أقول كما قال أخى يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لى ولكم وهو أرحم الراحمين: ولابن سعد من طريق الزهرى عن بعض آل عمر بن الخطاب، وأخرج نحوه حميد بن ريخونة فى كتاب الأسوان عن طريق ابن أبى حسين، وأخرجه عبد الرازق فى الجامع عن ابن عمر يا معشر قريش: ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم، قال اذهبوا فأنتم الطلقاء.		
إنى بعثت بالحنيفية السمحاء:	١٣٢	١٤١
رواه أحمد بإسناد حسن عن عائشة، وترحم البخارى «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» والخطيب عن جابر: بعثت بالحنيفية السمحة.		
وكان يحب الحلو البارد:	١٣٣	١٤١
كان أحب الشراب إليه الحلو البارد، الإمام أحمد، والترمذى، والحاكم عن عائشة.		
إنما أنسى لأسن:	١٣٤	١٤١
مالك بلاغًا، وهو من الأحاديث الأربعة فى الموطأ التى لم يجدها ابن البر موصولة، ووصلها ابن الصلاح.		
حديث حارثة: لكل حق حقيقة، تقدم فى حديث ٨	١٣٥	١٤٣
احفظ الله يحفظك، الترمذى عن ابن عباس:	١٣٦	١٤٣

الحـــــــديـــــــث	مسلسل	الصفحة
أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك: مسلم، ومالك، وأبو داود، والنسائى، والترمذى.	١٤٢	١٥٤
أصدق كلمة قالتها العرب: الشيخان عن أبى هريرة وابن ماجه أعوذ برضاك من سخطك، انظر ٩٩.	١٤٣	١٥٨
لو تعلمون ما أعلم، مكرر ١٦. أنا أعلمكم بالله، مكرر ٥١.	١٤٤	١٥٩
اللهم اكفلنى كفالة الوليد؟ وجهت وجهى إليك علمها النبى ﷺ لبعض أصحابه للشيخين من حديث البراء. اللهم امتعنى بسمعى وبصرى: الترمذى، والحاكم عن أبى هريرة.	١٤٥	١٦٠
لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين: الحاكم من حديث أنس قال صحيح على شرط الشيخين، وهو فى اليوم والليل، وعلمه ﷺ لا بنته الزهراء رضي الله عنها.	١٤٦	١٦٠
واكرباه عند موت النبى ﷺ: عن أنس أن فاطمة رضي الله عنها قالت: واكرب أباه فقال ﷺ: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، فى الصحيح.	١٤٧	١٦٠
أنا سيد ولد آدم. تقدم فى حديث ٧٣.	١٤٨	١٦١
أستغفروا الله وتوبوا إليه فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة. وقال حذيفة: كنت ورب اللسان على أهلى فقلت يا رسول الله	١٤٩	١٦١

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
لقد خشيت أن يدخلني لساني النار، فقال النبي ﷺ: فإين أنت من الاستغفار؟ فإني لأستغـفر الله في اليوم مائة مرة وعزاه الحافظ العراقي للنسائي في اليوم والليلة والبيهقي.		
ورواه الحاكم، وقال صحيح على شرط الشيخين: ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت الله فيها مائة مرة.		
للطبراني عن أبي موسى، ما أصبـحت غداة قط إلا استغفرت الله تعالى مائة مرة؟.		
وعن أغرمزينة ﷺ قال: قال رسول الله: إنه ليغان على فلبي حتى أستغـفر الله تعالى في اليوم والليل مائة مـرة، أخرجه مسلم وأبو داود.		
وفي رواية لمسلم: فولوا إلى ربكم، فوالله إني لأتوب إلى الله ربي تبارك وتعالى في اليوم مائة مرة.		
رحم الله أخي عيسى عليه السلام تقدم في حديث ٣٩.	١٥٠	١٦١
لي مع الله وقت لا يسعني فيه معه شيء:	١٥١	١٦١
من رسالة القـشيري لي وقت لا يسـعني فيه غيـر ربي، معناه صحيح ولكن السند لا يعرف.		
ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن:	١٥٢	١٦١
قال الحافظ العراقي: لم أر له أصلا.		
إن لله أواني في أرض وهي القلوب:	١٥٣	١٦١
إسناده جيد.		
حديث عـائشة: انتـبهت ليلة فلم أجـد رسول الله ﷺ في فراشه:	١٥٤	١٦١

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
البيــهقى من طريق العلا عن عــائشة، وقال: هذا مرسل جــيد العلا، لم يسمع من عائشة.		
أطيب ما أكل الرجل من كسب يده:	١٥٥	١٦٢
أطيب الكسب عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور:		
رواه أحمــد والطبرانى والحاكم عن رافع بن جــريح والطبرانى عن ابن عمر.		
جعل رزقى تحت ظل رمحى:	١٥٦	١٦٢
أحمد من حديث ابن عمر وسنده صحيح.		
لو توكلتم على الله حق توكله:	١٥٧	١٦٢
الإمام أحمد والترمذى والحاكم وصححه من حديث عمر وابن ماجه: لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله.		
اعبد الله كأنك تراه:	١٥٨	١٦٣
تقدم ٣١و ٣٧.		
جبل ولى الله:	١٥٩	١٦٣
ما جبل ولى الله إلا على السخاء.		
الذهبى عن عائشة مرفوعا بسند صحيح.		
إن النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت؟	١٦٠	١٦٤
حبك الشىء يعمى ويصم:	١٦١	١٦٤
قال الحــافظ ابن حجر تبعًــا للعراقى وبكعب سكوت أبو داود عنه فليس بموضــوع ولا بشديد الضعف فهــو حسن رواه أبو داود عن أبى الدرداء مرفوعًا، ورواه الإمام أحمــد موقوفًا عنه والخرانطى فى إعلال الهكوب عن ابن رزه وابن عساكر عن عبد الله ابن أنيس		

الحديث	مسلسل	الصفحة
صوم، ما فضلكم: قال الحافظ العراقى: لم أجده مرفوعًا وهو عند الحكيم الترمذى وأبى يعلى عن عائشة، وقال فى النوادر إنه من قول بكر بن عبد الله المزنى ما فاق أبو بكر أصحاب.. الخ.		
يا بنى آدم قوموا إلى ناركم التى أوقدتموها فأطفئوها:	١٨٠	١٧١
عن أنس عن النبى ﷺ: إن لله ملكا ينادى عند كل صلاة: يا بنى آدم قوموا إلى نيرانكم التى أوقدتموها على أنفسكم فأطفئوها.		
الطبرانى فى الأوسط والصغير وقال ثور بن يحيى بن أزهر القرشى قال الحافظ الهيثمى: ولم أجد من ذكره إلا أن روى عن أزهر بن سعد السمان وروى عن يعقوب بن إسحاق المخرمى وبقية رجاله رجال الصحيح.		
تقايؤه طعام الشهية:	١٨١	١٧١
البخارى عن عائشة، وأحمد عن ابن سيرين، فى الزهد		
النار أولى بما نبت من حرام:	١٨٢	١٧١
الترمذى وابن حبان من حديث كعب بن عجرة: كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به، البيهقى وأبو نعيم عن أبى بكر.		
وددت أن أكون خضراء تأكلنى الدواب:	١٨٣	١٧١
وأخرج أحمد عن قتادة قال: بلغنى أن أبا بكر قال: وددت أنى خضرة تأكلنى الدواب.		
ثلاثة آيات من كتاب الله اشتغلت بهن:	١٨٤	١٧١
يا سارية الجبل الجبل:	١٨٥	١٧١
البيهقى فى الدلائل واللالكائى فى شرح السنن والزين الفعولى		

الحديث	مسلسل	الصفحة
فى فوائده وابن الأعرابى فى كرامات الأولياء عن ابن عمر وهكذا وذكره حرملة فى جمعه حديث ابن وهب قال الحافظ ابن حجر: وهو إسناد حسن والخطيب فى رواة مالك وأبو نعيم فى الدلائل عن عمرو ابن الحارث.		
رأيت على عمر اثنتى عشرة رقعة:	١٨٦	١٧٣
عن أنس ﷺ: رأيت عمر ﷺ وهو يومئذ أمير المؤمنين وقد رقع بين كتفيه برقاع ثلاث لبد بعضها على بعض، رواه مالك.		
قول عمر: رحم الله امرىء أهدى إلى عيوبى:	١٨٧	١٧٣
الشيطان يفرق من ظل عمر:	١٨٨	١٧٣
الشيخان عن سعد بن أبى وقاص قال رسول الله ﷺ: يا بن الخطاب والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجًا قط إلا سلك فجًا غير فجك، وأخرج الترمذى عن عائشة قال رسول الله ﷺ: إنى لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فروا من عمر، وأخرج أحمد عن طريق بريدة قال ﷺ: إن الشيطان ليفرق منك يا عمر، وابن عساكر عن عائشة مرفوعًا إن الشيطان يفرق من عمر.		
قوله رضى الله تعالى عنه: من خاف الله تعالى لم يشف غيظه:	١٨٩	١٧٣
ما ابتليت ببلية إلا كان لله علىَّ فيها أربع نعم:	١٩٠	١٧٤
شكا إليه رجل الفقر فقال عندك بما شاء ليلتك:	١٩١	١٧٤
روى مسلم عن عبد الله بن عمر بن العاص نحوه من قول عبد الله بن عمر.		

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
دعى إلى وليمة فرجع:	٢٢٤	١٨٦
أبو عبيدة الجراح:	٢٢٥	١٨٦
عبد الله بن مسعود:	٢٢٦	١٨٧
أبو نعيم فى الحلية.		
البراء بن مالك:	٢٢٧	١٨٧
ترنم البـراء بالشعر، رواه الطبرانى عنه أنس، ورجـاله رجال الصحـيح والحاكم عن أنس على شرط الشـيخيـين وأقره الذهبى فإنما كـان يوم شهدك الملك بسند أخرجه الحاكم وقـال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى.		
عبد الله بن عباس:	٢٢٨	١٨٧
حديث الحارث بن مالك:	٢٢٩	١٨٨
تقدم عدد ٨.		
عن أبى هريرة ﷺ أنه رأى رجـلا يجر إزارا وجعـل يضرب الأرض برجله وهو أمير على البحرين فقال له: قال النبى ﷺ: إن الله لا ينظر يوم القيامة إلـى من جر إزاره بطرا قال: وكان أبو هريرة يسـتخلف على المـدينة فيأتى بـحزمة الحطب عـلى وظهره فيشق السوق ويقول: طرقو للأمير، حتى ينظر الناس إليه.	٢٣٠	١٨٨
لمالك والشيخين بلفظ مسلم.		
قـول أنس: إن أول من يرد الحـوض يوم القـيـامـة الذابلون الناحلون، أول الناس ورودًا عليه فقراء المـهاجرين الشعث رءوسا الدنس ثيابا.	٢٣١	١٨٨
الترمذى وابن مـاجه والحاكم وقال: صحـيح الإسناد البخارى عنه من ثوبان ﷺ عن النبى ﷺ.		

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
عن عبد الله بن عمر كنت شابا عزبًا أنام فى المسجد وعن أبى سعيد الخدرى عنه ﷺ : لا تصحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقى، رواه أبو داود والترمذى.	٢٣٢	١٨٨
حذيفة بن اليمانى: أبو نعيم فى الحلية.	٢٣٣	١٨٨
عبد الله بن جحش. الطبرانى فى الكبير عن سعد بن أبى وقاص.	٢٣٤	١٨٩
صفوان بن محرز المازنى.	٢٣٥	١٨٩
أبو فروة.	٢٣٦	١٨٩
أبو بكرة.	٢٣٧	١٨٩
عبد الله بن رواحة.	٢٣٨	١٨٩
تميم الدارى.	٢٣٩	١٨٩
عدى بن حاتم.	٢٤٠	١٨٩
كل مخموم القلب صدوق اللسان، قلنا: يا رسول الله أى الناس خير؟ قال: كل مؤمن مخموم القلب صدوق اللسان، قلنا: يا رسول الله فمن على أثره؟ قال: الذى يشنأ الدنيا ويحب الآخرة. قال الحافظ العراقى: قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب؟ قال: النقى التقى إلخ، أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بسند صحيح دون قوله يا رسول الله فمن على أثره، ورواه بهذه الزيادة الخرائطى فى مكارم الأخلاق.	٢٤١	١٩٠
محمد بن كعب.	٢٤٢	١٩٠

الحـــــديــــــث	مسلسل	الصفحة
ضيف رسول الله ﷺ : ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. البخـارى عن أبى هريرة والبخارى ومـسلم والنسائى من طرق عن فضل بن غزان وفى رواية لمسلم تسـميه الأنصارى بأبى طلحة رضي الله عنه .	٢٥٢	١٩٢
أهدى لرجل من أصحـاب رسول الله ﷺ رأس شاة فـقال: إن أخى كان أحوج إليه منى. ابن كثير ذكر فى غزوة اليـرموك أن عكرمة آثر أصحابه بالماء وهو جريح.	٢٥٣	١٩٢
ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن. الترمذى والحاكم عن عمرو بن سعيد بن العاص، قال الترمذى: حسن غريب مرسل ورواه الطبرانى عن ابن عمر بسند ضعيف.	٢٥٤	١٩٤
إن الله أدبن فأحسن تأديبى مكرر	٢٥٥	١٩٤
إن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يتـوضئون وضوء إلا بلت التـراب، أخرج أبو داود فى سننه عن ذى مخـبـر الحشـتى فى حديث نـومهم عن صلاة الـصبح فى الوادى، قـال فتوضـأ النبى ﷺ وضوءًا لم يلت منه التراب ثم أسر بلالا فأذن، قال الحافظ ابن حجر إسناده صحيح.	٢٥٦	٢٠١
ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها. قال الحافظ العراقى: لم أجده مرفـوعا، وروى محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة من رواية عـثمان بن دهرش مرسلا «لا يقبل الله من عبد عملا حتى يشهد قلبه مع بدنه» ورواه أبو منصور	٢٥٧	٢٠٥

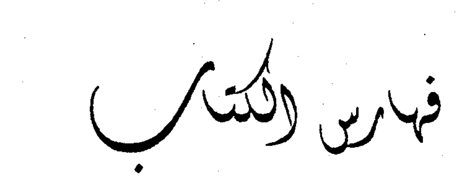
الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب ولابن المبارك في الزهد مرفوعا على عمار «لا يكتب للعبد من صلاته ما سها عنه» وعن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: القلوب أواعية وبعضها أوعى من بعض فإذا سألتم الله عز وجل يا أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب، قال الحافظ المنذري: رواه أحمد بإسناد حسن ونحوه للحاكم عن أبي هريرة.		
لا يزال العبد في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه:	٢٥٩	٢٠٨
البخاري ومسلم عن أبي هريرة وعن أنس عنه ﷺ: صلى الناس ورقدوا ولم تزالوا في صلاة منذ انتظرتموها، رواه البخاري.		
الإمام ضامن:	٢٦٠	٢٠٨
الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن.		
رواه ابن حبان في صحيحه عن عائشة، وأبو داود والترمذي، وابن خزيمة، عن أبي هريرة، ورواه ابن حبان في صحيحه عن عائشة رواه أحمد من حديث أبي أمامة بإسناد حسن، وابن ماجه والحاكم عن سهل بن سعد، الإمام ضامن فإن أحسن فله ولهم وإن أساء فعليه ولا عليهم.		
الصف الأول:	٢٦١	٢٠٨
أخرج أحمد عن أبي أمامة: إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول، رواه أحمد بإسناد لا بأس به، وأحمد وابن خزيمة عن البزار ابن عازب بسند جيد، والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: لو علم الناس.		

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام: مكرر ٧٨	٢٨٠	٢٩٢
تنام عيناى ولا ينام قلبى:	٢٨١	٢٩٤
إن عينى تنامان ولا ينام قلبى: الشيخان عن عائشة ﵂.		
إنما أنسى لأسن: مكرر ١٨.	٢٨٢	٢٩٤
مالك فى الحرثى وهو أحد الأحاديث الأربعة التى لم يجدها ابن عبد العزيز موصولة ووصلها ابن الصلاح.		
إنى أظل عند ربى يطعمنى ويسقينى: مكرر ٤٦.	٢٨٣	٢٩٤
اتقوا فراسة المؤمن: مكرر ١٢٣.	٢٨٤	٢٩٤
إنما الناس كالإبل الهائمة لا تكاد تجد فيها راحلة:	٢٨٥	٢٩٨
الشيخان والترمذى، وله فى رواية: لا نجد فيها إلا راحلة.		
ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت.	٢٨٦	٣٣٨
الترمذى فى الشمائل عن قتادة، وزاد قوله: وكان نبيكم حسن الصوت، قال الحافظ العراقى: ورويناه متصلا فى الغيلانيات من رواية قتادة عن أنس والصواب والأول، ورواه ابن مروويه فى التفسير من حديث على بن أبى طالب وطرقه كلها ضعيفة.		
ما أذن الله بشىء كإذنه انبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به: الشيخان وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة.	٢٨٧	٣٣٨
لله أشد إذنا للرجل حسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته: أحمد وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه عن حديث فضالة ابن عبيد والبيهقى.	٢٨٨	٣٣٨
حسن صوت داود عليه السلام:	٢٨٩	٣٣٨
قال الحافظ العراقى: لم أجد له أصلا.		

الحديث	مسلسل	الصفحة
وإن من الشعر لحكمة: مكرر ٢٩٩.	٣١١	٣٥٦
القرآن كلام الله منه بدا وإليه يعود: قال الحافظ السيوطى فى اللآلىء المصنوعة: أخرج البخارى فى خلق أفعال العباد قال حدثنا الحاكم بن محمد الطبرى كتبت عنه بمكة قال حدثنا شعبان بن عتبة قال أدركت أصحاب النبى ﷺ فمن دونهم منذ سبعين سنة يقولون: الله خالق وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود، وقال رسول الله ﷺ إنكم لا ترجعون إلى بشىء أفضل مما خرج منه، يعنى القرآن، رواه الحاكم وصححه ورواه أبو داود.	٣١٢	٣٥٦
هكذا كنا حتى قست القلوب:	٣١٣	٣٦٥
من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. أحمد وأبو يعلى والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة وأحمد عن الحسين بن على والعسكرى عن على وبعده وأوضحه الشيخان فى تخريج الأربعين.	٣١٤	٣٧٣
وفى الحديث أن النبى ﷺ قرأ ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا﴾ فصعق.	٣١٥	٣٧٧
إذا دخلتم على هؤلاء المعذبين. أخرج البخارى فى الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم ثم قنع رأسه حتى أجاز الوادى، وفى رواية للإمام أحمد، إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم.	٣١٦	٣٧٨

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
الدنيا ملعونة ملعون ما فيها: مكرر «١١٠».	٣٥٩	٤٨٥
لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة: مكرر «٢٨».	٣٦٠	٤٨٥
«لو بقيتم» حديث حنظلة مكرر «١٩٧».	٣٦١	٤٩٠
تقول جهنم يوم القيامة: جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى: الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية عن يعلى بن منبه وعن جابر بن عبد الله: لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين بردًا وسلاما كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار، أو قال: لجهنم ضجيجا من بردهم ثم ينجى الذين اتقوا ويذر الظالمين، رواه أحمد ورواته ثقات، واليهقى بإسناد حسن.	٣٦٢	٤٩١
بحمد الله لا بحمدك: فى الصحيح عن عائشة.	٣٦٣	٥١٣
من صلى على الله واحدة صلى الله عليه عشرا: رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة، ورواه أحمد والبخارى وأبو داود والترمذى والنسائى والحاكم عن أنس: من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشر صلوات، ورواه أحمد عن ابن عمر بلفظ: من صلى على صلاة صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة فليقل عند ذلك أو ليكثر، ورواه النسائى بمعناه عن أبى طلحة.	٣٦٤	٥١٣
سل تعط، حديث الشفاعة: فى الصحيحين والسنن والمسانيد عن أنس وأبى بكر وابى هريرة وغيرهم، وهو حديث متواتر.	٣٦٥	٥١٤
اللهم اجعل من فوقى نورا:	٣٦٦	٥١٥

الحـــــديـــــث	مسلسل	الصفحة
هؤلاء منهم، عن سعيد بن زيد ﷺ سمع من يسب عليا ﷺ بحضرة بعض الأمراء فقال: ألا أرى أصحاب النبى ﷺ يسبون عندكم ثم لا تنكروا ولا تغيروا؟ سمعته ﷺ يقول: وإنى لغنى أن أقول عنه مالم يقل فيسألنى عنه غداً إذا لقيته، أبو بكر فى الجنة وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وطلحة فى الجنة وزيد فى الجنة والزبير فى الجنة، وأبو عبيده الجراح فى الجنة، وسكت عن العشر، قالوا: ومن هو العاشر؟ قفال: سعيد بن زيد ـ يعنى نفسه ـ ثم قال: والله لمشهد رجل منهم مع النبى ﷺ يغبر فيه وجهه خير من عمل أحدكم ولو عَمر عُمر نوح:		
رواه أبو داود والترمذى.		
الحلال بيِّن والحرام بيِّن:	٣٧٦	٥٣٩
الشيخان وأصحاب السند عن النعمان بن بشير.		
ليس الخبر كالمعاينة: مكرر «٤١».	٣٧٧	٥٤٦
اعبد الله كأنك تراه: مكرر «٣١».		٥٤٥
إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله ﷺ: مكرر «٢٩٣».		٥٤٧





الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــــــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

رقم الإيداع	٩٨ / ١١٦٨٠
الترقيم الدولى I. S. B. N	977 - 5250- 35 - 8